

التدريج

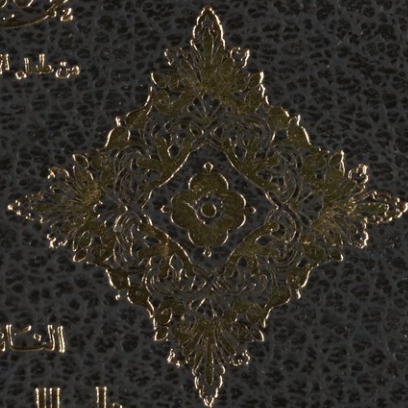
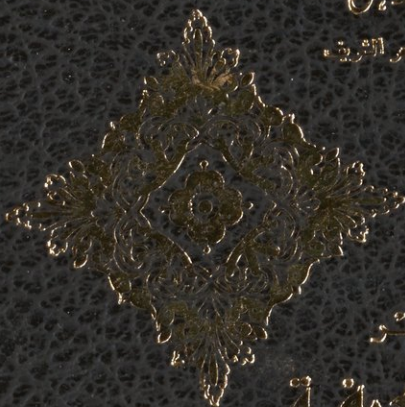
في أقسام القرآن

للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الترمذي

صحة وطول مراتب الترتيب إلى الله تعالى

مطبعة المطبعة

من طبع في المطبعة



الناشر

دار المصطفى

للطباعة والنشر

بمكة - جدة

yo-968349

alt-

6-c



BOBST LIBRARY

3 1142 02172 9283

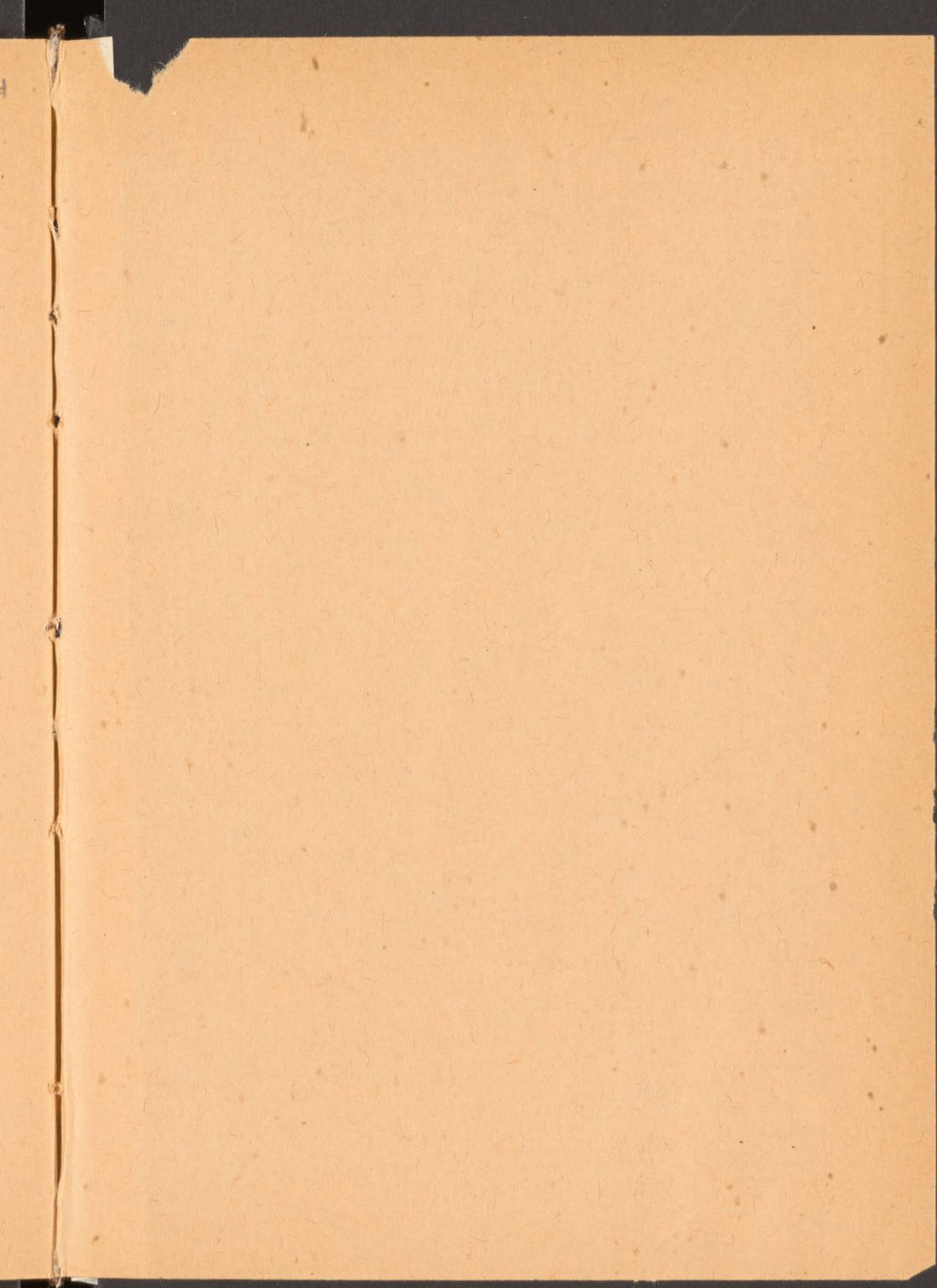


New York University
Bobst Library
70 Washington Square South
New York, NY 10012-1091

DUE DATE	DUE DATE	DUE DATE
RETURNED DUE DATE NOV 19 2014 BOBST LIBRARY CIRCULATION BOBST LIBRARY CIRCULATION		

Y0-968349

التَّبَيَّانُ



Ibn Qayyim al-Jawziyyah Muhammad
" ibn Abi Bakr

التَّبَيَّنَاتُ

فِي أَقْسَامِ الْقُرْآنِ

لِلْعَلَامَةِ شَمْسِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الْمَعْرُوفِ بِابْنِ قَيِّمٍ الْجُوزِيِّ الْمُتَوَفَى سَنَةَ ٧٥١

صَحِّحَهُ وَعَلَّقَهُ هُوَ أَمَشَةُ الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى

مُحَمَّدُ حَايِدُ الْفَقِيِّ

مِنْ عُلَمَاءِ الْأَزْهَرِ الشَّرِيفِ

Tibyan fī aqsām al-Qur'ān

الناشر

دار المعرفة

للطباعة والنشر

بيروت - لبنان

BP

130

.4

. I285

1933

﴿ فهرست كتاب التبيان في أقسام القرآن للعلامة ابن القيم ﴾

صفحة	رقم الفصل
٠٠	مقدمة المصحح
١	١ فصل ، ما يقسم الله به
٢	٢ » ما يقسم الله عليه
٨	٣ » إقسامه تعالى على صفة الانسان وعلى الجزء
١٤	٤ » من ذلك قوله تعالى (لا أقسم بيوم القيامة)
١٨	٥ » » » (والشمس وضحاها)
٢٥	٦ » سر ذكره تعالى قصة ثمود
٢٧	٧ » ومن ذلك قوله تعالى (والفجر وليال عشر الخ)
٣٣	٨ » » » » (لا أقسم بهذا البلد)
٤٣	٩ » » » » (والتين والزيتون)
٥٥	١٠ » » » » (والليل إذا يغشى)
٦٩	١١ » معنى قوله (إن علينا الهدى) وتفصيل أنواع الهدى
٧٢	١٢ » ومن ذلك قوله (والضحي والليل)
٧٥	١٣ » » » » (والعاديات ضبحا)
٨٠	١٤ » بيان المقسم عليه في سورة العاديات
٨٣	١٥ » مفعول العلم في قوله (أفلا يعلم إذا بعثر النخ)
» »	١٦ » ومن ذلك قوله (والعصر)
٨٨	١٧ » » » » (والسماء ذات البروج)
١٠٠	١٨ » » » » (والسماء والطارق)
١٠١	١٩ » المقسم عليه في سورة (والسماء والطارق)

صفحة	رقم الفصل
١٠٨	فصل ومن ذلك قوله (فلا أقسم بالشفق والليل وما وسق) ٢٠
١١١	» جواب القسم في هذه الآية ٢١
١١٤	» ومن ذلك قوله (فلا أقسم بالخنس) ٢٢
١١٨	» معني عسيسة الليل وذكر خلاف العلماء فيه ٢٣
١٢٠	» المقسم عليه في قوله (فلا أقسم بالخنس الخ) ٢٤
١٢٨	» صفات القرآن وأنه ذكر عام وخاص ٢٥
١٣٢	» ومن ذلك قوله تعالى (والنازعات غرقا) ٢٦
١٤٢	» » » » (والمرسلات عرفا) ٢٧
١٤٧	» » » » (لا أقسم بيوم القيامة) ٢٨
١٥٦	» جمع الله لأوليائه بين جمال الظاهر والباطن ٢٩
١٥٧	» تضمن سورة القيامة اثبات قدرته تعالى على ما لا يفعله ٣٠
١٥٩	» تضمنها التائي وانتثبت في طلب العلم ٣١
١٦١	» اثبات النبوة والمعاد بالعقل ٣٢
١٦٣	» ومن ذلك قوله (كلا والقمر الخ) ٣٣
١٦٨	» قوله تعالى (والليل اذ أدبر الخ) ٣٤
١٧٢	» المقسم عليه في هذه الآيات ٣٥
١٧٥	» قوله تعالى (فلا أقسم بما تبصرون) ٣٦
١٧٩	» ماتضمنه قوله (تنزيل من رب العالمين) ٣٧
١٩٤	» قوله (فلا أقسم برب المشارق) ٣٨
١٩٦	» قدرته تعالى على تبديل الخلق بخير منهم وتبديل امثالهم ٣٩
	واستبداله قوما غيرهم ووجه الجمع بين هذه الانواع

رقم الفصل	محفظة
٢٠٠	فصل تهديده تعالى للمشرّكين بعد إقامة الحجة عليهم بقوله (فذرهم
	يخوضوا ويلعبوا)
٤١	٢٠١ » قوله (ن والقلم وما يسطرون)
٤٢	٢٠٢ » السر في الاقسام بالقلم
٤٣	٢٠٣ » مراتب الاقلام ، وقلم القدر
٤٤	٢٠٤ » قلم الوحي
٤٥	» » قلم التوقيع عن الله عز وجل
٤٦	٢٠٩ » قلم طب الابدان
٤٧	» » قلم التوقيع عن الملوك ونوابهم
٤٨	» قلم الحساب
٤٩	٢١٠ » قلم الحكم الذي تثبت به الحقوق
٥٠	» » قلم الشهادة
٥١	» » قلم التعبير
٥٢	٢١١ » قلم توارىخ العالم
٥٣	» » قلم اللغة
٥٤	٢١٢ » قلم الرد على المبطلين ، وهو القلم الجامع
٥٥	٢١٣ » المقسم عليه في سورة ن والقلم
٥٦	٢١٩ » قوله (فلا أقسم بمواقع النجوم)
٥٧	٢٢١ » المقسم عليه في هذه الآية وهو القرآن
٥٨	٢٢٥ » وصف القرآن بأنه كريم
٥٩	٢٢٠ » خلاف العلماء في الكتاب المكنون وترجيح انه
	اللوح المحفوظ

صفحة	رقم الفصل
٢٣٠	فصل لا يدرك القرآن الا القلوب الطاهرة
٢٣١	» ما يفيد قوله (تنزيل من رب العالمين)
٢٣٤	» توبيخه تعالى للمشركين لوضعهم الادهان في غير موضعه
٢٣٦	» ختام سورة الواقعة بأحوال القيامة الصغرى
٢٤٠	» طبقات الناس عند الحشر
٢٤٣	» قوله تعالى (والنجم اذا هوى)
٢٤٦	» » (وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى)
٢٤٩	» صفات معلم الوحي
٢٥١	» رؤية الرسول ﷺ كانت لجبريل
٢٥٣	» رؤيته مرة ثانية عند سدره المنتهى
٢٦١	» معنى قوله (ما زاغ البصر وما طغى)
٢٦٢	» أنواع الاستطراد وأمثاله من الكتاب العزيز
٢٦٤	» قوله تعالى (والطور وكتاب مسطور)
٢٧٠	» المقسم عليه في هذه السورة
٢٧٢	» نعم ارباب العلوم النافعة
٢٧٦	» من كمال نعمهم إلحاق ذرياتهم ٢٢
٢٧٨	» قوله تعالى (والذاريات ذروا)
٢٨١	» الكلام على السحاب وجهة دلالة على قدرة الله
٢٨٤	» قوله تعالى (فالمقسمات أمرا) وبيان من هم
٢٨٨	» المقسم عليه وهو قوله (انكم لفي قول مختلف)
٢٩١	» جزاء من خلص من الفتن بالتقوى
٨٠	

صفحة	رقم الفصل
٢٩٣	فصل أحب القيام الى الله
٢٩٥	» آياته تعالى في الآفاق وفي الأنفس
٢٩٧	» اختلاف الآيات في أجناسها وصفاتها ومنافعها
٣٠٣	» السر في تبصير الله تعالى العباد بأنفسهم
٣٠٥	» العينان ووظيفتهما
٣٠٦	» الاذنان وسر شقهما في جانبي الوجه
٣٠٧	» الانف وسر نصبه في وسط الوجه قائما معتدلا
٣٠٩	» الفم وأنه من العجائب
٣١٠	» اللسان والصلة بينه وبين القلب
٣١١	» سر خلقه تعالى اللسان عضوا لا عصب فيه ولا عظم
»	» الاسنان والشفقتان ووظيفتهما
٣١٢	» سر جعل الفم أكثر الأعضاء رطوبة . وفائدة اللعاب
٣١٤	» العبرة من حال الشعر ومناقبه
٣١٦	» الحاجبان وأنها وقاية العين مع الحسن والزينة
٣١٧	» شعر اللحية وأنه زينة ووقار
»	» شعر الانف والابط ومنافعهما
٣١٨	» حكمة الرب تعالى في اخلاء الكفين والجبين من الشعر
٣٢٥	» حال الانسان من مبدئه الى نهايته
٣٢٧	» حرارة الجسد وإلهابها الشهوة والسر العجيب في ذلك
٣٣٤	» الكلام في ماء المرأة وصفته ووظيفته في تكوين الجنين
٣٣٧	» سبب تفاوت مدة الحمل

صفحة	رقم الفصل
٣٣٩	فصل أقل مدة الحمل
٣٤٠	» سبب الاذكار والايثاات ارادة الله وحدها وتنفيد
	ماذهب اليه الطبيعون
٣٤٥	» متى ينفخ الروح فى الجنين ؟
٣٤٩	» أى عضو يتخلق من الجنين قبل الآخر ؟
٣٥١	» هل للجنين حركة واحساس قبل نفخ الروح فيه ؟
٣٥٣	» هل يتكون الجنين من ماءين وواطئين ؟
٣٦٢	» أدوار انتقال النطفة وأطوارها
٣٦٣	» أعضاء الغذاء ثلاثة أقسام
٣٦٤	» الأعضاء القابلة للفضلات: المرارة، والطحال، والكبد
٣٦٦	» وظيفة القلب
»	» للمعدة أربع قوى : جاذبة ، ومنضجة ،
	ومسكة ، ودافعة
٣٦٨	» موضع الكبد من المعدة
٣٦٩	» الحكمة فى جعل صفقات الكبد أرق من صفقات
	سائر عروق البدن
٣٧١	» أحرز الصانع سبحانه موضع الكبد ووضعها
»	الطحال ومافيه من القوائد والرد على من زعم أنه لا فائدة فيه
٣٧٦	» الكبد والطحال متقابلان والمعدة بينهما
»	» المعدة هى الآلة لهضم الغذاء واستمراره ، والامعاء
	تؤديه الى الكبد

صفحة	رقم الفصل
٣٧٨	فصل مختصر يجمع شتات ماسبق بايضاح وإيجاز ١١٩
٣٨٣ »	الكبد عضو لحمي تتخلله عروق غلاظ ورقاق ١٢٠
٣٨٥ »	العروق الموصلة الى القلب : الوتين ، والابهر ١٢١
٣٨٦ »	المرارة وضعها على الكبد ، ولها مجريان ١٢٢
» »	القوة العامة التي جعلها الله في البدن لتنظيمه ١٢٣
٣٨٨ »	الدم وهو الغذاء الحقيقي للبدن ١٢٤
» »	المادة البلغمية ووظيفتها ١٢٥
٣٨٩ »	المادة الصفراوية وحاجة البدن اليها ١٢٦
» »	المرارة السوداء وما فيها من المنافع ١٢٧
٣٩٠ »	حكمة الله في أن جعل في البدن أعضاء رئيسية ١٢٨
» »	السر في استحقاق الاعضاء الرئيسية للرياسة ١٢٩
٣٩١ »	الاعضاء الخادمة : الرئ والشرابين . والمعدة والاوردة ١٣٠
٣٩٢ »	الاعضاء المروسة بلا خدمة ١٣١
» »	الاعضاء التي ليست برئيسة ولا مروسة ١٣٢
٣٩٤ »	عدد العظام على ما أحصاه المشرحون ١٣٣
٣٩٨ »	لفظ الرأس وله اطلاقان ١٣٤
٤٠١ »	على الانسان أن ينظر في نفسه ليعرف ربه وصانعه ، فيوحده ويعبده ١٣٥
٤٠٧ »	عجائب العين ١٣٦
٤٠٩ »	عجائب الاذنين ١٣٧
٤١٠ »	عجائب الانف ١٣٨

— خ —

صفحة	رقم الفصل
٤١١	فصل القلب ملك البدن ومعدن الحرارة الغريزية
٤١٢	» الصدر معدن العلم والحلم
٤١٦	» جنود القلب وأبوابه وطرقه
٤١٧	» حال القلب مع الملك والشیطان
٤١٨	» المام الشیطان بالقلب
٤٢٠	» كيف يطرق الشیطان قلبك . وكيف تدفعه ؟
٤٢١	» ثم قال الله تعالى (وفي السماء رزقكم)
٤٢٢	» قوله تعالى (فارب السماء والارض انه الحق)
٤٢٥	» ومن ذلك قوله (ق والقرآن المجید)
٤٢٦	» » » (حم والكتاب المبين)
٤٢٧	» » » (والصافات صفا)
٤٢٨	» قصة لوط عليه السلام مع قومه
٤٣٠	» قوله تعالى (فلا ، وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم - الآية)
	١٥١

انتهى الفهرست ، والحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(وبه أستعين)

الحمد لله رب العالمين (والصلاة والسلام على خاتم المرسلين
وعلى آله وصحبه)

(١) فصل

في أقسام القرآن ^(١)

وهو سبحانه يقسم بأمر على أمور . وإنما يقسم بنفسه الموصوفة
بصفاته ، وآياته المستلزمة لذاته وصفاته . وإقسامه ببعض المخلوقات
دليل على أنه من عظيم آياته
فالقسم إما على جملة خبرية — وهو الغالب — كقوله تعالى
(٥١ : ٢٣) فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ (وإما على جملة طلبية ،
كقوله تعالى (١٥ : ٩٢) فَوَرَبِّكَ لَنَسَاءٌ لَهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(١) هذا الابتداء على غير ما يعرف من عادة ابن القيم رحمه الله . فربما
كان هذا جزءاً من كتاب . والله أعلم

مع أن هذا قد يراد به تحقيق المقسم عليه ، فيكون من باب الخبر .
وقد يراد به تحقيق القسم

والمقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه . فلا بد أن يكون
مما يحسن فيه ذلك ، كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها .
فأما الأمور الظاهرة المشهورة ، كالشمس ، والقمر ، والليل ، والنهار
والسما ، والارض ، فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها
وما أقسم عليه الرب فهو من آياته . فيجوز أن يكون مقسما
به ولا ينعكس

وهو سبحانه يذكر جواب القسم تارة ، وهو الغالب . وتارة
يحذفه . كما يحذف جواب لو كثيرا . كقوله تعالى (١٠٢ : ٥) كَلَّا لَوْ
تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ) وقوله (١٣ : ٣١) وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ
الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ) (٨ : ٥٠) وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ
كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ) (٣٤ : ٥١) وَلَوْ تَرَى إِذْ فُزِعُوا فَلَا فَوْتَ)
(٦ : ٣٠) وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ) ومثل هذا حذفه
من أحسن الكلام ، لأن المراد أنك لو رأيت ذلك لرأيت
هو لا عظيما ، فليس في ذكر الجواب زيادة على ما دل عليه الشرط .
وهذه عادة الناس في كلامهم ، إذا رأوا أمورا عجيبة وأرادوا أن
يخبروا بها الغائب عنها يقول أحدهم : لو رأيت ما جرى يوم كذا

بموضع كذا ؟ ومنه قوله تعالى ٢ : ١٦٥ وَلَوْ تَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ
الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (فالمعنى في أظهر
الوجهين : لو يرى الذين ظلموا في الدنيا اذ يرون العذاب في الآخرة ،
والجواب محذوف : ثم قال : (أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) كما قال تعالى
(وَلَوْ تَرَى إِذْ فِرْعَوْنُ قَالَ لَا فَأْتِ) (وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ
كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ) أى لو ترى ذلك الوقت وما فيه

وأما القسم ، فان الحالف قد يحلف على الشيء ثم يكرر القسم ،
فلا يعيد المقسم عليه ، لأنه قد عرف ما يحلف عليه . فيقول : والله انلى
عليه الف درهم . ثم يقول : ورب السموات والأرض ، والذي
نفسى بيده ، وحق القرآن العظيم ، ولا يعيد المقسم عليه . لأنه
قد عرف المراد

والقسم لما كان يكثر في الكلام اختصر ، فصار فعل القسم
يحذف ويكتفى بالباء ، ثم عوض من الباء الواو في الأسماء الظاهرة
والتاء في أسماء الله كقوله (٢١ : ٥٧) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ)
وقد نقل : ترب السكبة . وأما الواو فكثيرة

(٢) فصل

إذا عرف هذا . فهو سبحانه يُقسِم على أصول الايمان ، التي يجب

على الخلق معرفتها ، تارة يقسم على التوحيد ، وتارة يقسم على أن
القرآن حق ، وتارة على أن الرسول حق ، وتارة على الجزاء
والوعد والوعيد ، وتارة على حال الانسان

فالأول كقوله (٣٧ : ١ والصافات صفًا ٢ فالزاجرات زجرًا ٣
فالتاليات ذكرًا ٤ إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ) والثاني كقوله (٥٦ : ٧٥
فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ٧٦ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٧
إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) وقوله (٤٤ : ١ حم ٢ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٣
إِذَا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ) (٤٣ : ١ حم ٢ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٣
إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) إذا جعل ذلك جواب القسم كما هو
الظاهر ، وإن قيل : بل الجواب محذوف كان كقوله :
(٣٨ : ١ ص والقرآن ذي الذكر) فانه هنا حذف الجواب . ومن
قال : ان الجواب هو قوله (٦٤ : ٦٤ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ)
فقد أبعد النجعة

والقسم على الرسول كقوله (٣٦ : ١ يَس ٢ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ٣
إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٤ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) اذا قيل هو الجواب .
وان قيل الجواب محذوف كان كما ذكر . ومنه (٦٨ : ١ ن وَالْقَلَمِ
وَمَا يَسْطُرُونَ ٢ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ رَبِّكَ بِمَحْنُونٍ ٣ وَإِنْ لَكَ لَأَجْرًا

غَيْرُ مَمْنُونٍ) ومنه (٥٣ : ١ والنجم إذا هوى ٢ ماضل صاحبكم
وبما غوى ٣ وما ينطق عن الهوى) إلى آخر القصة ، ومنه قوله
(٦٩ : ٣٨ فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ٣٩ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ٤٠ إِنَّهُ لَقَوْلُ
رَسُولٍ كَرِيمٍ ٤١ وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ) وقوله
(٨١ : ١٥ فَلَا أَقْسِمُ بِالْخُنُفِ ١٦ الْجَوَارِ الْكُنُفِ ١٧ وَاللَّيْلِ إِذَا
عَسَسَ ١٨ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٩ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ٢٠ ذِي
قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ)

وأما القسم على الجزاء والوعدو الوعيد في مثل قوله (١٠٥ : ١) وَالذَّارِيَاتِ
ذُرُوًّا ٢ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ٣ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ٤ فَالْمُتَسِمَاتِ أَمْرًا ٥ إِنَّمَا
تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ ٦ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ) ثم ذكر تفصيل الجزاء وذكر
الجنة والنار ، وذكر أن في السماء زقهم وما يوعدون . ثم قال (٢٣) فَوَرَبِّ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَخَلْقُ مِثْلٍ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ) ومثل قوله (٧٧ : ١) وَالْمُرْسَلَاتِ
عُرْفًا ٢ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ٣ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ٤ فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا
٥ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ٦ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ٧ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ) ومثل
(٥٢ : ١) وَالطُّورِ ٢ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ٣ فِي رِقِّ مَنشُورٍ ٤ وَالْبَيْتِ
الْمُعْمَرِ ٥ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ٦ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٧ إِنَّ عَذَابَ
رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٨ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ)

وقد أمر نبيه أن يقسم على الجزاء والمعاد في ثلاث آيات .
 فقال تعالى (٦٤ : ٧ زَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا . قُلْ : بَلَى
 وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ) وقال تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا
 السَّاعَةُ قُلْ : بَلَى ، وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ) وقال تعالى (١٠ : ٥٣
 وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ ؟ قُلْ إِيَّيَّيَّ إِنَّهُ لَحَقٌّ ، وَمَا أَنْتُمْ
 بِمُعْجِزِينَ) وهذا لأن المعاد إنما يعلمه عامة الناس بأخبار الأنبياء ، وإن
 كان من الناس من قد يعلمه بالنظر . وقد تنازع النظار في ذلك ، فقالت
 طائفة انه لا يمكن علمه الا بالسمع ، وهو الخبر ، وهو قول من لا يرى
 تعليل الافعال ، ويقولون لا ندري ، ما يفعل الله الابداعة أو خبر .
 كما يقوله جهم بن صفوان ومن اتبعه . والاشعري وأتباعه ، وكثير
 من أهل الكلام في الفقه والحديث من أتباع الأئمة الأربعة . بخلاف
 العلم بالصانع . فان الناس متفقون على أنه لا يعلم الا بالعقل ، وإن
 كان ذلك مما نهت الرسل عليه . وصفاته قد تعلم بالعقل ، وتعلم
 بالسمع أيضاً . كما قد بسط في موضع آخر

وأما القسم على أحوال الانسان فكقوله (٩٢ : ١ واللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ٢
 وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ٣ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ٤ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)
 الآية . ولفظ السعي هو العمل . لكن يراد به العمل الذي يهتم به

صاحبه ويجهده فيه بحسب الامكان . فان كان يفتقر الى عدو بدنه
 عدا ، وان كان يفتقر الى جمع أعوانه جمع ، وان كان يفتقر الى
 تفرغ له وترك غيره فعل ذلك . فلفظ السعى في القرآن جاء بهذا
 الاعتبار ، ليس هو مرادفا للفظ العمل ، كما ظنه طائفة . بل هو عمل
 مخصوص ، يهتم به صاحبه ويجهده فيه . ولهذا قال في الجمعة (٦٢: ٩) فاسعوا
 الى ذكر الله () وهذه أحسن من قراءة من قرأ (فامضوا الى ذكر الله)
 وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « اذا أقيمت الصلاة فلا
 تأتوها تسعون ، وأتوها تمشون ، وعليكم السكينة . فما أدركتم فصلوا . وما
 فاتكم فأتموا (١) » فلم ينه عن السعى الى الصلاة فان الله أمر بالسعى اليها ،
 بل نهاهم أن يأتوا اليها يسعون ، فنهاهم عن الاتيان المتصف بسعى
 صاحبه ، والاتيان فعل البدن ، وسعيه عدو البدن ، وهو منهي
 عنه . وأما السعى المأمور به في الآية فهو الذهاب اليها على وجه
 الاهتمام بها والتفرغ لها عن الأعمال الشاغلة ، من بيع وغيره ، والاقبال
 بالقلب على السعى اليها . وكذلك قوله في قصة فرعون لما قال له موسى
 (٧٩ : ١٨) هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ١٩ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ٢٠
 فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ٢١ فَكَذَّبَ وَعَصَى ٢٢ ثُمَّ أَذْبَرَ سَعْيَهُ ٢٣ فَحَشَرَ فَمَنَادَى
 فهذا اهتمام واجتهاد في حشر رعيته ومناداته فيهم . وكذلك قوله

(٢: ٢٠٥) وَإِذْ أَتَاكَ لِيُفْسِدَ فِيهَا) هو عمل بهمة واجتهاد ومنه سمي الساعي على الصدقة ، والساعي على الأرملة واليتيم . ومنه قوله (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى) وهو العمل الذي يقصده صاحبه ويعتني به ، ليرتب عليه ثواب أو عقاب ، بخلاف المباحات المعتادة ، فانها لم تدخل في هذا السعي . قال تعالى (٩٢: ٥) فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ٦ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ٧ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ٨ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ٩ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ١٠ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى) ومنه قوله تعالى (١٧ : ١٩) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ) وقوله (٥ : ٣٣) إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا

(٣) فصل

وأقسم على صفة الانسان بقوله (١٠٠ : ١) وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ٢ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ٣ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ٤ فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا ٥ فَوَسْطَنَ بِهِ جَمْعًا ٦ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) وأقسم على عاقبته ، وهو قسم على الجزاء . في قوله (١٠٣ : ١) وَالْعَصْرِ ٢ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَنِقٍ ٣ خَسِرٍ ٤ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ) وفي قوله (٩٥ : ١) وَالَّذِينَ وَالزَّيْتُونِ ٢

وَطُورِ سَيِّدَيْنِ ٣ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ٤ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ٥ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ٦ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

وحذف جواب القسم، لانه قد علم بأنه يقسم على هذه الأمور، وهي متلازمة. فمضى ثبت أن الرسول حق ثبت القرآن والمعاد. ومضى ثبت أن القرآن حق ثبت صدق الرسول الذي جاء به، ومضى ثبت أن الوعد والوعيد حق ثبت صدق الرسول الذي جاء به. ومضى ثبت أن الوعد والوعيد حق ثبت صدقه وصدق الكتاب الذي جاء به والجواب يحذف تارة ولا يراى ذكره، بل يراى تعظيم المقسم به. وأنه ما يحلف به. كقول النبي صلى الله عليه وسلم «من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت» (١) ولكن هذا يذكركم معه الفعل، دون مجرد حرف القسم. كقولك: فلان يحلف بالله وحده، وأنا أحلف بالخالق لا بالخلق، ونحو ذلك. والنصراني يحلف بالصليب والمسيح، وفلان أكذب ما يكون اذا حلف بالله

وقد يكون هذا النوع بحرف القسم مجردا، كما في الحديث: كانت أكثر يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا، ومقلب القلوب» (٢)

(١) رواه مالك والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما
(٢) رواه أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عمر

وكان بعض السلف اذا اجتهد في يمينه قال: والله الذي لا اله الا هو ،
وتارة يحذف الجواب وهو مراد ، إما لكونه قد ظهر وعرف ، إما بدلالة
الحال كمن قيل له كُـلْ . فقال لا ، والله الذي لا اله الا هو . أو بدلالة
السياق ، وأكثر ما يكون هذا اذا كان في نفس المقسم به ما يدل على
المقسم عليه ، وهى طريقة القرآن ، فان المقصود يحصل بذكر المقسم
به ؛ فيكون حذف المقسم عليه أبلغ وأوجز . كمن أراد أن يقسم على
أن الرسول حق . فقال: والذي أرسل محمداً بالهدى ودين الحق
وأيده بالآيات البينات ، وأظهر دعوته ، وأعلى كلمته ونحو ذلك
فلا يحتاج الى ذكر الجواب ، استغناء عنه بما في القسم من الدلالة
عليه ، كمن أراد أن يقسم على التوحيد وصفات الرب ، ونعوت
جلاله . فقال : والله الذي لا اله الا هو ، عالم الغيب والشهادة ، الرحمن
الرحيم ، الأول الآخر ، الظاهر الباطن ، وكمن أراد أن يقسم على
علوه فوق عرشه . فقال : والذي استوى على عرشه فوق سمواته
يصعد اليه الكلم الطيب ، وترفع اليه الأيدي ، وتخرج الملائكة
والروح اليه ، ونحو ذلك . وكذلك من حلف لشخص أنه يحبه
ويعظمه . فقال : والذي ملأ قلبي من محبتك واجلالك ومهابتك ،
ونظائر ذلك - لم يحتاج الى جواب القسم . وكان في المقسم به ما يدل
على المقسم عليه . فمن هذا قوله تعالى (ص . وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ)
فان في المقسم به من تعظيم القرآن ووصفه بأنه ذي الذكر ، المتضمن

لتذكير العباد بما يحتاجون اليه ، وللشرف والقدر ، ما يدل على المقسم عليه ، وكونه حقا من عند الله ، غير مفترى ، كما يقوله الكافرون . وهذا معنى قول كثير من المفسرين - متقدميهم ومتأخريهم : ان الجواب محذوف ، تقديره : ان انقرآن لحق . وهذا مطرد في كل ما شأنه ذلك . وأما قول بعضهم : ان الجواب قوله تعالى (٣) كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ) فاعترض بين القسم وجوابه بقوله (٢) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) فبعيد ، لأن « كم » لا يتلقى بها القسم ، فلا تقول : والله كم أنفقت مالا . وبالله كم أعتقت عبدا . وهو لا لما لم يخف عليهم ذلك احتاجوا أن يقدرُوا ما يتلقى بها الجواب ، أى لكم أهلكنا . وأبعد من هذا قول من قال : الجواب فى قوله (١٤) إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلِ) وأبعد منه قول من قال : الجواب (٥٤) إِنْ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ) وأبعد منه قول من قال : الجواب قوله (٦٤) إِنْ ذَلِكَ لَحَقُّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ) وأقرب ما قيل فى الجواب لفظاً ، وان كان بعيداً معنى ، عن قتادة وغيره : انه فى قوله (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا) كما قال (١٠٥٠) ق وَالْقُرْآنِ الْحَمِيدِ ٢ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ) وشرح صاحب النظم هذا القول . فقال : معنى « بل » تأكيد الخبر الذى بعده فصار كأنَّ الشديدة فى تثبيت ما بعدها . وقيل ههنا بمنزلة إن ، لأنه

يؤكد ما بعده من الخبر ، وان كان له معنى سواه في نفي خبر متقدم ، فكأنه عز وجل قال : صَ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ، كما تقول : والله ان زيدا لقائم . قال واحتج صاحب هذا القول بأن هذا النظم وان لم يكن للعربية فيه أصل ، ولا لها رسم ، فيحتمل أن يكون نظماً أحدثه الله عز وجل ، لما بينا من احتمال (أن تكون) « بل » بمعنى ان . اهـ

وقال أبو القاسم الزجاج ، قال النحويون : ان « بل » تقع في جواب القسم ، كما تقع إن ، لأن المراد بها تأكيد الخبر . وهذا القول اختيار أبي حاتم ، وحكاه الاخفش عن الكوفيين ، وقرره بعضهم بأن قال : أصل الكلام ، بل الذين كفروا في عزة وشقاق ، والقرآن ذى الذكر . فلما قدم القسم ترك على حاله . قال الاخفش : وهذا يقوله الكوفيون ، وليس بجيد في العربية . لو قلت : والله قام ، وأنت تريد قام والله ، لم يحسن . وقال النحاس : هذا خطأ على مذهب النحويين ، لأنه اذا ابتدأ بالقسم وكان الكلام معتمدا عليه لم يكن بد من الجواب . وأجمعوا أنه لا يجوز : والله قام عمرو ، بمعنى قام عمرو والله . لان الكلام يعتمد على القسم . وذكر الاخفش وجهاً آخر في جواب القسم ، فقال : يجوز أن يكون لصاد معنى يقع عليه القسم ، لاندرى نحن ماهو . كأنه يقول : الحق والله .

قال أبو الحسن الواحدى : وهذا الذى قاله الاخفش صحيح المعنى على قول من يقول (ص) الصادق الله ، أو صدق محمد . وذكر الفراء هذا الوجه أيضاً . فقال ، (ح) جواب القسم . وقال : هو كقولك وجب والله ، وترك والله ، فهى جواب لقوله (والقرآن) وذكر النحاس وغيره وجهاً آخر فى الجواب ، وهو انه محذوف تقديره : والقرآن ذى الذكر ، فالامر كما يقوله هؤلاء الكفار . ودل على المحذوف قوله تعالى (بل الذين كفروا) وهذا اختيار ابن جرير ، وهو مخرج من قول قتادة . وشرحه الجرجاني ، فقال «بل» رافع خبر قبله ومثبت لخبر بعده . فقد ظهر ما بعده وظهر ما قبله ، وما بعده دليل على ما قبله . فالظاهر يدل على الباطن ، فاذا كان كذلك وجب أن يكون قوله (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) مخالفاً لهذا المضمرة ، فكأنه قيل : والقرآن ذى الذكر إن الذين كفروا يزعمون أنهم على الحق ، أو كل ما فى هذا المعنى . فهذه ستة أوجه سوى ما بدأنا به فى جواب القسم . والله أعلم

ونظير هذا قوله تعالى (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ . بَلْ عَجِبُوا) قيل جواب القسم (قَدْ عَلِمْنَا) وقال الفراء : محذوف ، دل عليه قوله (أِذَا مِتْنَا) أى لتبعثن . وقيل قوله (بل عجبوا) كما تقدم بيانه

(٥) فصل

ومن ذلك قوله (٧٥ : ١) لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ٢ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ
الْأَوَّامَةِ (فقد تضمن الاقسام ثبوت الجزاء ، ومستحق الجزاء .
وذلك يتضمن اثبات الرسالة ، والقرآن ، والمعاد . وهو سبحانه
يقسم على هذه الأمور الثلاثة ، ويقررها أبلغ التقرير ، لحاجة النفوس
الى معرفتهما ، والايان بها . وأمر رسوله أن يقسم عليها ، كما قال تعالى
(وَيَسْتَنْبِئُونَكَ : أَحَقُّ هُوَ ؟ قُلْ : إِيَّيَّ ، وَرَبِّي ، إِنَّهُ لَحَقُّ) وقال تعالى
(٣ : ٣٤) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْآتَانَا تَيْنَا السَّاعَةَ . قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ .
وقال تعالى (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا . قُلْ : بَلَى ، وَرَبِّي
لَيُبْعَثَنَّكُمْ لَتُنَبِّئَنَّكُمْ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) فهذه ثلاثة
مواضع لارابع لها . يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقسم على ما أقسم
عليه هو سبحانه من النبوة ، والقرآن ، والمعاد

فأقسم سبحانه لعباده ، وأمر أصدق خلقه ان يقسم لهم ، وأقام
البراهين القطعية على ثبوت ما أقسم عليه ، فأبى الظالمون
الاجحودا وتكديبا

واختلف في النفس المقسم بها ههنا ، هل هي خاصة أو عامة ؟ على

قولين ، بناء على الأقوال الثلاثة في اللّوامة . فقال ابن عباس : كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة ، يلوم المحسن نفسه أن لا يكون ازداد إحسانا . ويلوم المسيء نفسه أن لا يكون رجع عن إساءته . واختاره الفراء . قال : ليس من نفس ، برة ولا فاجرة ، الا وهي تلوم نفسها . ان كانت عملت خيراً قالت : هلا ازددت خيراً ؟ وان كانت عملت سوءا . قالت : ياليتني لم أفعل

والقول الثاني ، أنها خاصة . قال الحسن : هي النفس المؤمنة ، وان المؤمن - والله - لاتراه الا يلوم نفسه على كل حالة ، لأنه يستقصرها في كل ما تفعل ، فيندم ويلوم نفسه ، وإن الفاجر يمتضى قدماً ، لا يعاتب نفسه

والقول الثالث ، أنها النفس الكافرة وحدها ، قاله قتادة ومقاتل . وهي النفس الكافرة تلوم نفسها في الآخرة على ما فرطت في أمر الله قال شيخنا (١) : والاضاهر أن المراد نفس الانسان مطلقا . فان نفس كل إنسان لوامة ، كما أقسم بجنس النفس في قوله (٩١ : ٧) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) فانه لا بد لكل إنسان أن يلوم نفسه أو

(١) هو شيخ الاسلام الامام المجتهد المطلق ، تقي الدين احمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية . ولد سنة ٦٦١ . وتوفي سنة ٧٢٨ رحمه الله ورضي عنه

غيره على أمر. ثم هذا اللوم قد يكون محمودا وقد يكون مذموما، كما قال تعالى (٣٠: ٦٨) قَبْلَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ٣١ قَالَ أَوَايَا وَيَلْنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ وقال تعالى (٥ : ٥٤) يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ فهذا اللوم غير محمود. وفي الصحيحين في قصة احتجاج آدم وموسى «أتلومني على أمر قدّره الله عليّ قبل أن أخلق؟» فحجّ آدم موسى (١) فهو سبحانه

(١) رواه البخارى في عدة أبواب ، قال الحافظ في الفتح (١١: ٤٠٧) قال ابن عبد البر : هذا الحديث ثابت بالاتفاق . رواه عن أبي هريرة جماعة من التابعين . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه أخرى من رواية الثقات الاثبات اه . قال الحافظ : وقع لنا من طريق عشرة عن أبي هريرة ، وهو عند مسلم والنسائي والترمذى وابن خزيمة وأحمد من عدة طرق . وهو عن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم عند أبي داود وأبي عوانة . وعن جندب بن عبد الله عند النسائي وعن أبي سعيد عند البرار . اه باختصار . وقد أطال الحافظ في شرحه والكلام على ما فيه من الفوائد . قال ابن عبد البر : هذا الحديث أصل عظيم لاهل الحق في اثبات القدر ، وان الله قضى أعمال العباد ، فكل أحد يصير لما قدر له بما سبق في علم الله . وليس فيه حجة للجبرية وان كان في بادىء الرأى يساعدهم . وقال القرطبي : انما غلبه بالحجة ، لانه علم من التوراة ان الله تاب عليه . فكان لومه على ذلك نوع جفاء . قال الحافظ : وقد أنكر القدريّة الحديث ، لانه صريح في اثبات القدر السابق

يقسم على صفة النفس اللوامة كقوله (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) وعلى جزائها كقوله (فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَأْذِنَهُمْ أَجْمَعِينَ) وعلى تباين عملها كقوله (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى) وكل نفس لوامة، فالنفس السعيدة تلوم على فعل الشر وترك الخير، فتبادر إلى التوبة، والنفس الشقية بالضد من ذلك

وجمع سبحانه في القسم بين محل الجزاء وهو يوم القيامة، ومحل الكسب، وهو النفس اللوامة. ونبه سبحانه بكونها لوامة على شدة حاجتها وفاقتها وضرورتها إلى من يعرفها الخير والشر، ويدها عليه، ويرشدها إليه، ويأمرها إياه فيجعلها مريدة للخير، مرشدة له، كارهة للشر بجانبه له، لتخلص من اللوم ومن شر ما تلوم عليه، ولأنها متلومة متردة، لا تثبت على حال واحدة، فهي محتاجة إلى من يعرفها ما هو أنفع لها في معاشها ومعادها فتؤثره، وتلوم نفسها عليه إذا

وتقرير النبي صلى الله عليه وسلم لآدم على الاحتجاج به وشهادته بأنه غلب موسى. وقد أطل الحافظ في الجواب على ذلك من وجوه عدة: منها ما قال ابن عبد البر: هذا مخصوص بآدم. لأن المناظرة وقعت بينهما بعد أن تاب الله عليه. قال تعالى (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) فحسن منه أن ينكر على موسى لومه، والا فلا يجوز لاحد أن يقول لمن لومه على ارتكاب المعصية: هذا سبق في علم الله وقدره قبل أن يخلقني فان الامة اجتمعت على لوم من وقعت منه المعصية اهـ

فاتها ، فتتوب منه ان كانت سعيدة ، ولتقوم عليها حجة عدله فيكون
لومها في القيامة لنفسها عليه لوما بحق ، قد أعذر الله خالقها وفطرها
اليها فيه . ففي صفة اللوم تنبيه على ضرورتها إلى التصديق بالرسالة
والقرآن ، وانها لا غنى لها عن ذلك ، ولا صلاح ، ولا فلاح بدونه
ألبته . ولما كان يوم معادها هو محل ظهور هذا اللوم وترتب أثره
عليه قرن بينهما في الذكر

(٥) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (٩١ : ١) وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ٣ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّاهَا ٣
وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ٤ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ٥ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا ٦ وَالْأَرْضُ
وَمَا طَحَّاهَا ٧ وَالنَّفْسُ وَمَا سَوَّاهَا ٨ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ()
قال الزجاج وغيره : جواب القسم (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) ولما طال
الكلام حسن حذف اللام من الجواب

وقد تضمن هذا القسم الاقسام بالخالق ، والمخلوق ، فاقسم بالسماء
وبانيها ، والأرض وطاحيها ، والنفس ومسويها .
وقد قيل إن مصدرية ، فيكون الاقسام بنفس فعله تعالى ، فيكون
قد أقسم بالمصنوع الدال عليه . وبصنعة الدالة على كمال علمه وقدرته
وحكمته وتوحيده . ولما كانت حركة الشمس والقمر ، والليل

والنهار أمرأ يشهد الناس حدوثه شيئاً فشيئاً ، ويعلمون أن الحادث لا بد له من محدث ، كان العلم بذلك منزلاً منزلة ذكر المحدث له لفظاً . فلم يذكر الفاعل في الأقسام الأربعة

ولهذا سلك طائفة من النظائر طريق الاستدلال بالزمان على الصانع وهو استدلال صحيح قد نبه عليه القرآن في غير موضع . كقوله (٣ : ١٩٠) **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ**) ولما كانت السماء والأرض ثابتتين حتى ظن من ظن أنهما قديمتان ذكر مع الأقسام بهما بانيهما ومبدعهما . وكذلك النفس ، فإن حدوثها غير مشهود ، حتى ظن بعضهم قدمها ، فذكر مع الأقسام بها مَسْوِيَّهَا وفاطرها ، مع ما في ذكر بناء السماء وطحو الأرض وتسوية النفس من الدلالة على الرحمة والحكمة والعناية بالخلق ، فإن بناء السماء يدل على أنها كالقبة العالية على الأرض ، وجعلها سقفا لهذا العالم ، والطَّحْو هو مدُّ الأرض وبسطها ، وتوسيعها ليستقر عليها الأنام والحيوان ، ويمكن فيها البناء والغراس والزرع ، وهو متضمن لنضوب الماء عنها ، وهو ماحير عقول الطبائعيين ، حيث كان مقتضى الطبيعة أن يغمرها كثرة الماء ، فبروز جانب منها على الماء على خلاف مقتضى الطبيعة وكونه هذا الجانب المعين دون غيره ، مع استواء الجوانب في الشكل الكُرِّي ، يقتضى تخصيصاً . فلم يجدوا بداً أن يقولوا : عناية الصانع اقتضت ذلك . قلنا : ففعم إذاً ، ولكن عناية من لا مشيئة له . ولا ارادة ولا اختيار ، ولا علم بمعين أصلاً ، كما تقولونه فيه

محال ، فعنايته تقتضى ثبوت صفات كماله ونعوت جلاله ، وأنه الفاعل يفعل باختياره ما يريد

وكذلك النفس أقسم بها وبمن سواها وألهمها فجورها وتقواها ، فإن من الناس من يقول قديمة لا مبدع لها . ومنهم من يقول بل هي التي تبدع فجورها وتقواها ، فذكر سبحانه أنه هو الذي سواها وأبدعها ، وأنه هو الذي ألهمها الفجور والتقوى . فأعلن أنه خالق نفوسنا وأعمالها . وذكر لفظ التسوية ، كما ذكره في قوله (٦: ٨٢) مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝ ٧ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ) وفي قوله (٧٢: ٣٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي) إيدانا بدخول البدن في لفظ النفس . كقوله (١٨٩ : ٧) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) وقوله (٢٤ : ٦١) فَسَلَّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ) (٤ : ٢٩) وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) (٢٤ : ١٢) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا) ونظائره . وباجتماع الروح مع البدن تصير النفس فاجرة أو تقية . وإلا فالروح بدون البدن لا فجور لها

وقوله (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) الضمير مرفوع في (زَكَّاهَا) عائد على (مَنْ) وكذلك هو في (دَسَّاهَا) المعنى قد أفلح من زكى نفسه . وقد خاب من دساها هذا القول هو الصحيح ، وهو نظير قوله (٨٧ : ١٤) (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) وهو سبحانه إذا ذكر الفلاح علقه

بفعل المفلح ، كقوله (٢٣ : ١) قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ٢ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) الى آخر الآيات وقوله (٢ : ٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) وقوله (٥١ : ٢٤) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) ونظائره . قال الحسن : قد أفلح من زكى نفسه وحملها على طاعة الله ، وقد خاب من أهلكها وجعلها على معصية الله . وقاله قتادة . وقال ابن قتيبة : يريد أفلح من زكى نفسه ، أى نماها وأعلاها بالطاعة والبر والصدقة واصطناع المعروف . وقد خاب من دسأها أى نقصها وأخفاها بترك عمل البر وركوب المعاصي . والفاجر أبداً خفى المكان ، ز من المروءة ، غامض الشخص ، ناكس الرأس . فكان المتصف بارتكاب الفواحش دس نفسه ، وقعها . ومصطنع المعروف شهر نفسه ورفعها . وكانت أجواد العرب تنزل الرثاى ويفاع الارض لتشهر أنفسها للبعثفين ، وتوقد النيران فى الليل

لطارقين . وكانت اللثام تنزل الاولاج والاطراف والاهضام (١)
لتخفي أماكنها على الطالبين . فأولئك أعلوا أنفسهم وزكوها ،
وأولئك أخفوا أنفسهم ودسوها . وأنشد :

وَبَوَّاتَ بَيْتِكَ فِي مَعْلَمٍ * رَحِيبَ الْمَبَاحَاتِ وَالْمَسْرَحِ
كَفَيْتَ الْعُقَاةَ طَلَابَ الْقِرَى * وَنَبَحَ الْكِلَابَ لِمُسْتَنْبَحِ
وقال أبو العباس : سألت ابن الاعرابي عن قوله (وقدخاب من
دساها) : فقال دسني معناه دس نفسه مع الصالحين وليس منهم ، وعلى
هذا فالمعنى أخفى نفسه في الصالحين ، يُرى الناس أنه منهم وهو
منطوي على غير ما ينطوي عليه الصالحون . وقال طائفة أخرى : الضمير
يرجع الى الله سبحانه . قال ابن عباس ، في رواية عطاء : قد أفلحت نفس
زكاه الله وأصلحها . وهذا قول مجاهد ، وعكرمة ، والسكبي ، وسعيد
ابن جبير ، ومقاتل ، قالوا : سعدت نفس وأفلحت نفس أصلحها
الله وطهرها ووقفها للطاعة ، حتى عملت بها ، وخابت وخسرت نفس
أضلها الله وأغواها وأبطلها وأهلكها

قال أرباب هذا القول : قد أقسم الله بهذه الأشياء التي ذكرها ،
لأنها تدل على وحدانيته ، وعلى فلاح من طهره ، وخسارة من
خذله ، حتى لا يظن أحد أنه هو الذي يتولى تطهير نفسه وإهلاكها

(١) اليفاع المكان المرتفع . والولجة موضع أو كهف تستتر فيه المارة
الجمع أولاج . والهضم - بكسر الضاء - المطمئن من الأرض

بالمعصية من غير قَدَر سابق ، وقضاء متقدم . قالوا : وهذا أبلغ
 في التوحيد الذي سبقت له هذه السورة . قالوا : ويدل عليه قوله
 (فَأَلْهِمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) قالوا : ويشهد له حديث نافع عن ابن
 عمر عن ابن أبي مليكة (١) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : انتهت نفسي
 ليلة فوجعت رسول الله صلى عليه وسلم وهو يقول « رَبِّ أَعْطِ نَفْسِي
 تَقْوَاهَا ، وَزَكَاةً أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَاةً أَنْتَ وَلِيَّهَا وَمَوْلَاهَا » قالوا
 فهذا الدعاء هو تأويل الآية ، بدليل الحديث الآخر : ان النبي ﷺ كان
 إذا قرأ (قد أفلح من زكاه) وقف ثم قال « اللهم آت نفسي تقواها ،
 أَنْتَ وَلِيَّهَا وَمَوْلَاهَا ، وَزَكَاةً أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَاةً » (٢) قالوا : وفي هذا
 ما يبين ان الأمر كله له سبحانه ، فانه هو خالق النفس وملهمها
 الفجور والتقوى . وهو مزيها ومُدَسِّها ، فليس للعبد في الأمر شيء
 ولا هو مالك من أمر نفسه شيئاً

قال أرباب القول الأول : هذا القول ، وان كان جائزاً في العربية ،
 حاملاً للضمير المنصوب على معنى مَنْ ، وان كان لفظها مذكراً ،
 كما في قوله (١٠ : ٤٢) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ) جمع الضمير ، وان

(١) كذا هنا . وفي تفسير ابن كثير قال الامام أحمد حدثنا وكيع عن نافع
 عن ابن عمر عن صالح بن سعيد عن عائشة وذكره . ثم قال ابن كثير : تفرد به
 (٢) رواه الحافظ ابن كثير في تفسيره من طريق الطبراني وابن أبي حاتم

كان لفظ مَنْ مفرداً ، حملاً على نظمها . فهذا إنما يحسن حيث لا يقع لبس في مفسر الضمائر ، وههنا قد تقدم لفظ مَنْ ، والضمير المرفوع في (زكاهما) يستحقه لفظاً ومعنى . فهو أولى به ، ثم يعود الضمير المنصوب على النفس التي هي أولى به لفظاً ومعنى . فهذا هو النظم الطبيعي الذي يقتضيه سياق الكلام ووضعه . وأما عود الضمير الذي يلي مَنْ على الموصول السابق وهو قوله (وَمَا سَوَّاهَا) وإخلاء جاره الملاصق له وهو (من) ثم عود الضمير المنصوب وهو مؤنث على من ، ولفظه مذكر دون النفس المؤنثة . فهذا يجوز ، لو لم يكن للكلام محل غيره أحسن منه . فأما إذا كان سياق الكلام ونظمه يقتضي خلافة ولم تدع الضرورة إليه ؛ فالحمل عليه ممتنع

قالوا : والقول الذي ذكرناه أرجح من جهة المعنى لوجوه :

(أحدها) أن فيه إشارة إلى ما تقدم من تعليق الفلاح على فعل العبد واختياره ، كما هي طريقة القرآن (الثاني) أن فيه زيادة فائدة وهي إثبات فعل العبد وكسبه ، وما يثاب وما يعاقب عليه ، وفي قوله (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) إثبات القضاء والقدر السابق . فتضمنت الآيتان هذين الأصلين العظيمين ، وهما كثيراً ما يقتربان في القرآن كقوله (٧٤ : ٥٤) إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ۝ ٥٥ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۝ ٥٦ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) وقوله (٢٨ : ٨١) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۝ ٢٩ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) فتضمنت الآيتان الرد على القدرية والجبرية

﴿الثالث﴾ ان قولنا يستلزم قولكم ، دون العكس . فان العبد اذا زكى نفسه ودساها فانما يزكيها بعد تركية الله لها بتوفيقه واعاته ، وانما يدسها بعد تدسية الله لها بمخذلانه ، والتخلية بينه وبين نفسه . بخلاف ما اذا كان المعنى على القدر السابق المحض ، لم يبق للكسب وفعل العبد هنا ذكر البتة

(٦) فصل

وذكر في هذه السورة ثمود ، دون غيرهم من الأمم المكذبة فقال شيخنا : هذا - والله أعلم - من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى ، فانه لم يكن في الامم المكذبة أخف ذنبا وعذابا منهم ، اذ لم يذكر عنهم من الذنوب ما ذكر عن عاد ، ومدين ، وقوم لوط ، وغيرهم . ولهذا لما ذكرهم وعادا قال (٤١ : ١٥) فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّْا قُوَّةً ؟ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ١٦ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى) وكذلك اذا ذكرهم مع الأمم المكذبة لم يذكر عنهم ما ذكر عن أولئك من التجبر والتكبر ، والأعمال السيئة ، كاللواط ، وبخس المكيال والميزان ، والفساد في الأرض ، كما في سورة هود والشعراء وغيرهما ، فكان في قوم لوط - مع الشرك - إتيان الفاحشة التي لم

يُسَبِّقُوا إِلَيْهَا . وفي قوم عاد - مع الشرك - التجبر والتكبر والتوسع في الدنيا ، وشدة البطش ، وقولهم (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟) وفي أصحاب مَدْيَنَ - مع الشرك - الظلم في الأموال . وفي قوم فرعون - مع الشرك - الفساد في الأرض والعلو . وكان عذاب كل أمة بحسب ذنوبهم وجرائمهم . فعذب قوم عاد بالريح الشديدة العاتية ، التي لا يقوم لها شيء . وعذب قوم لوط بأنواع من العذاب لم يعذب بها أمة غيرهم . فجمع لهم بين الهلاك والرجم بالحجارة من السماء ، وطمس الأبصار ، وقلب ديارهم عليهم . بأن جعل عاليها سافلها ، والحسف بهم إلى أسفل سافلين . وعذب قوم شعيب بالنار التي أحرقتهم وأحرقت تلك الأموال التي اكتسبوها بالظلم والعدوان . وأما نوح فاهلكوا بالصيحة فماتوا في الحال . فاذا كان عذاب هؤلاء - وذنوبهم مع الشرك عقر الناقة التي جعلها الله آية لهم - فمن انتهك محارم الله واستخف بأوامره ونواهيه ، وعقر عباده ، وسفك دماءهم ، كان أشد عذابا . ومن اعتبر أحوال العالم قديما وحديثا ، وما يعاقب به من سعى في الأرض بالفساد ، وسفك الدماء بغير حق ، واقام الفتن واستهان بحرمات الله ، علم أن النجاة في الدنيا والآخرة للذين آمنوا وكانوا يتقون

((قلت)) وقد يظهر في تخصيص ثمود ههنا بالذكر ، دون غيرهم ، معنى آخر ، وهو أنهم ردوا الهدى بعد ما يتقنوه وكانوا مستبصرين به ، قد

ثلجت له صدورهم ، واستيقظت له أنفسهم ، فاختاروا عليه العمى والضلالة ، كما قال تعالى في وصفهم (٤١ : ١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى وقال (١٧ : ٥٩) وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً أَى مَوْجِبَةً لَهُمُ التَّبَصُّرَةَ وَالْيَقِينَ ، وإن كان جميع الأمم المهلكة هذا شأنهم . فإن الله لم يهلك أمة إلا بعد قيام الحجة عليها ، لكن خصت ثمود من ذلك الهدى والبصيرة بمزيد . ولهذا لما قرنهم بقوم عاد قال (فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟) ثم قال (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى) ولهذا أمكن عاداً المكابرة ، وإن يقولوا النبيهم (١١ : ٥٣) مَا جِئْتُمَنَا بِبَيِّنَةٍ) ولم يمكن ذلك ثمود ، وفردوا البينة عياناً ، وصارت لهم بمنزلة رؤية الشمس والقمر ، فردوا الهدى بعد تيقنه والبصيرة التامة ، فكان في تخصيصهم بالذكر تحذير لكل من عرف الحق ولم يتبعه . وهذا داء أكثر الهالكين ، وهو أعم الأدواء وأغلبها على أهل الارض . والله أعلم

(٧) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (٨٩ : ١) وَالْفَجْرِ ٢ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٣ وَالشَّمْعِ ٤ وَالْوَتْرِ ٥ وَالْأَيْلِ إِذَا يَسْرِ ٥ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ؟ قيل جوابه (إن

رَبِّكَ لَيْلًا مُرْصَادٍ) وهذا ضعيف لوجهين ((أحدهما)) طول الكلام والفصل بين القسم وجوابه بجمل كثيرة ((والثاني)) قوله (إِنَّ رَبَّكَ لَيْلًا مُرْصَادٍ) ذكر لتقرير عقوبة الله الأثم المذكورة ، وهى عاد ، وثمود ، وفرعون . فذكر عقوبتهم . ثم قال مقررآ ومحذرا (إِنَّ رَبَّكَ لَيْلًا مُرْصَادٍ) فلا نرى تعلقه بذلك دون القسم . وأحسن من هذا أن يقال : إن الفجر فى الليالى العشر زمن يتضمن أفعالا معظمة ، من المناسك ، وأمكنة معظمة ، وهى محلها ، وذلك من شعائر الله ، المتضمنة خضوع العبد لربه ، فان الحج والنسك عبودية محضة لله ، وذل وخضوع لعظمته . وذلك ضد ما وصف به عادا وثمود ، وفرعون ، من العتو ، والتكبر ، والتجبر . فان النسك يتضمن غاية الخضوع لله . وهؤلاء الامم عتوا وتكبروا عن أمر ربهم . وفى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما : عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « مامن أيام العمل الصالح فيهن أحب الى الله من هذه الأيام العشر » قيل : يا رسول الله ، ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال « ولا الجهاد فى سبيل الله ، الا رجل خرج بنفسه وماله لم يرجع من ذلك بشيء » فالزمان المتضمن لمثل هذه الاعمال أهل ان يقسم الرب عز وجل به

(والفجر) ان أريد به جنس الفجر ، كما هو ظاهر اللفظ ، فانه يتضمن وقت صلاة الصبح ، التى هى أول الصلوات . فافتتح القسم

بما يتضمن أول الصلوات ، وختمه بقوله (وَاللَّيْلُ إِذَا يَسِرَ)
المتضمن لآخر الصلوات ، وان أريد بالفجر فجر مخصوص ، فهو
فجر يوم النحر وليلته ، التي هي ليلة عرفة ، فتلك الليلة من أفضل
ليالي العام ، وما روى الشيطان في ليلة أدر ولا أحقر ولا أغبط
منه فيها . وذلك الفجر فجر يوم النحر الذي هو أفضل الأيام عند
الله ، كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أفضل الأيام
عند الله يوم النحر » رواه أبو داود باسناد صحيح . وهو آخر أيام
العشر ، وهو يوم الحج الأكبر ، كما ثبت في صحيح البخاري وغيره .
وهو اليوم الذي أذن فيه مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم
« إِنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ » ، وان لا يحج بعد العام
مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان » ولا خلاف ان المؤذن أذن
بذلك في يوم النحر ، لا يوم عرفة . وذلك بأمر رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، امثالاً وتأويلاً للقرآن

وعلى هذا فقد تضمن القسم المناسك والصلوات ، وهما المختصان
بعبادة الله . والخضوع له والتواضع لعظمته . ولهذا قال الخليل عليه السلام
(١٦٢ : ٦) إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) وقيل لحاتم
الرسول ﷺ (١٠٨ : ٢) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ) بخلاف حال المشركين
المتكبرين الذين لا يعبدون الله وحده ، بل يشركون به ، ويستكبرون عن
عبادته ، كحال من ذكر في هذه السورة من قوم عاد ، وثمود ، وفرعون

وذكر سبحانه من جملة هذه الاقسام (الشفع والوتر) . اذ هذه الشعائر المعظمة منها شفع ومنها وتر ، في الأمكنة والأزمنة والاعمال فالصفا والمروة شفع . والبيت وتر . والجمرات وتر ، ومِنَى وَمِنْ ذَلِيقَةٍ شَفَعُ . وعرفة وتر . وأما الاعمال فالطواف وتر . وركعتاه شفع . والطواف بين الصفا والمروة وتر . ورمى الجمار وتر . كل ذلك سبع سبع ، وهو الاصل . فان الله وتر ، يحب الوتر . والصلاة منها شفع ومنها وتر . والوتر يوتر الشفع ، فتكون كلها وترا . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « صلاة الليل مثنى مثنى . فاذا خشيت الصباح فأوتر بواحدة توتر لك ما قد صليت (١) » . وأما الزمان فان يوم عرفة وتر ، ويوم النحر شفع . وهذا قول أكثر المفسرين . وروى مجاهد عن ابن عباس : الوتر آدم ، وشفع بزوجه حواء . وقال في رواية أخرى : الشفع آدم وحواء . والوتر الله وحده . وعنه رواية ثالثة : الشفع يوم النحر ، والوتر اليوم الثالث . وقال عمران بن حصين ، وقتادة : الشفع والوتر هي الصلاة . وروى فيه حديثا مرفوعا . وقال عطية العوفي : الشفع الخلق . قال الله تعالى (٧٨ : ٨) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا) والوتر هو الله . وهذا قول الحكم . قال : كل شيء شفع والله وتر . وقال أبو صالح : خلق الله من كل شيء زوجين اثنين ، والله وتر واحد ، وهذا قول مجاهد . ومسروق ، وقال الحسن : الشفع والوتر العدد كله

(١) رواه أحمد وأحمد والبخاري ومسلم وأصحاب السنن ، عن ابن عمر

من شفع ووتر . وقال ابن زيد : الشفع والوتر الخلق كله من شفع
وووتر ، قال مقاتل : الشفع الأيام والليالي ، والوتر اليوم الذي لاليلة
بعده ، وهو يوم القيامة .

وذكرت أقوال آخر ، هذه أصولها . ومدارها كلها على قولين
﴿أحدهما﴾ أن الشفع والوتر نوعان للمخلوقات والمأمورات
﴿والثاني﴾ أن الوتر الخالق ، والشفع المخلوق . وعلى هذا القول
فيكون قد جمع في القسم بين الخالق والمخلوق . فهو نظير ما تقدم في
قوله (وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا) ونظير ما ذكر في قوله (٨٥: ٣٧) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ
وما ذكر في قوله (وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى . وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى . وَمَا خَلَقَ
الذَّكَرَ وَالْأُنثَى) وقال هنا (وَاللَّيْلُ إِذَا يَسِرُ) وفي سورة المدثر
أقسم بالليل إذا أدبر . وفي سورة التَّكْوِينِ أقسم بالليل إذا عَسَسَ
وقد فسر بأقبل ، وفسر بأدبر . فان كان المراد اقباله فقد أقسم بأحوال
الليل الثلاثة ، وهي حالة اقباله ، وحالة امتداده وسريانه ، وحالة
ادباره ، وهي من آياته الدالة عليه سبحانه

وعرف الفجر باللام اذ كل أحد يعرفه ، ونكر الليالي العشر ،
لأنها انما تعرف بالعلم . وأيضا فان التنكير تعظيم لها . فان التنكير
يكون للتعظيم .

وفي تعريف الفجر ما يدل على شهرته ، وأنه الفجر الذي يعرفه
كل أحد ولا يحمله

فلما تضمن هذا القسم ما جاء به ابراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم
كان في ذلك مادل على المقسم عليه ، ولهذا اعتبر القسم بقوله تعالى
(هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّدَىٰ حِجْرٍ ؟) فان عظمة هذا المقسم به يعرف
بالنبوة . وذلك يحتاج الى حِجْر بحجر صاحبه عن الغفلة واتباع الهوى
ويحملة على اتباع الرسل ، لئلا يصيبه ما أصاب من كذب الرسل
كعاد ، وفرعون ، وثمود .

ولما تضمن ذلك مندرج الخاضعين والمتواضعين ذكر حال
المستكبرين المتجبرين الطاغين ، ثم أخبر أنه صب عليهم سوط
عذاب . ونكره إما للتعظيم ، وإما لأن يسيرا من عذابه استأصلهم
وأهلكهم ، ولم يكن معه بقاء ولا ثبات

ثم ذكر حال الموسع عليهم في الدنيا والمُقْتَرَّ عليهم . وأخبر ان
توسعته على من وسع عليه - وان كان اكراما له في الدنيا - فليس
ذلك اكراما على الحقيقة ، ولا يدل على أنه كريم عنده ، من أهل
كرامته ومحبته ، وأن تقتيره على من قتر عليه لا يدل على اهانتة له ،
وسقوط منزلته عنده ، بل يوسع ابتلاء وامتحانا ، ويقتّر ابتلاء
وامتحانا . فيبتلى بالنعم . كما يبتلى بالمصائب ، وسبحانه هو يبتلى عبده

بنعمة تجلب له نعمة ، وبنعمة تجلب له نعمة أخرى ، وبنعمة تجلب له نعمة أخرى ، وبنعمة تجلب له نعمة ، فمذاشأن نعمه ونعمه سبحانه وتضمنت هذه السورة ذم من اغتر بقوته وسلطانة وماله . وهم هؤلاء الامم الثلاثة : قوم عاد ، اغتروا بقوتهم . وثمود ، اغتروا بجنانهم وعيونهم وزروعهم وبساتينهم . وقوم فرعون ، اغتروا بالمال والرياسة ، فصارت عاقبتهم إلى ما قصَّ الله علينا . وهذا شأنه دائماً مع كل من اغتر بشيء من ذلك ، لا بد أن يفسده عليه ، ويسلبه إياه ثم ذكر سبحانه حال الانسان في معاملته لمن هو أضعف منه ، كاليتيم والمسكين . فلا يكرم هذا ، ولا يحضُّ على طعام هذا . ثم ذكر حرصه على جمع المال وأكله ، وحبه له . وذلك هو الذي أوجب له عدم رحمته لليتيم والمسكين

ثم ختم السورة بمدح النفس المطمئنة ، وهي الخاشعة المتواضعة لربها ، وما تقول اليه من كرامته ورحمته . كما ذكر قبلها حال النفس الأمّارة ، وما تقول اليه من شدة عذابه ووثاقه

(٨) فصل

وأما سورة (لا أقسم بهذا البلد) فذكر فيها جواب القسم . وهو قوله (لقد خلقنا الانسان في كبد) وفسر الكبد بالاستواء وانتصاب القامة . قال ابن عباس ، في رواية مقسم : منتصباً على

قدميه . وهذا قول أبي صالح ، والضحاك ، وإبراهيم ، وعكرمة ،
وعبد الله بن شداد . قال المنذر : سمعت أبا طالب يقول : الكبد
الاستواء والاستقامة . وفسر بالنَّصَب . هذا قول مجاهد ، وسعيد
ابن جبير ، والحسن ، ورواية عن علي ، وعن ابن عباس . قال الحسن :
لم يخلق الله خلقا يكابد ما يكابد ابن آدم . وقال سعي بن أبي
الحسن (١) : يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة . وقال قتادة :
يكابد أمر الدنيا والآخرة ، فلا تلقاه إلا في مشقة . وروى ابن
جريح عن عطاء عن ابن عباس قال : يعني حمله وولادته ، ورضاعه ،
وفصاله ، ونبت أسنانه وحياته ، ومعاشه ، ومماته . كل ذلك شدة .
قال مجاهد : حملته أمه كرها ، ووضعته كرها ، ومعيشته في شدة .
فهو يكابد ذلك ، وعلى هذا فالكبد من مكابدة الأمر ، وهي معاناة
شدته ومشقته ، والرجل يكابد الليل إذا قاسى هوله وصعوبته ،
والكبد شدة الأمر ، ومنه تكبد اللبن ، إذا غلظ واشتد . ومنه الكبد
لأنها دم يغلظ ويشتد . وانتصاب القامة والاستواء من ذلك ، لأنه
إنما يكون عن قوة وشدة ، فإن الإنسان مخلوق في شدة . بكونه في
الرحم ، ثم في القهط والرباط ، ثم هو على خطر عظيم عند بلوغه

(١) كذا في الأصل . وفي تفسير ابن كثير : وروى من طريق
أبي مودود ، سمعت الحسن قرأ هذه الآية فقال : يكابد أمر من أمر
الدنيا وأمر من أمر الآخرة

حال التكليف ، ومكابدة المعيشة ، والأمرو النهى ، ثم مكابدة الموت وما بعده فى البرزخ ، وموقف القيامة ، ثم مكابدة العذاب فى النار ولا راحة له الا فى الجنة

وفسر الكبد بشدة الخلق وإحكامه وقوته ، ومنه قول لبيد :

يَا عَيْنُ هَلَّا بِكَيْتِ أُرْبَدَ ، إِذْ فُئِمْنَا وَقَامَ الْخُصُومُ فِي كَبَدٍ (١)

أى فى شدة وعناء . وهذا يشبه قوله تعالى (٢٨ : ٨٦) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ) قال ابن عباس : أى خَلَقْنَاهُمْ ، وقال أبو عبيدة : الأسر شدة الخلق يقال : فرس شديد الأسر . قال وكل شىء شددته : من قَتَبَ أو غيره ، فهو مأسور . وقال المبرد : الأسر القوى كلها . وقال الليث : لا لاسر قوة المفاصل والواصل . وشد الله أسرفلان ، أى قوى خلقه . وكل شىء جمع طرفاه فشد أحدهما بالآخر فقد أسر . وقال الحسن : شددنا أوصالهم بعضها إلى بعض ، بالعروق والعصب . وقال مجاهد : هو الشَّرْج ، يعنى موضع البول والغائط . إذا خرج الأذى تقبضا . والمقصود أنه سبحانه أقسم فى سورة البلد على حال الانسان

وأقسم سبحانه بالبلد الأمين وهو مكة أم القرى ثم أقسم بالوالد وما ولد . وهو آدم وذريته فى قوا ، جمهور المفسرين . وعلى هذا فقد تضمن القسم أصل المكان ، وأصل

(١) هو من قصيدة يرثى بها أخاه أربد . أولها :

ما إن تعدي المنون من أحد لا والد مشفق ، ولا ولد

السكان . فمرجع البلاد إلى مكة ، ومرجع العباد إلى آدم
 وقوله (وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ) فيه قولان (أحدهما) أنه من
 الاحلال ، وهو ضد الاحرام (والثاني) أنه من الحلول وهو ضد
 الظعن . فان أريد به المعنى الاول فهو حلال ساكن البلد ، بخلاف
 المحرم الذي يحج ويعتمر ، ويرجع ، ولان أمنه إنما تظهر به النعمة
 عند الحل من الاحرام . والا ففي حال الاحرام هو في أمان
 والحرمة هناك للفعل لا للسكان . والمقصود هو ذكر حرمة المكان
 وهي إنما تظهر بحال الحل الذي لم يتلبس بما يقتضى أمنه ، ولكن
 على هذا ففيه تنبيه ، فانه اذا أقسم به ، وفيه الحل ، فاذا كان فيه
 الحرام فهو أولى بالتعظيم والأمن . وكذلك إذا أريد المعنى الثاني ،
 وهو الحلول ، فهو متضمن لهذا التعظيم ، مع تضمنه أمراً آخر .
 وهو الاقسام ببلده المشتمل على رسوله وعبد ، فهو خير البقاع
 وقد اشتمل على خير العباد ، فجعل بيته هدى للناس ، ونبيه اماما
 وهاديا لهم ، وذلك من أعظم نعمه واحسانه إلى خلقه ، كما هو من
 أعظم آياته ودلائل وحدانيته وربوبيته ، فمن اعتبر حال بيته وحال
 نبيه وجد ذلك من أظهر أدلة التوحيد والربوبية

وفي الآية قول ثالث ، وهو أن المعنى : وأنت مُسْتَحِلٌّ قَتْلِكَ
 وإخراجك من هذا البلد الأمين ، الذي يأمن فيه الطير والوحش
 والجاني . وقد استحل قومك فيه حرمتك ، وهم لا يعصدون به

شجرة ، ولا يُنْفَرُون به صيدا . وهذا مروى عن شُرْحِيل بن سعد . وعلى كل حال فهي جملة اعتراض في أثناء القسم ، موقعها من أحسن موقع وألطفه

فهذا القسم متضمن لتعظيم بيته ورسوله

ثم أنكر سبحانه على الانسان ظنه وحسابه أن لن يقدر عليه من خلقه في هذا الكبد والشدة والقوة التي يكابد بها الأمور . فان الذى خلقه كذلك أولى بالقدرة منه وأحق ، فكيف يقدر على غيره من لم يكن قادرا في نفسه ، فهذا برهان مستقل بنفسه ، مع أنه متضمن للجزاء الذى مآطه القدرة والعلم ، فنبه على ذلك بقوله (أَيْحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ) . وبقوله (أَيْحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ؟) فيحصى عليه ما عمل من خير وشر ، ولا يقدر عليه فيجازيه بما يستحقه ؟

ثم أنكر سبحانه على الانسان قوله (أَهْلَكَتُمْ مَالاً لَبِداً) وهو الكثير الذى يُبَدَّد بعضه فوق بعض ، فافتخر هذا الانسان باهلاكه وانفاقه في غير وجهه . إذ لو أنفقته في وجوهه التى أمر بانفاقه فيها ، ووضعها مواضعه ، لم يكن ذلك إهلاكا له ، بل تقربا به الى الله ، وتوصلا به الى رضاه وثوابه . وذلك ليس باهلاك له . فأنكر سبحانه افتخاره ، وتبجح به بانفاق المال في شهواته وأغراضه التى إنفاقه فيها إهلاك له

ثم وبخه بقوله (أَيْحَسْبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ؟) وأتى ههنا بلم ، الدالة على الماضي ، في مقابلة قوله (أَهَلَكْتُ مَالًا لُبَدًا) فان ذلك في الماضي . أفيحسب أن لم يره أحد فيما أنفقه وفيما أهلكه ؟ ثم ذكر برهانا مقدرا أنه سبحانه أحق بالرؤية وأولى من هذا العبد الذي له عينان يبصر بهما . فكيف يعطيه البصر من لم يره ؟ وكيف يعطيه آلة البصير ، من الشفتين واللسان ، فينطق ، ويبين عما في نفسه ، ويأمر وينهى من لا يتكلم ولا يكلم ، ولا يخاطب ، ولا يأمر ، ولا ينهى ؟ وهل كمال المخلوق مستفاد الا من كمال خالقه ؟ ومن جعل غيره عالما بجندي الخير والشر - وهما طريقاها - أليس هو أولى وأحق بالعلم منه . ومن هداه الى هذين الطريقين ، كيف يليق به أن يتركه سدى ، لا يعرفه ما يضره وما ينفعه في معاشه ومعاذه ؟ وهل النبوة والرسالة الا لتكميل هداية النجدين ؟ فدل هذا كله على اثبات الخالق وصفات كماله ، وصدق رسله ، ووعدده .

وهذه أصول الايمان التي اتفقت عليها جميع الرسل من أولهم الى آخرهم إذا تأمل الانسان حاله وخلقته وجده من أعظم الادلة على صحتها وثبوتها . فتكفي الانسان فكرته في نفسه وخلقته . والرسل بعشوا من كرين بما في الفطر والعقول ، مكملين له ، لتقوم على العبد حجة الله بفطرته ورسالته . ومع هذا فقامت عليه حجته ولم يقتحم العقبة التي بينه وبين ربه ، التي لا يصل اليها حتى يقتحمها بالا حسان

الى خلقه بفك الرقبة، وهو تخليصها من الرق، ليخلصه الله من رق نفسه،
ورق عدوه. وإطعام اليتيم والمساكين في يوم المجاعة، وبالاخلاص
له سبحانه بالايان الذي هو خالص حقه عليه. وهو تصديق خبره
وطاعة أمره، وابتغاء وجهه، وبنصيحة غيره أن يوصيه بالبر
والرحمة، ويقبل وصية من أوصاه بها، فيكون صابرا رحيما في نفسه،
معينا لغيره على الصبر والرحمة. فمن لم يقتحم هذه العقبة، وهلك
دونها هلك منقطعاً عن ربه، غير واصل اليه، بل محجوباً عنه
والناس قسمان: ناج، وهو من قطع العقبة وصار وراءها. وهالك
وهو من دون العقبة، وهم أكثر الخلق، ولا يقتحم هذه العقبة
الا المضمرّون، فانها عقبة كؤود شاقة، لا يقطعها الا خفيف الظهر.
وهم أصحاب الميمنة. والهاكون دون العقبة الذين لم يصدقوا الخبر،
ولم يطيعوا الأمر. فهم (أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ)
قد أُطْبِقَتْ عَلَيْهِمْ؛ فلا يستطيعون الخروج منها؛ كما أُطْبِقَتْ
عليهم أعمال النّفى والاعتقادات الباطلة، المنافية لما أُخْبِرَتْ به رسالته
فلم تخرج قلوبهم منها. كذلك أُطْبِقَتْ عليهم هذه النار، فلم تستطع
أجسامهم الخروج منها

فتأمل هذه السورة على اختصارها، وما اشتملت عليه من مطالب
العلم والايان. وبالله التوفيق

وأيضاً فان طريقة القرآن يذكر العلم والقدرة، تهديداً وتخويفاً

لترتب الجزاء عليهما كما قال تعالى (٦ : ٦٥ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ
يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ) وقوله تعالى (٩٦ : ٨ أَرَأَيْتَ
الَّذِي يُنْهَى ٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ١٠ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ١١
أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَى ١٢ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى ١٣ أَلَمْ يَعْلَمْ
بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى؟) وقوله تعالى (٩ : ١٠٥ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرَی
اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) وقال (٤٣ : ٨٠ أَمْ يَحْسُبُونَ
أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ؟ بَلَى، وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ)
وهذا كثير جدا في القرآن . وليس المراد به مجرد الاخبار بالقدرة
والعلم ، لكن الاخبار مع ذلك بما يترتب عليهما من الجزاء بالعدل،
فانه اذا كان قادرا أمكن مجازاته ، واذا كان عالما أمكن ذلك بالقسط
والعدل، ومن لم يكن قادرا لم يمكن مجازاته . واذا كان قادرا لکنه غير عالم
بتفاصيل الأعمال ومقادير جزائهم لم يجاز بالعدل . والرب تعالى موصوف
بكمال القدرة، وكمال العلم، فالجزاء منه موقوف على مجرد مشيئته وارادته
فحينئذ يجب على العاقل أن يطلب النجاة منه بالاخلاص والاحسان، فهو
اقتحام العقبة المتضمن للتوبة الى الله تعالى ، والاحسان الى خلقه
وقال (فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ) وهو فعل ماض ، ولم يكرر معه
« لا » اما استعمالا لأداة « لا » كاستعمال « ما » واما اجراء لهذا
الفعل مجرى الدعاء . نحو فلا سلم ولا عايش . ونحو ذلك . وإما لأن

العقبة قد فسرت بمجموع امور : فاقتحامها فعل كل واحد منها .
 فأغنى ذلك عن تكريرها . فكأنه قال : فلا فك رقة ، ولا أطعم ،
 ولا كان من الذين آمنوا

وقراءة من قرأ (فَكٌ رَقَبَةٌ) بالفعل ، كأنها أرجح من قراءة
 من قرأها بالمصدر . لان قوله (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ؟) على حد قوله
 (٦٩: ٣ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ) (٨٢: ١٧ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ) (١٠: ١٠١)
 وما أَدْرَاكَ مَا هِيَ ١١ نَارٌ حَامِيَةٌ) ونظائره ، تعظيماً لشأن العقبة
 وتفخيماً لامرها . وهي جملة اعتراض بين المفسر والمفسر . فان قوله
 (فَكٌ رَقَبَةٌ ١٣ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ
 ١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا) تفسير
 لاقتحام العقبة مكان شاق كؤود يقتحمه الناس حتى يصلوا الى الجنة
 واقتحامه بفعل هذه الامور . فمن فعلها فقد اقتحم العقبة . ويدل على
 ذلك قوله تعالى (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا) وهذا عطف على قوله
 (فَكٌ رَقَبَةٌ) والاحسن تناسب هذه الجمل المعطوفة التي هي تفسير
 لما ذكر أولاً

وأيضاً فان من قرأها بالمصدر المضاف فلا بدله من تقدير ، وهو :
 ما أدراك ما اقتحام العقبة ؟ واقتحامها فك رقة . وأيضاً فمن قرأها
 بالفعل فقد طابق بين المفسر وما فسر . ومن قرأها بالمصدر فقد

طابق بين المفسر وبعض مافسره ، فان التفسير ان كان لقوله (أَقْتَحَمَ) طابقه بقوله (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا) وما بعده دون (فَكَرَّ رَقَبَةً) وما يليه ، وان كان لقوله (الْعَقَبَةُ) طابقه (فَكَرَّ رَقَبَةً وَأَطْعَمَ) دون قوله (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا) وما بعده ، وان كانت المطابقة حاصلة معنى ، فخصوها لفظاً ومعنى أتم وأحسن

واختلف في هذه العقبة ، هل هي في الدنيا أو في الآخرة ؟ فقالت طائفة : العقبة ههنا مثل ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس والشيطان في أعمال البر . وحكوا ذلك عن الحسن ومقاتل . قال الحسن : عقبة والله شديدة : مجاهدة الانسان نفسه وهواه وعدوه والشيطان . وقال مقاتل : هذا مثل ضربه الله ، يريد أن المعتق رقبة ، والمطعم اليتيم والمسكين ، يقاوم نفسه وشيطانه ، مثل أن يتكلف صعود العقبة ، فشبّه المعتق رقبة في شدته عليه بالمكلف صعود العقبة ، وهذا قول أبي عبيدة . وقالت طائفة : بل هي عقبة حقيقة ، يصعد بها الناس . قال عطاء : هي عقبة جهنم . وقال الكلبي : هي عقبة بين الجنة والنار . وهذا قول مقاتل إنها عقبة جهنم . وقال مجاهد والضحاك : هي الصراط ، يضرب على جهنم . وهذا لعله قول الكلبي . وقول هؤلاء أصح نظر وأثر وأولغة . قال قتادة : فانها عقبة شديدة ، فاقحموها بطاعة الله . وفي أثر معروف « ان بين أيديكم عقبة كؤودا لا يقتحمها الا الخفيون » أو نحو هذا . وان الله سمي الايمان به ، وفعل ما أمر ، وترك ما نهى - عقبة .

فكثيرا ما يقع في كلام السلف الوصية بالتضرع لاقتحام العقبة . وقال بعض الصحابة : وقد حضره الموت ، فجعل يبكي ، ويقول : مالي لأبكي وبين يدي عقبة كؤود ، أهبط منها اما الى الجنة ، واما الى النار . فهذا القول أقرب الى الحقيقة ، والآثار السلفية ، والمألوف من عادة القرآن في استعماله (وَمَا أَدْرَاكَ) في الامور الغائبة العظيمة كما تقدم . والله أعلم

(٩) فصل

ومن ذلك اقسامه (١٠٥ : ١ بالتين والزيتون ٢ وطور سينين ٣ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ) فأقسم سبحانه بهذه الامكنة الثلاثة العظيمة التي هي مظاهر أنبيائه ورسله ، أصحاب الشرائع العظام ، والامم الكثيرة . فالتين والزيتون المراد به نفس الشجرتين المعروفتين ، ومنبتهما . وهو أرض بيته المقدس . فانها أكثر البقاع زيتونا وتينا . وقد قال جماعة من المفسرين : انه سبحانه أقسم بهذين النوعين من الثمار لمكان العزة فيهما . فان التين فاكهة مخلصة من شوائب التنغيص ، لا عجم له (١) وهو على مقدار اللقمة ، وهو فاكهة وقوت وغذاء وأدم . ويدخل في الادوية . ومزاجه من أعدل الامزجة ، وطبعه طبع الحياة ، الحرارة ، والرطوبة . وشكله من أحسن الاشكال .

(١) العجم محركا ، وكغراب ، نوى كل شئ .

ويدخل أكله والنظر اليه في باب المفراحت . وله لذة يمتاز بها عن سائر الفواكه ، ويزيد في القوة ، ويوافق الباءة ، وينفع من البواسير والنقرس ، ويؤكل رطبا ويابساً . وأما الزيتون ففيه من الآيات ما هو ظاهر لمن اعتبر . فان عوده يخرج ثمراً ، يعصر منه هذا الدهن الذي هو مادة النور وصنع للآكلين ، وطيب ودواء ، وفيه من مصالح الخلق ما لا يخفى . وشجره باق على عمر السنين المتطاولة . وورقه لا يسقط . وهذا الذي قالوه حق ، ولا ينافي أن يكون منبته مراداً . فان منبت هاتين الشجرتين حقيق بأن يكون من جملة البقاع الفاضلة الشريفة . فيكون الاقسام قد تناول الشجرتين ومنبتهما ، وهو مظهر عبد الله ورسوله وكلمته وروحه عيسى بن مريم ، كما أن طور سينين مظهر عبده ورسوله وكليمه موسى ، فانه الجبل الذي كلمه عليه وناجاه ، وأرسله الى فرعون وقومه

ثم أقسم بالبلد الأمين ، وهو مكة مظهر خاتم انبيائه ورسله ، سيد ولد آدم . وترقى في هذا القسم من الفاضل الى الافضل . فبدأ بموضع مظهر المسيح ، ثم ثنى بموضع مظهر الكليم . ثم ختمه بموضع مظهر عبده ورسوله ، واكرم الخلق عليه . ونظير هذا بعينه في التوراة التي أنزلها الله على كليمه موسى « جاء الله من طور سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من فاران » فجيئته من طور سيناء بعثته لموسى بن عمران ، وبدأ به على حكم الترتيب الواقع . ثم ثنى بنبوة المسيح ، ثم ختمه بنبوة محمد صلى الله عليهم وسلم . وجعل نبوة موسى بمنزلة محيى

الصبح ، ونبوة المسيح بعده بمنزلة طلوع الشمس واشراقها ، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعليهما بعدهما بمنزلة استعلانها وظهورها للعالم . ولما كان الغالب على بنى اسرائيل حكم الخس ذكر ذلك مطابقا للواقع . ولما كان الغالب على الامة الكاملة حكم العقل ذكرها على الترتيب العقلي ، وأقسم بها على بداية الانسان ونهايته . فقال (٤) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) أى فى أحسن صورة وشكل واعتدال ، معتدل القامة ، مستوى الخلقة ، كامل الصورة ، أحسن من كل حيوان سواه . والتقويم تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون فى التأليف والتعديل . وذلك صنعته تبارك وتعالى ، فى قبضة من تراب وخلقه بالمشاهدة من نطقة من ماء . وذلك من أعظم الآيات الدالة على وجوده ، وقدرته ، وحكمته ، وعلمه ، وصفات كماله . ولهذا يكررها كثيرا فى القرآن لمكان العبرة بها . والاستدلال بأقرب الطرق على وحدانيته ، وعلى المبدأ والمعاد

وتضمن - إقسامه بتلك الأمكنة الثلاثة الدالة عليه وعلى علمه وحكمته - عنايته بخلقه بأن أرسل منها رسلا أنزل عليهم كتبه ، يعرفون العباد بربهم ، وحقوقه عليهم ، وينذرونهم بالله ونقمته ، ويدعونهم الى كرامته وثوابه

ثم لما كان الناس فى اجابة هذه الدعوة فريقين ، منهم من أجاب هو منهم من أبى ، ذكر حال الفريقين . فذكر حال الأكثرين ، وهم

المردودون الى أسفل سافلين . والصحيح أنه النار . قاله مجاهد ،
والحسن ، وأبو العالية . قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : هي
النار بعضها أسفل من بعض ، وقالت طائفة ، منهم قتادة ، وعكرمة ،
وعطاء ، والكبي ، وإبراهيم : انه أرذل العمر ، وهو مروي عن ابن
عباس . والصواب القول الأول ، لوجوه ﴿ أحدها ﴾ ان أرذل
العمر لا يسمى أسفل سافلين ، لافى لغة ، ولا عرف ، وإنما أسفل
سافلين هو سجين الذي هو مكان الفجار ، كما ان عليين مكان
الابرار ﴿ الثاني ﴾ أن المردودين الى أسفل العمر بالنسبة الى نوع
الانسان قليل جداً ، فأكثرهم يموت ولا يرد الى أرذل العمر ﴿ الثالث ﴾
ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يستوونهم وغيرهم في رد من طال
عمره منهم الى أرذل العمر . فليس ذلك مختصاً بالكفار ، حتى
يستثنى منهم المؤمنين ﴿ الرابع ﴾ ان الله سبحانه لما أراد ذلك لم يخصه
بالكفار ، بل جعله لجنس بني آدم ، فقال (٥: ٢١) وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ
مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً) فجعلهم
قسمين ، قسمًا متوفى قبل الكبر ، وقسمًا مردودا الى أرذل العمر ،
ولم يسمه أسفل سافلين ﴿ الخامس ﴾ انه لا تحسن المقابلة بين أرذل
العمر وبين جزاء المؤمنين ، وهو سبحانه قابل بين جزاء هؤلاء
وجزاء أهل الايمان . فجعل جزاء الكفار أسفل سافلين . وجزاء
المؤمنين أجراً غير ممنون ﴿ السادس ﴾ * ان قول من فسره بأرذل العمر

يستلزم خلوا الآية عن جزاء الكفار وعاقبة أمرهم . ويستلزم تفسيرها بأمر محسوس . فيكون قد ترك الاخبار عن المقصود الأهم . وأخبر عن أمر يعرف بالحس والمشاهدة . وفي ذلك هضم لمعنى الآية . وتقصير بها عن المعنى اللائق بها * (السابع) * أنه سبحانه ذكر حال الانسان في مبدأه ومعاده . فبدؤه خلقه في أحسن تقويم ، ومعاده رده الى أسفل سافلين أو الى أجر غير ممنون . وهذا موافق لطريقة القرآن وعادته في ذكر مبدأ العبد ومعاده . فما لأرذل العمر وهذا المعنى المطلوب المقصود اثباته والاستدلال عليه * (الثامن) * أن أرباب القول الأول مضطرون الى مخالفة الحس ، واخراج الكلام عن ظاهره ، والتكلف البعيد له ، فانهم ان قالوا : ان الذى يرد الى أرذل العمر هم الكفار دون المؤمنين كابروا الحس ، وان قالوا : ان من النوعين من يرد الى أرذل العمر احتاجوا الى التكلف لصحة الاستثناء . فمنهم من قدر ذلك بأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا تبطل أعمالهم ، اذ اردوا الى أرذل العمر ، بل تجرى عليهم أعمالهم التى كانوا يعملونها فى الصحة . فهذا - وان كان حقا - فان الاستثناء انما وقع من الرد لامر الأجر والعمل . ولما علم أرباب هذا القول ما فيه من التكلف خص بعضهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات بقراء القرآن خاصة . فقالوا من قرأ القرآن لا يرد الى أرذل العمر . وهذا ضعيف من وجهين (أحدهما) ان الاستثناء عام فى المؤمنين ، قارئهم وأميهم ، وانه لا دليل على

ما دعوه . وهذا لا يعلم بالحس ، ولا خبر يحجب التسليم له يقتضيه والله أعلم
 * (التاسع) * أنه سبحانه ذكر نعمته على الانسان بخلقه في
 أحسن تقويم ، وهذه النعمة توجب عليه أن يشكرها بالايان
 وعبادته وحده لا شريك له ، فينقله حينئذ من هذه الدار الى أعلى
 عليين ، فاذا لم يؤمن به ، وأشرك به ، وعصى رسله ، نقله منها الى أسفل
 سافلين ، وبذلك بعد هذه الصورة التي هي في أحسن تقويم صورة
 من أقبح الصور في أسفل سافلين . فتلک نعمته عليه ، وهذا عدله فيه
 وعقوبته على كفران نعمته * (العاشر) * أن نظير هذه الآية قوله تعالى
 (٨٤ : ٢٤ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) فالعذاب الاليم هو أسفل سافلين ، والمستثنون
 هنا هم المستثنون هناك ، والأجر غير الممنون هناك هو المذكور
 هنا والله أعلم

وقوله (غَيْرُ مَمْنُونٍ) أى غير مقطوع ولا منقوص ، ولا مكدر
 عليهم ، وهذا هو الصواب . وقالت طائفة : غير ممنون به عليهم ،
 بل هو جزاء أعمالهم . ويذكر هذا عن عكرمة ومقاتل ، وهو قول
 كثير من القدرية . قال هؤلاء : إن المنة تكدر النعمة . فتمام النعمة
 أن يكون غير ممنون بها على المنعم عليه . وهذا القول خطأ قطعاً ،
 أتى أربابه من تشبيه نعمة الله على عبده بانعام المخلوق على المخلوق .
 وهذا من أبطل الباطل . فان المنة التي تكدر النعمة هي منة

المخلوق على المخلوق . وأما منة الخالق على المخلوق فيها تمام النعمة ولذتها وطيبها . فانها منة حقيقة . قال تعالى (١٧ : ٤٩) يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ إِلَى الْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) وقال تعالى (١١٤ : ٣٧) وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ١٥ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) فتكون منة عليهما بنعمة الدنيا دون نعمة الآخرة . وقال لموسى (٣٧ : ٢٠) وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى) وقال أهل الجنة (٢٧ : ٥٢) فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السُّمُومِ) وقال تعالى (٣ : ٦٤) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ (الآية) ، وقال (٢٨ : ٥) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ (الآية) . وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للانصار « ألم أجدكم ضللاً لا فهداكم الله بي ؟ ألم أجدكم عالة فأغناكم الله بي ؟ » فجعلوا يقولون له : الله ورسوله آمن . فهذا جواب العارفين بالله ورسوله . وهل المنة كل المنة الا الله المان بفضله الذى جميع الخلق فى منته ؟ وانما فبحت منة المخلوق لأنهم امنه بما ليس منه ، وهى منة يتأذى بها الممنون عليه . وأما منة المنان بفضله التى ما طاب العيش الا بمنته ، وكل نعمة منه فى الدنيا والآخرة فهى منة يمن بها على من أنعم عليه ، فتلك لا يجوز نفيها . وكيف يجوز أن يقال (م - ٤ - التبيان)

انه لا منة لله على الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى دخول الجنة ؟ وهل هذا الا من أبطل الباطل ؟

فان قيل : هذا القدر لا يخفى على من قال هذا القول من العلماء ، وليس مرادهم ما ذكر ، وانما مرادهم أنه لا يمن عليهم به ، وان كانت لله فيه المنة عليهم ، فانه لا يمن عليهم به ، بل يقال : هذا جزاء أعمالكم التى علمتموها فى الدنيا ، وهذا أجركم ، فأنتم تستوفون أجور أعمالكم لا يمن عليكم بما أعطيناكم . قيل : وهذا أيضا هو الباطل بعينه ، فان ذلك الأجر ليست الأعمال ثمناله ، ولا معاوضة عنه . وقد قال أعلم الخلق بالله صلى الله عليه وسلم « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال « ولا أنا الا أن أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل (١) » فاخبر أن دخول الجنة برحمة الله وفضله ، وذلك محض منته عليه وعلى سائر عبادہ ، وكما انه سبحانه المان بارسال رسله ، وبالتوفيق لطاعته وبالإعانة عليها ، فهو المان باعطاء الجزاء ، وذلك كله محض منته وفضله وجوده ، لاحق لأحد عليه ، بحيث اذا وفاه اياه لم يكن له عليه منة . فان كان فى الدنيا باطل فهذا ليس منه فى شيء .

فان قيل : كيف تقولون هذا وقد أخبر رسوله عنه بان حق العباد عليه اذا وحدوه أن لا يعذبهم (٢) وقد أخبر عن نفسه ان حقها عليه

(١) رواه البخارى ومسلم (٢) فى حديث معاذ المتفق عليه « هل تدرى يا معاذ ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال « حق الله على عباده أن يعيدوه ولا يشركوا به شيئا . وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا »

نصر المؤمنين ؟ قيل : لعمر الله هذان أعظم منته على عباده ، أن
جعل على نفسه حقا بحكم وعده الصادق : أن يثيبهم ولا يعذبهم اذا
عبدوه ووحده . فهذا من تمام منته ، فانه لو عذب أهل سمواته
وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولكن منته اقتضت أن أحق
على نفسه ثواب عابديه واجابة سائلها

ما للعباد عليه حق واجب * كلا ، ولا سعى لديه ضائع
ان عذبوا فبعده ، أو نُعموا * بفضله ، فهو الكريم الواسع
وقوله سبحانه (فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ) أصح القولين أن
هذا خطاب للانسان ، أى فما يكذبك بالجزاء والمعاد بعد هذا
البيان ، وهذا البرهان ؟ فتقول انك لا تبعث ولا تحاسب ، ولو
تفكرت فى مبدأ خلقك ، وصورتك ، لعلمت أن الذى خلقك أقدر
على أن يعيدك بعد موتك ، وينشئك خلقا جديدا ، وان ذلك لو
أعجزه لأعجزه وأعياه خلقك الأول . وأيضا فان الذى كمل خلقك
فى أحسن تقويم بعد أن كنت نطفة من ماء مهين ، كيف يليق به
أن يتركك سُدى ، لا يكمل ذلك بالأمر والنهى ، ويبيان ما ينفعك
ويضرك ، ولا تنقل لدار هى أكمل من هذه ، ويجعل هذه الدار
طريقا لك إليها ، فحكمة أحكم الحاكمين تأبى ذلك وتقتضى خلافه ،
قال منصور : قلت لمجاهد (فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ) عنى به محمد ؟
فقال : معاذ الله ، انما عنى به الانسان . وقال قتادة : الضمير للنبي

صلى الله عليه وسلم ، واختاره الفراء . وهذا موضع يحتاج الى شرح وبيان

يقال : كذب الرجل ، اذا قال الكذب ، وكذّبه أنا اذا نسبته الى الكذب ولو اعتقدت صدقته . وكذّبه اذا اعتقدت كذبه وان كان صادقا . قال تعالى (٣ : ١٨٤) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلُ مَنْ قَبْلِكَ) وقال (٦ : ٣٣) فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ) فالأول معنى وان ينسبك الى الكذب ، والثاني معنى لا يعتقدون انك كاذب ، ولكنهم يعاندون ويدفعون الحق بعد معرفته ، جحودا وعنادا ، هذا أصل هذه اللفظة ، ويتعدى الفعل الى الخبر بنفسه ، والى خبره بالباء ، وبني . فيقال : كذّبه بكذا ، وكذّبه فيه ، والاول أكثر استعمالا ومنه قوله (٥٠ : ٥) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ) وقوله (وكذّبوا يَا يَاتِنَا)

اذا عرف هذا ، فقوله (فَمَا يُكَذِّبُكَ) اختلف في «ما» هل هي بمعنى أى شيء يكذبك ، أو بمعنى من الذي يكذبك ؟ فمن جعلها بمعنى أى شيء ، تعين على قوله أن يكون الخطاب للانسان . أى فأى شيء يجعلك بعد هذا البيان مكذبا بالدين ، وقد وضحت لك دلائل الصدق والتصديق ؟ ومن جعلها بمعنى من الذي يكذبك ، جعل الخطاب للنبي ﷺ . قال الفراء : كأنه يقول ، من يقدر على تكذيبك بالثواب

والعقاب ، بعدما تبين له من خلق الانسان ما وصفناه ؟ وقال قتاد :
فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا بالدين ؟

وعلى قول قتادة والفراء اشكال من وجهين * (احدهما) * اقامة ما
مقام مَنْ وأمره سهل * (والثاني) * ان الجار والمجرور يستدعي
متعلقا ، وهو يكذبك . أى فمن يكذبك بالدين ؟ فلا يخلو إما أن
يكون المعنى فمن يجعلك كاذبا بالدين ، أو مكذبا به ، ولا يصح
واحد منهما . أما الثانى والثالث فظاهر . فان كذَّبه ليس معناه
جعلته مكذبا أو مكذبا . وانما معناه نسبته الى الكذب . فالمعنى على
هذا فمن يجعلك بعد كاذبا بالدين ، وهذا انما يتعدى اليه بالباء الفعل
المضاعف لا الثلاثى ، فلا يقال : كذب كذا ، وانما يقال كذب به .
وجواب هذا الاشكال ان قوله : كذب بكذا معناه كذب
الخبير به ثم حذف المفعول به لظهور العلم به ، حتى كأنه نسي
وعدوا الفعل الى المخبير به ، فاذا قيل من يكذبك بكذا ؟ فهو بمعنى
كذبوك بكذا سواء ، أى نسبوك الى الكذب فى الاخبار به ،
بل الاشكال فى قول مجاهد والجمهور ، فان الخطاب اذا كان
للانسان ، وهو المكذب . أى فاعل التكذيب ، فكيف يقال له :
مايكذبك ؟ أى يجعلك مكذبا . والمعروف كذَّبه اذا جعله كاذبا
لا مكذبا . ومثل فسَّقه اذا جعله فاسقا ، لامفَسَّقا لغيره

وجواب هذا الاشكال : ان صدَّق وكذَّب - بالتشديد -

يراد به معنيان * (أحدهما) * النسبة . وهي انما تكون للفعول كما ذكرتم
* (والثاني) * الداعي والحامل على ذلك ، وهو يكون للفاعل .
قال الكسائي : يقال ، ما صدقك بكذا ، أو ما كذبك بكذا ، أى
ما حملك على التصديق والتكذيب

قلت وهو نظير ما جراك على هذا ، أى ما حملك على الاجترأ عليه :
وما قدمك وما أخرك ، أى ما دعاك وحملك على التقديم والتأخير .
وهذا استعمال سائغ موافق للعربية وبالله التوفيق

ثم ختم السورة بقوله (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ) وهذا
تقرير لمضمون السورة ، من إثبات النبوة ، والتوحيد ، والمعاد ، وحكمه
بتضمن نصره لرسوله على من كذبه ، وجحد ما جاء به ، بالحجة
والقدرة والظهور عليه ، وحكمه بين عباده في الدنيا بشرعه وأمره ،
وحكمه بينهم في الآخرة بثوابه وعقابه ، وان أحكم الحاكمين لا يليق
به تعطيل هذه الأحكام بعد ما ظهرت حكمته في خلق الانسان في
أحسن تقويم ، ونقله في أطوار التخليق ، حالا بعد حال ، الى أكمل
الأحوال . فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن لا يجازى المحسن
باحسانه ، والمسيء باساءته ؟ وهل ذلك إلا قدح في حكمه وحكمته ؟
فله ما أخصر لفظ هذه السورة ، وأعظم شأنها ، وأتم معناها .
والله أعلم .

(۱۰) فصل

ومن ذلك قسمه سبحانه وتعالى: (٩٢: ١) اللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ٢. وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ٣ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى) وقد تقدم ذكر القسم عليه وأنه سعى الإنسان في الدنيا، وجزاؤه في الحقي. فهو سبحانه يقسم بالليل في جميع أحواله، اذ هو من آياته الدالة عليه. فأقسم به وقت غشيانه، وأتى بصيغة المضارع لانه يغشى شيئاً بعد شيء. وأما النهار فانه إذا طلعت الشمس ظهر وتجلي وهلة واحدة. ولهذا قال في سورة الشمس وضحاها) وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَآهَا. وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا) وأقسم به وقت سريانه كما تقدم. وأقسم به وقت إداره. وأقسم به اذا عَسَسَ. ف قيل معناه أدبر، فيكون مطابقا لقوله (٧٤: ٣٣) وَاللَّيْلُ إِذَا دَبَّرَ ٣٤ وَالصُّبْحُ إِذَا أَسْفَرَ) وقيل: معناه أقبل، فيكون كقوله (وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى) فيكون قد أقسم باقبال الليل والنهار. وعلى الاول يكون القسم واقعا على انصرام الليل ومجيء النهار عقبيه، وكلاهما من آيات ربوبيته

الليل والنهار بواسطة الأجرام العلوية ، كإخراج الذكر والآنثى بواسطة الأجرام السفلية . فأخرج من الأرض ذكور الحيوان وإناثه على اختلاف أنواعها ، كما أخرج من السماء الليل والنهار ، بواسطة الشمس فيها . واقسم سبحانه بزمان السعي وهو الليل والنهار وبالساعي ، وهو الذكر والآنثى ، على اختلاف السعي ، كما اختلف الليل والنهار ، والذكر والآنثى ، وسعيه وزمانه مختلف ، وذلك دليل على اختلاف جزائه وثوابه ، وأنه سبحانه لا يسوى بين من اختلف سعيه في الجزاء ، كما لم يستو بين الليل والنهار والذكر والآنثى

ثم أخبر عن تفرقه بين عاقبة سعي المحسن وعاقبة سعي المسيء فقال (٥) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ٦ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ٧ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ٨ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ٩ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ١٠ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (فتضمنت الآيتان ذكر شرعه ، وذكر الاعمال وجزائها ، وحكمة القدر في تيسير هذا اليسرى ، وهذا اليسرى ، وأن العبد ميسر بأعماله لغاياتها ، ولا يظلم بك أحدا . وذكر للتيسير اليسرى ثلاثة أسباب (أحدها) إعطاء العبد ، وحذف مفعول الفعل إرادة للإطلاق والتعميم ، أى أعطى ما أمر به وسمحت به طبيعته ، وطاوعته نفسه ، وذلك يتناول إعطاءه من نفسه الايمان والطاعة ، والاخلاص ، والتوبة ، والشكر وإعطاءه الاحسان ، والنفع بماله ، ولسانه ، وبدنه ، ونيته ، وقصده ، فتكون نفسه نفساً مطيعة باذلة ، لالئمة مانعة ، فالنفس المطيعة هي النافعة

المحسنة ، التي طبعها الاحسان واعطاء الخير اللازم والمتعدى ، فتعطى خيرا لها نفسها ولغيرها ، فهي بمنزلة العين التي ينتفع الناس بشرهم منها ، وسقى دوابهم وأنعامهم وزرعهم ، فهم ينتفعون بها كيف شاءوا . فهي ميسرة لذلك ، وهكذا الرجل المبارك ميسر للنفع حيث حل . فجزاء هذا أن ييسره الله لليسرى كما كانت نفسه ميسرة للعطاء .

(السبب الثاني) التقوى ، وهي اجتناب ما نهى الله عنه ، وهذا من أعظم أسباب التيسير ، وضده من أسباب التعسير ، فالمتقى ميسرة عليه أمور دنياه وآخرته ، وتارك التقوى وان يسر عليه بعض أمور دنياه تعسر عليه من أمور آخرته بحسب ما تركه من التقوى . وأما تيسير ما تيسر عليه من أمور الدنيا ، فلو اتقى الله لكان تيسيرها عليه أتم ، ولو قدر أنها لم تيسر له فقد يسر الله له من الدنيا ما هو انفع له مما ناله بغير التقى ، فان طيب العيش ، ونعيم القلب ، ولذة الروح ، وفرحها وابتهاجها من أعظم نعيم الدنيا ، وهو أجل من نعيم أرباب الدنيا بالشهوات واللذات . وقال تعالى (٦٥:٤) وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا) فأخبر أنه يُيسر على المتقى ما لا ييسر على غيره . وقال تعالى (٦٥:٢) وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) وهذا أيضاً ييسر عليه بتقواه . وقال تعالى (٦٥:٥) وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا) وهذا ييسر عليه بازالة ما يحشاه ، واعطائه ما يحبه ويرضاه . وقال (٢٩:٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ (وهذا يتيسر بالفرقان المتضمن النجاة ، والنصر ، والعلم ، والنور ، الفارق بين الحق والباطل ، وتكفير السيئات ، ومغفرة الذنوب وذلك غاية التيسير . وقال تعالى (٣ : ١٣٠) وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) والفلاح غاية اليسر ، كما أن الشقاء غاية العسر . وقال تعالى (٥٧ : ٢٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ) فضمن لهم سبحانه بالتقوى ثلاثة أمور : أعطاهم نصيبين من رحمته نصيبا في الدنيا ، ونصيبا في الآخرة وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة فيصير نصيبين * (الثاني) * أعطاهم نوراً يمشون به في الظلمات * (الثالث) * مغفرة ذنوبهم وهذا غاية التيسير فقد جعل سبحانه التقوى سبب لكل يسر ، وترك التقوى سبباً لكل عسر * (السبب الثالث) * التصديق بالحسنی ، وفسرت بلا إله إلا الله ، وفسرت بالجنة ، وفسرت بالخلف ، وهي أقوال السلف ، واليسرى صفة لموصوف محذوف ، أى الحالة والخلة اليسرى ، وهي فعلی من اليسرى . والأقوال الثلاثة ترجع الى أفضل الأعمال ، وأفضل الجزاء . فمن فسر بها بلا إله إلا الله فقد فسرهما بمفرد يأتى بكل جمع ، فان التصديق الحقيقي بلا إله إلا الله يستلزم التصديق بشعبها وفروعها كلها ، وجميع أصول الدين وفروعه من شعب هذه الكلمة . فلا يكون العبد مصداقاً بها حقيقة التصديق حتى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ، ولا يكون مؤمناً بالله إله العالمين حتى يؤمن

بصفات جلاله ونعوت كماله ، ولا يكون مؤمنا بأن الله لا إله إلا هو
حتى يسلب خصائص الألوهية عن كل موجود سواه ، ويسلبها عن
اعتقاده وأرادته ، كما هي منفية في الحقيقة والخارج ، ولا يكون
مصدقا بهامن نفي الصفات العليا ، ولا من نفي كلامه وتكليمه ، ولا
من نفي استوائه على عرشه ، وأنه يرفع إليه الكلم الطيب والعمل
الصالح ، وأنه رفع المسيح إليه ، وأسرى برسوله صلى الله عليه
وسلم إليه ، وأنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه ، إلى
سائر ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا
يكون مؤمنا بهذه الكلمة مصدقا بها على الحقيقة من نفي عموم خلقه
لكل شيء ، وقدرته على كل شيء ، وعلمه بكل شيء ، وبعثه الأجساد
من القبور ليوم النشور ، ولا يكون مصدقا بها من زعم أنه يترك
خلقه سدى ، لم يأمرهم ولم ينههم على السنة رسله ، وكذلك
التصديق بها يقتضى الإذعان والإقرار بحقوقها ، وهى شرائع الإسلام
التي هى تفصيل هذه الكلمة بالتصديق بجميع أخباره ، وأمثاله
أو أمره ، واجتتاب نواهيه ، هو تفصيل لا إله إلا الله . فالمصدق بها
على الحقيقة الذى يأتى بذلك كله ، وكذلك لم تحصل عصمة المال
والدم على الإطلاق إلا بها وبالقيام بحقها ، وكذلك لا تحصل النجاة
من العذاب على الإطلاق إلا بها وبحقها . فالعقوبة فى الدنيا والآخرة
على تركها ، أو ترك حقها

ومن فسر الحسنى بالجنة فسرهما بأعلى أنواع الجزاء وكأله . ومن
فسرها بالخلف ذكر نوعاً من الجزاء . فهذا جزاء دنيوى ، والجنة
الجزاء فى الآخرة فرجع التصديق بالحسنى الى التصديق بالايمان
وجزائه . والتحقيق أنها تتناول الأمرين

وتأمل ما اشتملت عليه هذه الكلمات الثلاث - وهى الاعطاء ،
والتقوى ، والتصديق بالحسنى - من العلم والعمل ، وتضمنته من الهدى
ودين الحق . فان النفس لها ثلاث قوى : قوة البذل والاعطاء ، وقوة
الكف والامتناع ، وقوة الادراك والفهم . ففيها قوة العلم والشعور
ويتبعها قوة الحب والارادة ، وقوة البغض والنفرة . فهذه القوى
الثلاثة عليها مدار صلاحها وسعادتها ، وبفسادها يكون فسادها
وشقاؤها . ففساد قوة العلم والشعور يوجب له التكذيب بالحسنى ،
وفساد قوة الحب والارادة يوجب له ترك الاعطاء . وفساد قوة
البغض والنفرة يوجب له ترك الاتقاء ، فاذا كملت قوة حبه وارادته
باعطائه ما أمر به . وقوة بغضه ونفرته باتقائه ما نهى عنه . وقوة
علمه وشعوره بتصديقه بكلمة الاسلام وحقوقها وجزائها . فقد
زكى نفسه ، وأعدّها لكل حالة يسرى ، فصارت النفس بذلك
ميسرة لليسرى

ولما كان الدين يدور على ثلاث قواعد : فعل المأمور ، وترك

المحذور ، وتصديق الخبر . وان شئت قلت : الدين طلب ، وخبر
والطلب نوعان : طلب فعل ، وطلب ترك . فقد تضمنت هذه
الكلمات الثلاث مراتب الدين أجمعها . فالاعطاء فعل المأمور ،
والتقوى ترك المحذور . والتصديق بالحسن تصديق الخبر . فانتظم
ذلك الدين كله . وأكمل الناس من كملت له هذه القوى الثلاث ،
ودخول النقص بحسب نقصانها أو بعضها ، فمن الناس من يكون
قوة إعطائه وبذله أتم من قوة انكفائه وتركه ، فقوة الترك فيه أضعف
من قوة الاعطاء ، ومن الناس من يكون قوة الترك والانكفاف
فيه أتم من قوة الاعطاء والمنع ، ومن الناس من يكون فيه قوة
التصديق أتم من قوة الاعطاء والمنع ، فقوته العلمية والشعورية أتم
من قوته الارادية وبالعكس ، فيدخل النقص بحسب ما نقص من
قوة هذه القوى الثلاث ، ويفوته من التيسير اليسرى بحسب
ما فاتته منها ، ومن كملت له هذه القوى يسر لكل يسرى . قال ابن
عباس (فَسَيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى) أى نهيه لعمل الخير ، تيسر عليه أعمال
الخير . وقال مقاتل ، والكلي ، والفراء : نيسره للعود الى العمل الصالح
وحقيقة اليسرى أنها الحلة والحالة السهلة النافعة الواقعة له ،
وهى ضد العسرى . وذلك يتضمن تيسيره للخير وأسبابه ، فيجرى
الخير ، ويسر على قلبه ، ويديه ولسانه ، وجوارحه . فتصير خصال
الخير ميسرة عليه ، مذلة له منقادة ، لا تستعصى عليه ، ولا

تستعصب، لانه مهيأ لها، ميسر لفعليها . يسلك سبلها ذللا ، وتقاد له
عليها وعملا . فاذا خالته قلت هو الذي قيل فيه :

مبارك الطلعة ميمونها * يصلح للدنيا وللدين
(وأمانَ بَحَلْ) فعطل قوة الارادة والاعطاء عن فعل ما أمر
به (واستغنى) بترك التقوى عن ربه ، فعطل قوة الانكفاف
والترك عن فعل ما نهى عنه (وكَذَّبَ بِالْحُسْنِ) فعطل قوة العلم
والشعور عن التصديق بالايان وجزائه (فَتَسَيَّرُهُ لِلْعُسْرِ) قال
عطاء : سوف أحول بين قلبه وبين الايمان بى وبرسولى . وقال
مقاتل : يعسر عليه أن يعطى خيرا . وقال عكرمة ، عن ابن عباس :
نيسره للشر . قال الواحدى : وهذا هو القول . لأن الشر يؤدى
إلى العذاب ، فهو الخلة العسرى . والخير يؤدى الى اليسر ، والراحة
فى الجنة ، فهو الخلة اليسرى : يقول سنيهؤه للشر ، بأن يجريه على
يديه . قال الفراء : العرب تقول قد يَسَرَّتْ غنم فلان اذا تهيأت
للولادة ، وكذلك اذا ولدت وغزرت ألبانها ، أى يَسَرَّتْ ذلك
على أصحابها . انتهى

والتيسير للعسرى يكون بأمرين * (أحدهما) * أن يحول بينه
وبين أسباب الخير ، فيجرى الشر على قلبه ونيتة ولسانه وجوارحه
* (والثانى) * أن يحول بينه وبين الجزاء الأيسر ، كما حال بينه وبين أسبابه

فان قيل : كيف قابل اتقى باستغنى ؟ وهل يمكن العبد أن يستغنى
عن ربه طريقة عين ؟

قيل : هذا من أحسن المقابلة ، فان المتقى لما استشعر فقره وفاقته
وشدة حاجته الى ربه اتقاه ، ولم يتعرض لسخطه - وغضبه ومقته
بارتكاب ما نهاه عنه . فان من كان شديد الحاجة والضرورة الى
شخص ، فانه يتقى غضبه وسخطه عليه غاية الاتقاء ، ويجانب ما يكرهه
غاية المجانبة ، ويعتمد فعل ما يحبه ويؤثره . فقابل التقوى بالاستغناء
تبشيعا لحال تارك التقوى ، ومبالغة في ذمه ، بأن فعل فعل المستغنى عن
ربه ، لا فعل الفقير المضطر اليه الذى لا ملجأ له الا اليه ، ولا غنى له
عن فضله وجوده وبره طريقة عين . فله ما أحلى هذه المقابلة وما أجمع
هاتين الآيتين للخيرات كلها وأسبابها ، والشروع كلها وأسبابها .
فسبحان من تعرف الى خصائص عبادته بكلامه ، وتجلي لهم فيه ، فهم
لا يطلبون أثرا بعد عين ، ولا يستبدلون الحق بالباطل ، والصدق بالمين
وقد تضمنت هاتان الآيتان فصل الخطاب فى مسألة القدر ،
وازالة كل لبس واشكال فيها . وذلك بين بحمد الله لمن وفق لفهمه .
ولهذا أجاب بها النبي صلى الله عليه وسلم من أورد عليه السؤال الذى
لا يزال الناس يلهجون به فى القدر . فأجاب بفصل الخطاب وأزال
الاشكال . ففى الصحيحين من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما منكم من أحد إلا وقد علم

مقعده من الجنة والنار» قيل : يارسول الله ، أفلا ندع العمل ،
وتتكل على الكتاب ؟ قال «اعملوا ، فكل مُيسر لما خلق له» ثم قرأ
(فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ) فقد
تضمن هذا الحديث الرد على القدرية والجبرية ، وإثبات القدر
والشرع ، وإثبات الكتاب الأول المتضمن لعلم الله سبحانه الأشياء قبل
كونها ، وإثبات خلق الفعل الجزائي . وهو يبطل أصول القدرية
الذين يمنعون خلق الفعل مطلقا ، ومن أقر منهم بخلق فعل الجزاء
دون الابتداء هدم أصله ، ونقض قاعدته . والنبي صلى الله عليه
وسلم أخبر بمثل ما أخبر به الرب تعالى « ان العبد ميسر لما خلق له »
لا مجبور . فالجبر لفظ بدعي . والتيسير لفظ القرآن والسنة . وفي
الحديث دلالة على أن الصحابة كانوا أعلم الناس بأصول الدين .
فإنهم تلقوها عن أعلم الخلق بالله على الإطلاق . وكانوا إذا استشكلوا
شيئاً سألوه عنه . وكان يجيبهم بما يزيل الإشكال ، ويبين الصواب .
فهم العارفون بأصول الدين حقا ، لا أهل البدع والاهواء من
المتكلمين ومن سلك سبيلهم

وفي الحديث استدلال النبي صلى الله عليه وسلم على مسائل أصول
الدين بالقرآن ، وإرشاده الصحابة لاستنباطها منه ، خلافا لمن زعم
أن كلام الله ورسوله لا يفيد العلم بشيء من أصول الدين ، ولا يجوز
أن تستفاد معرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله منه . وعبر عن ذلك
بقوله : الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين

وفي الحديث بيان أن من الناس من خلق للسعادة ، ومنهم من خلق للشقاوة ، خلافا لمن زعم أنهم كلهم خلقوا للسعادة ، ولكن اختاروا الشقاوة ، ولم يخلقوا لها . وفيه اثبات الاسباب ، وأن العبد ميسر للأسباب الموصلة له الى ما خلق له . وفيه دليل على اشتقاق السنة من الكتاب ، ومطابقتها له . فتأمل قوله ﷺ «اعملوا فكل ميسر لما خُلق له» ومطابقته لقوله تعالى (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى - الى آخر

الآيتين) كيف انتظم الشرع والقدر ، والسبب والمسبب ؟

وهذا الذي أرشد اليه النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي فطر الله عليه عباده ، بل الحيوان البهيم ، بل مصالح الدنيا وعمارتها بذلك ، فلو قال كل أحد : إن قدر لي كذا وكذا فلا بد أن أناله . وإن لم يقدر فلا سبيل إلى نيله ، فلا أسعى ولا أتحرك ، لعُدّ من السفهاء الجاهل ، ولم يمكنه طرد ذلك أبدا ، وإن أتى به في أمر معين . فهل يمكنه أن يطرد ذلك في مصالحه جميعها ، من طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه ، وهروبه مما يضاد بقاءه وينافي مصالحه ، أم يجد نفسه غير منفكة ألبته عن قول النبي صلى الله عليه وسلم «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» ؟ فإذا كان هذا في مصالح الدنيا ، وأسباب منافعتها ، فما الموجب لتعطيله في مصالح الآخرة ، وأسباب السعادة والفلاح فيها ، ورب الدنيا والآخرة واحد ؟ فكيف يُعطل ذلك في شرع الرب وأمره ونهيه ، ويُستعمل في إرادة العبد واعراضه (م ٥ - التبيان)

وشهواته ؟ وهل هذا الا محض الظلم والجهل ، والالانسان ظلوم
جهول ، ظلوم لنفسه ، جهول بربه . فهذا الذى أرشد اليه النبي صلى
الله عليه وسلم ، وتلا عنده هاتين الآيتين ، موافقاً لما جعله الله فى عقول
العقلاء ، وركب عليه فطر الخلائق ، حتى الحيوان البهيم ، وأرسل به
جميع رسله ، وأنزل به جميع كتبه

ولواتكل العبد على القدر ولم يعمل لتعطلت الشرائع ، وتعطلت
مصالح العالم ، وفسد أمر الدنيا والدين ، وانما يستروح الى ذلك
معطلوا الشرائع ، ومن خلع ربقة الأوامر والنواهي من عنقه ،
وذلك ميراث من اخوانهم المشركين الذين دفعوا أمر الله ونهيه ،
وعارضوا شرعه بقضائه وقدره ، كما حكى الله سبحانه ذلك عنهم فى
غير موضع من كتابه كقوله تعالى (٦ : ١٤٨) سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا
لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ، وَلَا آبَاؤُنَا ، وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ كَذَبَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا ، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ
فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ؟ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تُخْرِصُونَ ١٤٩ قُلْ
فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ، فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) وقال تعالى (١٦ : ٣٥) وَقَالَ
الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا
آبَاؤُنَا وَلَا ، حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ،
فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ؟) وقال تعالى (٤٣ : ٢٠) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ

الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاكُمْ، مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (وقال تعالى) ٤٧ : ٣٦ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ، قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ؟ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ

فان قيل : فالاعطاء، والتقوى ، والتصديق بالحسنى، هى من اليسرى، بل هى أصل اليسرى ، من يسرها للعبد أولاً؟ وكذلك أضدادها؟ قيل : الله سبحانه هو الذى يسر للعبد أسباب الخير والشر وخلق خلقه قسمين : أهل سعادة ، فيسرههم لليسى ، وأهل شقاوة ، فيسرههم للعسرى . واستعمل هؤلاء فى الأسباب التى خلقوا لغاياتها، لا يصلحون لسواها . وهؤلاء فى الأسباب التى خلقوا لغاياتها لا يصلحون لسواها ، وحكمته الباهرة تأبى أن يضع عقوبته فى موضع لا يصلح له ، كما يأبى أن يضع كرامته وثوابه فى محل لا يصلح لهما ، ولا يليق بهما . بل حكمة آحاد خلقه تأبى ذلك . ومن جعل محل المسك والرجيع واحداً فهو من أسفه السفهاء

فان قيل : فلم جعل هذا لا يليق به الا الكرامة ، وهذا لا يليق به الا الاهانة ؟ قيل : هذا سؤال جاهل ، لا يستحق الجواب ، كأنه يقول : لم خلق الله كذا وكذا ؟

فان قيل : وعلى هذا ، فهل لهذا الجاهل من جواب ، لعله يشقى من جهله ؟ قيل : نعم ، شأن الربوبية خلق الاشياء وأضدادها ،

وخلق الملزومات ولوازمها ، وذلك هو محض الكمال . فالعلو لازم
وملزوم للسفل ، والليل لازم وملزوم للنهار ، وكال هذا الوجود
بالحر والبرد ، والصحو والغيم . ومن لوازم الطبيعة الحيوانية الصحة
والمرض ، واختلاف الارادات والمرادات ، ووجود اللازم بدون
ملزومه ممتنع ، ولولا خلق المتضادات لما عرف كمال القدرة والمشية
والحكمة ، ولما ظهرت أحكام الاسماء والصفات . وظهور أحكامها
وآثارها لا بد منه ، إذ هو مقتضى الكمال المقدس ، والمملك التام .
وإذا أعطيت اسم المملك حقه - ولن تستطيع - علمت أن الخلق
والامر ، والثواب والعقاب ، والعطاء والحرمان ، أمر لازم لصفة المملك ،
وان صفة المملك تقتضى ذلك ولا بد ، وان تعطيل هذه الصفة أمر
ممتنع . فالمملك الحق يقتضى ارسال الرسل ، وانزال الكتب ، وأمر العباد ،
ونهيهم ، وثوابهم ، وعقابهم ، وإكرام من يستحق الاكرام ، وإهانة
من يستحق الإهانة ، كما تستلزم حياة المملك ، وعلمه ، وإرادته ،
وقدرته ، وسمعه ، وبصره ، وكلامه ، ورحمته ، ورضاه ، وغضبه ،
واستواءه على سرير ملكه ، يدبر أمر عباده . وهذه الاشارة تكفى
اللييب فى مثل هذا الموضع ، ويطلع منها على أرض موقنة ، وكنوز
من المعرفة . وبالله التوفيق

(١١) فصل

ثم قال تعالى (١٢) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ١٣ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ) قيل : معناه ، ان علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال . قال قتادة : على الله البيان ، بيان حلاله وحرامه ، وطاعته ومعصيته . اختاره أبو اسحاق ، وهو قول مقاتل ، وجماعة ، وهذا المعنى حق . ولكن مراد الآية شيء آخر . وقيل : المعنى إن علينا الهدى والاضلال قال ابن عباس رضى الله عنهما ، فى رواية عطاء : يريد ، أرشد أوليائى الى العمل بطاعتي ، وأحول بين أعدائى وبين أن يعملوا بطاعتي . قال الفراء : فترك ذكر الاضلال ، كما قال (١٦ : ٨١) سَرَّائِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ) أى والبرد . وهذا أضعف من القول الاول ، وان كان معناه صحيحا . فليس هو معنى الآية . وقيل ، المعنى : من سلك الهدى فعلى الله سبيله ، كقوله (١٦ : ٩) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ) وهذا قول مجاهد . وهو أصح الاقوال فى الآية . قال الواحدى : علينا للهدى ، أى إن الهدى يوصل صاحبه الى الله ، والى ثوابه وجنته . وهذا المعنى فى القرآن فى ثلاث مواضع : ههنا ، وفى النحل فى قوله (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ) وفى الحجر فى قوله (١٥ : ٤١) هُذَاهُ طَرِيقُ عَلَى مُسْتَقِيمٍ) وهو معنى شريف جليل ، يدل على أن سالك طريق

الهدى يوصله طريقه الى الله ولا بد ، والهدى هو الصراط المستقيم
فمن سنكته أوصله الى الله ، فذكر الطريق والغاية ، فالطريق الهدى ،
والغاية الوصول الى الله . فهذه أشرف الوسائل ، وغايتها أعلى الغايات .
ولما كان المطلوب السالك الى الله تحصيل مصالح دنياه وآخرته لم يتم
له هذا المطلوب الا بتوحيد طلبه والمطلوب منه . فأعلمه سبحانه
أن سواه لا يملك من الدنيا والآخرة شيئاً ، وأن الدنيا والآخرة
جميعاً له وحده ، فاذا تيقن العبد ذلك اجتمع طلبه ومطلوبه على من
يملك الدنيا والآخرة وحده ، فتضمنت الآيتان أربعة أمور ، هي
المطالب العالية : ذكر أعلى الغايات ، وهو الوصول الى الله سبحانه ،
وأقرب الطرق والوسائل اليه ، وهي طريقة الهدى . وتوحيد
الطريق فلا يعدل عنها الى غيرها . وتوحيد المطلوب ، وهو الحق .
فلا يعدل عنه الى غيره . فاقتبس هذه الامور من مشكاة هذه
الكلمات ، فان هذه غاية العلم والفهم . وبالله التوفيق

والهدى التام يتضمن توحيد المطلوب ، وتوحيد الطلب ، وتوحيد
الطريق الموصلة ، والانقطاع . وتختلف الوصول يقع من الشركة في
هذه الامور ، أو في بعضها ، فالشركة في المطلوب تنافي التوحيد
والاخلاص ، والشركة في الطلب تنافي الصدق والعزيمة ، والشركة
في الطريق تنافي اتباع الامر . فالاول يوقع في الشرك والرياء .
والثاني يوقع في المعصية والبطالة . والثالث يوقع في البدعة ومفارقة
السنة . فتأمل

فتوحيد المطلوب يعصم من الشرئ ، وتوحيد الطلب يعصم من المعصية ، وتوحيد الطريق يعصم من البدعة . والشيطان إنما يَنْصِبُ فَخَّةَ هذه الطرق الثلاثة

ولما أقام سبحانه الدليل ، وأثار السبيل ، وأوضح الحجة ، وبين المحجة ، أُنذر عباده عذابه الذى أعدّه لمن كذب خبره ، وتولى عن طاعته . وجعل هذا الصنف من الناس هم أشقاهم ، كما جعل أسعدهم أهل التقوى والاحسان والاخلاص . فهذا الصنف هو الذى يُجَنَّبُ عذابه ، كما قال (١٧: ٩٢) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ١٨ الذى يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (فهذا المتقى المحسن لا يفعل ذلك الا ابتغاء وجه ربه ، فهو مخلص فى تقواه واحسانه

وفى الآية الارشاد الى أن صاحب التقوى لا ينبغي له أن يتحمل من الخاق ونعمهم ، وان حمل منهم شيئاً بادر الى جزائهم عليه ، لئلا يتبقى لاحد من الخلق عليه نعمة تجزى ، فيكون بعد ذلك عمله كله لله وحده ، ليس للمخلوق جزاء على نعمته

ونبه بقوله (تُجْزَى) على أن نعمة الاسلام التى لرسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا الاتقى لا تجزى ، فان كل ذى نعمة يمكن جزاء نعمته بالنعمة الاسلام ، فانها لا يمكن المنعم بها عليه أن يجزى بها ، وهذا يدل على أن الصديق رضى الله عنه أول وأولى من ذكر فى هذه الآية ، وأنه أحق الامة بها . فان علياً رضى الله عنه تربى فى بيت

النبي صلى الله عليه وسلم ، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم عنده نعمة
غير نعمة الاسلام ، يمكن أن تجزى

ونبه سبحانه بقوله (إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى) على أن من ليس
للمخلوق عليه نعمة تجزى لا يفعل ما يفعله إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ،
بخلاف من تطوَّق نعم المخلوقين ومنهم ، فانه مضطر الى أن يفعل
لأجلهم ، ويترك لأجلهم ، ولهذا كان من كمال الاخلاص أن لا يجعل العبد
عليه منة لأحد من الناس ، لتكون معاملته كلها ابتغاء وجهه ، وطلب
مرضاته. فكما أن هذه الغاية أعلى الغايات وهذا المطلوب أشرف المطالب
فهذه الطريق أقصد الطرق اليه ، وأقربها وأقومها . وبالله التوفيق

(١٢) فصل

ومن ذلك اقسامه سبحانه: (١: ٩٣) الضحى والليل إذا سجى
على إنعامه على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وإكرامه له ، واعطائه ما يرضيه ،
وذلك متضمن لتصديقه له ، فهو قسم على صحة نبوته ، وعلى جزائه
في الآخرة ، فهو قسم على النبوة والمعاد ، وأقسم بآيتين عظيمتين من آياته
دالتين على ربوبيته ، وحكمته ، ورحمته ، وهما الليل والنهار

فتأمل مطابقة هذا القسم ، وهو نور الضحى الذى يوافى بعد ظلام الليل
للمقسم عليه ، وهو نور الوحي الذى وافاه بعد احتباسه عنه ، حتى
قال أعداؤه : ودع محمداً ربه . فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل

على ضوء الوحي ونوره ، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه . وأيضاً فان
فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار هو الذى فلق ظلمة الجهل والشرك
بنور الوحي والنبوة . فهذان للحس ، وهذان للعقل . وأيضاً فان
الذى اقتضت رحمته أن لا يترك عباده فى ظلمة الليل سرمداً ، بل هداهم
بضوء النهار إلى مصالحهم ومعاشهم ، لا يليق به أن يتركهم فى ظلمة الجهل
والغى ، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم
فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه ، وتأمل هذه الجزالة

والرواق الذى على هذه الألفاظ ، والجلالة التى على معانيها
ونفى سبحانه أن يكون ودع نبيه أو قلاه ، فالتوديع الترك ،
والقلى البغض ، فتركه منذ اعتنى به وأكرمه ، ولا أبغضه منذ أحبه .
وأطلق سبحانه أن الآخرة خير له من الأولى وهذا يعم كل حالة رقيه إليها
هى خير له مما قبلها ، كما أن الدار الآخرة خير له مما قبلها . ثم وعده بما تقر به
عينه ، وتفرح به نفسه ، وينشرح به صدره ، وهو أن يعطيه فيرضى
وهذا يعم ما يعطيه من القرآن ، والهدى ، والنصر ، وكثرة الاتباع ،
ورفع ذكره ، وإعلاء كلمته ، وما يعطيه بعد مماته ، وما يعطيه فى
موقف القيامة ، وما يعطيه فى الجنة ، وأما ما يعتر به الجهال ، من
أنه لا يرضى وواحد من أمته فى النار ، أو لا يرضى أن يدخل أحد
من أمته النار !! فهذا من غرور الشيطان لهم ، ولعبه بهم ، فانه صلوات
الله وسلامه عليه يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى ، وهو
سبحانه يدخل النار من يستحقها من الكفار والعصاة ، ثم يحذر سوله

حدًا يشفع فيهم ، ورسوله أعرف به وبحقه من أن يقول : لا أَرْضَى
أن يدخل أحدا من أمتي النار على أن يدعه فيها ، بل ربه تبارك وتعالى
يأذن له ، فيشفع فيمن شاء الله أن يشفع فيه ، ولا يشفع في غير من
أذن له فيه ورضيه

ثم ذكر سبحانه نعمه عليه من إيوائه بعد يتمه ، وهدايته بعد
الضلالة ، واغناؤه بعد الفقر . فكان محتاجا الى من يؤويه ويهديه
ويغنيه ، فأواه ربه ، وهداه ، وأغناه . فأمره سبحانه أن يقابل هذه النعم
الثلاث بما يليق بها من الشكر . فنهاه أن يَقْهَرَ الْيَتِيمَ ، وأن يَنْهَرَ
السَّائِلَ ، وأن يَكْتُمَ النِّعْمَةَ ، بل يحدث بها . فأوصاه سبحانه باليتامى
والفقراء والمتعلمين . قال مجاهد ، ومقاتل : لا تحقر اليتيم ، فقد كنت
يتيما . وقال الفراء : لا تقهره على ماله ، فتذهب بحقه لضعفه .
وكذلك كانت العرب تفعل في أمر اليتامى ، تأخذ أموالهم وتظلمهم
فغلاظ الخطاب في أمر اليتيم . وكذلك من لا ناصر له يغلاظ في أمره ،
وهو نهى لجميع المكلفين

(وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ) قال أكثر المفسرين : هو سائل
المعروف والصدقة ، لا تنهره ، إذا سألك . فقد كنت فقيرا ، فاما
أن تطعمه ، وإما أن ترده ردًّا لئِنَّا . قال الحسن : أما إنه ليس
بالسائل الذي يأتيك ، ولكن طالب العلم . وهذا قول يحيى بن آدم
قال : اذا جاءك طالب العلم فلا تنهره . والتحقيق ان الآية تتناول النوعين

وقوله (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) قال مجاهد : بالقرآن .
وقال الكلبي : بمعنى أظهرها ، والقرآن أعظم ما أنعم الله به عليه ،
فأمره أن يقرئه ويعلمه . وروى أبو بشر ، عن مجاهد : حدث بالنبوة
التي أعطاك الله . وقال الزجاج : بَلَّغْ ما أرسلت به . وحدث بالنبوة
التي آتاك ، وهي أجل النعم ، وقال مقاتل : أشكر هذه النعمة التي
ذكرت في هذه السورة . والتحقيق ان النعم تعم هذا كله فأمر أن
لا ينهر سائل المعروف ، والعلم وأن يحدث بنعم الله عليه في
الدين والدنيا

(١٣) فصل

ومن ذلك اقسامه سبحانه بـ (١٠٠: ١) العَادِيَاتِ ضَبْحًا ٢ فالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ٣
فَالْمُعِيرَاتِ صُبْحًا) وقد اختلف الصحابة ومن بعدهم في ذلك ،
فقال علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما :
هي إبل الحاج ، تعدو من عرفة إلى مزدلفة ، ومن مزدلفة إلى منى ،
وهذا اختيار محمد بن كعب ، وأبي صالح ، وجماعة من المفسرين .
وقال عبد الله بن عباس : هي خيل الغزاة ، وهذا قول أصحاب
ابن عباس ، والحسن ، وجماعة ، واختاره الفراء ، والزجاج ، قال
أصحاب الابل : السورة مكية ، ولم يكن ثم جهاد ولا خيل تجاهد .
وانما أقسم بما يعرفونه ويألفونه ، وهي إبل الحاج إذا عدت من

عرفة الى مزدلفة ، فهي عاديات ، والضَّيْح والضَّبْع مد الناقة ضبعها
في السير ، يقال ضبحت وضبعت بمعنى واحد ، وأنشد أبو عبيدة ،
وقد اختار هذا القول :

فكان لكم أجرى جميعا وأضبحت * بي البازل الوجناء في الآل تضبِح
قالوا فهي تعدو ضبِحا ، فتورى بأخفافها النار من حك الأحجار
بعضها ببعض ، فتثير النقع - وهو الغبار - بعدوها . فيتوسط جمعا ،
وهي المزدلفة

قال أصحاب الخيل : المعروف في اللغة أن الضبِح أصوات
أنفاس الخيل اذاعدون ، والمعنى والعاديات ضابحة ، فيكون ضبِحا
مصدرا على الأول ، وحالا على الثاني . قالوا : والخيل هي التي
تضبِح في عدوها ضبِحا ، وهو صوت يسمع من أجوافها ، ليس
بالصهيل ولا المحممة ، ولكن صوت أنفاسها في أجوافها من شدة
العدو ، وقال الجرجاني : كلا القولين قد جاء في التفسير ، الا أن
السياق يدل على أنها الخيل ، وهو قوله تعالى (فالمُورياتِ قَدْحًا) والايراء
لا يكون الا للحافر ، لصلابته . وأما الخف ففيه لين واسترخاء . انتهى
قالوا : والضبِح في الخيل اظهر منه في الابل ، والايراء لسنا بك
الخيل أبين منه لا يخفاف الابل . قالوا : والنقع هو الغبار ، وإثارة
الخيل بعدوها له أظهر من إثارة أخفاف الابل ، والضمير في به عائد
على المكان الذي تعدو فيه . قالوا وأعظم ما يثير الغبار عند الاغارة

إذا توسطت الخيل جمع العدو ، لكثرة حركتها واضطرابها في ذلك المكان . وأما حمل الآية في إثارة الغبار في وادي مُحَسَّرٍ عند الاغارة ، فليس بالبين ، ولا يثور هناك غبار في الغالب ، لصلابة المكان . قالوا : وأما قولكم إنه لم يكن بمكة حين نزول الآية جهاد ولا خيل تجاهد ، فهذا لا يلزم ، لانه سبحانه أقسم بما يعرفونه من شأن الخيل . اذا كانت في غزو ، فأغارت فأثارت النقع ، وتوسَّطَتْ جمع العدو . وهذا أمر معروف . وذكر خيل المجاهدين أحق ما دخل في هذا الوصف ، فذكره على وجه التمثيل لا الاختصاص . فان هذا شأن خيل المقاتلة . وأشرف أنواع الخيل خيل المجاهدين . والقسم انما وقع بما تضمنه شأن هذه العاديات من الآيات البينات من خلق هذا الحيوان الذي هو من أكرم البهيم وأشرفه ، وهو الذي يحصل به العز والظفر ، والنصر على الأعداء ، فيعدوا طالبة للعدو وهاربة منه ، فيثير عدوها الغبار لشدة ، وتورى حوافرها وسنابكها النار من الأحجار ، لشدة عدوها ، فتدرك الغارة التي طلبتها حتى تتوسط جمع الأعداء ، فهذا من أعظم آيات الرب تعالى ، وأدلة قدرته وحكمته ، فذكرهم بنعمه عليهم في خلق هذا الحيوان الذي ينتصرون به على أعدائهم ، ويدركون به ثأرهم كما ذكرهم سبحانه بنعمه عليهم في خلق الابل التي تحمل اثقالهم من بلد الى بلد ، فالابل أخص بحمل الأثقال ، والخيل أخص

بنصرة الرجال ، فذكرهم بنعمه بهذا وهذا ، وخص الاغارة بالصبح
لأن العدو لم ينتشروا اذ ذاك ولم يفارقوا محلهم ، وأصحاب الاغارة
حامون مستريحون ، يبصرون مواقع الغارة والعدو لم يأخذوا أهبتهم
بل هم في غرتهم وغفلتهم ، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا
أراد الغارة صبر حتى يطلع الفجر ، فان سمع مؤذناً أمسك ، والأغار
ولما علم أصحاب الأبل أن أخفافها أبعد شيء من وري النار
تأولوا الآية على وجوه بعيدة . فقال محمد بن كعب : هم الحاج اذا
أوقدوا نيرانهم ليلة المزدلفة ، وعلى هذا فيكون التقدير : فالجماعات
الموريات ، وهذا خلاف الظاهر . وإنما الموريات هي العاديات ،
وهي المغيرات . وري سعيد بن جبير عن ابن عباس : هم الذين
يغيرون ، فيورون بالليل نيرانهم لطعامهم وحاجتهم ، كأنهم أخذوه من
قوله تعالى (٧١:٥٦) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ؟ وهذا إن أريد به
التمثيل ، وأن الآية تدل عليه فصحيح ، وإن أريد به اختصاص
الموريات فليس كذلك ، لأن الموريات هي العاديات بعينها . ولهذا
عطفها عليه بالفاء التي للتسبب ، فانها عدت فأورت . وقال قتادة :
الموريات هي الخيل توري نار العداوة بين المقتتلين ، وهذا ليس
بشيء ، وهو بعيد من معنى الآية وسياقها . وأضعف منه قول عكرمة :
هي الألسنة توري نار العداوة بعظيم ماتكلم به وأضعف منه ما ذكر
عنه مجاهد : هي أفكار الرجال ، توري نار المكر والخديعة في الحرب

وهذه الأقوال ان أريد أن اللفظ دل عليها وأنها هي المراد فغلط .
وان أريد أنها أخذت من طريق الإشارة والقياس فأمرها قريب
وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول : تفسير على اللفظ ، وهو
الذى ينحو اليه المتأخرون . وتفسير على المعنى ، وهو الذى يذكره
السلف . وتفسير على الإشارة والقياس وهو الذى ينحو إل كثير
من الصوفية وغيرهم . وهذا لا بأس به بأربعة شرائط : أن لا يناقض
معنى الآية ، وان يكون معنى صحيحا فى نفسه ، وان يكون فى
اللفظ إشعار به ، وان يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم .
فاذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطا حسنا

وأضعف من ذلك كله قول ابن جريج : قدحا ، يعنى : فالمنتجات
أمراً ، يريد البالغين بنجحهم فيما طلبوه ، وعطف قوله (فَأَثَرُنْ ،
فَوَسْطُنْ) وهما فعلاان على العاديات ، والموريات لما فيه من معنى الفعل
وكان ذكر الفعل فى أَثَرُنْ وَوَسْطُنْ أحسن من ذكر الاسم
لأنه سبحانه قسم أفعالنا الى قسمين : وسيلة ، وغاية ، فالوسيلة هي
العدو وما يتبعه من الايراء والاغارة ، والغاية هي توسط الجمع
وما يتبعه من إثارة النقع . فهن عاديات موريات مغيرات . حتى
يتوسطن الجمع ويثرن النقع . فالأول شأنهن الذى أعددن له ،
والثانى فعلهن الذى انتهين اليه والله أعلم

(١٤) فصل

فهذا شأن القسم ، وأما شأن المقسم عليه فهو حال الانسان ، وهو كون الانسان كنوداً بشهادته على نفسه ، أو شهادة ربه عليه ، وكونه حبيلاً لحبه المال ، والكنود للامعة ، وفعله كند يكند كنوداً ، مثل كفر يكفر كفوراً ، والارض الكنود التي لا تثبت شيئاً ، وامرأة كندی أى كفور للمعاشرة ، وأصل اللفظ منع الحق والخير ، ورجل كنود اذا كان مانعاً لما عليه من الحق . وعبارات المفسرين تدور على هذا المعنى . قال ابن عباس رضى الله عنهما ، وأصحابه رحمهم الله تعالى : هو الكفور ، وقيل هو البخيل الذى يمنع رفته ، ويجمع عبده ، ولا يعطى فى النأبة . وقال الحسن : هو اللوام لربه ، يعد المصائب ، وينسى النعم

وأما قوله (وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ) فقال ابن عباس : يريد ان ربه على ذلك لشهيد ، وقيل ن الانسان لشهيد على ذلك ، إن انكر بلسانه أشهد ربه عليه حاله ، ويؤيد هذا القول سياق الضمائر . فان قوله (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) للانسان فافتتح الخبر عن الانسان بكونه كنوداً ، ثم ثناه بكونه شهيداً على ذلك ، ثم ختمه بكونه بخيلاً بماله لحبه إياه . ويؤيد قول ابن عباس رضى الله عنهما أنه أتى بعلى . فقال

(وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ) أى مطلع عالم به . كقوله (ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ) ولو أريد شهادة الانسان لآتى بالباء . فقل وان به ذلك لشهيد . كما قال تعالى (٩ : ١٧) مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ) فلو أراد شهادة الانسان لقال : وان به على نفسه لشهيد . فان كنوده المشهود به ، ونفسه هي المشهود عليها

ثم قال تعالى (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) والخير هنا المال باتفاق المفسرين . والشديد البخيل من أجل حب المال ، فحب المال هو الذى حمله على البخل . هذا قول الاكثرين . وقال ابن قتيبة : بل المعنى : انه لشديد الحب للخير ، فتكون اللام فى قوله (لِحُبِّ الْخَيْرِ) متعلقة بقوله (لَشَدِيدٌ) على حد تعلق قولك : انه لزيد لضارب ، ومنعت طائفة من النحاة أن يعمل ما بعد اللام فيما قبلها ، وهذه الآيات حجة على الجواز . فان قوله (لِرَبِّهِ) معمول (لَكَنُودٍ) وقوله (عَلَىٰ ذَٰلِكَ) معمول (لَشَهِيدٌ) ولا وجه للتكلف البارد فى تقدير عامل مقدم محذوف يفسره هذا المذكور . فالحق جواز ان لزيد لضارب . فوصف سبحانه الانسان بكفران نعم ربه ، وبخله بما آتاه من الخير فلا هو شكور للنعم ، ولا محسن الى خلقه . بل بخيل بشكره ، بخيل بماله ، وهذا ضد المؤمن الكريم ، فانه مخلص لربه ، محسن الى

(م ٦ - التبيان)

خلقه . فالمؤمن له الاخلاص والاحسان ، والفاجر له الكفر
والبخل . وقد ذم الله سبحانه هذين الخلقين المهلكين في غير موضع
من كتابه . كقوله (١٠٧ : ٢) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ
سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤْنَ ۖ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) فالرياء ضد الاخلاص .
ومنع الماعون ضد الاحسان . وكذلك قوله تعالى (٤ : ٣٦) إِنَّ
اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۚ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ
النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)
فاختياله وفخره من كفره وكنوده ، وهذا ضد قوله (٢ : ٣) الَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) وقوله
(٤ : ٣٦) وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالَّذِينَ إِحْسَانًا - (الآيَة)
وكذلك ذكر الخلقين الذميين في قوله (٤ : ٣٧) وَالَّذِينَ يَنْفِقُونَ
أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ) ونظيره
(٤ : ٣٨) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ
اللَّهُ) ونظيره ما تقدم في سورة الليل من ذم المستغنى بالبخل ، ومدح
المعطى المصدق بالحسنى . ونظيره قوله (١٠٤ : ١) وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ
لُحْزَةٍ ۚ الَّتِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ) فان الهمزة واللمزة من الفخر ،
والكبر ، وجمع المال وتعييده من البخل . وذلك مناف لسر الصلاة
والزكاة ومقصودهما

ثم خوف سبحانه الانسان الذي هذا وصفه حين يُبعثر ما في القبور، ويحصل ما في الصدور، أى مُيزَ، وُجِعَ، وُيِّنَ، وأظهر، ونحو ذلك، وجمع سبحانه بين القبور والصدور، كما جمع بينهما النبي صلى الله عليه وسلم في قوله « ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارا (١) » فان الانسان يوارى صدره ما فيه من الخير والشر، ويوارى قبره جسمه، فيخرج الربُّ جسمه من قبره وسرّه من صدره، فيصير جسمه بارزا على الارض، وسره باديا على وجهه. كما قال تعالى (١:٥٥) يُعْرِفُ الْجُرُومَ بِسَيَاهِهِمْ) وقال (١٦:٦٨) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ (

(١٥) فصل

ومفعول العلم « إنَّ » علمت فيه، وكسرت لمكان اللام، وقيد سبحانه كونه خبيرا بهم ذلك اليوم - وهو خير بهم في كل وقت - ايدانا بالجزاء، وانه يجازيهم في ذلك اليوم بما يعلمه منهم. فذكر العلم والمراد لازمه. والله سبحانه وتعالى أعلم

(١٦) فصل

ومن ذلك اقسامه (بالعصر) على حال الانسان في الآخرة. هذه السورة

(١) رواه البخاري وغيره وذلك في غزوة الاحزاب، وهى الخندق حين شغل المشركون النبي صلى الله عليه وسلم عن صلاة العصر

على غاية اختصارها لهاشأن عظيم ، حتى قال الشافعى رحمه الله : لو فكر
الناس كلهم فيها لكفتهم

والعصر المقسم به ، قيل : هو أول الوقت الذى يلى المغرب من
النهار ، وقيل : هو آخر ساعة من ساعاته ، وقيل : المراد صلاة العصر .
وأكثر المفسرين على أنه الدهر . وهذا هو الراجح . وتسمية الدهر
عصراً أمر معروف فى لغتهم . قال :

ولن يلبث العصران يوم وليلة * إذا طلبا أن يُدْرِكَ ما تيمَّما
ويوم وليلة بدل من العصران . فأقسم سبحانه بالعصر لمكان العبرة
والآية فيه . فان مرور الليل والنهار على تقدير قدرة العزيز العليم
منتظم لمصالح العالم على أكمل ترتيب ونظام . وتعاقبهما واعتدلهما تارة ،
وأخذ أحدهما من صاحبه تارة ، واختلافهما فى الضوء ، والظلام ،
والحر ، والبرد ، وانتشار الحيوان ، وسكونه ، وانقسام العصر الى
القرون ، والسنين ، والاشهر ، والأيام ، والساعات وما دونها . آية
من آيات الرب تعالى ، وبرهان من براهين قدرته وحكمته

فأقسم بالعصر الذى هو زمان أفعال الانسان ومحلها على عاقبة تلك
الأفعال وجزائها ، ونبه بالمبدأ وهو خلق الزمان ، والفاعلين وأفعالهم
على المعاد ، وأن قدرته كالم تقصر عن المبدأ لم تقصر عن المعاد ، وان
حكمته التى اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين وأفعالهم ، وجعلها
قسمين خيراً وشرّاً تأى أن يسوى بينهم ، وأن لا يجازى المحسن

باحسانه والمسيء باساءته ، وأن يجعل النوعين راجحين أو خاسرين ، بل الانسان من حيث هو انسان خاسر ، إلا من رحمه الله ، فهداه ووقفه للايمان والعمل الصالح في نفسه ، وأمر غيره به ، وهذا نظير رده الانسان الى أسفل سافلين ، واستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هؤلاء المردودين

وتأمل حكمة القرآن لما قال (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ) فإنه ضيق الاستثناء وخصصه ، فقال (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) ولما قال (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ) وسع الاستثناء وعممه ، فقال (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) ولم يقل (وَتَوَاصَوْا) فإن التواصي هو أمر الغير بالايمان والعمل الصالح ، وهو قدر زائد على مجرد فعله . فمن لم يكن كذلك فقد خسر هذا الربح ، فصار في خسر . ولا يلزم أن يكون في أسفل سافلين . فان الانسان قد يقوم بما يجب عليه ولا يأمر غيره ، فان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبة زائدة . وقد تكون فرضا على الأعيان . وقد تكون فرضا على الكفاية . وقد تكون مستحبة

والتواصي بالحق يدخل فيه الحق الذي يجب ، والحق الذي يستحب . والصبر يدخل فيه الصبر الذي يجب ، والصبر الذي يستحب . فهؤلاء إذا تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر حصل لهم من الربح ما خسر

أولئك الذين قاموا بما يجب عليهم في أنفسهم ولم يأمرُوا غيرهم به ،
وان كان أولئك لم يكونوا من الذين خسروا أنفسهم وأهليهم . فمطلق
الخسار شيء والخسار المطلق شيء . وهو سبحانه انما قال (إِنَّ الْإِنْسَانَ
آفِي خُسْرٍ) ومن ربح في سلعة وخسر في غيرها فديطلق عليه أنه في
خسر وأنه ذو خسر ، كما قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : لقد فرطنا
في قراريط كثيرة (١) فهذا نوع تفريط ، وهو نوع خسر بالنسبة الى
من حصل ربح ذلك

ولما قال في سورة التين (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ) قال (إِلَّا الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) فقسم الناس الى هذين القسمين فقط . ولما
كان الانسان له قوتان قوة العلم وقوة العمل . وله حالتان حالة يأتمر
فيها بأمر غيره ، وحالة يأمر فيها غيره ، استثنى سبحانه من كل قوته العلمية
بالايمان ، وقوته العملية بالعمل الصالح ، وانقاد لأمر غيره له
بذلك ، وأمر غيره به من الانسان الذي هو في خسر . فان العبد
له حالتان حالة كمال في نفسه ، وحالة تكميل لغيره ، وكاله وتكميله
موقوف على أمرين : علم بالحق ، وصبر عليه . فتضمنت الآية جميع
مراتب الكمال الانساني ، من العلم النافع ، والعمل الصالح ، والاحسان
الى نفسه بذلك ، والى أخيه به ، وانقياده وقبوله لمن يأمره بذلك

(١) رواه البخارى في باب فضل اتباع الجنازة . قال الحافظ : أى من عدم
المواظبة على حضور الدفن . لأن ابن عمر كان يصلى على الميت ثم يتصرف .

وقوله تعالى (وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) ارشاد الى منصب
 الامامة في قوة الدين. كقوله تعالى (٣٢: ٢٤) وَجَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا
 لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) فبالصبر واليقين تنال الامامة في الدين
 والصبر نوعان : نوع على المقدور، كالمصائب . ونوع على المشروع .
 وهذا النوع أيضا نوعان : صبر على الأوامر ، وصبر عن النواهي .
 فذاك صبر على الارادة والفعل . وهذا صبر عن الارادة والفعل .
 فأما النوع الأول من الصبر فمشارك بين المؤمن والكافر ، والبر
 والفاجر ، لا يثاب عليه لمجرده إن لم يقترن به إيمان واختيار . قال
 النبي صلى الله عليه وسلم في حق ابنته «مُرْهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ (١)»
 وقال تعالى (١١: ١١) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
 وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) وقال تعالى (٣: ١٢٥) بَلَى ، إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا
 وقال (٣: ١٢٠) وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا) فالصبر بدون الايمان
 والتقوى بمنزلة قوة البدن الخالي عن الايمان والتقوى ، وعلى حسب
 اليقين بالمشروع يكون الصبر على المقدور . وقال تعالى (فَاصْبِرْ
 إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ) فأمره أن يصبر

(١) ابنته هي زينب . بعثت إليه أن ابنا لها قبض ، فأتتنا . فأرسل
 يقرئ السلام ويقول «إِنَّ اللَّهَ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا عَطَى وَكُلٌّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ
 مسمى - الحديث » رواه البخاري وغيره في كتاب الجنائز عن أسامة بن زيد

ولا يتشبه بالذين لا يقين عندهم في عدم الصبر : فانهم لعدم يقينهم
عُدُّ صبرهم وخَفَوْا واستخفوا قومهم ، ولو حصل لهم اليقين والحق
لصبروا ، وما خَفَوْا ولا استخفوا . فمن قلَّ يقينه قلَّ صبره ، ومن قلَّ
صبره خف واستخف ، فالموثق الصابر رزين ، لأنه ذولب وعقل ،
ومن لا يقين له ولا صبر عنده خفيف طائش تلعب به الأهواء
والشهوات ، كما تلعب الرياح بالشيء الخفيف . والله المستعان

(١٧) فصل

ومن ذلك اقسامه سبحانه بـ (١٠٨٥ : السماء ذات البروج) التي تنزلها
الشمس والقمر . وفسرت بالنجوم ، أو نوع منها . وفسرت بالقصور
العظام ، وكل ذلك من آيات قدرته وشواهد وحدانيته ، فإن السماء
كرة متشابهة الأجزاء ، والشكل الكروي ، لا يتميز منه جانب عن جانب
بطول ، ولا قصر ولا وضع ، بل هو متساوي الجوانب . فجعل هذه
البروج في هذه الكرة على اختلاف صورها وأشكالها ومقاديرها
يستحيل أن توجد بغير فاعل ، ويستحيل أن يكون فاعلها غير قادر ،
ولا عالم ، ولا مريد ، ولا حي ، ولا حكيم ، ولا مبين للفعول ، وهذا
ونحوه مما هدم قواعد الطبائعية والملاحدة والفلاسفة الذين لا يثبتون
للعالم ربًّا بائنًا قادرًا ، فاعلا بالاختيار ، عالما بتفاصيله حكيمًا مدبرًا له .
فبروج السماء هي منازلها ، أو منازل السيارة التي فيها ، من أعظم

آياته سبحانه ، فلماذا أقسم بها مع السماء ، ثم أقسم باليوم الموعود وهو يوم القيامة ، وهو المقسم به وعليه ، كما أن القرآن يقسم به وعليه . ودال على وقوع اليوم الموعود باتفاق جميع الرسل عليه ، وبما عرفه عباده من حكمته وعزته التي تأتي أن يتركهم سُدىً ، ويخلقهم عبثاً . وبغير ذلك من الآيات والبراهين التي يستدل بها سبحانه على إمكانه تارة ، وعلى وقوعه تارة ، وعلى تنزيهه عما يقول أعداؤه من أنه لا يأتي به تارة . فالاقسام به عند من آمن بالله كالاقسام بالسماء وغيرها من الموجودات المشاهدة بالعيان

ثم أقسم سبحانه بالشاهد والمشهود ، مطلقين غير معينين ، وأعم المعاني فيه أنه المدرك والمدرك ، والعالم والمعلوم ، والرأى والمرئى وهذا أليق المعاني به ، وما عداه من الأقوال ذكرت على وجه التمثيل ، لا على وجه التخصيص

فان قيل : فما وجه الارتباط بين هذه الأمور الثلاثة المقسم بها ؟ قيل : هي بحمد الله في غاية الارتباط . والاقسام بها متناول لكل موجود في الدنيا والآخرة ، وكل منها آية مستقلة دالة على ربوبيته وإلهيته ، فأقسم بالعالم العلوى ، وهى السماء وما فيها من البروج ، التي هى أعظم الأمكنة وأوسعها ، ثم أقسم بأعظم الأيام وأجلها قدراً ، الذى هو مظهر ملكه ، وأمره ، ونهيه ، وثوابه ، وعقابه ، وجمع أوليائه وأعدائه ، والحكم بينهم بعليه وعدله ، ثم أقسم بما هو أعم

من ذلك كله ، وهو الشاهد والمشهود ، وناسب هذا القسم ذكر أصحاب الأخدود الذين عذبوا أوليائه ، وهم شهود على ما يفعلون بهم ، والملائكة شهود عليهم بذلك ، والأنبياء وجوارحهم تشهد به عليهم . وأيضا فالشاهد هو المطلع والرقيب ، والمخبر والمشهود وهو المطلع عليه المخبر به ، المشاهد

فمن نوع الخليفة إلى شاهد ومشهود وهو أقدر القادرين ، كما نوعها الى مرئى لنا وغير مرئى ، كما قال (٦٩ : ٣٨) فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ٣٩ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ) كما نوعها الى أرض وسماء ، وليل ونهار ، وذكر وأتى ، وهذا التنويع والاختلاف من آياته سبحانه - كذلك نوعها إلى شاهد ومشهود

وفيه سر آخر ، وهو أن من المخلوقات ما هو مشهود عليه ، ولا يتم نظام العالم إلا بذلك ، فكيف يكون المخلوق شاهدا رقبيا حفيظا على غيره ، ولا يكون الخالق تبارك وتعالى شاهدا على عباده ، مطالعا عليهم رقبيا ؟

وأیضا فان ذلك يتضمن القسم بملائكته وأنبيائه ورسله ، فانهم شاهدون على العباد ، فيكون من باب اتحاد المقسم به والمقسم عليه كما أقسم باليوم الموعود ، وهو المقسم به وعليه ، وأيضا فيوم القيامة مشهود ، كما قال تعالى (١١ : ١٠٣) ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ) يشهده الله وملائكته والانس والجن ،

والوحش ، من آياته ، والمشهود من آياته .

وأيضاً فكلامه مشهود كما قال تعالى (١٧ : ٧٨) وَقرآن الفجر
 إن قرآن الفجر كان مشهوداً) تشهد ملائكة الليل وملائكة
 النهار . فالمشهود من أعظم آياته وكذلك الشاهد ، فكل ما وقع
 عليه اسم شاهد ومشهود فهو داخل في هذا القسم فلا وجه لتخصيصه
 ببعض الأنواع أو الأعيان إلا على سبيل التمثيل

وأيضاً فكتاب الأبرار في عليين يشهده المقربون . فالكتاب
 مشهود ، وللمقربون شاهدون

والأحسن أن يكون هذا القسم مستغنياً عن الجواب ، لأن
 القصد التنبيه على المقسم به ، وأنه من آيات الرب العظيمة . ويبعد
 أن يكون الجواب (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ) الذين فتنوا أوليائه
 وعذبوهم بالنار ذات الوعود ،

ثم وصف حالهم القبيحة بأنهم قُعودٌ على جانب الأُخدود ،
 شاهدين ما يجري على عباد الله تعالى وأوليائه عياناً ، ولا تأخذهم
 بهم رافة ولا رحمة ، ولا يعيرون عليهم ديناً سوى إيمانهم بالله
 العزيز الحميد الذي له ملك السموات والأرض ، وهذا الوصف
 يقتضى إكرامهم وتغظيمهم ومحبتهم ، فعاملوهم بضد ما يقتضى أن
 يعاملوا به . وهذا شأن أعداء الله دائماً ، ينقمون على أوليائه
 ما ينبغي أن يحبوا ويكرموا لأجله ، كما قال تعالى (٥ : ٥٩)
 قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ

وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ) وَكَذَلِكَ
اللوطية نقموا من عباد الله تنزيههم عن مثل فعلهم ، فقالوا (٨٢: ٧)
أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسُ يَتَطَهَّرُونَ) وكذلك أهل
الاشراك ينقمون من الموحدين تجريدهم التوحيد ، وإخلاص
الدعوة والعبودية لله وحده ، وكذلك أهل البدع ينقمون من أهل
السنة تجريد متابعتها وترك ما خالفها ، وكذلك المعطلة ينقمون
من أهل الاثبات إثباتهم لله صفات كماله ونعوت جلاله . وكذلك
الرافضة ينقمون على أهل السنة محبتهم للصحابة جميعهم ، وترضيهم
عنهم وولايتهم اياهم ، وتقديم من قدمه رسول الله صلى الله عليه
وسلم منهم ، وتنزيلهم منازلهم التي أنزلهم الله ورسوله بها ، وكذلك
أهل الرأي المحدث ينقمون على أهل الحديث وحزب الرسول
أخذهم بحديثه وتركهم ما خالفه . وكل هؤلاء لهم نصيب ، وفيهم
شبه من أصحاب الأخدود . وبينهم وبينهم نسب قريب أو بعيد

ثم أخبر سبحانه أنه أعد لهم عذاب جهنم وعذاب الحريق ، حيث
لم يتوبوا ، وأنهم لو تابوا بعد أن فتنوا أوليائه وعذبوهم بالنار
لغفر لهم ولم يعذبهم . وهذا غاية الكرم والجود . قال الحسن :
أنظروا الى هذا الكرم والجود ، يقتلون أوليائه ، ويفتنونهم ، وهو
يدعوهم الى التوبة والمغفرة . أنظروا الى كرم الرب تعالى ، يدعوهم
الى التوبة وقد فتنوا أوليائه ، فخرقوهم بالنار ، فلا ييأس العبد من

مغفرته وعفوه ، ولو كان منه ما كان ، فلا عداوة أعظم من هذه العداوة ، ولا أكفر ممن حرق بالنار من آمن بالله وحده ، وعبده وحده ، ومع هذا فلو تابوا لم يعذبهم ، وألحقهم بأوليائه

ثم ذكر سبحانه جزاء أوليائه المؤمنين ، ثم ذكر شدة بطشه وأنه لا يعجزه ، شئ فانه هو المبدئ المعيد . ومن كان كذلك فلا أشد من بطشه ، وهو مع ذلك الغفور الودود ، يغفر لمن تاب اليه ويوده ويحبه ، فهو سبحانه الموصوف بشدة البطش ، ومع ذلك هو الغفور الودود ، المتوود الى عباده بنعمه ، الذي يود من تاب اليه وأقبل عليه ، وهو الودود أيضا أى المحبوب ، قال البخارى فى صحيحه : الودود الحبيب ، والتحقيق أن اللفظ يدل على الأمرين ، على كونه واداً وأوليائه ومودوداً لهم . فأحدهما بالوضع ، والآخر باللزوم . فهو الحبيب المحب لأوليائه ، يحبهم ويحبونه ، وقال شعيب عليه السلام (١١ : ٩٠) إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ)

وما أطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور ، فان الرجل قد يغفر لمن أساء اليه ولا يحبه . وكذلك قد يرحم من لا يحب والرب تعالى يغفر لعبده اذا تاب اليه ، ويرحمه ويحبه مع ذلك ، فانه يحب التوابين ، واذا تاب اليه عبده أحبه ، ولو كان منه ما كان

ثم قال (ذُو الْعَرْشِ) فأضاف العرش الى نفسه ، كما تضاف اليه الاشياء العظيمة الشريفة . وهذا يدل على عظمة العرش ، وقربه منه

سبحانه ، واختصاصه به ، بل يدل على غاية القرب والاختصاص ، كما
يضيف الى نفسه « بذو » صفاته القائمة به . كقوله (ذُو الْقُوَّةِ)
(ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) ويقال : ذو العزة ، وذو الملك وذو الرحمة
ونظائر ذلك . فلو كان حظ العرش منه حظ الأرض السابعة
لكان لا فرق أن يقال : ذو العرش ، وذو الأرض

ثم ووصف نفسه بالمجيد ، وهو المتضمن لكثرة صفات كماله
وسعتها ، وعدم احصاء الخلق لها ، وسعة أفعاله ، وكثرة خيره
ودوامه . وأما من ليس له صفات كمال ولا أفعال حميدة فليس له
من المجد شيء . والمخلوق انما يصير مجيدا بأوصافه وأفعاله . فكيف
يكون الرب تبارك وتعالى مجيدا ، وهو معطل عن الأوصاف
والأفعال ؟ تعالى الله عما يقول المعطلون علواً كبيراً ، بل هو المجيد
الفعال لما يريد . والمجد في لغة العرب كثرة أوصاف السكّال ، وكثرة
أفعال الخير . وأحسن ما قرن اسم المجيد الى الحميد ، كما قالت الملائكة لبنت
الخليل عليه السلام (١١ : ٧٣) رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْهِكُمْ أَهْلَ
الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مُجِيدٌ) وكما شرع لنا في آخر الصلاة أن نثني على
الرب تعالى بأنه حميد مجيد ، وشرع في آخر الركعة عند الاعتدال
أن نقول « ربنا ولك الحمد ، أهل الثناء والمجد » فالحمد والمجد على
الاطلاق لله الحميد المجيد ، فالحميد الحبيب المستحق لجميع صفات
السكّال . والمجيد العظيم الواسع القادر الغني ، ذو الجلال والاكرام .

ومن قرأ (المجيد) بالكسر فهو صفة لعرشه سبحانه ، وإذا كان
عرشه مجيدا فهو سبحانه أحق بالمجد . وقد استشكل هذه القراءة
بعض الناس ، وقال : لم يسمع في صفات الخلق مجيد ، ثم
خرجها على أحد الوجهين ، إما على الجوار ، وإما أن يكون صفة
لربك . وهذا من قلة بضاعة هذا القائل . فإن الله سبحانه وصف
عرشه بالكرم ، وهو نظير المجد . ووصفه بالعظمة . فوصفه سبحانه
بالمجد مطابق لوصفه بالعظمة والكرم ، بل هو أحق المخلوقات أن يوصف
بذلك ، لسعته وحسنه وبهاء منظره ، فإنه أوسع كل شيء في المخلوقات
وأجمه ، وأجمعه لصفات الحسن ، وبهاء المنظر ، وعلو القدر والرتبة
والذات ، ولا يقدر قدر عظمته وحسنه ، وبهاء منظره إلا الله . ومجده
مستفاد من مجد خالقه ومبدعه . والسموات السبع والأرضون
السبع في الكرسي - الذي بين يديه - كحلقة ملقاة في أرض فلاة ،
والكرسي فيه كذلك الحلقة في الفلاة . قال ابن عباس : السموات
السبع في العرش كسبعة دراهم جعلن في ترس ، فكيف لا يكون مجيدا
وهذا شأنه ؟ فهو عظيم كريم مجيد . وأما تكلف هذا المتكلف جره
إلى الجوار ، أو أنه صفة لربك فتكلف شديد ، وخروج عن المألوف
في اللغة من غير حاجة إلى ذلك

وقوله (فَمَّا لِمَا يُرِيدُ) دليل على أمور (أحدها) أنه سبحانه
يفعل بآرادته ومشئته (الثاني) أنه لم يزل كذلك ، لانه لم يزل

كذلك ، لانه ساق ذلك في معرض المدح والثناء على نفسه ، وأن ذلك من كماله سبحانه . فلا يجوز أن يكون عادما لهذا الكمال في وقت من الأوقات . وقد قال تعالى (١٦ : ١٧) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟) وما كان من أوصاف كماله ونعوت جلاله لم يكن حادثا بعد أن لم يكن (الثالث) أنه إذا أراد شيئا فعله ، فان « ما » موصولة عامة ، أى يفعل كل ما يريد أن يفعله . وهذا في إرادته المتعلقة بفعله . وأما إرادته المتعلقة بفعل العبد فذلك لها شأن آخر . فان أراد فعل العبد ولم يرد من نفسه أن يعينه ويجعله فاعلا لم يوجد الفعل وإن أراده ، حتى يريده من نفسه أن يجعله فاعلا ، وهذه هى النكتة التى خفيت على القدرية والجبرية ، وخطبوا فى مسألة القدر لغفلتهم عنها ، فان هنا إرادتين : إرادة أن يفعل العبد ، وإرادة أن يجعله الرب فاعلا ، وليستا متلازمتين ، وإن لزم من الثانية الأولى من غير عكس . ففى أراد من نفسه أن يعين عبده ، وأن يخلق له أسباب الفعل فقد أراد فعله ، وقد يريده فعله ، ولا يريد من نفسه أن يخلق له أسباب الفعل ، فلا يوجد الفعل .

فان اعتاص عليك فهم هذا الموضع وأشكل عليك فانظر الى قول النبى صلى الله عليه وسلم ، حاكيا عن ربه قوله للعبد يوم القيامة « قد أردت منك أهون من هذا وأنت فى صلب أهلك : أن لا تشرك بى شيئا » ولم يقع هذا المراد ، لانه لم يرد من نفسه اعائه عليه وتوفيقه له

(الرابع) أن فعله سبحانه وإرادته متلازمان . فما أراد أن يفعله فعله ، وما فعله فقد أراد . بخلاف المخلوق ، فانه يريد ما لا يفعل ، وقد يفعل ما لا يريد . فما ثم فعّال لما يريد الا الله وحده

(الخامس) اثبات إرادة متعددة بحسب الأفعال ، وأن كل فعل له إرادة تخصه ، وهذا هو المعقول في الفطر ، وهو الذي يعقله الناس من الارادة ، فشانه تعالى أنه يريد على الدوام ، ويفعل ما يريد

(السادس) أن كل ما صلح أن تتعلق به إرادته جاز فعله . فاذا أراد أن ينزل كل ليلة الى سماء الدنيا ، وأن يحيى يوم القيامة لفصل القضاء ، وأن يرى نفسه لعباده ، وأن يتجلى لهم كيف شاء ، وأن يخاطبهم ويضحك اليهم ، وغير ذلك مما يريد سبحانه - لم يمتنع عليه فعله ، فانه فعال لما يريد . وإنما تتوقف صحة ذلك على إخبار الصادق به . فاذا أخبر به وجب التصديق به ، وكان رده ردا لكلامه الذي أخبر به عن نفسه . وهذا عين الباطل . وكذلك إذا أمكن إرادته سبحانه محوما شاء واثبات ما شاء أمكن فعله ، وكانت الارادة والفعل من مقتضيات كماله المقدس . وقد اشتملت هذه السورة على اختصارها من التوحيد

على وصفه سبحانه بالعزة المتضمنة للقدرة والقوة ، وعدم النظر ، والحمد المتضمن لصفات الكمال ، والتنزيه عن أضدادها ، مع محبته وآلهيته ، وملكه السموات والارض ، المتضمن لكمال غناه ، وسعة ملكه ، وشهادته على كل شئ المتضمن لعموم اطلاعه على ظواهر

الامور وبواطنها ، واحاطة بصره بمرئياتها وسمعه بمسموعاتا وعلمه بمعلوماتها ، ووصفه بشدة البطش المتضمن لكمال القوة والعزة والقدرة ، وتفرد بالابداء والاعادة المتضمن لتوحيد ربوبيته وتصرفه في المخلوقات بالابداء والاعادة وانقيادها لقدرته ، فلا يستعصى عليه منها شيء . ووصفه بالمغفرة المتضمن لكمال جوده واحسانه وغناه ورحمته . ووصفه بالودود المتضمن لكونه حبيبا الى عباده محبا لهم . ووصفه بأنه ذو العرش الذي لا يقدر قدره سواه ، وأن عرشه المختص به لا يليق بغيره أن يستوى عليه ، ووصفه بالمجد المتضمن لسعة العلم والقدرة والمملك والغنى والجلود والاحسان والكرم . وكونه فعالا لما يريد المتضمن لحياته وعلمه وقدرته ومشيتته وحكمته ، وغير ذلك من أوصاف كماله

فهذه السورة كتاب مستقل في أصول الدين ، تكفي من فهمها فالحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب وتبارك الذي نزل الفرقان على عبده

ثم ختمها بذكر فعله وعقوبته بمن أشرك به ، وكذب رسله . تحذيرا لعباده من سلوك سبيلهم ، وأن من فعل فعلهم فعل به كما فعل هم ، ثم أخبر عن أعدائه بأنهم مكذبون بتوحيده ورسالاته مع كونهم في قبضته ، وهو محيط بهم . ولا أسوأ حالا ممن عادى من هو في قبضته ، ومن هو قادر عليه من كل وجه ، وبكل اعتبار .

فقال (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ . وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ)
فهذا أعجب أعجب ممن كفر بمن هو محيط به ، وأخذ بناصيته قادر عليه .
ثم وصف كلامه بأنه مجيد ، وهو أحق بالمجد من كل كلام . كما أن
المتكلم به له المجد كله . فهو المجيد ، وكلامه مجيد ، وعرشه مجيد .
قال ابن عباس رضى الله عنهما : قرآن مجيد ، كريم . لان كلام
الرب ليس كما يقول الكافرون : شعر ، وكهانة ، وسحر . وقد تقدم
أن المجد السعة ، وكثرة الخير ، وكثرة خير القرآن لا يعلمها الا
من تكلم به

وقوله (فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ) أكثر القراء على الجر ، صفة للوح .
وفيه اشارة الى أن الشياطين لا يمكنهم التنزل به ، لأن محله محفوظ
أن يصلوا اليه ، وهو في نفسه محفوظ أن يقدر الشيطان على
الزيادة فيه والنقصان . فوصفه سبحانه بأنه محفوظ في قوله (١٥ : ٩)
إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) ووصف محله بالحفظ في
هذه السورة . فالله سبحانه حفظ محله ، وحفظه من الزيادة والنقصان
والتبديل ، وحفظ معانيه من التحريف . كما حفظ ألفاظه من
التبديل ، وأقامه من يحفظ حروفه من الزيادة والنقصان ، ومعانيه
من التحريف والتغيير

(١٨) فصل

ومن ذلك اقسامه سبحانه : (٨٦: ١ السَّمَاءِ وَالطَّارِقِ) وقد فسر به بأنه (النَّجْمُ الثَّاقِبُ) الذى يثقب ضوؤه. والمراد به الجنس لانجم معين . ومن عينه بأنه الثريا ، أَوْزُحْلُ ، فان أراد التمثيل فصحيح ، وان أراد التخصيص فلا دليل عليه

والمقصود أنه سبحانه أقسم بالسما و نجومها المضيئة . وكل منها آية من آياته الدالة على وحدانيته ، وسمى النجم طارقا ، لانه يظهر بالليل بعد اختفائه بضوء الشمس ، فشبهه بالطارق الذى يطرق الناس ، أو أهله ليلا . قال الفراء : ما أتاك ليلا فهو طارق . وقال الزجاج ، والمبرد : لا يكون الطارق نهاراً . ولهذا تستعمل العرب الطروق فى صفة الخيال كثيرا ، كما قال ذو الرمة :

ألا طرقت مئى هيو ما بدكرها وأيدى الثريا جنح بالمغرب
وقال جرير :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة ، فارجئى بسلام
ولهذا قيل : أول من رد الطيف جرير ، فلم يزل الناس على قبوله
واكرامه كالضيف . فالطيف والضيف كلاهما لا يرد . وقال الآخر :
ألا طرقت من آخر الليل زينب عليك سلام ، هل لمافات مطلب ؟

(١٩) فصل

والمقسم عليه ههنا حال النفس الانسانية ، والاعتناء بها ، واقامة الحفظة عليها . وانها لم تترك سدى ، بل قد أرصد عليها من يحفظ عليها أعمالها ، ويحصىها ، فأقسم سبحانه انه مامن نفس الا عليها حافظ من الملائكة ، يحفظ عملها وقولها ، ويحصى ما تكتسب من خير او شر واختلف القراء في «لما» فشدها بعضهم ، وخففها بعضهم . فمن قرأها بالتشديد جعلها بمعنى إلا ، وهي تكون بمعنى إلا في موضعين * (أحدهما) * بعد إن المخففة مثل هذا الموضع ، أو المثقلة مثل قوله (١١ : ١١١) وإن كلاً لما يؤقنينهم ربك أعمالهم * (والثاني) * في باب القسم ، نحو سألتك بالله لما فعلت . قال أبو على الفارسي : من خفف كانت عنده هي المخففة من الثقيلة ، واللام في خبرها هي الفارقة بين إن النافية والخفيفة وما زائدة ، وإن هي التي يتلقى بها القسم ، كما يتلقى بالمشقة ومن قرأها مشددة كانت إن عنده نافية بمعنى ما ، ولما في معنى إلا . قال سيديويه ، عن الخليل - في قولهم : نشدتك بالله لما فعلت - قال المعنى : إلا فعلت ثم نبه سبحانه الانسان على دليل المعاد بما يشاهده من حال مبدئه على طريقة القرآن في الاستدلال على المعاد بالمبدأ . فقال (٥) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ؟) أى فلينظر نظر الفكر والاستدلال ليعلم أن الذي ابتداء أول خلقه من نقطة قادر على إعادة

ثم أخبر سبحانه أنه خلقه من ماء دافق . والدَّفَقُ صب الماء ، يقال دفقت الماء فهو مدفوقٌ ودافقٌ ومندفق . فالمدفوق الذي وقع عليه فعلك ، كالمكسور ، والمضروب ، والمندفق المطاوع لفعل الفاعل تقول دفقته فاندفق ، كما تقول كسرتة فانكسر . والدافق قيل انه فاعل بمعنى مفعول ، كقولهم سرّ كاتم ، وعيشة راضية . وقيل : هو على النسب ، لا على الفعل ، أى ذى دقق ، أو ذات . ولم يرد الجريان على الفعل وقيل - وهو الصواب - انه اسم فاعل على بابه ، ولا يلزم من ذلك أن يكون هو فاعل الدفق . فان اسم الفاعل هو من قام به الفعل ، سواء فعله هو أو غيره ، كما يقال : ماء جار ، ورجل ميت وان لم يفعل الموت ، بل لما قام به من الموت نسب اليه على جهة الفعل . وهذا غير منكر فى لغة أمة من الامم ، فضلا عن أوسع اللغات وأفصحها . وأما العيشة الراضية فالوصف بها أحسن من الوصف بالمرضية ، فانها اللائقة بهم ، فشبه ذلك برضاها بهم كما رضوا بها ، كأنها رضيت بهم ورضوا بها . وهذا أبلغ من مجرد كونها مرضية فقط فتأمل . وإذا كانوا يقولون : الوقت الحاضر ، والساعة الراهنة - وان لم يفعل ذلك ، فكيف يمتنع أن يقولوا ماء دافق ، وعيشة راضية ؟

ونبه سبحانه بكونه دافقا على انه ضعيف غير متماسك ، ثم ذكر محله الذى يخرج منه ، وهو بين الصلب والترائب . قال ابن عباس :

صلب الرجل ، وترائب المرأة ، وهو موضع القلادة من صدرها .
والولد يخلق من المائتين جميعا . وقيل : صلب الرجل وترائبها ، وهى
صدره ، فيخرج من صلبه وصدره ، وهذه الآية الدالة على قدرة
الخالق سبحانه نظير إخراج اللبن الخالص من بين الفرث والدم
ثم ذكر الامر المستدل عليه والمعاد بقوله (إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ
لَقَادِرٌ) أى على رجعه اليه يوم القيامة ، كما هو قادر على خلقه من ماء
هذا شأنه . هذا هو الصحيح فى معنى الآية . وفيها قولان ضعيفان
* (أحدهما) * قول مجاهد : على رد الماء فى الاحليل لقادر * (والثانى) *
قول عكرمة والضحاك . على رد الماء فى الصلب . وفيه قول ثالث
قال مقاتل : ان شئت رددته من الكبير الى الشباب ، ومن الشباب
الى الصبا ، الى النطفة

والقول الصواب هو الاول لوجوه * (أحدها) * انه هو المعهود
من طريقة القرآن من الاستدلال بالمبدأ على المعاد * (الثانى) * أن ذلك
أدل على المطلوب من القدرة على رد الماء فى الاحليل * (الثالث) * انه
لم يأت لهذا المعنى فى القرآن نظير فى موضع واحد ، ولا أنكره أحد
حتى يقيم سبحانه الدليل عليه * (الرابع) * انه قيد الفعل بالظرف وهو
قوله (يَوْمَ تَبْلُغُ السَّرَائِرُ) وهو يوم القيامة ، أى ان الله قادر على
رجعه اليه حيا فى ذلك اليوم * (الخامس) * ان الضمير فى (رَجْعِهِ)
هو الضمير فى قوله (فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ) وهذا للانسان

قطعا للماء*) (السادس) * انه لا ذكر للاحليل ، حتى يتعين كون
المرجع اليه . فلو قال قائل : على رجعه الى الفرج الذى صب فيه لم يكن
فرق بينه وبين هذا القول ، ولم يكن أولى منه*) (السابع) * ان رد الماء الى
الاحليل أو الصلب بعد خروجه منه غير معروف ، ولا هو أمر معتاد
جرت به القدرة ، وان كان مقدورا للرب تعالى ، ولكن هو لم
يجره ولم تجر به العادة ، ولا هو مما تكلم الناس فيه ، نفيا أو اثباتا ،
ومثل هذا لا يقرره الرب ولا يستدل عليه وينبه على منكره ، وهو
سبحانه انما يستدل على أمر واقع ولا بد ، إما قد وقع ووجد أو سيقع
فان قيل : فقد قال تعالى (٧٥ : ٣) اَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ اَنْ لَّنْ يَجْمَعَ
عِظَامُهُ ؟ ٤ بَلَى ، قَادِرِينَ عَلَى اَنْ نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ) أى نجعله كخف البعير
قيل : هذه أيضا فيها قولان*) (أحدهما) * هذا (والثاني) * وهو الارجح -
أن تسوية بنانه إعادتها كما كانت ، بعد ما فرقا البلى في التراب
*) (الثامن) * أنه سبحانه دعا الانسان إلى النظر فيما خلق منه ليرده
نظره عن تكذيبه بما أخبر به ، وهو لم يخبره بقدرة خالقه على رد الماء
في إحليله بعد مفارقتها له ، حتى يدعو به الى النظر فيما خلق منه ، ليستقبح
منه صحة إمكان رد الماء*) (التاسع) * أنه لا ارتباط بين النظر في مبدأ
خلقه ورد الماء في الاحليل بعد خروجه ، ولا تلازم بينهما ، حتى
يجعل أحدهما دليلا على إمكان الآخر ، بخلاف الارتباط الذى بين
المبدأ والمعاد ، والخلق الأول والخلق الثانى ، والنشأة الأولى والنشأة

الثانية . فانه ارتباط من وجوه عديدة ، ويلزم من إمكان أحدهما إمكان الآخر ، ومن وقوعه صحة وقوع الآخر . فحسن الاستدلال بأحدهما على الآخر

(العاشر) * انه سبحانه نبه بقوله (إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ) على أنه قد وكل عليه من يحفظ عليه عمله ويحصيه ، فلا يضيع منه شيء . ثم نبه بقوله (إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ) على بعثه لجزائه على العمل الذى حفظ وأحصى عليه . فذكر شأن مبدأ عمله ونهايته ، فبدؤه محفوظ عليه ونهايته الجزاء عليه ، ونبه على هذا بقوله (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ) أى تختبر . وقال مقاتل : تظهر وتبدو ، وبلوت الشيء إذا اختبرته ليظهر لك باطنه ، وما خفى منه . والسرائر جمع سريرة ، وهى سرائر الله التى بينه وبين عبده فى ظاهره وباطنه لله . فالإيمان من السرائر ، وشرائعه من السرائر . فتختبر ذلك اليوم ، حتى يظهر خيرها من شرها ، ومؤديها من مضيعها . وما كان لله مما لم يكن له . قال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : يبدى الله يوم القيامة كل سر فيكون زينا فى الوجوه ، وشينا فيها . والمعنى تختبر السرائر باظهارها ، واظهار مقتضياتها من الثواب والعقاب ، والحمد والذم وفى التعبير عن الأعمال بالسر لطيفة ، وهو ان الأعمال تتأنج السرائر الباطنة ، فمن كانت سريرته صالحة كان عمله صالحا ، فتبدو سريرته على وجهه نورا واشراقا وحياء ، ومن كانت سريرته فاسدة كان عمله تابعا لسريرته ، لا اعتبار بصورته ، فتبدو سريرته على وجهه

سواداً وظلمة وشينا . وان كان الذى يبدو عليه فى الدنيا انما هو عمله لاسريره ، فيوم القيامة تبدو عليه سريره ، ويكون الحكم والظهور لها . قال الشاعر :

فان لها فى مضمرة القلب والحشا * سريرة حب يوم تبلى السرائر
ثم أخبر سبحانه عن حال الانسان فى يوم القيامة أنه غير ممتنع من عذاب الله ، لا بقوة منه ولا بقوة من خارج ، وهو الناصر . فان العبد إذا وقع فى شدة ، فاما أن يدفعها بقوته أو قوة من ينصره . وكلاهما معدوم فى حقه . ونظيره قوله سبحانه (٢١ : ٣) لَا يَسْتَطِيعُونَ
نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنْهَا يُصْحَبُونَ)

ثم أقسم سبحانه بـ (السَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ)
فاقسم بالسماء ورجعها بالمطر ، والأرض وصدعها بالنبات . قال
الفراء . تبدى بالمطر ثم ترجع به ، فى كل عام . وقال أبو اسحق :
الرجع المطر ، لأنه يجىء ويرجع ويتكرر . وكذلك قال ابن عباس
رضى الله عنهما : تبدى بالمطر ثم ترجع به . فى كل عام . والتحقيق
أن هذا على وجه التمثيل . ورجع السماء هو اعطاء الخير الذى يكون
من جهتها حالا بعد حال ، على مرور الأزمان . ترجعه رجعا ، أى
تعطيه مرة بعد مرة . والخير كله من قبل السماء يجىء . ولما كان أظهر
الخير المشهود بالعيان المطر فسر الرجع به ، وحسن تفسيره به
ومقابلته بصدع الأرض عن النبات ، وفسر الصدع بالنبات ، لانه

يصعد الارض أى يشقها . فاقسم سبحانه بالسما ذات المطر ،
والارض ذات النبات ، وكل من ذلك آية من آيات الله تعالى
الدالة على ربوبيته

واقسم على كون القرآن حقاً وصدقاً فقال (إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ
وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ) كما أقسم فى أول السورة على حال الانسان فى مبدئه
ومعاده . والقول الفصل هو الذى يفصل بين الحق والباطل ، فيميز
هذا من هذا ، ويفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ، ومصيب الفصل
الذى ينفصل عنده المراد ويتميز من غيره ، كما قال : أصاب الفصل
وأصاب المرء . إذا أصاب بكلامه نفس المعنى المراد ، ومنه فصل
الخطاب . وأيضاً فالقول الفصل بيان المعنى ضد الاجمال . فكون
القرآن فصلاً يتضمن هذه المعانى كلها ، ويتضمن كونه حقاً ليس
بالباطل ، وجداً ليس بالهزل . ولما كان الهزل هو الذى لا حقيقة له -
وهو الباطل واللعب - قابل بين الفصل والهزل . وإنما يكيد المكذبون
ويحيلون ، ويخادعون لرده ، ولا يردونه بحجة ، والله يكيدهم كما
يكيدون دينه ورسوله وعباده ، وكيد سبجانه استدراجهم من حيث
لا يعلمون ، والاملاء لهم حتى يأخذهم على غرة ، كما قال تعالى
(٧ : ١٨٣) وَأْمُرْ لِي لَّهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) فالانسان اذا أراد أن
يكيد غيره يُظهر له إكرامه وإحسانه إليه حتى يطمئن إليه ، فيأخذه
كما يفعل الملوك ، فاذا فعل ذلك أعداء الله بأوليائه ودينه كان كيد

الله لهم حسنا لا قبح فيه ، فيعطيهم ويعافيهم وهو يستدرجهم ، حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة

ثم قال (فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَلُهُمْ رُؤِيدًا) أى أنظرهم قليلا ولا تستعجل لهم ، والرّب تعالى هو الذى يمهّلهم . وانما خرج الخطاب للرسول على جهة التهديد والوعيد لهم ، أو على معنى انتظر بهم قليلا . ورويدا فى كلامهم يكون اسم فعل ، فينصب بها الاسم نحو رويدا زيدا ، أى خله وأمهله ، وارفق به . الثانى أن يكون مصدرا مضافا الى المفعول ، نحو رويدزيد ، أى امهال زيد ، نحو ضرب الرقاب . الثالث أن يكون نعتا منصوبا ، نحو قولك : ساروا رويدا تقول العرب : ضعه رويدا ، أى وضعه رويدا . وفى حديث عائشة فى خروج النبى صلى الله عليه وسلم بالليل من عندها الى البقيع « نخرج رويدا ، وأجاف الباب رويدا (١) » ويجوز فى هذا الوجه وجهان أحدهما أن يكون حالا . والثانى أن يكون نعتا لمصدر محذوف ، فان أظهرت المنعوت تعين الوجه الثانى . ورويدا فى هذه الآية هو من هذا النوع الثالث . والله اعلم

(٢٠) فصل

ومن ذلك اقسامه ب(٨٤ : ١٦ الشَّقَقِ ١٧ وَالْأَيْلِ وَمَا وَسَقَ ١٨

(١) أجاف الباب : اغلقه والحديث رواه الامام احمد

وَالْقَمَرَ إِذَا اتَّسَقَ) فأقسم بثلاثة أشياء متعلقة بالليل * (أحدها) * الشفق ، وهو في اللغة الحمرة بعد غروب الشمس الى وقت صلاة العشاء الآخرة ، وكذلك هو في الشرع . قال الفراء ، والليث ، والزجاج ، وغيرهم : الشفق الحمرة في السماء . وأصل موضوع الحرف لرقعة الشيء . ومنه شيء شفق لا تماسك له لرقته ، ومنه الشفقة وهو الرقة . واشفق عليه اذا رق له . وأهل اللغة يقولون : الشفق بقية ضوء الشمس وحمرتها . ولهذا كان الصحيح أن الشفق الذي يدخل وقت العشاء الآخرة بغيوبته هو الحمرة ، فإن الحمرة لما كانت بقية ضوء الشمس جعل بقاؤها حداً لوقت المغرب . فاذا ذهبت الحمرة بعدت الشمس عن الأفق فدخل وقت العشاء . وأما البياض فإنه يمتد وقته بطول ليله ، ويكون حاصلًا مع بعد الشمس عن الأفق . ولهذا صح عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : الشفق الحمرة . والعرب تقول : ثوب مصبوغ كأنه الشفق ، اذا كان أحمر ، حكاه الفراء . وكذلك قال الكلبي : الشفق الحمرة التي تكون في المغرب . وكذلك قال مقاتل : هو الذي يكون بعد غروب الشمس في الأفق قبل الظلمة . وقال عكرمة : هو بقية النهار . وهذا يحتمل أن يريد به أن تلك الحمرة بقية ضوء الشمس التي هي آية النهار . وقال مجاهد : هو النهار كله . وهذا ضعيف جداً . وكأنه لما رآه قابله بالليل وما وسق ، ظن أنه النهار . وهذا ليس بلازم

(الثاني) قسمه بالليل وما وسق ، أي وما ضم وحوى وجمع . والليل

وما ضمه وحواه آية أخرى ، والقمر آية ، واتساقه آية أخرى .
والشفق يتضمن إدبار النهار ، وهو آية ، واقبال الليل ، وهو آية
أخرى . فان هذا اذا أدبر خلفه الآخر ، يتعاقبان لمصالح الخلق .
فادبار النهار آية . واقبال الليل آية ، وتعقب أحدهما الآخر آية ،
والشفق الذى هو متضمن الامرين آية . والليل - آية . وما حواه
آية ، والهلل آية ، وتزايد كل ليلة آية ، واتساقه - وهو امتلاؤه
نورا - آية ، ثم أخذه فى النقص آية . وهذه وامثالها آيات دالة على
ربوبيته ، مستلزمة للعلم بصفات كماله . ولهذا شرع - عند اقبال الليل
وادبار النهار - ذكر الرب تعالى بصلاة المغرب . وفى الحديث « اللهم
هذا إقبال ليلك وادبار نهارك ، وأصوات دعائك ، وحضور
صلواتك اغفرلى (١) » كما شرع ذكر الله بصلاة الفجر عند ادبار
الليل واقبال النهار . ولهذا يقيم سبحانه بهذين الوقتين كقوله
(٧٤: ٣٣ وَاللَّيْلِ إِذَا دُبِرَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ) وهو يقابل إقسامه
بالشفق : ونظيره إقسامه بـ (٨١: ١٧) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَفَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ)
ولما كان الرب تبارك وتعالى يحدث عن كل واحد من طرفي اقبال
الليل والنهار وادبارهما ما يحدثه ، ويثبت من خلقه ما شاء . فينشر الارواح
الشیطانية عند اقبال الليل ، وينشر الارواح الانسانية عند اقبال النهار ،

(١) رواه أبو داود والترمذى عن أم سلمة ، قالت : علمنى رسول الله
صلى الله عليه وسلم أن أقول عند اذان المغرب . وقال الترمذى حديث غريب

فيحدث هذا الانتشار في العالم أثره - شرع سبحانه في هذين الوقتين هاتين الصلاتين العظيمتين ، مع ما في ذلك من ذكره عند هاتين الآيتين المتعاقبتين ، وعند انصرام احدهما واتصال الأخرى بها ، مع ما بينهما من التضاد والاختلاف ، وانتقال الحيوان عند ذلك من حال الى حال ، ومن حكم الى حكم ، وذلك مبدأ ومعاديومي ، مشهود للخلقة كل يوم وليلة ، فالحيوان والنبات في مبدأ ومعاد ، وزمان العالم في مبدأ ومعاد (أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يَبْدَأُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؟ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

(٢١) فصل

وقوله (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ) الظاهر أنه جواب القسم ، ويجوز أن يكون من القسم المحذوف جوابه ، ولتركبن وما بعده مستأنف وقرئ (وَلَتَرْكَبُنَّ) بضم الباء للجمع ، وبفتحها . فمن فتحها فالخطاب عنده للانسان ، أى لتركبن أيها الانسان . وقيل : هو النبي صلى الله عليه وسلم خاصة . وقيل : ليست التاء للخطاب ، ولكنها للغيبة ، أى لتركبن السماء طبقاً عن طبق . ومن ضمها فالخطاب للجماعة ليس إلا . فمن جعل الكناية للسماء قال : المعنى لتركبن السماء حالا بعد حال من حالاتها التي وصفها الله تعالى ، من الانشقاق ، والانفطار ، والطي . وكونها كالمهل مرة ، وكالدّهان مرة ، ومورانها

وَتَقْتَشِهَا ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ حَالَاتِهَا ، وَهَذَا قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وَدَلَّ عَلَى السَّمَاءِ ذِكْرَ الشَّفَقِ وَالْقَمَرِ . وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ قِسْمًا عَلَى الْمَعَادِ وَتَغْيِيرِ الْعَالَمِ

وَمَنْ قَالَ الْخُطَابَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَهُ ثَلَاثُ مَعَانٍ : لَتَرَكِبَنَّ سَمَاءً بَعْدَ سَمَاءٍ ، حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى حَيْثُ يَصْعَدُكَ اللَّهُ . هَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي رِوَايَةِ مُجَاهِدٍ ، وَقَوْلُ مَسْرُوقٍ وَالشَّعْبِيِّ ، قَالُوا : وَالسَّمَاءُ طَبَقٌ ، وَلِهَذَا يُقَالُ لِلْسَّمَوَاتِ السَّبْعِ الطَّبَاقِ . وَالْمَعْنَى الثَّانِي لَتَصْعَدَنَّ دَرَجَةً بَعْدَ دَرَجَةٍ ، وَمَنْزِلَةً بَعْدَ مَنْزِلَةٍ ، وَرَتَبَةً بَعْدَ رَتَبَةٍ ، حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مَحَلِّ الْقَرَبِ وَالزَّلْفَى مِنَ اللَّهِ . وَالْمَعْنَى الثَّالِثُ لَتَرَكِبَنَّ حَالًا بَعْدَ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي تَقْلُ اللَّهُ فِيهَا رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، مِنَ الْهَجْرَةِ ، وَالْجِهَادِ ، وَنَصْرِهِ عَلَى عَدُوِّهِ ، وَإِدَالَةِ الْعَدُوِّ عَلَيْهِ تَارَةً ، وَغَنَاهُ وَفَقْرَهُ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ حَالَاتِهِ الَّتِي تَنْقَلُ فِيهَا إِلَى أَنْ يَبْلُغَ مَا بَلَغَهُ إِيَّاهُ

وَمَنْ قَالَ : الْخُطَابَ لِلْإِنْسَانِ أَوْ لِمَجْلَمَةِ النَّاسِ فَالْمَعْنَى وَاحِدٌ ، وَهُوَ تَنْقَلُ الْإِنْسَانُ حَالًا بَعْدَ حَالٍ ، مِنْ حِينَ كَوْنِهِ نَظْفَةً إِلَى مُسْتَقَرٍّ مِنَ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ ، . فَكَمْ بَيْنَ هَذَيْنِ مِنَ الْأَطْبَاقِ وَالْأَحْوَالِ لِلْإِنْسَانِ وَأَقْوَالِ الْمُفَسِّرِينَ كُلِّهَا تَدُورُ عَلَى هَذَا . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : لِتَصِيرَنَّ الْأُمُورُ حَالًا بَعْدَ حَالٍ . وَقِيلَ لَتَرَكِبَنَّ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ حَالًا بَعْدَ حَالٍ ، مِنَ النَّظْفَةِ ، إِلَى الْعَلَقَةِ ، إِلَى الْمَضْغَةِ ، إِلَى كَوْنِهِ

حيا ، الى خروجه الى هذه الدار ، ثم ركوبه طبق التمييز بين ما ينفعه ويضره ، ثم ركوبه بعد ذلك طبقاً آخر ، وهو طبق البلوغ . ثم ركوبه طبق الأشد ، ثم طبق الشيخوخة ، ثم طبق الهرم ، ثم ركوبه طبق ما بعد الموت في البرزخ ، وركوبه في أثناء هذه الأحوال أطباقاً عديدة ، لا يزال ينتقل فيها حالاً بعد حال الى دار القرار . فذلك آخر أطباقه التي يعلمها العباد ، ثم يفعل الله سبحانه بعد ذلك ما يشاء .

واختار أبو عبيدة قراءة الضم ، وقال : المعنى بالناس أشبه منه بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فانه ذكر قبل الآية من يؤتى كتابه يمينه ومن يؤتى كتابه بشماله ، ثم ذكر بعدها قوله (فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ؟) فذكر كونهم طبقاً بعد طبق . قال الواحدى : وهذا قول أكثر المفسرين قالوا : لتركبن حالاً بعد حال ، ومنزلاً بعد منزل ، وأمرأ بعد أمر . قال سعيد بن جبير ، وابن زيد : لتكونن في الآخرة بعد الأولى ، ولتصيرن أغنياء بعد الفقراء ، وفقراء بعد الغنى ، وقال عطاء : شدة بعد شدة . وقال أبو عبيدة : لتركبن سنة من كان قبلكم في التكذيب والاختلاف على الرسل .

وانت إذا تأملت هذا المقسم به والمقسم عليه وجدته من أعظم الآيات الدالة على الربوبية ، وتغيير الله سبحانه للعالم ، وتصريفه له كيف أراد ، ونقله إياه من حال الى حال . وهذا محال أن يكون
(م ٨ - التبيان)

بنفسه من غير فاعل مدبر له . ومحال أن يكون فاعله غير قادر ،
ولا حي ، ولا مرید ، ولا حكيم ، ولا عليم . وكلاهما في الامتناع سواء
فالمقسم به وعليه من أعظم الأدلة على ربوبيته ، وتوحيده ،
وصفات كماله ، وصدقه ، وصدق رسله . وعلى المعاد . ولهذا عقب
ذلك بقوله (فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) إنكارا على من لم يؤمن بعد ظهور
هذه الآيات المستلزمة لدلولها أتم استلزام . وأنكر عليهم عدم
خضوعهم وسجودهم للقرآن المشتمل على ذلك ، بأفصح عبارة
وأبينها وأجزلها وأوجزها . فالمعنى أشرف معنى ، والعبارة أشرف
عبارة : غاية الحق بغاية البيان والفصاحة

(بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكْذِبُونَ) ولا يصدقون بالحق جحودا
وعنادا (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ) بما يضمنون في صدورهم ويكتمونه ،
وما يسرونه من أعمالهم وما يجمعونه ، فيجازيهم عليه بعلمه وعدله
(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)

(٢٢) فصل

ومن ذلك قوله سبحانه (٨١ : ١٥) فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُلُوسِ ١٦ الْجَوَارِ
الْكُنُوسِ ١٧ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ١٨ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) أقسم

سبحانه بالنجوم في أحوالها الثلاثة . من طلوعها ، وجريانها ،
وغروبها . هذا قول علي ، وابن عباس ، وعامة المفسرين .
وهو الصواب

والخنس جمع خانس . والخنس الانقباض والاختفاء ، ومنه سمي
الشیطان خناسا ، لانقباضه وانكماشه حين يذکر العبدربه . ومنه
قول أبي هريرة فانخنست (١) والسكنس جمع كانس ، وهو الداخل
في كناسه ، أي في بيته . ومنه تكنست المرأة اذا دخلت في هودجها .
ومنه كنست الظباء ، اذا أوت الى أكناسها .

والجوارى جمع جارية ، كغاشية وغواش . قال علي بن أبي
طالب رضي الله عنه : النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل . وهذا قول مقاتل
وعطاء وقتادة وغيرهم . قالوا : السكواكب تخنس بالنهار ، فتختفي
ولا ترى ، وتكنس في وقت غروبها . ومعنى تخنس - على هذا القول -
تتأخر عن البصر ، وتتوارى عنه باخفاء النهار لها . وفيه قول
آخر ، وهو ان خنوسها رجوعها ، وهي حركتها الشرقية ، فان لها
حركتين حركة بفعلها وحركة بنفسها ، فخنوسها حركتها بنفسها

(١) روى أحمد والبخاري ومسلم وأصحاب السنن عن أبي هريرة أن
النبي صلى الله عليه وسلم لقيه في بعض طرق المدينة وهو جنب ، فانخنس
منه فذهب فاغتسل ، ثم جاء ، فقال له « أين كنت يا أبا هريرة ؟ » فقال
كنت جنباً ، فكرهت أن أجالسك وأنا على غير طهارة . فقال « سبحان
الله ، ان المؤمن لا ينجس »

راجعة . وعلى هذا فهو قسم بنوع من الكواكب ، وهى السيارة
وهذا قول الفراء . وفيه قول ثالث ، وهو ان خنوسها وكنوسها
اختفاؤها وقت مغيبها ، فتغيب فى مواضعها التى تغيب فيها . وهذا
قول الزجاج

ولما كان للنجوم حال ظهور ، وحال اختفاء ، وحال جريان ، وحال
غروب - أقسم سبحانه بها فى أحوالها كلها . ونبه بخنوسها على حال
ظهورها ، لأن الخنوس هو الاختفاء بعد الظهور ، ولا يقال لما لا يزال
مختفياً : انه قد خنس . فذكر سبحانه جريانها وغروبها صريحاً ،
وخنوسها وظهورها ، واكتفى من ذكر طلوعها بجريانها الذى
مبدؤه الطلوع . فالطلوع أول جريانها
فتضمن القسم طلوعها ، وغروبها وجريانها ، واختفاءها . وذلك
من آياته ودلائل ربوبيته .

وليس قول من فسرهما بالظباء وبقر الوحش بالظاهر لوجوه
* (احدها) * أن هذه الاحوال فى الكواكب السيارة أعظم آية
وعبرة * (الثانى) * اشتراك أهل الارض فى معرفته بالمشاهدة والعيان
* (الثالث) * أن البقر والظباء ليست لهما حالة تختفى فيها عن العيان
مطلقاً ، بل لاتزال ظاهرة فى الفلوات * (الرابع) * ان الذين فسروا
الآية بذلك قالوا ليس خنوسها من الاختفاء . قال الواحدى : هو
من الخنس فى الانف ، وهو تأخر الارنبه وقصر القصبة ، والبقر
والظباء أنوفهن خنس والبقرة خنساء ، والظبي أخنس . ومنه سميت

الخنساء (١) لخنس أنفها . ومعلوم ان هذا أمر خفي يحتاج الى تأمل ،
وأكثر الناس لا يعرفونه . وآيات الرب التي يقسم بها
لا تكون الا ظاهرة جليلة يشترك في معرفتها الخلائق ، وليس
الخنس في أنف البقرة والظباء بأعظم من الاستواء والاعتدال في
أنف ابن آدم ، فالآية فيه أظهر * (الخامس) * أن كنوسها في أكنتها
ليس بأعظم من دخول الطير وسائر الحيوانات في بيته الذي يأوى
فيه ، ولا أظهر منه ، حتى يتعين للقسم * (السادس) * انه لو كان جمعا
للظبي لقال الخنس - بالتسكين - لأنه جمع أخنس ، فهو كاحمر وُحمر
ولو أريد به جمع بقرة خنساء لكان على وزن فعلاء أيضا ، كحمراء وُحمر
فلما جاء جمعه على فُعَل - بالتشديد - استحال أن يكون جمعا لواحد
من الظباء والبقر . وتعين أن يكون جمعا لخناس ، كشاهد وشهدَّ ،
وصائم ووصوّم ، وقائم وقوّم ، ونظائرهما * (السابع) * انه ليس بالبين
اقسام الرب تعالى بالبقر والغزلان ، وليس هذا عرف القرآن
ولا عادته ، وإنما يقسم سبحانه من كل جنس بأعلاه ، كما أنه لما أقسم
بالنفوس أقسم بأعلاها ، وهي النفس الانسانية . ولما أقسم بكلامه
أقسم بأشرفه وأجله ، وهو القرآن . ولما أقسم بالعلويات أقسم
بأشرفها وهي السماء ، وشمسها وقمرها ، ونجومها . ولما أقسم بالزمان
أقسم بأشرفه ، وهو الليالي العشر . واذا أراد سبحانه أن يقسم بغير

(١) هي تماضر بنت عمرو بن الشريد السامية الشاعرة الصحابية
رضي الله عنها

ذلك ادرجه في العموم ، كقوله (فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ) وقوله الذِّكْرَ وَالْأُنْثَى) في قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك * (الثامن) * أن اقتران القسم بالليل والصبح يدل على أنها النجوم ، والافليس باللائق اقتران البقر والغزلان والليل والصبح في قسم واحد . وبهذا احتج أبو اسحاق على أنها النجوم . فقال : هذا أليق بذكر النجوم منه بذكر الوحش * (التاسع) * انه لو أراد ذلك سبحانه لبينه وذكر ما يدل عليه ، كما انه لما أراد بالجوارى السفن قال (٤٢ : ٣٢ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ) وهنا ليس في اللفظ ولا في السياق ما يدل على أنها البقر والظباء . وفيه ما يدل على أنها النجوم من الوجوه التي ذكرناها وغيرها * (العاشر) * أن الارتباط الذي بين النجوم التي هي هداية للسالكين ورجوعهم للشياطين وبين المقسم عليه - وهو القرآن ، الذي هو هدى للعالمين ، وزينة للقلوب ، وداحض لشبهات الشيطان - أعظم من الارتباط الذي بين البقر والظباء والقرآن . والله أعلم

(٢٣) فصل

واختلف في عسيسة الليل ، هل هي اقباله أم إدباره ؟ فالأكثر على ان عسيس بمعنى ولى وذهب وأدبر . هذا قول علي وابن عباس

وأصحابه . قال الحسن : أقبل بظلامه ، وهو إحدى الروايتين
عن مجاهد

فمن رجع الاقبال قال : أقسم الله سبحانه وتعالى باقبال الليل
واقبال النهار . فقوله (وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ) مقابل لليل إذا
عسعس . قالوا : ولهذا أقسم الله : (اللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى)
وبالضحى . قالوا فغشيان الليل نظير عسعسته ، وتجلي النهار نظير
تنفس الصبح ، اذ هو مبدؤه وأوله

ومن رجع أنه ادباره احتج بقوله تعالى (٧٤ : ٣٢ كَلَّا وَالْقَمَرَ
٣٣ وَاللَّيْلَ إِذَا دُبِرَ ٣٤ وَالصُّبْحَ إِذَا أَسْفَرَ) فأقسم بادبار الليل
واسفار الصبح ، وذلك نظير عسعسة الليل ، وتنفس الصبح ، قالوا :
والأحسن أن يكون القسم بانصرام الليل ، واقبال النهار . فانه عقيقه
من غير فصل . فهذا أعظم في الدلالة والعبرة ، بخلاف اقبال الليل
واقبال النهار ، فانه لم يعرف القسم في القرآن بهما ، ولان بينهما
زمن طويلا . فالآية في انصرام هذا ومجيء الآخر عقيقه بغير
فصل أبلغ . فذكر سبحانه حالة ضعف هذا ، وادباره ، وحالة قوة
هذا وتنفسه . واقباله يطرد ظلمة الليل بتنفسه ، فكما تنفس هرب
الليل وأدبر بين يديه . وهذا هو القول . والله أعلم

(٢٤) فصل

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه ، وهو القرآن ، وأخبر أنه قول رسول كريم ، وهو ههنا جبريل قطعاً . لأنه ذكر صفته بعد ذلك بما يعينه به . وأما الرسول الكريم في الحاقة فهو محمد صلى الله عليه وسلم لأنه نفى بعده أن يكون قول من زعم من أعدائه انه قوله . فقال (٦٩ : ٤١) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ٤٢ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَدَّكُرُونَ) فأضافه الى الرسول الملوك تارة ، والى البشرى تارة ، وإضافته الى كل واحد من الرسولين إضافة تبليغ لإضافة إنشاء من عنده ، والا تناقضت النسبتان . ولفظ الرسول يدل على ذلك . فان الرسول هو الذى يبلغ كلام من أرسله . وهذا صريح فى انه كلام من أرسل جبريل ومحمد صلى الله عليه وسلم ، وأن كلامهما بلغه عن الله ، فهو قوله مبلغاً ، وقول الله الذى تكلم به حقاً . فلا راحة لمن أنكر أن يكون الله متكلماً بالقرآن وهو كلامه حقاً فى هاتين الآيتين ، بل هما من أظهر الأدلة على كونه كلام الرب تعالى ، وانه ليس للرسولين الكريمين منه الا التبليغ ، فجبريل سمعه من الله ، ومحمد صلى الله عليه وسلم سمعه من جبريل ووصف رسوله الملوك فى هذه السورة بأنه كريم ، قوى ، مكين عند الرب تعالى ، مطاع فى السموات ، أمين ، فهذه خمس صفات تتضمن

تذكية سند القرآن ، وانه سماع محمد من جبريل ، وسماع جبريل من رب العالمين . فناهيك هذا السند علوا وجلالة : قول الله سبحانه بنفسه تزيته الصفة الأولى كون الرسول الذي جاء به الى محمد صلى الله عليه وسلم كريما ليس كما يقول اعداؤه : ان الذي جاء به شيطان ، فان الشيطان خبيث مخبث ، لئيم ، قبيح المنظر ، عديم الخير ، باطنه أقبح من ظاهره ، وظاهره أشنع من باطنه ، وليس فيه ولا عنده خير فهو أبعد شيء عن الكرم . والرسول الذي ألقى القرآن الى محمد صلى الله عليه وسلم كريم ، جميل المنظر ، بهي الصورة ، كثير الخير ، طيب مطيب ، معلم الطيبين . وكل خير في الأرض من هدى وعلم ومعرفة وإيمان وبر ، فهو مما أجراه ربه على يده وهذا غاية الكرم الصورى والمعنوى

الوصف الثانى انه ذو قوة كما قال فى موضع آخر (٥٣ : ٥ عِلْمُهُ شَدِيدُ الْقُوَى) وفى ذلك تنبيه على أمور

(* أحدها) * انه بقوته يمنع الشياطين ان تدنوا منه ، وأن ينالوا منه شيئا ، وأن يزدوا فيه أو ينقصوا منه ، بل اذا رآه الشيطان هرب منه ولم يقرب به

(* الثانى) * انه موال لهذا الرسول الذى كذبتموه ، ومعاضد له ، وموادلوه وناصر ، كما قال تعالى (٦٦ : ٢ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

ومن كان هذا القوي وليه ، ومن انصاره ، وأعوانه ، ومعلمه ،
فهو المهدي المنصور ، والله هاديه ، وناصره

(الثالث) أن من عادى هذا الرسول فقد عادى صاحبه ووليه
جبريل ، ومن عادى ذا القوة والشدة فهو عرضة للهلاك

(الرابع) أنه قادر على تنفيذ ما أمر به لقوته ، فلا يعجز عن
ذلك ، مؤدله كما أمر به لأمانته ، فهو القوى الأمين ، وأحدكم إذا
انتدب غيره في أمر من الأمور لرسالة ، أو ولاية ، أو وكالة أو غيرها
فانما ينتدب لها القوى عليه الأمين على فعله ، وان كان ذلك الأمر
من أهم الأمور عنده انتدب له قويا آمينا معظما ذا مكانة عنده ،
مطاعا في الناس ، كما وصف الله عنده جبريل بهذه الصفات . وهذا يدل
على عظمة شأن المرسل ، والرسول ، والرسالة ، والمرسل اليه ،
حيث انتدب له الكريم القوى المكين عنده ، المطاع في الملأ
الأعلى ، الأمين حق الأمين . فان الملوك لا ترسل في مهماتها إلا
الاشراف ، ذوى الاقدار والرتب العالية

وقوله (عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٌ) أي له مكانة ووجاهة عنده ،
وهو أقرب الملائكة اليه . وفي قوله (عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ) إشارة ،
الى علو منزلة جبريل ، اذ كان قريباً من ذى العرش سبحانه
وفي قوله (مُطَاعٌ نَمًّا) إشارة الى أن جنوده وأعوانه

يطيعونه اذا ندبهم لنصر صاحبهم وخليفه محمد صلى الله عليه وآله وسلم .
وفيه اشارة أيضا الى أن هذا الذى تكذبونه وتعادونه سيصير
مطاعا فى الارض ، كما أن جبريل مطاع فى السماء ، وأن كلام الرسولين
مطاع فى محله وقومه . وفيه تعظيم له بأنه بمنزلة الملوك المطاعين فى
قومهم ، فلم ينتدب لهذا الأمر العظيم الا مثل هذا الملك المطاع
وفى وصفه بالامانة اشارة الى حفظه ماحمله ، وأدائه له على وجهه
ثم نزهة رسوله البشرى وزكاه عما يقول فيه أعداؤه . فقال (وَمَاصًا حُبُّكُمْ
يَمَجِّنُونَ) وهذا أمر يعلمونه ولا يشكون فيه ، وإن قالوا بالسنتهم
خلافه ، فهم يعلمون أنهم كانوا كاذبين

ثم أخبر عن رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم لجبريل . وهذا يتضمن
أنه ملك موجود فى الخارج ، يرى بالعيان ، ويدركه البصر ، لا كما
يقوله المتفلسفة : ومن قلدتهم : أنه العقل الفعال ، وأنه ليس بما يدرك
بالبصر ، وحقيقته عندهم أنه خيال موجود فى الأذهان لا فى الأعيان .
وهذا بما خالفوا به جميع الرسل وأتباعهم ، وخرجوا به عن جميع
الملل . ولهذا كان تقرير رؤية النبى صلى الله عليه وآله وسلم لجبريل أهم
من تقرير رؤيته لربه تعالى . فإن رؤيته لجبريل هى أصل الإيمان الذى
لا يتم الا باعتقادها . ومن أنكرها كفر قطعا . وأما رؤيته لربه
تعالى فغايتهما أن تكون مسألة نزاع لا يكفر جاحدها بالاتفاق .
وقد صرح جماعة من الصحابة بأنه لم يره . وحكى عثمان بن سعيد

الدارمي اتفاق الصحابة على ذلك (١) فنحن الى تقرير رؤيته لجبريل
أحوج منا الى تقرير رؤيته لربه تعالى . وان كانت رؤية الرب
أعظم من رؤية جبريل ومن دونه . فان النبوة لا يتوقف ثبوتها
عليها البتة

ثم نزه رسوله كليهما - أحدهما بطريق النطق ، والثاني بطريق
اللزوم - عما يضاد مقصود الرسالة من السكتان الذي هو الضنة
والبخل ، والتبديل ، والتغيير الذي يوجب التهمة ، فقال (وما هو
عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينَ) فان الرسالة لا يتم مقصودها الا بأمرين : أدائها
من غير كتمان ، وأدائها على وجهها من غير زيادة ولا نقصان .
والقراءتان كالأيتين ، فتضمنت احدهما - وهي قراءة الضاد - تنزيهه
عن البخل . فان الضنين هو البخل ، يقال ضننت به أضن ، بوزن
بخلت به أبخل ومعناه : ومنه قول جميل بن معمر :

أجود بمضنون التلاد واننى * بسر ك عمن سألنى لضنين

قال ابن عباس رضى الله عنهم : ليس بخيلا بما أنزل الله . وقال

مجاهد : لا يضمن عليهم بما يعلم .

وأجمع المفسرون على ان الغيب ههنا القرآن والوحي . وقال

(١) فى كتاب الرد على بشر المريسي الجهمي . وهو من أنفس ما كتب

في بيان عقيدة أهل السنة من السلف . وفي الرد على الجهمية وغيرهم

من أهل العقائد الزائفة الضالة

الفراء ، يقول تعالى : يأتيه غيب السماء وهو منفوس فيه ، فلا يضمن به عليكم ، وهذا معنى حسن جدا ، فإن عادة النفوس الشح بالشئ النفيس ، ولا سيما عن لا يعرف قدره ، ويذمه ويذم من هو عنده ومع هذا فهذا الرسول لا ييخل عليكم بالوحي الذي هو أنفوس شئ وأجله . وقال أبو علي الفارسي : المعنى يأتيه الغيب فيبينه ويخبر به ويظهره ، ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ما عنده ، ويخفيه حتى يأخذ عليه حلوانا . وفيه معنى آخر ، وهو أنه على ثقة من الغيب الذي يخبر به فلا يخاف أن ينتقض ، ويظهر الأمر بخلاف ما أخبر به ، كما يقع للسكان وغيرهم من يخبر بالغيب . فإن كذبهم أضعاف صدقهم ، وإذا أخبر أحدهم بخبر لم يكن على ثقة منه ، بل هو خائف من ظهور كذبه . فاقدام هذا الرسول على الاخبار بهذا الغيب العظيم الذي هو أعظم الغيب واثقا به ، مقيا عليه ، مبديا له في كل مجمع ، ومعيدا مناديا به على صدقه ، مجلبا به على أعدائه من أعظم الأدلة على صدقه

وأما قراءة من قرأ (بظنين) بالطاء ، فعنائه المتهمة ، يقال : ظننت زيدا بمعنى اتهمته ، وليس من الظن الذي هو الشعور والادراك ، فإن ذاك يتعدى الى مفعولين . ومنه ما أنشده أبو عبيدة :

أما وكتاب الله لا عن شناة * هجرت ، ولكن المحب ظنين
والمعنى : وما هذا الرسول على القرآن بمتهم ، بل هو أمين لا يزيد

فيه ولا ينقص ، وهذا يدل على ان الضمير يرجع الى محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، لانه قد تقدم وصف الرسول الملكى بالامانة . ثم قال (وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ) ثم قال (وَمَا هُوَ) أى وما صاحبكم بمتهم ولا بخيل واختار أبو عبيدة قراءة الظاء لمعنيين : أحدهما أن الكفار لم يخلوه . وإنما اتهموه ، فنفي التهمة أولى من نفي البخل : الثانى انه قال (على الغيب) ولو كان المراد البخل لقال بالغيب ، لانه يقال فلان ضنين بكذا وقلما يقال على كذا

قلت : ويرجح انه وصفه بما وصف به رسوله الملكى ، من الامانة ، فنفي عنه التهمة كما وصف جبريل بأنه أمين ، ويرجح اينا انه سبحانه نفى أقسام الكذب كلها عما جاء به من الغيب ، فان ذلك لو كان كذبا ، فإما أن يكون منه ، أو بمن علمه ، وان كان منه ، فإما أن يكون تعمده أو لم يتعمده ، فان كان من معلمه فليس هو بشيطان رجيم ، وان كان منه مع التعمد فهو المتهم ، ضد الامين . وان كان عن غير تعمد فهو المجنون . فنفي سبحانه عن رسوله ذلك كله ، وزكى سند القرآن أعظم تزكية . فلماذا قال سبحانه (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ) ليس تعليم الشيطان ولا يقدر عليه ، ولا يحسن منه كما قال تعالى (٢٦: ٢١٠) وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ٢١١ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيلُونَ (فنفي فعله وابتغاه منهم ، وقدرتهم عليه . وكل من له أدنى خبرة بأحوال الشياطين والمجانين والمتهمين ، وأحوال الرسل يعلم علما

لا يمارى فيه ولا يشك ، بل علمنا ضروريا ، كسائر الضروريات - منافاة أحدهما للآخر ، ومضادته له . كمنافاة أحد الضدين لصاحبه بل ظهور المنافاة بين الأمرين للعقل أبين من ظهور المنافاة بين النور والظلمة للبصر . ولهذا وبخسبجانه من كفر بعد ظهور هذا الفرق المبين بين دعوة الرسل ودعوة الشياطين . فقال (أَيْنَ تَذْهَبُونَ ؟) قال أبو اسحاق فأى طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التى بينت لكم ؟

قلت : هذا من أحسن اللازم وأبينه ، أن تبين للسامع الحق ثم تقول له : ايش تقول خلاف هذا ؟ وأين تذهب خلاف هذا . قال تعالى (٧٧ : ٥٠) فَبَأَىٰ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ) وقال (فَبَأَىٰ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ؟) فالأمر منحصر فى الحق والباطل ، والهدى والضلال ، فاذا عدلتم عن الهدى والحق ، فأين العدول ، وأين المذهب ؟

ونظير هذا قوله (٤٧ : ٢٢) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ) أى ان أعرضتم عن الإيمان بالقرآن والرسول وطاعته فليس الا الفساد فى الأرض ، والشرك والمعاصى وقطيعة الرحم . ونظيره قوله تعالى (٥٠ : ٥) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ) لما تركوا الحق وعدلوا عنه مرج عليهم أمرهم والتبس ، فلا يدرون ما يقولون وما يفعلون ، بل لا يقولون شيئا

ألا كان باطلا ، ولا يفعلون شيئا الا كان ضائعا غير نافع لهم ، وهذا شأن كل من خرج عن الطريق الموصل الى المقصود ، ونظيره قوله تعالى (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ) وقد كشف هذا المعنى كل الكشف بقوله عز وجل (١٠ : ٣٢ فذُلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ ، الْحَقُّ فَإِذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ؟)

(٢٥) فصل

ثم أخبر تعالى عن القرآن بأنه ذكر للعالمين . وفي موضع آخر تذكرة للمتقين . وفي موضع آخر ذكر لرسوله صلى الله عليه وسلم ولقومه . وفي موضع آخر ذكر مطلق . وفي موضع آخر ذكر مبارك . وفي موضع آخر وصفه بأنه ذو الذكر

ويجمع هذه المواضع تبين المراد من كونه ذكرا عاما وخصوصا ، وكونه ذا ذكر ، فانه يذكر العباد بمصالحهم في معاشهم ومعادهم ، ويذكرهم بالمبدأ والمعاد ، ويذكرهم بالرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وحقوقه على عباده ، ويذكرهم بالخير ليقصدوه ، وبالشر ليجتنبوه . ويذكرهم بنفوسهم ، وأحوالها وآفاتهما ، وما تكمل به . ويذكرهم بعدوهم وما يريد منهم ، وبماذا يحترزون من كيدته ، ومن أى الأبواب والطرق يأتى اليهم . ويذكرهم بفاقتهم وحاجتهم فاليه ، وانهم مضطرون اليه لا يستغنون عنه نفسا واحدا . ويذكرهم

بنعمه عليهم، ويدعوهم بها الى نعم أخرى أكبر منها ويذكرهم بأسه وشدة بطشه، وانتقامه بمن عصى أمره، وكذب رسله ويذكرهم بثوابه وعقابه ولهذا يأمر سبحانه عباده أن يذكروا ما في كتابه، كما قال :

(٢: ٦٣) خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ
 وإذا كان كذلك فأحق وأولى وأول من كان ذا كراه من أنزل عليه، ثم لقومه، ثم لجميع العالمين. وحيث خص به المتقين فلأنهم الذين انتفعوا بذكره

وأما وصفه بأنه ذو الذكر فلأنه مشتمل على الذكر، فهو صاحب الذكر، ومنه الذكر. فهو ذكر وفيه الذكر. كما أنه هدى وفيه الهدى وشفاء وفيه الشفاء، ورحمة وفيه الرحمة

وقوله سبحانه (٢٨: ٨١) لَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ) بدل من العالمين. وهو بدل بعض من كل. وهذا من أحسن ما يستدل به على أن البدل في قوة ذكر عاملين مقصودين فإن جهة كونه ذكرا للعالمين كلهم غير جهة كونه ذكرا لأهل الاستقامة فانه ذكر للعموم بالصلاحية والقوة وذكر لأهل الاستقامة بالحصول والنفع، فكما أن البدل أخص من المبدل منه فالعامل المقدر فيه أخص من العامل الملفوظ في المبدل منه. ولا بد من هذا فتأمل

وقوله (لَنْ شَاءَ مِنْكُمْ) رد على الجبرية القائلين بأن العبد لا مشيئة له، أو أن مشيئته مجرد علامة على حصول الفعل لا ارتباط

بينها وبينه الامجرد اقتران عادى من غير أن يكون سببا فيه
 وقوله (٢٩: ٨١) وَمَا تَشَاوُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ (رد على القدرية القائلين
 بأن مشيئة العبد مستقلة بايجاد الفعل من غير توقف على مشيئة الله ،
 بل متى شاء العبد الفعل وجد ، ويستحيل عندهم تعلق مشيئة الله
 بفعل العبد، بل هو يفعله بدون مشيئة الله

فالآيتان مبطلتان لقول الطائفتين. فان قال الجبرى : هو سبحانه
 لم يقل إن الفعل واقع بمشيئة العبد ، بل أخبر أن الاستقامة تحصل
 عند المشيئة ، ونحن قائلون بذلك. وقال القدرى قوله (وما تشاوون
 الا أن يشاء الله) مختلفة ، فمشيئة العبد هى الموجبة للفعل التى بها يقع
 ومشيئة الله لفعله هو أمره بذلك ونحن لا ننكر ذلك

فالجواب ان هذا من تحريف الطائفتين . أما الجبرى فيقال له اقتران
 الفعل عندك بمشيئة العبد بمنزلة اقترانه بكونه وشكله وسائر أغراضه
 التى لا تأثير لها فى الفعل ، فان نسبة جميع أغراضه إلى الفعل فى عدم
 التأثير نسبة إرادية عندك ، والاقتران حاصل بجميع أغراضه . فما
 الذى أوجب تخصيص المشيئة ؟ سوى الله سبحانه فى فطر الناس
 أو عقولهم ، أو شرائعهم ، بين نسبة المشيئة والارادة الى الفعل ، ونسبة
 سائر أغراض الحى إذا كان عندك ليس إلا مجرد الاقتران عادة ؟
 والاقتران العادى حاصل مع الجميع

وأما القدرى فتحريفه أشد. لانه حمل المشيئة على الأمر وقال: المعنى

وما تشاؤون الا بأمر الله . وهذا باطل قطعاً ، فان المشيئة في القرآن لم تستعمل في ذلك ، وإنما استعملت في مشيئة التكوين كقوله (١١٢ : ٦) **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلْنَاهُ**) وقوله (٢ : ٢٥٣) **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّاكُمْ**) وقوله (١٣ : ٣٢) **وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا**) وقوله (١٣ : ٣١) **أَفَلَمْ يَأْسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءَ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا**) ونظائر ذلك ، مما لا يصح فيه حمل المشيئة على الأمر البتة

والذي دلت عليه الآية مع سائر أدلة التوحيد ، وأدلة العقل الصريح ، أن مشيئة العباد من جملة الكائنات التي لا توجد إلا بمشيئة الله سبحانه وتعالى ، فلم يشأ لم يكن البتة . كما أن ما شاء كان ولا بد ولكن هنا أمر يجب التنبيه عليه ، وهو أن مشيئة الله سبحانه تارة تتعلق بفعله ، وتارة تتعلق بفعل العبد ، فتعلقها بفعله وهو أن يشاء من نفسه إعانة عبده وتوفيقه وتهيئته للفعل ، فهذه المشيئة تستلزم فعل العبد ومشيئته ، ولا يكفي في وقوع الفعل مشيئة الله لمشيئته عبده ، دون أن يشاء فعله ، فانه سبحانه قد يشاء من عبده المشيئة وحدها ، فيشاء العبد الفعل ويريده ولا يفعله ، لانه لم يشأ من نفسه إعاقته عليه وتوفيقه له

وقد دل على هذا قوله تعالى (**وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**) وقوله (٧٤ : ٥٦) **وَمَا يَنْدُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ**)

وهاتان الآيتان متضمنتان إثبات الشرع والقدر ، والأسباب
والمسيبات ، وفعل العبد واستناده الى فعل الرب . ولكل منهما
عبودية مختص بها : فعبودية الآية الاولى الاجتهاد ، واستفراغ
الوسع ، والاختيار ، والسعى . وعبودية الثانية الاستعانة بالله ،
والتوكل عليه ، واللجأ اليه ، واستنزال التوفيق ، والعون منه ، والعلم
بأن العبد لا يمكنه ان يشاء ، ولا يفعل حتى يجعله الله كذلك
وقوله (رَبُّ الْعَالَمِينَ) ينتظم ذلك كله ، ويتضمنه . فمن عطل
أحد الأمرين فقد جحد كمال الربوبية وعطلها . وبالله التوفيق

(٢٦) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (٧٩ : ١) وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ٢ وَالنَّاشِطَاتِ
نَشْطًا ٣ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ٤ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ٥ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا)
فهذه خمسة أمور . وهى صفات الملائكة

فأقسم سبحانه بالملائكة الفاعلة لهذه الافعال ، إذ ذلك من أعظم
آياته ، وحذف مفعول النزع والنشط . لانه لو ذكر ما تنزع وتنشط
لأوهم التقييد به . وان القسم على نفس الافعال الصادرة من هؤلاء
الفاعلين ، فلم يتعلق الغرض بذكر المفعول ، كقوله (٩٢ : ٦) فَأَمَّا مَنْ
أَعْطَى وَاتَّقَى) ونظائره . فكان نفس النزع هو المقصود لاعتين المنزوع

وأكثر المفسرين على أنها الملائكة التي تنزع أرواح بني آدم من أجسامهم ، وهم جماعة كقوله (٦ : ٦١ تَوَفَّيْتُهُ رُسُلَنَا) وقوله (٤ : ٩٧ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ) وأما قوله (٣٢ : ١١ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَائِكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ) فاما أن يكون واحدا ، وله أعوان ، واما أن يكون المراد الجنس لا الوحدة كقوله (٦٦ : ١٢ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ) وقوله (١٦ : ١٨ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

والنزع هو اجتذاب الشيء بقوة ، والاغراق في النزع هو أن يجتذبه الى آخره . ومنه اغراق النزع في جذب القوة . بأن يبلغ بها غاية المد ، فيقال : أغرق في النزع ، ثم صار مثلا لكل من بالغ في فعل حتى وصل إلى آخره والغرق اسم مصدر أقيم مقامه كالعطاء والكلام . أقيم مقامه الاعطاء والتكلم

واختلف الناس هل النازعات متعددة أو لازم ؟ فعلى القول الذي حكيانه يكون متعديا ، وهذا قول علي ، ومسروق ، ومقاتل ، وأبي صالح ، وعطية عن ابن عباس . وقال ابن مسعود : هي أنفس الكفار ، وهو قول قتادة ، والشَّدي ، وعطاء عن ابن عباس . وعلى

هذا فهو فعل لازم . وغرقا على هذا معناه نزعا شديدا أبلغ ما يكون وأشدّه

وفي هذا القول ضعف من وجوه ﴿أحدها﴾ أن عطف ما بعده عليه يدل على أنها الملائكة ، فهي السابحات والمدبرات ، والنازعات ﴿الثاني﴾ أن الاقسام بنفوس الكفار خاصة ليس بالبين ، ولا في اللفظ ما يدل عليه ﴿الثالث﴾ أن النزع مشترك بين نفوس بني آدم ، والاغراق لا يختص بالكافر . وقال الحسن : النازعات هي النجوم ، تنزع من المشرق الى المغرب . وغرقا هو غروبها قال : تنزع من ههنا وتغرق ههنا . واختاره الاخفش وأبو عبيد . وقال مجاهد : هي شدائد الموت وأهواله ، التي تنزع الارواح نزعا شديدا . وقال عطاء ، وعكرمة : هي القسي . والنازعات على هذا القول بمعنى النسب أي ذوات النزع التي ينزع بها الرامي ، فهو النازع

قلت : النازعات اسم فاعل من نزع ، ويقال : نزع كذا . اذا اجتذبه بقوة ، ونزع عنه إذا خلاه وتركه ، بعد ملابسته له . ونزع اليه إذا ذهب اليه ومال اليه . وهذا انما توصف به النفوس التي لها حركة إرادية للميل الى الشيء أو الميل عنه ، وأحق ما صدق عليه هذا الوصف الملائكة ، لأن هذه القوة فيها أكمل ، وموضع الآية فيها أعظم . فهي التي تغرق في النزع اذا طلبت ما تنزعه أو تنزع اليه ، والنفس الانسانية أيضا لها هذه القوة ، والنجوم أيضا تنزع من

أفق الى افق . فالنزع حركة شديدة ، سواء كانت من ملك ، أو نفس انسانية ، أو نجم . والنفوس تنزع الى أوطانها ، والى مألفها ، وعند الموت تنزع الى ربها ، والمنايا تنزع النفوس ، والقسي تنزع بالسهم ، والملائكة تنزع من مكان الى مكان ، وتنزع ما وكلت بنزعه ، والخيول تنزع في أعنتها نزعا تغرق فيه الالعنة لطول أعناقها فالصفة واقعة على كل من له هذه الحركة التي هي آية من آيات الرب تعالى ، فانه هو الذي خلقها وخلق محلها ، وخلق القوة والنفس التي بها تتحرك . ومن ذكر صورة من هذه الصور فانما أراد التمثيل .
وان كانت الملائكة أحق من تناوله هذا الوصف

فأقسم بطوائف الملائكة وأصنافهم : فهم النازعات التي تنزع الارواح من الاجساد ، والناشطات التي تنشطها أي تخرجها بسرعة وخفة من قلوبهم : نشط الدلو من البر اذا أخرجها ، وانا أنشط بكذا أي أخف له وأسرع (والسباحات) التي تسبح في الهواء في طريق ممرها الى ما أمرت به ، كما تسبح الطير في الهواء (فالسابقات) التي تسبق وتسرع الى ما أمرت به لا تبطل عنه ولا تتأخر (فالمدبرات) أمور العباد التي أمرها ربها بتدبيرها . وهذا أولى الأقوال

وقد روى عن ابن عباس : أن (النازعات) الملائكة تنزع نفوس الكفار بشدة وعنف (والناشطات) الملائكة التي تنشط أرواح المؤمنين بيسر وسهولة . واختار القراء هذا القول ، فقال : هي الملائكة تنشط نفس المؤمن فتقبضها ، وتنزع نفس الكافر . قال

الواحدى : انما اختار ذلك ، لما بين النشاط والنزع من الفرق فى الشدة واللين ، فالنزع الجذب بشدة ، والنشط الجذب برفق ولين (والناشطات) هى النفوس التى تنشط لما أمرت به ، والملائكة أحق الخلق بذلك ، ونفوس المؤمنين ناشطة لما أمرت به

وقيل (السابحات) هى النجوم تسبح فى الفلك ، كما قال تعالى (٣٦ : ٤٠) كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) وقيل : هى السفن تسبح فى الماء ،

وقيل : هى نفوس المؤمنين تسبح بعد المفارقة صاعدة الى ربها قلت : والصحيح أنها الملائكة ، والسياق يدل عليه . وأما السفن

والنجوم ، فانما تسمى جارية وجوارى كما قال تعالى (٤٢ : ٣٢) وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ) وقال (٦٩ : ١١) مَحَلًّا كُمْ فِي الْجَارِيَةِ) وقال (٨١ : ١٦) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ) ولم يسمها سابحات .

وان أطلق عليها فعل السباحة ، كقوله (كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) ويدل عليه ذكره السابقات بعدها والمديرات بالفاء ، وذكره الثلاثة الأول بالواو ، لأن السبق والتدبير مسبب عن المذكور قبله ، فانها نزع وتَنَشَّطَتْ وَسَبَّحَتْ فسبقت الى ما أمرت به فدبرته . ولو كانت السابحات هى السفن أو النجوم أو النفوس الآدمية لما عطف عليها فعل السبق والتدبير بالفاء . فتأمل

قال مسروق ، ومقاتل ، والكلبي : (فالسابقات سَبَقًا) هى الملائكة قال مجاهد وأبوروق : سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح

والايمان والتصديق . قال مقاتل : تسبق بارواح المؤمنين الى الجنة . وقال الفراء ، والزجاج : هي الملائكة ، تسبق الشياطين بالوحي الى الانبياء اذ كانت الشياطين تسترق السمع . وهذا القول خطأ لا يخفى فساده ، اذ يقتضى الاشتراك بين الملائكة والشياطين فى إلقائهم الوحي ، وأن الملائكة تسبقهم به الى الانبياء . وهذا ليس بصحيح . فان الوحي الذى تأتى به الملائكة الى الانبياء لا تسترقه الشياطين ، ونعم عزولون عن سماعه . وان استرقوا بعض ما يسمعون من ملائكة السماء الدنيا من أمور الحوادث ، فآله سبحانه صان وحيه الى الانبياء أن تسترق الشياطين شيئاً منه ، وعز لهم عن سماعه . ولو أن قائل هذا القول فسر السابقات بالملائكة التى تسبق الشياطين بالترجم بالشهب قبل إلقاء الكلمة التى استرقها لكان له وجه . فان الشيطان ييدر مسرعاً بالقائه الى وليه ، فتسبقه الملائكة فى نزوله بالشهب الثواقب قهله . وربما ألقى الكلمة قبل ادراك الشهاب له

وفسرت (السابقات سبقاً) بالأنفس السابقات الى طاعة الله ومرضاته . وأما (المدبرات أمراً) فأجمعوا على أنها الملائكة ، قال مقاتل : هم جبريل ، وميكائيل ، واسرافيل ، وملك الموت : يدبرون أمر الله تعالى فى الارض ، وهم (المقسمات أمراً) . قال عبد الرحمن بن سابط : جبريل موكل بالرياح والجنود ، وميكائيل موكل بالقطر والنبات ، وملك الموت موكل بقبض الأنفس ، واسرافيل ينزل بأمر الله عليهم . وقال ابن عباس : هم الملائكة ، وكلهم الله بأمر

عرفهم العمل بها والوقوف عليها ، بعضهم لبنى آدم يحفظون ويكتبون ،
وبعضهم وكلوا بالأمطار والنبات ، والخسف والمسوخ ، والرياح
والسحاب ، انتهى

وقد أخبر أن الله وكل بالرجم ملكا ، وللرؤيا ملك موكل بها ،
وللجنة ملائكة موكلون بعمارتهما ، وعمل آلاتها ، وأوانيتها ، وغراسها
وفرشها ، ونمازقها ، وأرائكها . وللنار ملائكة موكلة بعمل ما فيها
وإيقادها ، وغير ذلك

فالدنيا وما فيها ، والجنة والنار ، والموت وأحكام البرزخ - قد
وكل الله بذلك كله ملائكة يدبرون ما شاء الله من ذلك . ولهذا كان
الايمن بالملائكة أحد أركان الايمان الذى لا يتم الايمان إلا به
وأما من قال انها النجوم فليس هذا من قول أهل الاسلام ،
ولم يجعل الله النجوم تدبر شيئا من الخلق ، بل هى مدبرة مسخرة .
كما قال تعالى (١٦ : ١٢) وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ) فالله
سبحانه هو المدبر بملائكته لا امر العالم العلوى والسفلى

قال الجرجاني : وذكر السابقات والمدبرات بالفاء وما قبلها بالواو ،
لان ما قبلها أقسام مستأنفة ، وهذان القسمان منشآن عن الذى قبلهما
كأنه قال : فاللاتى سبحن فسبقن ، كما نقول قام فذهب ، أو جب
الفاء ان القيام كان سببا للذهاب ولو قلت : قام وذهب لم تجعل
القيام سببا للذهاب

واعترض عليه الواحدى ، فقال : هذا غير مطرد فى هذه الآية

لأنه يبعد أن يجعل السبق سبباً للتدبير ، مع أن السابقات ليست الملائكة
في قول المفسرين

قلت : الملائكة داخلون في السابقات قطعاً . وأما اختصاص
السابقات بالملائكة فهذا محتمل . وأما قوله : يبعد أن يكون السبق
سبباً للتدبير فليس كما زعم ، بل السبق المبادرة الى تنفيذ ما يؤمر به
المملك ، فهو سبب للفعل الذي أمر به . وهو التدبير ، مع أن الفاء دالة
على التعقيب ، وإن التدبير يتعقب السبق بلا تراخ . بخلاف الاقسام
الثلاثة . والله أعلم

وجواب القسم محذوف يدل عليه السياق - وهو البعث
المستلزم لصديق الرسول وثبوت القرآن ، أو أنه من
القسم الذي أريد به التنبيه على الدلالة ، والعبرة بالمقسم به دون
أن يراد به مقسماً عليه بعينه . وهذا القسم يتضمن الجواب
المقسم عليه وإن لم يذكر لفظاً ، ولعل هذا مراد من قال انه محذوف
للعلم به ، لكن هذا الوجه ألطف مسلماً . فإن المقسم به إذا كان
دالاً على المقسم عليه مستلزماً استغنى عن ذكره بذكره ، وهذا غير
كونه محذوفاً لدلالة ما بعده عليه فتأمله . ولعل هذا قول من قال انه
إنما أقسم برب هذه الأشياء ، وحذف المضاف . فإن معناه صحيح
لكن على غير الوجه الذي قدره . فإن إقسامه سبحانه بهذه الأشياء
لظهور دلائلها على ربوبيته ، ووحدانيته ، وعلمه ، وقدرته ، وحكمته ،
فالأقسام بها في الحقيقة إقسام بربوبيته وصفاته كماله فتأمله

ثم قرر سبحانه بعد هذا القسم امر المعاد ، ونبوة موسى المستلزمة
 لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ من المحال أن يكون موسى نبياً
 ومحمد ليس نبياً مع أن ما يثبت نبوة موسى فليحمد نظيره أو أعظم منه .
 وقرر سبحانه تكليمه لموسى بدائه له بنفسه ، فقال (١٦:٧٩) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ
 فَأَثَبَتِ الْمُسْتَلْزَمَ لِلْكَلامِ والتكليم . وفي موضع آخر أثبت النجاء
 والنداء ، والنجاء نوع من التكليم . ومحال ثبوت النوع بدون الجنس
 ثم أمره أن يخاطبه بألين خطاب فيقول له: (مَلِكٌ لَّكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى .
 وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى؟) ففي هذا من لطف الخطاب ولينه وجوه
 ﴿أحدها﴾ اخراج الكلام مخرج العرض ولم يخرج مخرج الأمر
 والالزام ، وهو اللطف . ونظيره قول ابراهيم لضيغه المكرمين (٢٧:٥١)
 أَلَا تَأْكُلُونَ) ولم يقل كلوا ﴿الثاني﴾ قوله (إِلَى أَنْ تَزَكَّى) والتزكى
 النماء ، والطهارة ، والبركة ، والزيادة . فعرض عليه أمر يقبله كل عاقل
 ولا يرده الا كل أحمق جاهل ﴿الثالث﴾ قوله (تَزَكَّى) ولم يقل أزكك
 فأضاف التزكية إلى نفسه . وعلى هذا يخاطب الملوك ﴿الرابع﴾
 قوله (وأهديك) أى أكون دليلاً لك ، وهادياً بين يديك ، فنسب
 الهداية إليه والتزكى الى المخاطب ، أى أكون دليلاً لك وهادياً فتزكئ
 أنت ، كما تقول للرجل : هل لك أن أدلك على كنز تأخذ منه ماشئت؟
 وهذا أحسن من قوله أعطيك ﴿الخامس﴾ قوله (إِلَى رَبِّكَ) فإن في
 هذا ما يوجب قبول ما دل عليه وهو انه يدعو ويوصله الى ربه فاطره

وخالقه الذى أوجده ، ورباه بنعمه : جنينا ، وصغيرا ، وكبرا ، وآتاه الملك . وهو نوع من خطاب الاستعطاف والالزام ، كما تقول لمن خرج عن طاعة سيده : ألا تطيع سيدك وهولاك ومالكك ؟ وتقول للولد ألا تطيع أباك الذى رباك ﴿ السادس ﴾ قوله (فتخشى) أى اذا اهتديت اليه وعرفته خشيته ، لان من عرف الله خافه ، ومن لم يعرفه لم يخفه ، فخشيته تعالى مقرونة بمعرفته ، وعلى قدر المعرفة تكون الخشية ﴿ السابع ﴾ ان فى قوله (هل لك) فائدة لطيفة ، وهى ان المعنى هل لك فى ذلك حاجة أو أرب ؟ ومعلوم أن كل عاقل يبادر إلى قبول ذلك . لان الداعى إنما يدعو الى حاجته ومصلحته لا إلى حاجة الداعى ، فكأنه يقول : الحاجة لك وأنت المتزكى ، وأنا الدليل لك والمرشد لك إلى أعظم مصالحك ، فقابل هذا بغاية الكفر والعناد . وادعى انه رب العباد . هذا . وهو يعلم أنه ليس بالذى خلق فسوى ، ولا قدر فهدى ، فكذب الخبر ، وعصى الأمر ، ثم أدبر يسعى بالخدعة والمكر ، فحشر جنوده فأجابوه ، ثم نادى فيهم بأنه ربهم الأعلى ، واستخفهم فأطاعوه ، فبطش به جبار السموات والأرض بطشة عزيز مقتدر ، وأخذ نكال الآخرة والأولى ، ليعتبر بذلك من يعتبر ، فاعتبر بذلك من خشى ربه من المؤمنين ، وحق القول على الكافرين

ثم أقام سبحانه حجته على العالمين بخلق ما هو أشد منهم وأكبر ، وأعظم وأعلى وأرفع ، وهو خلق السماء وبنائها ، ورفع سمكها وتسويتها ،

وإظلام ليلها ، وإخراج ضحاها ، وخلق الأرض ومدّها وبسطها
وتهيئتها لما يراد منها . وأخرج منها شراب الحيوان وأقواتهم ،
وأرسي الجبال فجعلها رواسي للأرض ، لئلا تميد بأهلها ، وأودعها
من المنافع ما يتم به مصالح الحيوان الناطق والبهيم . فمن قدر على ذلك
كله كيف يعجز عن إعادةكم خلقاً جديداً ؟

فتأمل دلالة المقسم به المذكور في أول السورة على المعاد
والتوحيد وصدق الرسل كدلالة هذا الدليل المذكور . وإذا كان
هذا هو المقصود لم يكن محتاجاً إلى جواب . والله أعلم

(٢٧) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (٧٧ : ١) وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ٢ فَالْعَاصِفَاتِ غَصَقًا
٣ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ٤ فَالْمَفَارِقَاتِ فَرَقًا ٥ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ٦ عُذْرًا
أَوْ نُذْرًا ٧ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعُ) فسرت المرسلات بالملائكة ،
وهو قول أبي هريرة ، وابن عباس ، في رواية مقاتل وجماعة ، وفسرت
بالرياح ، وهو قول ابن مسعود وأحدى الروایتين عن ابن عباس
وقول قتادة . وفسرت بالسحاب ، وهو قول الحسن ، وفسرت
بالأنبياء ، وهو رواية عطاء عن ابن عباس

قلت : الله سبحانه يرسل الملائكة ، ويرسل الأنبياء ، ويرسل
الرياح ، ويرسل السحاب ، فيسوقه حيث يشاء ، ويرسل الصواعق

فيصيب بها من يشاء ، فارساله واقع على ذلك كله ، وهو نوعان : إرسال دين يحبه ويرضاه ، كإرسال رسله وأنبيائه ، وإرسال كون وهو نوعان : نوع يحبه ويرضاه ، كإرسال ملائكته في تدبير أمر خلقه . ونوع لا يحبه ، بل يسخطه ويغضه ، كإرسال الشيطان على الكفار فالإرسال المقسم به هنا مقيد بالعرف . فاما أن يكون ضد المنكر ، فهو إرسال رسله من الملائكة ، ولا يدخل في ذلك إرسال الرياح ، ولا الصواعق ، ولا الشياطين . وأما إرسال الانبياء فلو أريد لقال : والمرسلين ، وليس بالفصح تسمية الانبياء مرسلات . وتكلف الجماعات المرسلات خلاف المعهود من استعمال اللفظ ، فلم يطلق في القرآن جمع ذلك الا جمع تذكير لا جمع تأنيث ، وأيضا فاقتران اللفظة بما بعدها من الاقسام لا يناسب تفسيرها بالانبياء ، وأيضا فان الرسل مقسم عليهم في القرآن لا مقسم بهم كقولهم (٦٣: ١٦) تَاللّٰهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ وَقَوْلُهُ (وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) وقوله (٣٦: ١) يَسَّ ۚ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝ ٣ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) وان كان العرف من التابع ، كعرف الفرس وعرف الديك ، والناس الى فلان عرف واحد ، أى سابقون في قصده والتوجه اليه - جاز أن تكون المرسلات الرياح ويؤيده عطف العاصفات عليه والناشرات . وجاز أن تكون الملائكة . وجاز أن يعم النوعين لوقوع الإرسال عرفا عليهما . ويؤيده أن الرياح موكل بها ملائكة تسوقها وتصرفها ، ويؤيد كونها الرياح

عطف العاصفات عليها بفاء التعقيب والتسبب ، فسكانها أرسلت ،
فعصفت . ومن جعل المرسلات الملائكة قال : هي تعصف في مضيها
مسرعة كما تعصف الرياح والأكثرون على أنها الرياح . وفيها قول
ثالث أنها تعصف بروح الكافر ، يقال عصف بالشئ إذا أباده
وأهلكه . قال الأعشى

تعصف بالدارع والحاسر *

حكاه أبو اسحق . وهو قول متكلف ، فإن المقسم به لا بد أن
يكون آية ظاهرة تدل على الربوبية ، وأما الأمور الغائبة التي يؤمن
بها فأنما يقسم عليه ، وإنما يقسم سبحانه بملائكته وكتابه ، لظهور
شانهما . ولقيام الأدلة والاعلام الظاهرة الدالة على ثبوتها
وأما (الناشرات بنشرا) فهو استئناف قسم آخر ، ولهذا أتى به بالواو
وماقبله معطوف على القسم الأول بالفاء . قال ابن مسعود ، والحسن ،
ومجاهد ، وقتادة : هي الرياح تأتي بالمطر . ويدل على صحة قولهم
قوله تعالى (٧ : ٥٧) وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ)
يعني أنها تنشر السحاب نشرا ، وهو ضد الطي ، وقال مقاتل : هي الملائكة
تنشر كتب بني آدم وصحائف أعمالهم . وقاله مسروق ، وعطاء عن ابن
عباس . وقالت طائفة : هي الملائكة تنشر أجنحتها في الجوع عند صعودها
ونزولها . وقيل : تنشر أوامر الله في الأرض والسماء . وقيل :
تنشر النفوس ، فتحياها بالآيمان . وقال أبو صالح : هي الأمطار
تنشر الأرض ، أي تحياها

قلت : ويجوز أن تكون الناشرات لازما لامفعول له ، ولا يكون المراد أنهن نشرن كذا ، فإنه يقال : نشر الميت : حي ، وأنشره الله : إذا أحياه ، فيكون المراد بها الأنفس التي حيتت بالعرف الذي أرسلت به المرسلات ، أو الأشباح والأرواح والبقاع التي حيتت بالرياح المرسلات . فإن الرياح سبب لنشور الأبدان والنبات ، والوحي سبب لنشور الأرواح وحياتها . لكن هنا أمراً ينبغى التفطن له ، وهو أنه سبحانه جعل الأقسام في هذه السورة نوعين وفصل أحدهما من الآخر ، وجعل العاصفات معطوفاً على المرسلات بفاء التعقيب فصارا كأنهما نوع واحد ، ثم جعل الناشرات كأنه قسم مبتدأ فأتى فيه بالواو ، ثم عطف عليه الفارقات والملقيات بالفاء ، فأوهم هذا أن الفارقات والملقيات مرتبطتان بالناشرات ، وأن العاصفات مرتبطتان بالمرسلات . وقد اختلف في الفارقات ، والأكثرون على أنها الملائكة . ويدل عليه عطف الملقيات ذكرها عليها بالفاء ، وهي الملائكة بالاتفاق .

وعلى هذا فيكون القسم بالملائكة التي تنشر أجنحتها عند النزول ففرقت بين الحق والباطل ، فألقت الذكر على الرسل إغذاراً وإنذاراً

ومن جعل الناشرات الرياح جعل الفارقات صفة لها . وقال : هي تفرق السحاب هنا وهناك . ولكن يأبى ذلك عطف الملقيات بالفاء عليها . ومن قال : الفارقات أي القرآن يفرق بين الحق (م ١٠ - التبيان)

والباطل فقله يلتئم مع كون النashرات الملائكة أكثر من الثnامة
إذا قيل : إنها الرياح . ومن قال : هى جماعات الرسل فان أراد
الرسل من الملائكة فظاهر ، وان أراد الرسل من البشر فقد تقدم
بيان ضعف هذا القول

ويظهر - والله أعلم بما أراد من كلامه - أن القسم فى هذه الآية وقع
على النوعين : الرياح ، والملائكة . ووجه المناسبة أن حياة الأرض
والنبات وأبدان الحيوان بالرياح ، فانها من روح الله ، وقد جعلها
الله تعالى نشورا ، وحياة القلوب والأرواح بالملائكة . فهذين
النوعين يحصل نوعا الحياة . ولهذا - والله أعلم - فصل أحد النوعين
من الآخر بالواو وجعل ما هو تابع لكل نوع بعده بالفاء

وتأمل كيف وقع القسم فى هذه السورة على المعاد والحياة الدائمة
الباقية ، وحال السعداء والاشقياء فيها ، وقررها بالحياة الأولى فى قوله
(٧٧ : ٢٠ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ) فذكر فيها المبدأ ، المعاد ،
وأخلص السورة لذلك ، فحسن الأقسام بما يحصل به نوعا الحياة
المشاهدة : وهو الرياح ، والملائكة . فكان فى القسم بذلك أبين
دليل وأظهر آية على صحة ما أقسم عليه وتضمنته السورة . ولهذا
كان المكذب بعد ذلك فى غاية الجحود والعناد والكفر ، فاستحق
الويل بعد الويل ، فتضاعف عليه الويل ، كما تضاعف منه
الكفر والتكذيب

فلا أحسن من هذا التكرار فى هذا الموضع ، ولا أعظم منه

موقعا فانه تكرر عشر مرات ، ولم يذكر إلا في أثر دليل أو مدلول عليه عقيب ما يوجب التصديق وما يوجب التصديق به فتأمل

(٢٨) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (١ : ٧٥) لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ٢
وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) وقد تقدم ذكر هذين القسمين ومناسبة الجمع بينهما في الذكر ، وكون الجواب غير مذکور ، وأنه يجوز أن يكون محذوف لدلالة السياق عليه والعلم به ، ويجوز أن يكون من القسم المقصود به التنبيه على دلالة المقسم به ، وكونه آية ، ولم يقصد به مقسما عليه معينا . فكأنه يقول : اذكر يوم القيامة والنفس اللوامة مقسما بها ، لكونها من آياتنا وأدلة ربوبيتنا

ثم أنكر على الانسان بعد هذه الآية سبحانه وظنه أن الله لا يجمع عظامه بعد ما فرقها البلى . ثم أخبر سبحانه عن قدرته على جمع غيرها من عظامه . وعلى هذا فيكون سبحانه قد احتج على فعله لما أنكره أعداؤه بقدرته عليه . وأخبر عن فعله بأنه لا يلزمهم من القدرة وقوع المقدور . والمعنى : بل نجمعا قادرين على تسوية بنانه . ودل على هذا المعنى المحذوف قوله (بلى) فانها حرف ايجاب لما تقدم من النفي . فلهذا يستغنى عن ذكر الفعل بذكر الحرف الدال عليه . فدلّت الآية على الفعل . وذكر القدرة لا بطل قول المكذبين

وفى ذكر البنان لطيفة أخرى ، وهى أنها أطرافه ، وآخر ما يتم به خلقه . فمن قدر على جمع أطرافه وآخر ما يتم به خلقه ، مع دقتها وصغرها ولطافتها ، فهو على مادون ذلك أقدر . فالقوم لما استبعدوا جمع العظام بعد الفناء والارمام ، قيل إنا نجمع ونسوى أكثرها تفرقا ، وأدقها أجزاء ، وآخر أطراف البدن ، وهى عظام الأنامل ومفاصلها

وقالت طائفة : المعنى نحن قادرون على أن نسوى أصابع يديه ورجليه ونجعلها مستوية شيئا واحدا كخف البعير ، وحافر الحمار لا نفرق بينهما ، ولا يمكنه أن يعمل بها شيئا مما يعمل بأصابعه المفرقة ذات المفاصل والأنامل من فنون الأعمال والبسط والقبض . والتأتى لما يريد من الحوائج . وهذا قول ابن عباس وكثير من المفسرين . والمعنى على هذا القول : إنا فى الدنيا قادرون على أن نجعل عظام بنانه مجموعة دون تفرق ، فكيف لا نقدر على جمعها بعد تفريقها

فهذا وجه من الاستدلال غير الأول ، وهو الاستدلال بقدرته سبحانه على جمع العظام التى فرقها ، ولم يجمعها ، والأول استدلال بقدرته سبحانه على جمع عظامه بعد تفريقها ، وهما وجهان حسنان ، وكل منهما له ترجيح من وجه ، فيرجح الأول أنه هو المقصود ، وهو الذى أنكره الكفار ، وهو إجراء على نسق الكلام واطراده ، ولأن الكلام لم يسبق لجمع العظام وتفريقها فى

الدنيا ، وانما سيق لجمعها في الآخرة بعد تفرقها بالموت . ويرجح القول الثاني - ولعله قول جمهور المفسرين ، حتى أن فيهم من لم يذكر غيره - وأنه استدلال بآية ظاهرة مشهورة ، وهى تفریق البنان مع انتظامها في كف واحد ، وارتباط بعضها ببعض ، فهى متفرقة فى عضو واحد ، يقبض منها واحدة وييسط أخرى ، ويحرك واحدة والاخرى ساكنة ، ويعمل بواحدة والاخرى معطلة ، وكلها فى كف واحد ، قد جمعها ساعد واحد ، فلو شاء سبحانه لسواها فجعلها صفة واحدة كباطن الكف ففاته هذه المنافع والمصالح التى حصلت بتفريقها . ففى هذا أعظم الأدلة على قدرته سبحانه على جمع عظامه بعد الموت

ثم أخبر سبحانه عن سوء حال الانسان وإصراره على المعصية والفجور ، وأنه لا يرعوى ولا يخاف يوما يجمع الله فيه عظامه ويبعثه حيا ، بل هو مرید للفجور ماعاش ، فيفجر فى الحال ، ويريد الفجور فى غد وما بعده . وهذا ضد الذى يخاف الله والدار الآخرة فهذا لا يندم على ماضى منه ولا يقلع فى الحال ، ولا يعزم فى المستقبل على الترك ، بل هو عازم على الاستمرار ، وهذا ضد التائب المنتيب

ثم نبه سبحانه على الحامل له على ذلك ، وهو استبعاده ليوم القيامة وليس هذا استبعاداً لزمنه مع اقراره بوقوعه ، بل هو استبعاد لوقوعه كما حكى عنه فى موضع آخر قوله (٥٠ : ٣ ذَلِكْ رَجْعُ بَعِيدٍ)

أى بعيد وقوعه، وليس المراد أنه واقع بعيد زمنه . هذا قول جماعة من المفسرين ، منهم ابن عباس وأصحابه . قال ابن عباس : يقدم الذنب ويؤخر التوبة . وقال قتادة ، وعكرمة : قَدْماً قَدْماً فى معاصى الله لا ينزع عن فجوره

وفى الآية قول آخر ، وهو أن المعنى بل يريد الانسان ليكذب بما أمامه من البعث ويوم القيامة . وهذا قول ابن زيد ، واختيار ابن قتيبة وأبى اسحق . قال هؤلاء : ودليل ذلك قوله (٧٥ : يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ) ويرجح هذا القول لفظة (بل) فانها تعطى أن الانسان لم يؤمن بيوم القيامة مع هذا البيان والحجة ، بل هو مرید للتكذيب به ، ويرجحه أيضا أن السياق كله فى ذم المكذب بيوم القيامة لافى ذم العاصى والفاجر ، وأيضا فان ما قبل الآية وما بعدها يدل على المراد . فانه قال (أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ يَجْمَعَ عِظَامُهُ ؟ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ) فأنكر سبحانه عليه حسبانه ان الله لا يجمع عظامه . ثم قرر قدرته على ذلك . ثم انكر عليه ارادة التكذيب بيوم القيامة . فالأول حسبان منه أن لا يحياه بعد موته والثانى تكذيب منه بيوم البعث وانه يريد أن يكذب بما وضع وبان دليل وقوعه وثبوته . فهو مرید للتكذيب به . ثم أخبر عن تصريحه بالتكذيب فقال (يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ) فالأول

أرادة التكذيب والثاني نطق بالتكذيب وتكلم به . وهذا قول قوى ، كما ترى . لكن ينبغي إفراغ هذه الالفاظ فى قوالب هذا المعنى . فان لفظة (يفجر) إنما تدل على عمل الفجور لا على التكذيب وحذف الموصول مع ما جره وإبقاء الصلة خلاف الأصل . فان أصحاب هذا القول قالوا تقديره ليس كفر بما أمامه ، وهذا المعنى صحيح لكن دلالة هذا اللفظ عليه ليست بالبينة

فالجواب أن الأمر كذلك لكن الفعل اذا ضمن معنى فعل آخر لم يلزم اعطائه حكمه من جميع أوجوه ، بل من جلالة هذه اللغة العظيمة الشأن وجزالتها أن يذكر المتكلم فعلا ، وما يضمنه معنى فعل آخر ويجرى على المضمن أحكامه لفظا وأحكام الفعل الآخر معنى ، فيكون فى قوة ذكر الفعلين مع غاية الاختصار . ومن تدبر هذا وجدته كثيرا فى كلام الله تعالى

فلفظ (يفجر) اقتضت (أمامه) بلا واسطة حرف ولا اسم موصول ، فأعطيت ما اقتضته لفظا واقتضى ما تضمنه الفعل من ذكر الحرف والموصول ، فأعطيته معنى . فهذا وجه هذا القول لفظا ومعنى . والله أعلم

ثم أخبر سبحانه عن حال هذا الانسان اذا شاهد اليوم الذى كذب به ، فقال (٧٥:٧-١٠) فَاِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَتَيْنَ الْمَقَرَّ فبرق بصره أى يشخص

يشاهده من العجائب التي كان يكذب بها وخسف القمر ذهب ضوؤه وانمحي ، وجمع الشمس والقمر ولم يجتمعا قبل ذلك بل يجمعهما الذي يجمع عظام الانسان بعد ما فرقا البلى ومزقا ، ويجمع للانسان يومئذ جميع عمله الذي قدمه وآخره من خير أو شر . ويجمع ذلك من جمع القرآن في صدر رسوله . ويجمع المؤمنين في دار الكرامة فيكرم وجوههم بالنظر اليه ويجمع المكذبين في دار الهوان ، وهو قادر على ذلك كله كما جمع خلق الانسان من نقطة من مَنَى يُمْنَى ثم جعله علقة مجتمعة الاجزاء بعد ما كانت نقطة متفرقة في جميع بدن الانسان ، وكما يجمع بين الانسان وملك الموت ، ويجمع بين الساق والساق إما ساق الميت أو ساق من يحجز بدنه من البشر ، ومن يحجز روحه من الملائكة ، أو يجمع عليه شدة الدنيا والآخرة فكيف (أنكر) هذا الانسان أن يجمع بينه وبين عمله وجزائه ، وأن يجمع مع بني جنسه ليوم الجمع وأن يجمع عليه بين أمر الله ونهيه ، وعبوديته فلا يُتْرَك سُدًى مهملا معطلا لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يثاب ولا يعاقب فلا يجمع عليه ذلك

فما أجمع هذه السورة لمعان الجمع ، والضم . وقد افتتحت بالقسم بيوم القيامة الذي يجمع الله فيه بين الأولين والآخرين ، وبالنفس اللوامة التي اجتمع فيها همومها ، وغموها ، وارادتها ، واعتقاداتها . وتضمنت ذكر المبدأ والمعاد ، والقيامة الصغرى ، والكبرى ، وأحوال الناس في المعاد ، وانقسام وجوههم الى ناظرة منعمة ،

وباسرة معذبة . وتضمنت وصف الروح بأنها جسم ينتقل من مكان الى مكان . فتجتمع من تفاريق البدن حتى تبلغ التراق ، ويقول الحاضرون (مَنْ رَاقٍ ؟) أى من يرقى من هذه العلة التى أعيت على الحاضرين ، أى التمسوا له من يرقيه . والرقية آخر الطب ، وقيل : من يرقى بها ويصعد ، أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟ فعلى الأول تكون من رقى يرقى كرمى يرمى . وعلى الثانى من رقى يرقى كشقى يشقى . ومصدره الرقاء ومصدر الأول الرقية . والقول الأول أظهر لوجوه ﴿ أحدها ﴾ انه ليس كل ميت يقول حاضروه : من يرقى بروحه وهذا انما يقوله من يؤمن برقى الملائكة بروح الميت ، وانهم ملائكة رحمة ، وملائكة عذاب . بخلاف التماس الرقية وهى الدعاء فانه قل ما يخلو منه المحتضر ﴿ الثانى ﴾ ان الروح انما يرقى بها الملك بعد مفارقتها وحينئذ يقال من يرقى بها . وأما قبل المفارقة فطلب الرقية للمريض من الحاضرين أنسب من طلب علم من يرقى بها الى الله ﴿ الثالث ﴾ ان فاعل الرقية يمكن العلم به فيحسن السؤال عنه ويفيد السامع ، وأما الراقى الى الله فلا يمكن العلم بتعيينه حتى يسأل عنه ، و (من) إما يسئل بها عن تعيين ما يمكن السائل أن يصل الى العلم بتعيينه ﴿ الرابع ﴾ أن مثل هذا السؤال انما يراد به تخصيص واثارة اهتمام الى فعل يقع بعدم نحو قوله (٢ : ٢٤٥) مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا) أو يراد به إنكار فعل ما يذكّر بعده

كقوله (٢ : ٢٥٥ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) وفعل الراقى الى الله لا يحسن فيه واحد من الامرين هنا بخلاف فاعل الرقية فانه يحسن فيه الاول ﴿الخامس﴾ ان هذا خرج على عادة العرب وغيرهم في طلب الرقية لمن وصل الى مثل تلك الحال ، فحكى الله سبحانه ما جرت عادتهم بقوله وحذف فاعل القول ، لانه ليس الغرض متعلقا بالقائل بل بالقول ، ولم تجر عادة المخاطبين بأن يقولوا من يرقى بروحه ، فكان حمل الكلام على ما ألف وجرت العادة بقوله أولى ، اذ هو تذكير لهم بما يشاهدونه ويسمعونه ﴿السادس﴾ انه لو أريد هذا المعنى لكان وجه الكلام ان يقال من هو الراقى ، ومن الراقى ، لا وجه للكلام غير ذلك ، كما يقال من هو القائل منكما كذا وكذا ، وفي الحديث « من القائل كلمة كذا » (١) ﴿السابع﴾ ان كلمة من انما يسئل بها عن التعيين كما يقول : من الذى فعل كذا ، ومن ذا الذى قاله . فيعلم أن فاعلا وقائلا فعل وقال ، ولا

(١) روى البخارى وأبو داود والترمذى والنسائى واللفظ له — عن رفاع بن رافع قال : صليت خلف النبي ﷺ فعطست ، فقلت : الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضى . فلما صلى النبي ﷺ قال « من المتكلم فى الصلاة ؟ » فلم يتكلم أحد . ثم قالها الثانية فلم يتكلم أحد . ثم قالها الثالثة . فقال رفاع أنا يا رسول الله . فقال « والذى نفسى بيده لقد ابتدرها بضع وثلاثون مائة كما أنهم يصعد بها »

يعلم تعيينه ، فيسأل عن تعيينه بمن تارة وبأى تارة وهم لم يسألوا
 عن تعيين الملك الراقى بالروح الى الله
 فان قيل : بل علموا أن ملك الرحمة والعذاب صاعد بروحه ، ولم
 يعلموا تعيينه فيسأل عن تعيين أحدهما . قيل : هم يعلمون أن تعيينه
 غير ممكن ، فكيف يسألون عن تعيين مالا سبيل للسامع
 الى تعيينه ، ولا الى العلم به ﴿ الثامن ﴾ ان الآية انما سبقت لبيان
 بأسه من نفسه ويأس الحاضرين معه وتحقق أسباب الموت ، وانه
 قد حضر ولم يبق شيء ينجع فيه ولا مخلص منه ، بل هو قد ظن أنه
 مفارق لاحالة . فالحاضرون قد علموا أنه لم يبق لاسباب الحياة
 المعتادة تأثير في بقاءه ، فطلبوا أسبابا خارجة عن المقدور تستجلب
 بالرقى والدعوات ، فقالوا من راق ؟ أى من يرقى هذا العليل من
 أسباب الهلاك . والرقية عندهم كانت مستعملة حيث لا يجدى الدواء
 ﴿ التاسع ﴾ أن مثل هذا إنما يراد به النفي والاستبعاد ، وهو أحد
 التقديرين فى الآية ، أى لا أحد يرقى من هذه العلة بعدما وصل
 صاحبها الى هذه الحال . فهو استبعاد لنفى الرقية لاطلب لوجود
 الراقى ، كقوله (٣٦ : ٧٨ قال مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) أى
 لا أحد يحييها ، وقد صارت الى هذه الحال . فان أريد بها هذا المعنى
 استحال أن يكون من الرقيق ، وان أريد بها الطلب استحال أيضا
 أن يكون منه . وقد بينا أنها فى مثل هذا إنما تستعمل للطلب أو
 للا نكار . وحينئذ فنقول فى ﴿ الوجه العاشر ﴾ إنها إما أن يراد

بها الطلب أو الاستبعاد ، والطلب إما أن يراد به طلب الفعل أو طلب التعيين ، ولا سبيل الى حمل واحد من هذه المعاني على الرقي لما بيناه . والله أعلم

(٢٩) فصل

ومن أسرار هذه السورة أنه سبحانه جمع فيها لأوليائه بين جمال الظاهر والباطن : فزين وجوهم بالنضرة وبواطنهم بالنظر اليه . فلا أجمل لبواطنهم ، ولا أنعم ، ولا أحلى - من النظر اليه ، ولا أجمل لظواهرهم من نضرة الوجه ، وهي إشراقه وتحسينه وبهجته . وهذا كما قال في موضع آخر (٧٦ : ١١) وَلَقَدْ أَنزَلْنَا نَضْرَةً وَسُرُورًا) ونظيره قوله (٧ : ٢٦) يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا) فهذا جمال الظاهر وزينته ثم قال (وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ) فهذا جمال الباطن . ونظيره قوله (٣٧ : ٦) إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوْكَبِ) فهذا جمال ظاهرها ، ثم قال (وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ) فهذا جمال باطنها . ونظيره قوله عن امرأة العزيز بعد أن قالت ليوסף (١٢ : ٣١) اخْرِجْ عَلَيْنَ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ٣٢ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ

فَاسْتَعَصَمَ) فذكرها لهذا هو من تمام وصفها لمحاسنه ، وأنه في غاية المحاسن ظاهرا وباطنا. وينظر إلى هذا المعنى ويناسبه قوله (١١٨:٢٠) **إِنَّ لَكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ١١٩ وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ** (فقابل بين الجوع والعرى ، لان الجوع ذل الباطن والعرى ذل الظاهر . وقابل بين الظمأ ، وهو حر الباطن ، والضحي ، وهو حر الظاهر بالبروز للشمس . وقريب من هذا قوله (١٩٧: ٢) **وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ**) في ذكر الزاد الظاهر الحسبي والزاد الباطن المعنوي . فهذا زاد سفر الدنيا ، وهذا زاد سفر الآخرة . ويلم به قول هود (٥٢: ١١) **يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ**) فالأول القوة الظاهرة المنفصلة عنهم والثاني الباطنة المتصلة بهم . ويشبهه قوله (١٠: ٨٦) **فَالَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ**) فنفي عنهم الدافعين: الدافع من أنفسهم . والدافع من خارج ، وهو الناصر

(٣٠) فصل

ومن أسرارها أنها تضمنت إثبات قدرة الرب على ما علم أنه لا يكون ولا يفعله . وهذا على أحد القولين في قوله (٤: ٧٥) **بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ**) فأخبر أنه قادر عليه ولم يفعله ولم يردده وأصرح

من هذا قوله تعالى (٢٣ : ١٨) وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّا
فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ) وهذا أيضا على أحد
القولين ، أى تغور العيون فى الارض فلا يقدر على الماء . قال ابن
عباس : يريد أن سيغيض فيذهب . فلا يكون من هذا الباب ، بل
يكون من باب القدرة على ما سيفعله . وأصرح من هذين الموضعين
قوله تعالى (٦ : ٦٥) قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا
مَنْ فَوْقَكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه
قال عند نزول هذه الآية « أعوذ بوجهك (١) » ولكن قد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم

(١) روى البخاري فى باب التفسير من سورة الانعام عن جابر قال :
لما نزلت هذه الآية (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم)
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعوذ بوجهك » قال (أو من تحت أرجلكم)
قال « أعوذ بوجهك » (أو يلبسكم شيئا ويذيق بعضهم بأس بعض)
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا أهون - أو هذا أيسر » اه قال الحافظ
ابن حجر فى الفتوح (٨ : ٢٠٣) وقد روى ابن مردويه من حديث
ابن عباس ما يفسر به حديث جابر . ولفظه عن النبي صلى الله عليه وسلم « دعوت
الله أن يرفع عن أمي أربعة ، ورفع عنهم اثنتين ، وأبى أن يرفع عنهم اثنتين :
دعوت الله أن يرفع الرجم من السماء ، والخسف من الارض ، وأن
لا يلبسهم شيئا ، ولا يذيق بعضهم بأس بعض ، ورفع الله عنهم الخسف
والرجم ، وأبى أن يرفع عنهم الآخرين »

انه لا بد أن يقع في أمته خسف ، ولكن لا يكون عاما . وهذا عذاب من تحت الأرجل . وروى انه كان في الأمة قذف أيضا . وهذا عذاب من فوق ، فيكون هذا من باب الاخبار بقدرته على ما سيفعله ، وان أريد به القدرة على عذاب الاستئصال ، فهو من القدرة على ما لا يريد . وقد صرح سبحانه بأنه لو شاء لفعل ما لم يفعله في غير موضع من كتابه كقوله (١٠ : ٩٩) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا) وقوله (٣٢ : ١٣) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا) ونظائره . وهذا مما لا خفاء فيه بين أهل السنة ، وبه تبين فساد قول من قال : ان القدرة لا تكون الا مع الفعل لا قبله ، وأن الصواب التفصيل بين القدرة الموجبة والمصححة ، ففي القدرة عن الفاعل قبل الملازمة مطلقا خطأ . والله أعلم

(٣١) فصل

ومن أسرارها أنها تضمنت التأنى والتثبت في تلقي العلم ، وان لا يحمل السامع شدة محبته وحرصه وطلبه على مبادرة المعلم بالأخذ قبل فراغه من كلامه ، بل من آداب الرب التي أدب بها نبيه صلى الله عليه وسلم أمره بترك الاستعجال على تلقي الوحي ، بل يصبر إلى أن يفرغ جبريل من قراءته ، ثم يقرأه بعد فراغه عليه . فهكذا ينبغي لطالب العلم ولسامعه أن يصبر على معلمه حتى يقضى كلامه .

ثم يعيده عليه ، أو يسأل عما أشكل عليه منه ، ولا يبادره قبل فراغه
وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى في ثلاثة مواضع من كتابه هذا
أحدها ، والثاني قوله (٢٠ : ١١٣) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا
وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۖ فَتَعَالَى
اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ
وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) والثالث قوله (٨٧ : ٦) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ۖ إِلَّا
مَا شَاءَ اللَّهُ (فُضِّمَ لِرَسُولِهِ أَنْ لَا يَنْسِيَ مَا أَرَاهُ إِيَّاهُ وَهَذَا يَتَنَاوَلُ
الْقِرَاءَةَ وَمَا بَعْدَهَا

وقد ذم الله سبحانه في هذه السورة من يؤثر العاجلة على الآجلة ،
وهذا الاستعجال بالتمتع بما يفنى وإيثاره ما يبقى ، ورتب كل ذم ووعيد
في هذه السورة على هذا الاستعجال ومحبة العاجلة ، فارادته أن يفجر
أمامه هو من استعجاله وحب العاجلة ، وتكذيبه بيوم القيامة من
فرط حب العاجلة ، وإيثاره لها ، واستعجاله بنصيبه ، وتمتعه به قبل
أوانه ، ولولا حب العاجلة وطلب الاستعجال لتمتع به في الآجلة أكمل
ما يكون ، وكذلك تكذيبه وتولييه وترك الصلاة هو من استعجاله ومحبة
العاجلة ، والرب سبحانه وصف نفسه بضد ذلك ، فلم يعجل على عبده ،
بل أمهله إلى أن بلغت الروح التراقي ، وأيقن بالموت . وهو إلى هذه الحال
مستمر على التكذيب والتولى ، والرب تعالى لا يعاجله بل يمهله ،
ويحدث له الذكر شيئاً بعد شيء ، ويصرف له الآيات ، ويضرب

له الأمثال . وينبئه على مبدئه : من كونه نقطة من منى يمنى ، ثم علقه ، ثم خلقا سويا ، فلم يعجل عليه بالخلق وهلة واحدة ، ولا بالعقوبة اذ كذب خبره ، وعصى أمره . بل كان خلقه وأمره وجزاؤه بعد تمهيل وتدريج وأناة . ولهذا ذم الانسان بالعجلة بقوله : (١١ : ١٧) وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا) وقال (٢١ : ٣٧) خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ)

(٣٣) فصل

ومن أسرارها أن إثبات النبوة والمعاد يعلم بالعقل . وهذا أحد القولين ، لأصحابنا وغيرهم ، وهو الصواب ، فان الله سبحانه أنكر على من حسب انه يترك سدى : فلا يؤمر ، ولا ينهى ، ولا يثاب ، ولا يعاقب . ولم ينف سبحانه ذلك بطريق الخبر المجرد ، بل نفاه نفى مالا يليق نسبته اليه ، ونفى منكر على من حكم به وظنه . ثم استدل سبحانه على فساد ذلك ، وبين أن خلقه الانسان في هذه الأطوار ، وتنقله فيها طورا بعد طور حتى بلغ نهايته - يأبى أن يتركه سدى ، فانه ينزه عن ذلك كما ينزه عن العيب والعيوب والنقص وهذه طريقة القرآن في غير موضع كما قال تعالى (١١٥ : ٢٣) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ١١٦ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) فجعل كمال ملكه ، وكونه (م ١١ - التبيان)

سبحانه الحق ، وكونه لا إله الا هو ، وكونه رب العرش المستلزم
لربوبيته لكل مادونه - مبطلا لذلك الظن الباطل ، والحكم الكاذب ،
وانكار هذا الحسان عليهم مثل انكاره عليهم حسانهم انه لا يسمع
سرهم ونجواهم ، وحسان انه لا يراهم ولا يقدر عليهم ، وحسان
انه يسوى بين أوليائه وبين أعدائه في محياهم ومماتهم ، وغير ذلك
مما هو منزعه عنه تنزيهه عن سائر العيوب والنقائص ، وان نسبة
ذلك كنسبة ما يتعالى عنه مما لا يليق : من اتخاذ الولد ، والشريك ،
ونحو ذلك ، مما ينكره سبحانه على من حسبه أشد الانكار . فدل
على أن ذلك قبيح ممتنع نسبته اليه ، كما يمتنع أن ينسب اليه سائر
ما يتنافى كماله المقدس

ولو كان نفي تركه سدى انما يعلم بالسمع المجرد لم يقل بعد ذلك
(٧٥ : ٣٧ أَلَمْ يَكُنْ نُطْقَةً) الى آخره ، ومما يدل أن تعطيل أسمائه
وصفاته ممتنع ، وكذلك تعطيل موجهها ومقتضاها ، فان ملكه الحق
يستلزم أمره ونهيه وثوابه وعقابه ، وكذلك يستلزم ارسال رسله
وانزال كتبه ، وبعث المعاد ليوم يحزى فيه المحسن باحسانه والمسيء
باساءته ، فمن أنكر ذلك فقد أنكر حقيقة ملكه ولم يثبت له الملك
الحق ، ولذلك كان منكر ذلك كافرا بربه ، وان زعم أنه يقر بصانع العالم ،
فلم يؤمن بالملك الحق الموصوف بصفات الجلال ، والمستحق لنعوت
الكمال ، كما أن المعطل لكلامه وعلوه على خلقه لم يؤمن به سبحانه ، فانه
آمن برب لا يتكلم ، ولا يأمر ، ولا ينهى ، ولا يصعد اليه قول ، ولا

عمل ، ولا ينزل من عنده ملك ، ولا أمر . ولا نهى ، ولا ترفع اليه
الأيدي . ومعلوم أن هذا الذى آمن به رب مقدر فى ذهنه ، ليس
هو رب العالمين وإله المرسلين

وكذلك اذا اعتبرت اسمه الحى وجدته مقتضيا لصفات كماله من
عليه ، وسمعه ، وبصره ، وقدرته ، وارادته ، ورحمته ، وفعله ما يشاء .
واسمه القيوم مقتض لتدبير أمر العالم العلوى والسفلى ، وقيامه
بمصالحه ، وحفظه له ، فمن أنكر صفات كماله لم يؤمن بأنه الحى
القيوم ، وإن أقر بذلك أُلحِد فى اسمائه ، وعطل حقائقها ، حيث لم
يمكنه تعطيل ألفاظها ، وبالله التوفيق

(٣٣) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (٧٤ : ٣٢ كَلَّا وَالْقَمَرَ ٣٣ وَاللَّيْلَ إِذَا أَدْبَرَ
٣٤ وَالصُّبْحَ إِذَا أَصْفَرَ ٣٥ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ٣٦ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ
٣٧ لَئِنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ) أقسم سبحانه بالقمر
الذى هو آية الليل وفيه من الآيات الباهرة الدالة على ربوبية خالقه
وبارئه ، وحكمته وعلمه ، وعنايته بخلقه ما هو معلوم بالمشاهدة .
وهو سبحانه أقسم بالسماء وما فيها ، مما لا نراه من الملائكة ، وما
فيها مما نراه من الشمس والقمر والنجوم ، وما يحدث بسبب حركات

الشمس والقمر : من الليل والنهار ، وكل ذلك آية من آياته ،
ودلالة من دلائل ربوبيته

ومن تدبر أمر هذين النيرين العظيمين وجدتهما من أعظم الآيات
في خلقهما ، وجرمهما ، ونورهما ، وحركتهما على نهج واحد ، لا
ينيان ولا يفتران دائبين ، ولا يقع في حركتهما اختلاف بالبطء ،
والسرعة ، والرجوع ، والاستقامة ، والانخفاض ، والارتفاع ،
ولا يجري أحدهما في فلك صاحبه ، ولا يدخل عليه في سلطانه ، ولا
تدرك الشمس القمر ، ولا يجي الليل قبل انقضاء النهار ، بل لكل
حركة مقدرة ، ونهج معين لا يشركه فيه الآخر . كما أن له تأثيراً
ومنفعة لا يشركه فيها الآخر . وذلك مما يدل من له أدنى عقل على
انه بتسخير مسخر ، وأمر آمر ، وتدير مدير ، بهرت حكمته العقول ،
وأحاط علمه بكل دقيق وجليل ، وفرق ما علمه الناس من الحكم
التي في خلقهما ما لا تصل اليه عقولهم ، ولا تنتهي إلى مبادئها أو هامهم ،
فغايتنا الاعتراف بجلال خالقهما ، وكمال حكمته ، ولطف تديره ،
وأن نقول ما قاله أولو الألباب قبلنا (٣ : ١٩١ ر) بِنَامَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا
سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) ولو أن العبد وصف له جرم أسود
مستدير عظيم الخلق ، يبدو فيه النور كخيطة متسخن ، ثم يتزايد
كل ليلة حتى يتكامل نوره ، فيصير أضواء شئ ، وأحسنه وأجمله ، ثم
يأخذ في النقصان حتى يعود إلى حاله الأول فيحصل بسبب ذلك معرفة

الأشهر والسنين، وحساب آجال العالم: من مواقيت حجهم، وصلاتهم،
ومواقيت أجاثرهم، ومدائنتهم، ومعاملتهم التي لا تقوم مصالحهم
إلا بها، فمصالح الدنيا والدين متعلقة بالآلهة

وقد ذكر سبحانه ذلك في ثلاث آيات من كتابه: أحدها قوله
(٢: ١٨٩) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)
والثانية قوله (١٠: ٥) هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا
وقدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا
بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) والثالثة قوله (١٧: ١٢) وَجَعَلْنَا
اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً
اتَّبِعُوا فُضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ
فَصْلَانَاهُ تَفْصِيلًا) فلو لا ما يحدثه الله سبحانه في آيات الليل من زيادة
ضوئها ونقصانه لم يعلم ميقات الحج، والصوم، والعدد، ومدة الرضاع،
ومدة الحمل، ومدة الاجارة، ومدة آجال الحملات

فان قيل: كان يمكن هذا بحركة الشمس والأيام التي تحفظ بطلوع
الشمس وغروبها، كما يعرف أهل الكتابين مواقيت صيامهم
وأعيادهم بحساب الشمس، قيل: هذا وإن كان ممكنا إلا أنه يعسر
ضبطه ولا يقف عليه إلا الآحاد من الناس، ولا ريب أن معرفة
أوائل الشهور وأواسطها وأواخرها بالقمر أمر يشترك فيه الناس

وهو أسهل من معرفة ذلك بحساب الشمس ، وأقل اضطرابا واختلافا ، ولا يحتاج الى تكلف حساب ، وتقليد من لا يعرفه من الناس لمن يعرفه . فالحكمة البالغة التي في تقدير السنين والشهور بسير القمر أظهر ، وأنفع ، وأصلح ، وأقل اختلافا من تقديرها بسير الشمس . فالرب جل جلاله دبر الأهلة بهذا التدبير العجيب لمنافع خلقه ، في مصالح دينهم ودنياهم ، مع ما يتصل به من الاستدلال به على وحدانية الرب ، وكمال حكمته ، وعلمه ، وتدييره . فشهادة الحق بتغير الأجرام الفلكية ، وقيام أدلة الحدوث والخلق عليها . فهي آيات ناطقة بلسان الحال على تكذيب الدهرية ، وزنادقة الفلاسفة والملاحدة القائلين : بأنها أزلية أبدية لا يتطرق اليها التغير ، ولا يمكن عدمها

فاذا تأمل البصير القمر مثلا ، وافتقاره إلى محل يقوم به ، وسيره دائما لا يفتر ، مسير ، مسخر ، مدبر ، وهبوطه تارة ، وارتفاعه تارة ، وأفوله تارة ، وظهوره تارة ، وذهاب نوره شيئا فشيئا ، ثم عوده اليه كذلك ، وسبب ضوئه جملة واحدة حتى يعود قطعة مظلمة بالكسوف . علم قطعا أنه مخلوق فربوب مسخر ، تحت أمر خالق قاهر مسخر له . كما يشاء ، وعلم أن الرب سبحانه لم يخلق هذا باطلا ، وأن هذه الحركة فيه لا بد أن تنتهي الى الانقطاع والسكون ، وأن هذا الضوء والنور لا بد أن ينتهي الى ضده ، وأن هذا السلطان لا بد أن ينتهي إلى العزل .

وسيجمع بينهما جامع المتفرقات بعد أن لم يكونا مجتمعين ، ويذهب
بهما حيث شاء ، ويرى المشر كين من عبدتهما حال آلهتهم التي عبدوها
من دونه ، كما يرى عباد الكواكب انتشارها ، وعباد السماء انقطاعها
وعباد الشمس تكويرها ، وعباد الأصنام اهانتها وإلقاءها في النار
أحقرشي . وأذله وأصغره ، كما أرى عباد العجل في الدنيا حاله ومبارد
وعباده تسحقه وتمحقه ، والريح تمزقه وتذروه وتنسفه في اليم ،
وكما أرى الأصنام في الدنيا صورها مكسرة مخردة ملقاة بالأمكنة
القدرة ، ومعاول الموحدين قد هشمت منها تلك الوجوه ، وكسرت
تلك الرؤوس ، وقطعت تلك الأيدي والأرجل ، التي كانت
لايوصل إليها بغير التقييل والاستلام . وهذه سنة الله التي لا تبدل ،
وعادته التي لا تحول : انه يرى عابد غيره حال معبوده في الدنيا
والآخرة ، وان كان المعبود غير راض بعبادة غيره ويريه تبريه منه ،
ومعاداته له أحوج مايكون اليه (٨ : ٤٢) ليهلك من هلك عن بينة
ويحيى من حي عن بينة) ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين
تأمل سطور الكائنات فانها من الملك الأعلى إليك رسائل
وقد خط فيها - لو تأملت خطها - ألا كل شيء ما خلا الله باطل

ولو شاء تعالى لأبقى القمر على حالة واحدة لا يتغير ، وجعل
التغير في الشمس . ولو شاء لغيرهما معا ، ولو شاء لأبقاهما على حالة
واحدة ، ولكن يرى عباده آياته في أنواع تصريفها ليدهم على أنه

الله الذى لا إله إلا هو الملك الحق المبين ، الفعال لما يريد (٧ : ٥٤)
أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) وأما تأثير القمر فى
ترطيب أبدان الحيوان والنبات ، وفى المياه ، وجزر البحر ومدّه ،
وبحركات الأمراض ، وتنقلها من حال الى حال ، وغير ذلك من
المنافع ، فأمر ظاهر

(٣٤) فصل

وأما أقسامه سبحانه بـ (٧٤ : ٣٣ الليل إذا أذبر) فلما فى أدباره وإقبال
النهار من أبين الدلالات الظاهرة على المبدأ والمعاد ، فانه مبدأ ومعاد
يومى مشهود بالعيان ، بينما الحيوان فى سكون الليل قد هدأت حركاتهم ،
وسكنت أصواتهم ، ونامت عيونهم ، وصاروا اخوان الأموات ،
إذ أقبل من النهار داعيه ، وأسمع الخلائق مناديه ، فانتشرت منهم
الحركات ، وارتفعت منهم الأصوات ، حتى كأنهم قاموا أحياء
من القبور ، يقول قائلهم « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه
النشور » (١) فهو معاد جديد بدأه وأعاده الذى يبدى ويعيد . فمن
ذهب بالليل وجاء بالنهار سوى الواحد القهار ؟

(١) روى البخارى فى صحيحه فى باب وضع اليد تحت الخد اليمنى عن
حذيفة قال : كان النبي ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده
تحت خده ، ثم يقول « اللهم باسمك أموت وأحيا » وإذا استيقظ قال
« الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور »

فمن تأمل حال الليل إذا عسعس وأذبر ، والصبح إذا تنفس
وأسفر ، فهزم جيوش الظلام بنفسه ، وأضاء أفق العالم بقبسه ،
وفلّ كتائب الكواكب بعساكره ، وأضحك نواحي الأرض
بتباشيره وبشائره . فياهما آيتان شاهدتان بوحدانية منشئهما ، وكمال
ربوبيته ، وعظم قدرته وحكمته . فتبارك الذي جعل طلوع الشمس
وغروبها مقبما لسلطان الليل والنهار ، فلولاً طلوعها لبطل أمر العالم
كله ، فكيف كان الناس يسعون في معاشهم ، ويتصرفون في أمورهم ،
والدنيا مظلمة عليهم ؟ وكيف كانت تهنيهم الحياة مع فقد لذة النور
وروحه ، وأي ثمار ونبات وحيوان كان يوجد ؟ وكيف كانت
تتم مصالح أبدان الحيوان والنبات ؟ ولولا غروبها لم يكن للناس
هدو ولا قرار ، مع علم حاجتهم إلى الهدو ، لراحة أبدانهم ، وجوم
حواسهم . فلولاً جثوم هذا الليل عليهم بظلمته ماهدأوا ولا قروا
ولا سكنوا ، بل جعله أحكم الحاكمين سكنا ولباسا ، كما جعل النهار
ضياء ومعاشا . ولولا الليل وبزده لاحتقرت أبدان النبات والحيوان
من دوام شروق الشمس عليها ، وكان يحرق ما عليها من نبات
وحيوان ، فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن جعلها سراجا يطلع
على العالم في وقت حاجتهم إليه ، ويغيب في وقت استغنائهم عنه .
فطلوعه لمصلحتهم ، وغيبته لمصلحتهم ، وصار النور والظلمة على
تضادها متعاونين متظاهرين على مصلحة هذا العالم وقوامه . فلو
جعل الله سبحانه النهار سرمدا إلى يوم القيامة ، والليل سرمدا إلى

يوم القيامة لفاتت مصالح العالم ، واشتدت الضرورة الى تغيير ذلك وإزالته بضده

وتأمل حكمته سبحانه في ارتفاع الشمس ، وانخفاضها لاقامة هذه الأئمة الأربعة من السنة ، وما في ذلك من مصالح الخلق . ففي الشتاء تغور الحرارة في الشجر والنبات ، فيتولد منها مواد الثمار ، ويكشف الهواء ، فينشأ منه السحاب ، وينعقد فيحدث المطر الذي به حياة الأرض ونماء أبدان الحيوان والنبات ، وحصول الأفعال والقوى وحرركات الطبائع . وفي الصيف يخرم الهواء ، فينضج الثمار ، وتشد الحبوب ، ويحف وجه الأرض ، فيتبأ العمل . وفي الخريف يصفو الهواء ، وتبرد الحرارة ، ويمتد الليل ، وتستريح الأرض والشجر للحمل والنبات مرة ثانية ، بمنزلة راحة الحامل بين الحملين ، ففي هذه الأئمة مبدأ ومعاد مشهود ، وشاهد بالمبدأ والمعاد الغيبي .

والمقصود أن بحركة هذين النيرين تتم مصالح العالم ، وبذلك يظهر الزمان . فإن الزمان مقدار الحركة . فالسنة الشمسية مقدار سير الشمس من نقطة الحمل الى مثلها . والسنة القمرية مقدرة بسير القمر ، وهو أقرب الى الضبط . واشترك الناس في العلم به ، وقدر أحكم الحاكمين تنقلهما في منازلها ، لما في ذلك من تمام الحكمة ولطف التدبير ، فإن الشمس لو كانت تطلع وتغرب في موضع واحد لا تتعداه لما وصل ضوءها وشعاعها الى كثير من الجهات ، فكان نفعها يفقد هناك فجعل الله سبحانه طلوعها دولابين الأرض لينال نفعها وتأثيرها

البقاع ، فلا يبقى موضع من المواضع التي يمكن أن تطلع عليها الا أخذ بقسطه من نفعها . واقتضى هذا التدبير المحكم أن وقع مقدار الليل والنهار على أربعة وعشرين ساعة ، ويأخذ كل منهما من صاحبه ، ومنتهى كل منهما إذا امتد خمسة عشر ساعة . فلو زاد مقدار النهار على ذلك إلى خمسين ساعة مثلاً أو أكثر لاختل نظام العالم وفسد أكثر الحيوان والنبات ، ولو نقص مقداره عن ذلك لاختل النظام أيضاً وتعطلت المصالح ، ولو استويادأماً لما اختلفت فصول السنة التي باختلافها مصالح العباد والحيوان . فكان في هذا التقدير والتدبير المحكم من الآيات والمصالح والمنافع ما يشهد بأن ذلك تقدير العزيز العليم ، ولهذا يذكر سبحانه هذا التقدير ويضيفه إلى عزته وعلمه ، كما قال تعالى (٣٦ : ٣٧) وَإِنَّ يَوْمَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ٣٨ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) وقال تعالى (٤١ : ٩) قُلْ أَنتُمْ كَرُمٌ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ١٠ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيٍّ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَوْقَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لِيُنْذِرَ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ١٢ فَفَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ .

تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) وقال تعالى (٦ : ٩٦) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) فهذه ثلاثة مواضع يذكر فيها أن تقدير حركات الشمس والقمر والاعرام العلوية وما ينشأ عنها كان من مقتضى عزته وعلمه ، وأنه قدره بهاتين الصفتين . وفي هذا تكذيب لأعداء الله الملاحدة الذين ينفون قدرته واختياره ، وعلمه بالمغيبات

(٣٥) فصل

وأقسم سبحانه بهذه الأشياء الثلاثة - وهي القمر ، والليل إذا دبر ، والصبح إذا أسفر - على المعاد لما في القسم من الدلالة على ثبوت المقسم عليه ، فانه يتضمن كمال قدرته وحكمته ، وعنايته بخلقه ، وابداء الخلق واعادته ، كما هو مشهود في ابداء النهار والليل واعادتهما ، وفي ابداء النور واعادته في القمر ، وفي ابداء الزمان واعادته الذي هو حاصل بسير الشمس والقمر ، وابداء الحيوان والنبات واعادتهما ، وابداء فصول السنة واعادتها ، وابداء ما يحدث في تلك الفصول واعادته . فكل ذلك دليل ظاهر على المبدأ والمعاد الذي أخبرت به الرسل كلهم عنه ، فصرف سبحانه الآيات الدالة على صدق رسله ونوعها ، وجعلها للفطرة تارة ، وللسمع تارة ، وللشاهدة تارة ، فجعلها آفاقية ، ونفسية ، ومنقولة ، ومعقولة ، ومشهودة بالعيان ، ومذكورة بالجنان . فأبى الظالمون الا كفورا (٢٥ : ٣) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ

يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا
وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا

ولما أقام الحجة وبين المحجة ارتهن كل نفس بكسبها ، وأخذها
بذنبها ، واستثنى من أولئك من قبل هداة واتباع رضاه ، وهم أصحاب
اليمين الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ، وسلكوا غير سبيل
المجرمين ، الذين ليسوا من المصلين ، ولا من مطعمى المسكين ،
وهم من أهل الخوض مع الخائضين ، المكذبين بيوم الدين . فهذه
أربع صفات أخرجتهم من زمرة المفلحين وأدخلتهم في جملة
الهالكين : (الأولى) ، ترك الصلاة ، وهى عمود الاخلاص للعبود
(الثانية) ترك اطعام المسكين الذى هو من مراتب الاحسان للعبيد ،
فلا اخلاص للخلق ولا احسان للمخلوق ، كما قال تعالى (١٠٧ : ٦ :
الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُنَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) وقال (٩ : ٥٤ : لَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ
إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ) وهذا ضد ما وصف
به أصحاب اليمين بقوله (٨ : ٣ : الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
يُنْفِقُونَ) وقال (٣٢ : ١٦ : تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ
يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) وقرن
سبحانه بين هذين الأصلين فى غير موضع فى كتابه : فأمر بهما
تارة ، وأثنى على فاعليهما تارة ، وتوعدهم بالويل والعقاب تار كهما
تارة ، فان مدار النجاة عليهما ، ولا فلاح لمن أدخل بهما

الصفة الثالثة والرابعة الخوض بالباطل والتكذيب بالحق ، فاجتمع لهم عدم الاخلاص والاحسان ، والخوض بالباطل والتكذيب بالحق ، واجتمع لأصحاب (اليمين) (١) الاخلاص ، الاحسان والتصديق بالحق ، والتكلم به ، فاستقام اخلاصهم واحسانهم ، ويقينهم وكلامهم . واستبدل أصحاب الشمال بالاخلاص شركا ، وبالاخسان اساءة ، وباليقين شكا وتكذيبا ، وبالكلام النافع خوضا في الباطل . فلذلك لم تنفعهم شفاعة الشافعين ، أى لم يكن لهم من شفيع فيهم ، لان الشفاعة تقع فيهم ولا تنفع ، وهذا لما أعرضوا عن التذكرة ولم يرفعوا بها رأسا ، وجفلوا عن سماعها كما تجفل حُمُرُ الوحش من الأُسْدِ أو من الرُماة

ثم ختم السورة بأنه جمع فيها بين شرعه وقدره ، وإقامة الحجة عليهم باثبات المشيئة لهم ، وبيان مقتضى التوحيد والربوبية ، وأن ذلك إليه لا إليهم ، فالاول عدله ، والثاني فضله ، فالأول يوجب السعى والطلب والحرص على ما ينجيهم ، كما يفعلون ذلك في مصالح دنياهم ، بل أشد . والثاني يوجب الاستعانة والتوكل والتفويض والرغبة الى من ذلك بيده ليسهل لهم ويوفقهم . والله المستعان ، وعليه التكلان

(١) هذه زيادة لا بد منها لتصحيح المقابلة بين الفريقين وهى مأخوذة من الآيات التى يشرحها المؤلف اه أبو رجاء

(٣٦) فصل

ومن ذلك قوله (٣٨: ٦٩ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ٣٩ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ٤٠ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) إلى آخرها . قال مقاتل : بما تبصرون من الخلق وما لا تبصرون منه . وقال قتادة : أقسم بالأشياء كلها بما يبصر منها وما لا يبصر ، وقال الكلبي : تبصرون من شيء ، وما لا تبصرون من شيء . وهذا أعم قسم وقع في القرآن ، فانه يعم العلويات والسفليات والدينا والآخره ، وما يرى وما لا يرى ، ويدخل في ذلك الملائكة كلهم والجن والانس ، والعرش والكرسى ، وكل مخلوق ، وكل ذلك من آيات قدرته وربوبيته ، وهو سبحانه يصرف الاقسام كما يصرف الآيات . ففي ضمن هذا القسم أن كل ما يرى وما لا يرى آية ، ودليل على صدق رسوله ، وأن ما جاء به هو من عند الله وهو كلامه ، لا كلام شاعر ، ولا مجنون ، ولا كاهن

ومن تأمل المخلوقات ، ما يراه منها وما لا يراه ، واعتبر ما جاء به الرسول بها ، ونقل فكرته في مجارى الخلق والامر ظهر له أن هذا القرآن من عند الله وأنه كلامه ، وهو أصدق الكلام ، وأنه حق ثابت . كما أن سائر الموجودات ما يرى منها وما لا يرى حق . كما قال تعالى (٥١ : ٢٣ فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ خَلَقَ مِثْلَ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ) أى ان كان نطقكم حقيقة وهو أمر موجود لا تمارون فيه ولا تشكون

فكذا ما أخبر تكلم به من التوحيد والمعاد والنبوة حق ، كما في الحديث «انه لحق مثل ما أنك ههنا» ، فكأنه سبحانه يقول : ان القرآن حق كما أن ما شاهدوه من الخلق وما لا يشاهدونه حق موجود ، بل لو فكرتم فيما تبصرون وما لا تبصرون لدلكم ذلك على أن القرآن حق . ويكفي الانسان من جميع ما يبصره وما لا يبصره بعينه ، ومبدأ خلقه ونشأته ، وما يشاهده من أحواله ظاهرا وباطنا ، ففي ذلك أبين دلالة على وحدانية الرب ، وثبوت صفاته ، وصدق ما أخبر به رسوله ، ومالم يباشر قلبه ذلك حقيقة لم تخالط بشاشة الأيمان قلبه

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال (٦٩ : ٤٠) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (وهذا رسوله البشري محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي إضافته اليه باسم الرسالة أبين دليل انه كلام المرسل . فمن أنكر أن يكون الله قد تكلم بالقرآن فقد أنكر حقيقة الرسالة . ولو كانت إضافته اليه اضافة انشاء وابتداء لم يكن رسولا ، ولناقض ذلك إضافته الى رسوله الملئكي في سورة التكوير

ثم بين سبحانه كذب أعدائه وبهتهم في نسبة كلامه تعالى الى غيره ، وانه لم يتكلم به ، بل قاله ، من تلقاء نفسه ، كما بين كذب من قال (٧٤ : ٢٥) إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ) . فمن زعم أنه قول البشر فقد كفر وسيصله الله سقر

ثم أخبر سبحانه أنه تنزيل من رب العالمين ، وذلك يتضمن أمورا :

﴿أحدها﴾ أنه تعالى فوق خلقه كلهم ، وأن القرآن نزل من عنده
 ﴿والثاني﴾ أنه تكلم به حقيقة ، لقوله (٥٦ : ٨٠ من رب العالمين)
 ولو كان غيره هو المتكلم به لكان من ذلك الغير . ونظير هذا قوله
 (٣٢ : ١٣) وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي (ونظيره قوله (١٦ : ١٠٢) قُلْ نَزَّلَهُ
 رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ) وقوله (٣٩ : ١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ
 اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) وقوله (٤١ : ٤٢) تَنْزِيلُ مِّنْ حِكْمٍ حَمِيدٍ
 وما كان من الله فليس بمخلوق ، ولا ينتقض هذا بأن الرزق والمطر
 وما في السموات والارض جميعا منه ، وهو مخلوق ؛ لان ذلك كله
 أعيان قائمة بنفسها وصفات وأفعال لتلك الأعيان ، فاصابتها الى
 الله سبحانه وأنها منه اضافة خلق . كاضافة بيته ، وعبد ، وناقته ،
 وروحه ، وبابه - اليه ، بخلاف كلامه فانه لا بد أن يقوم بمتكلمه ؛
 إذ كلام من غير متكلم كسمع من غير سامع ، وبصر من غير مبصر ،
 وذلك عين المحال ، فاذا أضيف الى الرب كان بمنزلة اضافة بسمعه ،
 وبصره ، وحياته ، وقدرته ، وعلمه ، ومشيبته اليه . ومن زعم أن هذه اضافة
 مخلوق الى خالق فقد زعم أن الله لاسمع له ، ولا بصر ، ولا حياة ،
 ولا قدرة ، ولا مشيئة تقوم به . وهذا هو التعطيل الذي هو شر من
 الاشراك . وان زعم أن اضافة السمع ، والبصر ، والعلم ، والحياة
 والقدرة اضافة صفة الى موصوف ، فاضافة الكلام اليه اضافة
 مخلوق إلى خالق فقد تناقض وخرج عن موجب العقل والفطرة

والشرع ولغات الامم ، وفرق بين متماثلين حقيقة ، وعقلا ، وشرعا ،
وفطرة ، ولغة

وتأمل كيف أضافه سبحانه إلى الرسول بلفظ القول ، وأضافه
إلى نفسه بلفظ الكلام في قوله (٦: ٩ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ) فان
الرسول يقول للمرسل اليه ما أمر بقوله ، فيقول : قلت كذا وكذا ،
وقلت له : ما أمرتني أن أقوله كما قال المسيح (٥ : ١١٧ ما قُلْتُ لَهُمْ
إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ) والمرسل يقول للرسول : قل لهم كذا وكذا .
كما قال تعالى (٤ : ٣١ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ)
(١٧ : ٥٣ وَقُلْ لِعِبَادِيَ يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (٢٤ : ٣٠ قُلْ
لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) ونظائره . فاذا بلغ الرسول ذلك
صح أن يقال : قال الرسول كذا . وهذا قول الرسول - أى قاله
مبلغا - وهذا قوله مبلغا عن مرسله ، ولا يجيء في شيء من ذلك
تكلم لهم بكذا وكذا ، ولا تكلم الرسول بكذا وكذا ، ولا أنه
بكلام رسول كريم ، ولا في موضع واحد ، بل قيل للصديق - وقد
تلى آية - هذا كلامك وكلام صاحبك فقال : ليس بكلامي ولا كلام
صاحبي ، هذا كلام الله

(٣٧) فصل

الأمر الثالث ما تضمنه قوله (٥٦: ٨٠) تَنْزِيلُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ
إن ربوبيته الكاملة لخلقها تأتي أن يتركهم سدى : لا يأمرهم ، ولا ينههم
ولا يرشدهم إلى ما ينفعهم ، ويحذرهم ما يضرهم . بل يتركهم هملاً
بمنزلة الأنعام السائمة . فمن زعم ذلك لم يَقْدِرْ رَبُّ الْعَالَمِينَ قدره
ونسبه إلى ما لا يليق به تعالى (٢٣: ١١٦) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْخَلْقُ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ

ثم أقام سبحانه البرهان القاطع على صدق رسوله ، وأنه لم يتقول
عليه فيما قاله ، وأنه لو تقول عليه لما أقره ، ولعاجله بالهلاك ،
فإن كمال علمه وقدرته وحكمته تأتي أن يقر من تقول عليه ، وافترى
عليه ، وأضل عباده ، واستباح دماء من كذبه وحريمهم وأموالهم ،
وأظهر في الأرض الفساد والجور والكذب ، ونخالف الخلق ،
فكيف يليق بأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأقدر القادرين
أن يقره على ذلك ؟ بل كيف يليق به أن يؤيده ، وينصره ،
ويعليه ، ويظهره ، ويظفره ، بأهل الحق : يسفك دماءهم ،
ويستبيح أموالهم وأولادهم ونساءهم ، قائلاً : إن الله أمرني بذلك وأباحه
لي ؟ بل كيف يليق به أن يصدقه بأنواع التصديق كلها ، فيصدقه
بأقراره ، وبالآيات المستلزمة لصدقه التي دلالتها على التصديق

كدلالة التصديق بالقول وأظهر ، ثم يصدقه بأنواعها كلها على اختلافها . فكل آية على انفرادها مصدقة له ، ثم يحصل باجماع تلك الآيات تصديق فوق تصديق كل آية بمفردها ، ثم يعجز الخلق عن معارضته ، ثم يصدقه بكلامه وقوله ، ثم يقيم الدلالة القاطعة على أن هذا قوله وكلامه ، فيشبهه بأقراره وفعله وقوله ، فمن أعظم المحال ، وأبطل الباطل ، وأبين البهتان أن يجوز على أحكم الحاكمين ورب العالمين أن يفعل ذلك بالكاذب المفترى عليه ، الذى هو شر الخلق على الإطلاق ، فمن جوز على الله أن يفعل هذا بشر خلقه وأكذبهم فما آمن بالله قطعا ، ولا عرف الله ، ولا هذا هو رب العالمين ، ولا يحسن نسبة ذلك الى من له مسكة من عقل ، وحكمة ، وحجى . ومن فعل ذلك فقد أزرى بنفسه ، ونادى على جهله وأذكر فى هذا مناظرة جرت لى مع بعض اليهود ، قلت له - بعد أن أفضى فى نبوة النبي صلى الله عليه وسلم - الى أن قلت له : انكار نبوته يتضمن القدح فى رب العالمين وتنقصه بأقبح التنقص فكان الكلام معكم فى الرسول ، والكلام الآن فى تنزيه الرب تعالى ، فقال : كيف تقول مثل هذا الكلام ؟ فقلت له : يئانه على ، فاسمع الآن : أنتم تزعمون أنه لم يكن رسولا وإنما كان ملكا قاهرا قهر الناس بسيفه ، حتى دانوا له ، ومكث ثلاثا وعشرين سنة يكذب على الله ويقول : أوحى إلى ولم يُوحِ إليه ، وأمرنى ولم يأمره ، ونهائى ولم ينهه ، وقال الله كذا ولم يقل ذلك ، وأجل كذا

وحرّم كذا ، وأوجب كذا ، وكره كذا ، ولم يحل ذلك ولا حرّمه
ولا أوجبه ، بل هو فعل ذلك من تلقاء نفسه كاذبا مفتريا على الله
وعلى أنبيائه ، وعلى رسله وملائكته ، ثم مكث من ذلك ثلاث
عشرة سنة يستعرض عباده : يسفك دماءهم ، يأخذ أموالهم ،
ويسترق نساءهم وأبناءهم ، ولا ذنب لهم إلا الرد عليه ومخالفته ،
وهو في ذلك كله يقول : الله أمرني بذلك ، ولم يأمره ، ومع ذلك
فهو ساع في تبديل أديان الرسل ، ونسخ شرائعهم ، وحل نوااميسهم
فهذه حاله عندكم ، فلا يخلو : إما أن يكون الرب تعالى عالما بذلك
مطلعا عليه من حاله ، يراه ويشاهده أم لا : فإن قلتم : ان ذلك
جميعه غائب عن الله لم يعلم به قدحتم في الرب تعالى ، ونسبتموه
إلى الجهل المفرط ، إذ لم يطلع على هذا الحادث العظيم ولا عليه
ولا رآه ، وإن قلتم : بل كان ذلك بعلمه وإطلاعه ومشاهدته ، قيل
لكم : فهل كان قادرا على أن يغير ذلك ويأخذ على يده ، ويحول
بينه وبينه أم لا ؟ فإن قلتم : ليس قادرا على ذلك نسبتموه إلى العجز
المنافي للربوبية ، وكان هذا الانسان هو وأتباعه أقدر منه على تنفيذ
إراداتهم ، وإن قلتم : بل كان قادرا ، ولكن مكنته ونصره وسلطه
على الخلق ، ولم ينصر أولياءه وأتباع رسله نسبتموه إلى أعظم
السفه والنظم والاخلال بالحكمة : هذا لو كان مخلى بينه وبين
مافعله ، فكيف وهو في ذلك كله ناصره ومؤيده ، ومجيب دعواته

ومهلك من خالفه وكذبه ، ومصدقه بأنواع التصديق ، ومظهر
الآيات على يديه التي لو اجتمع أهل الأرض كلهم على أن يأتوا
بواحدة منها لما أمكنهم ولعجزوا عن ذلك . وكل وقت
من الأوقات يحدث له من أسباب النصر والتمكين والظهور
والعلو وكثرة الاتباع أمرا خارجا عن العادة . فظهر أن من أنكر كونه
رسولا نيا فقد سب الله وقذح فيه ، ونسبه الى الجهل والعجز والسفه
قلت له : ولا ينتقض هذا بالملوك الظلمة الذين مكنهم الله في
الأرض وقتا ، ثم قطع دابرهم ، وأبطل سنتهم ، ومحا آثارهم
وجورهم . فان أولئك لم يعيدوا شيئا من هذا ، ولا أيدوا ، ونصروا ،
وظهرت على أيديهم الآيات ، ولا صدقهم الرب تعالى باقراره
ولا بفعله ولا بقوله . بل أمرهم كان بالضد من أمر الرسول ،
كفراعون ونمرود وأضراهما . ولا ينتقض هذا بمن ادعى النبوة
من الكذابين ، فان حاله كانت ضد حال الرسول من كل وجه ،
بل حالهم من أظهر الأدلة على صدق الرسول . ومن حكمة الله
سبحانه أن أخرج مثل هؤلاء الى الوجود ليعلم حال الكذابين
وحال الصادقين ، وكان ظهورهم من أبين الأدلة على صدق الرسل
والفرق بين هؤلاء وبينهم ، فبضدها تبين الأشياء ، والضد يظهر
حسنه الضد ، فمعرفة أدلة الباطل وشبهه من أنواع أدلة الحق وبراهينه
فلما سمع ذلك قال : معاذ الله لا نقول انه ملك ظالم ، بل نبي كريم من
اتبعه فهو من السعداء ، وكذلك من اتبع موسى فهو كمن اتبع محمداً

قلت له : بطل كل ما تموهون به بعد هذا ؛ فانكم اذا أقررتم
أنه نبي صادق فلا بد من تصديقه في جميع ما أخبر به ، وقد علم
اتباعه وأعداؤه بالضرورة أنه دعا الناس كلهم الى الايمان ، وأخبر أن
من لم يؤمن به فهو كافر مخلد في النار ، وقاتل من لم يؤمن به من أهل
الكتاب وسجل عليهم بالكفر واستباح أموالهم ودماءهم ونساءهم
وابنائهم . فان كان ذلك عدوانا منه وجورالم يكن نبيا ، وعادا الأمر
الى القدح في الرب تعالى ، وان كان ذلك بأمر الله ووحيه لم يسع أحدا
مخالفته وترك اتباعه ، ولزم تصديقه فيما أخبر به وطاعته فيما أمر
وقد أرشد سبحانه الى هذا المسلك في غير موضع من كتابه

فقال (٦٩ : ٤٤) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ٤٥ لَا خَظَنَّا
مِنْهُ بِالْيَمِينِ ٤٦ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ٤٧ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ
حَاجِزِينَ) يقول سبحانه : لو تقول علينا قول واحد من تلقاء نفسه لم
نقله ولم نوجه اليه لما أقررناه ، ولا خذنا يمينه ثم أهلكناه . هذا
أحد القولين ، قال ابن قتيبة : في هذا قولان : أحدهما أن اليمين القوة
والقدرة ، وأقام اليمين مقام القوة ، لان قوة كل شيء في ميامنه
قلت : وعلى هذا تكون اليمين من صفة الأخذ ، وهذا قول ابن
عباس في اليمين

قال : ولاهل اللغة في هذا مذهب آخر ، وهو أن الكلام
ورد على ما اعتاده الناس من الأخذ بيد من يعاقب ، وهو قولهم
إذا أرادوا عقوبة رجل خذ بيده ، وأكثر ما يقوله السلطان

والحاكم بعد وجوب الحكم : خذ بيده ، واسفع بيده فكأنه قال :
لو كذب علينا في شيء (مما بلغ) اليكم عنا لأخذنا يمينه ، ثم عاقبناه
بقطع الوتين . وإلى هذا المعنى ذهب الحسن اه

فقد أخبر سبحانه أنه لو تقول عليه شيئاً من الأقاويل لما أقره
ولعاجله بالعقوبة . فان كذباً على الله ليس ككذب على غيره ، ولا يليق
به ان يقر الكاذب عليه فضلاً عن أن ينصره ويؤيده ويصدقه

وقوله (٦٩ : ٤٦) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ) والوتين : نياط القلب ،
وهو عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب ، اذا انقطع بطلت القوى
ومات صاحبه ، هذا قول جميع أهل اللغة ، قال ابن قتبية : ولم يرد أن
نقطع ذلك العرق بعينه ، ولكنه أراد لو كذب علينا لأمتناه أو
قتلناه ، فكان كمن قطع وتينه ، قال : ومثله قوله صلى الله عليه وسلم
« مازالت أكلة خبير تعاودني ، وهذا أوان قطعت أبهرى » (١)

(١) رواه البخارى معلقاً . ووصله البزار وغيره عن عائشة رضى الله
عنها . وألابهر عرق في الظهر . وفي النهاية : مازالت أكلة خبير تعاودني -
بضم التاء وتشديد الدال - وأتى للابهر بمعان كثيرة . وقال الحافظ في
الفتح (٧ : ٣٤٨) قال ابن اسحاق : لما اطمأن النبي ﷺ بعد فتح
خير أهدت اليه زينب بنت الحارث . امرأة سلام بن مشكم شاة مشوية
كانت سألت : أي عضو من الشاة أحب اليه ؟ قيل لها الذراع . فأكثر
فيها من السم . فلما تناول الذراع لأك منها مضغة ولم يسقط . وأكل
معه بشر بن البراء فأساغ لقمته فمات .

والأبهر : عرق يتصل بالقلب فإذا انقطع مات صاحبه ، فكأنه قال :
فهذا أوان قتلى السم ، فكنت كمن انقطع أبهره
ثم قال تعالى (٦٩ : ٤٧) فَإِذَا مِنْكُمْ مَنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ
أى لا يحجزه منى أحد ولا يمنعه منى

الموضع الثانى قوله تعالى (٤٢ : ٢٤) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ
كَذِبًا فَإِنْ يَشَأُ اللَّهُ يَحْتَمِلْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ
بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) وفى معنى الآية للناس قولان :
أحدهما قول مجاهد ومقاتل : ان يشأ الله يربط على قلبك بالصبر
على أذاهم ، حتى لا يشق عليك . والثانى قول قتادة : ان يشأ الله
ينسك القرآن ويقطع عنك الوحى . وهذا القول دون الأول لوجوه
﴿ أخذها ﴾ ان هذا خرج جوابا لهم وتكذيبا لقولهم : ان
محمدا كذب على الله وافترى عليه هذا القرآن . فأجابهم بأحسن
جواب ، وهو أن الله تعالى قادر لا يعجزه شىء ، فلو كان كما تقولون
لختم على قلبه ، فلا يمكنه أن يأتى بشىء منه ، بل يصير القلب
كالشئ المختوم عليه فلا يوصل الى ما فيه ، فيعود المعنى الى أنه لو
افترى على لم أمكنه ولم أقره . ومعلوم أن مثل هذا الكلام لا يصدر
من قلب مختوم عليه ، فان فيه من علوم الأولين والآخرين ،
وعلم المبدأ والمعاد والدينا والآخرة ، والعلم الذى لا يعلمه إلا الله
والبيان التام ، والجزالة ، والفصاحة ، والجلالة ، والأخبار بالغيوب

مالم يمكن من ختم على قلبه أن يأتي به ولا ببعضه ، فلولا أنى أنزلته على قلبه ويسرته بلسانه - لما أمكنه أن يأتيكم بشيء منه ، فأين هذا المعنى الى المعنى الذى ذكره الآخرون ؟ وكيف يلتئم مع حكاية قولهم ؟ وكيف يتضمن الرد عليهم ؟

﴿الوجه الثانى﴾ : ان مجرد الربط على قلبه بالصبر على أذاهم يصدر من المحق والمبطل ، فلا يدل ذلك على التمييز بينهما ، ولا يكون فيه رد لقولهم ، فان الصبر على أذى المكذب لا يدل بمجرد صدق المخبر ﴿الثالث﴾ : ان الرابط على قلب العبد لا يقال له ختم على قلبه ، ولا يعرف هذا فى عرف المخاطب ولا لغة العرب ، ولا هو المعهود فى القرآن ، بل المعهود استعمال الختم على القلب فى شأن الكفار فى جميع موارد اللفظ فى القرآن كقوله (٢ : ٧) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وقوله (٤٥ : ٢٣) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً وَنظَّأْرَهُ ، وأما ربطه على قلب العبد بالصبر فكقوله (١٨ : ١٤) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ (وقوله (٢٨ : ١٠) وَأَصْبَحَ قُودُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا) والانسان يسوغ له فى الدعاء أن يقول : اللهم اربط على قلبى ، ولا يحسن أن يقول : اللهم اختم على قلبى

﴿الرابع﴾ : انه سبحانه حيث يحكى أقوالهم « انه افتراه » لا يجيبهم

عليه هذا الجواب ، بل يجيبهم بأنه لو افتراه لم يملكوا له من الله شيئاً . بل كان يأخذه ولا يقدرّون على تخليصه ، كقوله (٤٦ : ٨)
 أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً)
 وتارة يجيبهم بالمطالبة بمعارضته بمشله أو شيء منه ، وتارة باقامة
 الادلة القاطعة على أنه الحق وأنهم هم الكاذبون المفترون ، وهذا
 هو الذي يحسن في جواب هذا السؤال لا مجرد الصبر

﴿ الخامس ﴾ : أن هذه الآية نظير ما نحن فيه وأنه لو شاء لما أقره
 ولا يمكنه . وتفسير القرآن بالقرآن من أبلغ التفاسير

﴿ السادس ﴾ : انه لادلالة في سياق الآية على الصبر بوجه ما : لا
 بالمطابقة ، ولا التضمن ، ولا اللزوم . فمن أين يعلم أنه أراد ذلك ،
 ولم يستمر هذا المعنى في غير هذا المعنى ، فيحمل عليه ، بخلاف كونه
 يحول بينه وبينه ولا يمكنه من الافتراء عليه ، فقد ذكره في مواضع
 ﴿ السابع ﴾ : أنه سبحانه أخبر أنه لو شاء لما تلاه عليهم ولا أدراهم به ، وأن
 ذلك انما هو بمشيئته واذنه وعنه كما قال تعالى (١٠ : ١٦) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ
 مَا تَلَوْتُمْهُ عَلَيْهِمْ كُمْ وَلَا أَدْرَأُ كُمْ بِهِ) وهذا من أبلغ الحجج وأظهرها أي
 هذا الكلام ليس من قبلي ولا من عندي ، ولا أقدر أن أفتريه على الله
 ولو كان ذلك مقدوراً لي لكان مقدوراً لمن هو من أهل العلم والكتابة
 ومخالطة الناس والتعلم منهم ، ولكن الله بعثنى به ، ولو شاء سبحانه
 لم ينزله ولم ييسره بلساني ، فلم يدعني أتلوه عليكم وان أعلمكم به ألبتة

لا على لسانى ولا على لسان غيرى ، ولكنه أوحاه الى وأذن لى فى تلاوته عليكم ، وأدرا كم به بعد أن لم تكونوا دارين به . فلو كان كذبا واقتراء كما تقولون لأمكن غيرى أن يتلوه عليكم وتدرؤن به من جهته . لأن الكذب لا يعجز عنه البشر ، وأنتم لم تدرؤا بهذا ولم تسمعوه إلا منى ولم تسمعوه من بشر غيرى

ثم أجاب عن سؤال مقدر وهو أنه تعلمه من غيره أو اقترا من تلقاء نفسه . فقال (١٠: ١٦) فَقَدْ كَيْدْتُ فِيكُمْ عُمْرًا مِنْ قَبْلُ (تعلّمون حالى ولا يخفى عليكم سبرى ومدخلى ومخرجى وصدقى وأمانتى . ومن هذا لم أتمكن من قول شىء منه ألبتة ، ولا كان لى به علم ولا ببعضه ثم أتيتكم به وهلة من غير تعمل ولا تعلم . ولا معانة للأسباب التى أتمكن بها منه ، ولا من بعضه . وهذا من أظهر الأدلة وأبين البراهين انه من عند الله أوحاه الى وأزله على ولوشاء ما فعل ، فلم يمكنى من تلاوته ولا أمكنكم من العلم به . بل مكنتى من تلاوته ومكنكم من العلم به ، فلم تكونوا عالمين به ولا ببعضه ، ولم أكن قبل أن يوحى الى تاليا له ولا لبعضه

فتأمل صحة هذا الدليل وحسن تأليفه وظهور دلالاته

ومن هذا قوله سبحانه (١٧ : ٨٦) وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا) وهذا هو المناسب لقوله (٤٢ : ٢٤) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأُ اللَّهُ يُخَيِّمَ عَلَى

قَلْبِكَ) ولقوله وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَا خَذَامِينَ بِالْمَعِينِ (

وبرهان مستقل مذکور فی القرآن علی وجوه متعددة والله أعلم

الثامن: ان مثل هذا التركيب إنما جاء في القرآن للنفي لا للاثبات.

كقوله تعالى (١٧ : ٨٦) وَإِنْ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ

وقوله (٤ : ١٣٣) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بآخَرِينَ) وقوله

(٤٢ : ٣٣) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلَنَّ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ) وقوله (٣٤ : ٩)

إِنْ يَشَأْ نُخَسِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ)

ونظائره لم يأت إلا فيما كان ما بعد فعل المشيئة منفيا

التاسع: ان الختم على القلب لا يستلزم الصبر ، بل قد يختم على

قلب العبد ويسلبه صبره ، بل اذا ختم على القلب زال الصبر وضعف .

بخلاف الربط على القلب فانه يستلزم الصبر ، كما قال تعالى (٨ : ١١)

وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ

الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ) ومعنى الربط في اللغة الشد . ولهذا

يقال لكل من صبر على أمر : ربط قلبه ، كأنه حبس قلبه عن

الاضطراب . ومنه يقال : هو رابط الجأش . وقد ظن الواحدى

أن « على » زائدة ، والمعنى يربط قلوبكم ، وليس كما ظن ، بل بين

ربط الشيء والربط عليه فرق ظاهر . فانه يقال ربط الفرس والدابة

ولا يقال ربط عليها . فاذا أحاط الربط بالشيء وعمه قيل : ربط

عليه ، كأنه أحاط عليه بالرباط . فلهذا قيل : ربط على قلبه ، وكان أحسن من أن يقال : ربط قلبه . والمقصود أن هذا الربط يكون معه الصبر أشد وأثبت بخلاف الحتم

﴿العاشر﴾ : أن الحتم هو شد القلب ، حتى لا يشعر ولا يفهم ، فهو مانع يمنع العلم والتقصد . والنبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم قول أعدائه : أنه اقترى القرآن ، ويشعر به ، فلم يجعل الله على قلبه مانعا من شعوره بذلك وعلمه به . فاذا قيل : الأمر كذلك ، ولكن جعل الله على قلبه مانعا من التأذى بقولهم . قيل : هذا أولى أن يسمى ختما ، وقد كان يؤذيه قولهم ويحزنهم ، كما قال تعالى (٦ : ٣٣) قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ) وكان وصول هذا الاذى اليه من كرامة الله له ، فانه لم يؤذ نبي ما أودى . فالقول في الآية هو قول قتادة . والله أعلم

ثم أخبر سبحانه أن القرآن تذكرة للمتقين يتذكر به المتق ، فيصير ما ينفعه فيأتيه ، وما يضره فيجتنبه ، ويتذكر به أسماء الرب تعالى وصفاته وأفعاله فيؤمن ، ويتذكر به ثوابه وعقابه ووعيده وأمره ونهيه وآياته في أوليائه وأعدائه ونفسه ، وما يزيها ويظهرها ويعليها ، وما يديسها ويخفيها ويحقرها . ويذكر به علم المبدأ والمعاد والجنة والنار ، وعلم الخير والشر . فهو التذكرة على الحقيقة ، تذكرة حجة للعالمين ، ومنفعة وهداية للتعليمين

ثم قال سبحانه (وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ) أى لا يخفون علينا ، فسنجازيهم بتكذيبهم

ثم أخبر سبحانه أن رسوله وكلامه حسرة على الكافرين اذا عاينوا حقيقة ما أخبر به كان تكذيبهم عليهم من أعظم الحسرات ، حين لا ينفعهم التحسر . وهكذا كل من كذب بحق وصدق بباطل فانه اذا انكشف له حقيقة ما كذب به وصدق به كان تكذيبه وتصديقه حسرة عليه ، كمن فرط فيما ينفعه وقت تحصيله ، حتى اذا اشتدت حاجته اليه وعان فوز المحصلين صار تفریطه عليه حسرة ثم أخبر سبحانه أن القرآن والرسول حق اليقين . ف قيل : هو من باب اضافة الموصوف الى صفته ، أى الحق اليقين ، نحو مسجد الجامع ، وصلاة الأولى . وهذا موضع يحتاج الى تحقيق فنقول : وبالله التوفيق :

ذكر الله سبحانه في كتابه مراتب اليقين وهى ثلاثة : حق اليقين ، وعلم اليقين ، وعين اليقين ، كما قال تعالى (١٠٢ : ٥ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ٦ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ٧ ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ) فهذه ثلاث مراتب ، لليقين : أولها علمه ، وهو التصديق التام به ، بحيث لا يعرض له شك ولا شبهة تقدح فى تصديقه ، كعلم اليقين بالجنة مثلا ، و يتيقنهم أنها دار المتقين ومقر المؤمنين ، فهذه مرتبة العلم ، كيقينهم أن الرسل أخبروا بها عن الله ، و يتيقنهم صدق الخبر

﴿ المرتبة الثانية ﴾ عين اليقين وهى مرتبة الرؤية والمشاهدة ، كما قال تعالى (١٠٢ : ٧) ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ) وبين هذه المرتبة والتي قبلها فرق ما بين العلم والمشاهدة : فاليقين للسمع ، وعين اليقين للبصر وفى المسند للإمام أحمد مرفوعا « ليس الخبر كالمعين » وهذه المرتبة هى التى سألها ابراهيم الخليل ربه أن يريه كيف يحيى الموت ليحصل له مع علم اليقين عين اليقين ، فكان سؤاله زيادة لنفسه ، وطمأنينة لقلبه . فيسكن القلب عند المعاينة ويطمئن لقطع المسافة التى بين الخبر والعيان . وعلى هذه المسافة أطلق النبى صلى الله عليه وسلم لفظ الشك حيث قال « نحن أحق بالشك من ابراهيم » (١) ومعاذ الله أن يكون هناك شك ولا من ابراهيم ، وانما هو عين بعد علم ، وشهود بعد خبر ، معاينة بعد سماع

﴿ المرتبة الثالثة ﴾ مرتبة حق اليقين . وهى مباشرة الشئ . بالا احساس به ، كما اذا أدخلوا الجنة وتمتعوا بما فيها فهم فى الدنيا فى مرتبة علم اليقين ، وفى الموقف حين نزل وتقرّب منهم حتى يعاينوها فى مرتبة عين اليقين ، واذا دخلوها وباشروا نعيمها فى مرتبة حق اليقين . ومباشرة المعلوم تارة يكون بالحواس الظاهرة وتارة يكون بالقلب ، فلماذا قال (وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ) فان القلب يباشر الايمان به ويخالطه كما يباشر بالحواس ما يتعلق بها ، فيثبت

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة البقرة عن أبى هريرة

مخالط بشاشته القلوب ويبقى لها حق اليقين ، وهذه أعلى مراتب الإيمان
وهي الصديقية التي تتفاوت فيها مراتب المؤمنين

وقد ضرب بعض العلماء للبراتب الثلاثة مثالا فقال : إذا قال لك من
يجزم بصدقه : عندي غسل أريد أن أطعمك منه فصدقته كان ذلك علم
يقين فإذا أحضره بين يديك صار ذلك عين اليقين فإذا ذقته صار ذلك
حق اليقين ، وعلى هذا فليست هذه الإضافة من باب إضافة الموصوف
إلى صفته ، بل من إضافة الجنس إلى نوعه ، فإن العلم والعين والحق
أعم من كونها يقيناً فأضيف العام إلى الخاص ، مثل بعض المتاع
وكل الدراهم . ولما كان المضاف والمضاف إليه في هذا الباب
يصدقان على ذات واحدة بخلاف قولك : دار عمرو وثوب زيد
ظن من ظن أنها من إضافة الموصوف إلى صفته ، وليس كذلك ،
بل هي من باب إضافة الجنس إلى نوعه ، كشوب خز وخاتم فضة
فالمضاف إليه قد يكون مغايراً للمضاف لا يصدقان على ذات واحدة ،
وقد يجانسه فيصدقان على مسمى واحد والله أعلم

ثم ختم السورة بقوله (٥٢: ٦٩) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) وهي
جديرة بهذه الخاتمة ، لما تضمنته من الاخبار عن عظمة الرب تعالى
وجلاله ، وذكر عظمة ملكه وجريان حكمه بالعدل على عباده في الدنيا
والآخرة ، وذكر عظمته تعالى في ارسال رسوله وإنزال كتابه ،
وأنه تعالى أعظم وأجل وأكبر عند أهل سمواته والمؤمنين من

(م ١٣ - نبيان)

عباده من أن يقر كذبا متقولا عليه ، مفترى عليه ، يبدل دينه ،
وينسخ شرائعه ، ويقتل عباده ، ويخبر عنه بما لا حقيقة له ، وهو
سبحانه مع ذلك يؤيده وينصره ، ويحجب دعواته ، ويأخذ أعداءه
ويرفع قدره ، ويعلى ذكره ، فهو سبحانه العظيم الذي تأبى عظمته أن
يفعل ذلك بمن أتى بأقبح أنواع الكذب والظلم . فسبحان ربنا
العظيم ، وتعالى عما ينسبه اليه الجاهلون علوا كبيرا

(٣٨) فصل

ومن ذلك قوله عز وجل (٧٠: ٤٠) فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ
إِنَّا لَقَادِرُونَ ٤١ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ) أقسم
سبحانه برب المشارق والمغارب . وهى إمامشارق النجوم ومغاربها ،
أو مشارق الشمس ومغاربها . وان كل موضع من الجهة مشرق
ومغرب ، فكذلك جمع فى موضع ، وأفرد فى موضع ، وثنى فى
موضع آخر ، فقال (٥٥: ١٧) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ)
ف قيل : هما مشرقا الصيف والشتاء ، وجاء فى كل موضع ما يناسبه ،
فحاء : فى سورة الرحمن (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ) لانها سورة
ذكرت فيها المزدوجات ، فذكر فيها الخالق والتعليم ، والشمس ،
والقمر ، والنجوم ، والشجر ، والسماء ، والارض ، والحب ،
والثمر ، والجن ، والانس ، ومادة أبى البشر ، وأبى الجن ، والبحرين

والجنة والنار . وقسم الجنة إلى جنتين عاليتين وجنتين دونهما ،
وأخبر أن في كل جنة عينين ، فناسب كل المناسبة أن يذكر
المشرقين ، والمغربين

وأما سورة (سأل سائل) فإنه أقسم سبحانه على عموم قدرته
وكمالها ، وصحة تعلقها بأعادتهم بعد العدم . فذكر المشرق والمغرب
بلفظ الجمع ، إذ هو أدل على المقسم عليه ، سواء أريد مشارق
النجوم ومغاربها ، أو مشارق الشمس ومغاربها ، أو كل جزء من
جهتي المشرق والمغرب . فكل ذلك آية ودلالة على قدرته تعالى على
أن يبدل أمثال هؤلاء المكذبين ، وينشئهم فيما لا يعلمون . فيأتي
بهم في نشأة أخرى ، كما يأتي بالشمس كل يوم من مطلع ، ويذهب
(بها) في مغرب

وأما في سورة (المزمل) فذكر المشرق والمغرب بلفظ الافراد ،
لما كان المقصود ذكر ربوبيته ووحدانيته ، وكما أنه تفرد بربوية
المشرق والمغرب وحده ، فكذلك يجب أن يتفرد بالربوبية والتوكل
عليه وحده . فليس للمشرق والمغرب رب سواه . فكذلك ينبغي
أن لا يتخذ إله ولا وكيل سواه ، وكذلك قال موسى لفرعون حين
سأله (٢٦: ٢٣) وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ فقال: (٢٦: ٢٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) ، وفي ربوبيته سبحانه للمشارك
والمغرب تنبيه على ربوبيته السموات وما حوته من الشمس ،

والقمر ، والنجوم ، وربوبيته مابين الجهتين ، وربوبيته الليل والنهار
وما تضمنناه . ثم قال (٧٠ : ٤٠) إِنَّا لَقَادِرُونَ ٤١ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا
مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (أى لقادرون على أن نذهب بهم ونأتى بأطوع
لنا منهم وخيرا منهم ، كما قال تعالى (٤ : ١٣٣) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ
أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا) وقوله (وَمَا نَحْنُ
بِمَسْبُوقِينَ) أى لا يفوتنى ذلك إذا أردته ولا يمتنع منى . وعبر عن
هذا المعنى بقوله (وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ) لان المغلوب يسبقه الغالب الى
ما يريده فيفوت عليه . ولهذا عدى بعلى دون الى ، كما فى قوله (٥٦ : ٦٠)
وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ٦١ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ) فانه لما ضمنه معنى
مغلوبين ومقهورين عداه بعلى ، بخلاف سبقه اليه ، فانه فرق بين
سبقته اليه وسبقته عليه . فالاول بمعنى غلبته وقهرته عليه . والثانى
بمعنى وصلت اليه قبله

(٣٩) فصل

وقد وقع الاخبار عن قدرته عليه سبحانه على تبديلهم بخير منهم ،
وفى بعضها تبديل أمثالهم ، وفى بعضها استبداله قوما غيرهم ثم
لا يكونوا أمثالهم . فهذه ثلاثة أمور يجب معرفة ما بينها من الجمع
والفرق . فحيث وقع التبديل بخير منهم فهو إخبار عن قدرته على أن

يذهب بهم وَيَأْتِي بِأُطْوَعٍ وَاتَّقِ لَهُ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ (٤٧ : ٣٨)
وَأِنْ تَقُولُوا يُسْتَبَدَّلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ)
يعني بل يكونوا خيرا منكم . قال مجاهد : يستبدل بهم من شاء من عباده
فيجعلهم خيرا من هؤلاء ، فلم يتولوا بحمد الله فلم يستبدل بهم .
واما ذكره تبديل أمثالهم ، ففي سورة الواقعة وسورة الانسان . فقال
في الواقعة (٦٠ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ٦١ عَلَى
أَنْ نَبْدَلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ) وقال في سورة الانسان
(٢٨ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا)
قال كثير من المفسرين : المعنى أنا إذا أردنا أن نخلق خلقا غيركم
لم يسبقنا سابق ، ولم يفتنا ذلك . وفي قوله (وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ
تَبْدِيلًا) إذا شئنا أهلكناهم وأنشأنا بأشباههم ، فجعلناهم بدلا منهم .
قال المهدوي : قوما موافقين لهم في الخلق مخالفين لهم في العمل ،
ولم يذكر الواحدى ولا ابن الجوزى غير هذا القول . وعلى هذا
ف تكون هذه الآيات نظير قوله تعالى (١٦ : ٣٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَوْ يُبَدِّلْكُمْ
النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ) فيكون استدلالا بقدرته على إذهابهم
والإتيان بأمثالهم على إتيانه بهم أنفسهم اذا ماتوا
ثم استدل سبحانه بالنشأة الأولى فذكرهم بها فقال (٥٦ : ٦٢) وَلَقَدْ
عَلَّمْنَاهُمُ النُّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْ لَا تَذَكَّرُونَ) فنبههم بما علموا وعينو على

صدق ما أخبرتهم به رسله من النشأة الثانية
والذى عندى فى معنى هاتين الآيتين ، وهما آية الواقعة والانسان
أن المراد بتبديل أمثالهم الخلق الجديد والنشأة الآخرة التى وعدوا
بها . وقد وفق الزمخشري لفهم هذا من سورة الانسان ، فقال :
وبدلنا أمثالهم فى شدة الأسر ، يعنى النشأة الآخرة ، ثم قال : وقيل
وبدلنا غيرهم ممن يطيع ، وحقه أن يأتى بأن لا باذا ، كقوله (وإن
تَمَوَّلُوا يُسْتَبَدَّلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ) قلت : وإتيانه باذا التى لا تكون
إلا لتحقيق الوقوع يدل على تحقق وقوع هذا التبديل وانه واقع
لا محالة . وذلك هو النشأة الآخرة التى استدل على امكانها بقوله
(وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى) واستدل بالمثل على المثل ، وعلى ما أنكره
بما عاينوه وشاهدوه ، وكونهم أمثالهم هو انشاؤهم خلقاً جديداً
بعينه فهم هم بأعيانهم ، وهم أمثالهم ، فهم أنفسهم يعادون . فاذا
قلت : المعاد هذا هو الأول بعينه صدقت ، وان قلت : هو مثله صدقت
فهو هو معاد أو هو مثل الأول . وقد أوضح هذا سبحانه بقوله
(٥٠ : ١٥) بَلْ هُمْ فِي كَيْبٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) فهذا الخلق الجديد
هو المتضمن لكونهم أمثالهم . وقد سماه الله سبحانه وتعالى إعادة
والمعاد مثل المبدأ ، وسماه نشأة أخرى وهى مثل الأولى ، وسماه
خلقاً جديداً وهو مثل الخلق الأول كما قال (٥٠ : ١٥) أَفَعَيِّبْنَا
بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي كَيْبٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) وسماه أمثالا وهم

هم . فتطابقت ألفاظ القرآن وصدق بعضها بعضاً ، وبين بعضها بعضاً . ولهذا تزول اشكالات أوردها من لم يفهم المعاد الذي أخبرت به الرسل عن الله ، ولا يفهم من هذا القول ما قاله بعض المتأخرين انهم غيرهم من كل وجه . فهذا خطأ قطعاً - معاذ الله من اعتقاده - ، بل هم أمثالهم وهم أعيانهم . فاذا فهمت الحقائق فلا يناقش في العبارة الاضيق العطن ، صغير العقل ، ضعيف العلم

وتأمل قوله تعالى في الواقعة (٥٦ : ٥٨) أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُتِبَ لَهُمْ أَنَّهُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ٦٠ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ كَيْفَ ذَكَرَ مَبْدَأَ النِّشْأَةِ وَآخِرَهَا مُسْتَدِلًّا بِهَا عَلَى النِّشْأَةِ الثَّانِيَةِ بِقَوْلِهِ (٥٦ : ٦٠) وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ) فانكم انما علمتم النشأة الاولى في بطون أمهاتكم ومبدأها مما تمنون ، ولن تغلب على أن تنشئكم نشأة ثانية فيما لا تعلمون . فاذا أنتم أمثال ما كنتم في الدنيا في صوركم وهيئاتكم . وهذا من كمال قدرة الرب تعالى ومشيعته ، لو تدكرتم أحوال النشأة الاولى لدلكم ذلك على قدرة منشئها على النشأة التي كذبتم بها ، فأى استدلال وارشاد أحسن من هذا وأقرب الى العقل والفهم ، وأبعد من كل شبهة وشك ؟ وليس بعد هذا البيان والاستدلال الا الكفر بالله وما جاءت به الرسل والايان

وقال في سورة الانسان (٣٨) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ)

فهذه النشأة الأولى ثم قال (وَإِذَا شِئْنَا بِدَلْنَا أَمْنَاهُمْ تَبْدِيلًا) فهذه النشأة الأخرى . ونظير هذا (٥٣ : ٥٥) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزُّوجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ٤٦ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ٤٧ وَأَنَّ عَلَيْهِ الْمِشَاءَ الْآخِرَىٰ) وهذا في القرآن كثير جدا ، يقرن بين النشأتين مذكر اللفظ والعقول باحداهما على الآخرة . وبالله التوفيق

(٢٠) فصل

فلما أقام عليهم الحجة وقطع المَعْدِرَةَ قال (٧٠ : ٤٢) قَدَرَهُمْ يَخْضَوْنَ وَيَلْعَبُونَ حَتَّىٰ يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ) وهذا تهديد شديد يتضمن ترك هؤلاء الذين قامت عليهم حجتي فلم يقبلوها ، ولم يخافوا بأسى ولا صدقوا رسالاتى فى خوضهم بالباطل ، ولعبهم : فالخوض فى الباطل ضد التكلم بالحق ، واللعب ضد السعى الذى يعود نفعه على ساعيه . فالأول ضد العلم النافع . والثانى ضد العمل الصالح . فلا تكلم بالحق ، ولا عمل بالصواب . وهذا شأن كل من أعرض عما جاء به الرسول لا بد له من هذين الأمرين

ثم ذكر سبحانه حالهم عند خروجهم من القبور . فقال (٤٣) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ) أى يسرعون . والنصب العلم والغاية التى تنصب فى مؤونها . وهذا من ألطف التشبيه وأبينه وأحسنه ؛ فان الناس يقومون من قبورهم

مہطعین الی الداعی ، یؤمنون الصوت ، لا یخرجون عنه یمنة ولا
یسرة كما قال (١٠٨ : ٢٠) یَوْمَئِذٍ یَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ)
أی : یقبلون من کل أوب الی صوته وناحیته ، لا یخرجون عنه .
قال الفراء : وهذا كما تقول : دعوتك دعوة لا عوج لك عنها . وقال
الزجاج : المعنی لا عوج لهم عن دعائه ، أی لا یقدرون إلا علی
اتباعه وقصده

فان قلت : إذا كان المعنی لا عوج لهم عن دعوتی ، فكیف قال
(لَا عِوَجَ لَهُ) قیل : قالت طائفة : اللام بمعنی عن ، أی لا عوج
عنه ، وقالت طائفة : المعنی لا عوج لهم عن دعائی ، كما قال الزجاج
وفی القولین تكلف ظاهر . ولما كانت الدعوة تسمع الجميع لا
تعوج عنهم ، وكلهم يؤم صوت الداعی ویتبعه لا یعوج عنه ، كان
مجيء اللام منتظما للمعنیین ودالا علیهما . والمعنی لا عوج لدعائه
لا فی إسماعهم إیاءه ، ولا فی إجابتهم له

ثم قال تعالى (٤٤) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ) فوصفهم بذل
الظاهر ، وهو خشوع الأبصار ، وذلل الباطن ، وهو ما یرهقهم من
الذل الذی خشعت عنه أبصارهم ، وقرب من هذا قوله (٧٥ : ٢٤)
وَوُجُوهُهُ یَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ٢٥ تَظُنُّ أَنْ یُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ) ونظیره قوله
(١٠ : ٢٦) وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ
وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّیْلِ مُظْلِمًا) وضد هذا قوله تعالى (٢٠ : ١١٨)

إِنَّ لَكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (ففي عنه الجوع الذي هو ذل الباطن والعري الذي هو ذل الظاهر . وضده أيضا قوله (٧٦ : ١١) وَلَقَاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا) فالنضرة عز الظاهر وجماله ، والسرور عز الباطن وجماله . ومثله أيضا قوله (٧٦ : ٢١) عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا) فجمع لهم بين زينة الظاهر والباطن ، ومثله قوله (٧ : ٢٦) يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ) فجمع لهم بين زينة الظاهر والباطن . ومثله قوله (٣٧ : ٦) إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزَيْنَةِ السَّكَاكِيبِ ٧ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ) فزين ظاهرها بالنجوم وباطنها بالحفظ من كل شيطان رجيم . ومثله قوله أيضا (٤٠ : ٦٤) وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ) وقريب منه قوله تعالى (٢ : ١٩٧) وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) ومنه قوله (٣ : ١٠٦) فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ١٠٧ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) فجمع لهؤلاء بين جمال الظاهر والباطن ، ولأولئك بين تسويد الظاهر والباطن ، ومنه قول امرأة العزيز (١٢ : ٣٢) فَذَلِكَ الَّذِي لُمْتُنِي فِيهِ ، وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ) فوصفت ظاهره بالجمال

وباطنه بالعفة ، فوصفته بجمال الظاهر والباطن ، فكانها قالت : هذا ظاهره ، وباطنه أحسن من ظاهره . وهذا كله يدل على ارتباط الظاهر بالباطن قدرا وشرعا . والله أعلم بالصواب

(٢١) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (٦٨ : ١ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ٢ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ) الصحيح أن « ن » و « ق » و « ص » من حروف الهجاء التي يفتح بها الرب سبحانه بعض السور ، وهي أحادية ، وثنائية ، وثلاثية ، ورباعية ، وخماسية ، ولم تجاوز الخمسة ، ولم تذكر قط في أول سورة إلا وعقبها بذكر القرآن ، إما مقسما به ، وإما مخبرا عنه ، ما خلا سورتين سورة « كهيعص » و « ن » كقوله (١ : ٢ أَلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ) (١ : ٣ أَلَمْ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ) (١ : ٧ أَلَمْ أَنْزَلْ إِلَيْكَ) (١ : ١٣ أَلَمْ تَرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ) وهكذا الى آخره ، ففي هذا تنبيه على شرف هذه الحروف ، وعظم قدرها ، وجلالتها . إذ هي مباني كلامه وكتبه ، التي تكلم سبحانه بها ، وأنزلها على رسله ، وهدى بها عباده ، وعرفهم بواسطتها نفسه ، وأسماءه ، وصفاته ، وأفعاله ، وأمره ، ونهيه ، ووعيده ، ووعدده ، وعرفهم بها الخير والشر ، والحسن ، والقبيح ، وأقدرهم على التكلم بها ، بحيث

يلغون بها أقصى ما في أنفسهم ، بأسهل طريق وقلة كلفة ومشقة ، وأوصله الى المقصود ، وأدله عليه . وهذا من أعظم نعمه عليهم ، كما هو من أعظم آياته . ولهذا عاب سبحانه على من عبدا لها لا يتكلم ، وامتن على عباده بأن أقدرهم على البيان بها بالتكلم . فكان في ذكر هذه الحروف التنبيه على كمال ربوبيته ، وكمال احسانه وانعامه ، فهي أولى أن يقسم بها من الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والسماء والنجوم ، وغيرهما من المخلوقات . فهي دالة أظهر دلالة على وحدانيته وقدرته ، وحكمته وإكمله ، وكلامه ، وصدق رسله

وقد جمع سبحانه بين الأمرين - أعنى القرآن ونطق اللسان - وجعل تعليمهما من تمام نعمته وامتنانه . كما قال (١ : ٥٥) الرَّحْمَنُ ٢ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ٣ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ٤ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) فهذه الحروف علم القرآن ، وبها علم البيان ، وبها فضل الانسان على سائر أنواع الحيوان ، وبها أنزل كتبه ، وبها أرسل رسله ، وبها جمعت العلوم وحفظت ، وبها انتظمت مصالح العباد في المعاش والمعاد ، وبها يتميز الحق من الباطل ، والصحيح من الفاسد ، وبها جمعت أشتات العلوم ، وبها أمكن تنقلها في الأذهان ، وكم جاب بها من نعمة ودفع بها من نقمة ؟ وأقيمت بها من عثرة وأقيمت بها من حرمة ، وهدى بها من ضلالة وأقيم بها من حق ، وهدم بها من باطل ؟ فأياته سبحانه في تعليم البيان كآياته في خالق الانسان . ولولا أعجائب صنع الله ما ثبتت تلك الفضائل في لحم ولا عصب . فسبحان من هذا صنعه في هواء يخرج

من قصبة الرئة ، فينضم في الحلقوم وينفرش في أقصى الحلق ،
ووسطه ، وآخره ، وأعلاه ، وأسفله ، وعلى وسط اللسان وإطرافه
وبين الثنايا ، وفي الشفتين ، والخيشوم . فيسمع له عند كل مقطع من
تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع المجاور له . فإذا هو حرف
فألهم سبحانه الإنسان بضم بعضها إلى بعض فإذا هي كلمات
قائمة بأنفسها ، ثم ألهمهم تأليف تلك الكلمات بعضها إلى بعض وإذا
هي كلام دال على أنواع المعاني ، أمرا ونهيا ، وخبرا ، واستخبارا
ونفيا ، وإثباتا ، وإقرارا ، وإنكارا ، وتصديقا ، وتكديبا ، وإيجابا
واستحبابا ، وسؤالا ، وجوابا ، إلى غير ذلك من أنواع الخطاب ،
نظمه ونثره ، ووجيزه ، ومطوله ، على اختلاف لغات الخلائق . كل
ذلك صنعته تبارك وتعالى في هواء مجرد خارج من باطن الإنسان
إلى ظاهره ، في مجار قد هيئت وأعدت لتقطيعه وتفصيله ، ثم تأليفه
وتوصيله ، فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين ، فهذا شأن
الحرف المخلوق

وأما الحرف الذي به تكون المخلوقات فشقائه أعلى وأجل . وإذا
كان هذا شأن الحروف فحقيق أن تفتح بها السور ، كما افتتحت
بالاقسام لما فيها من آيات الربوبية وأدلة الوجدانية . فهي دالة على
كمال قدرته سبحانه ، وكمال علمه ، وكمال حكمته ، وكمال رحمته ،
وعنايته بخلقه ، ولطفه وإحسانه . وإذا أعطيت الاستدلال بها
حقه استدالت بها على المبدأ والمعاد ، والخلق والأمر ، والتوحيد

والرسالة . فهي من أظهر أدلة شهادة ان لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن القرآن كلام الله ، تكلم به حقاً وأنزله على رسوله وحياً ، وبلغه كما أوحى إليه صدقاً ، ولا تهمل الفكرة في كل سورة افتتحت بهذه الحروف ، واشتملها على آيات هذه المطالب وتقريرها . وبالله التوفيق

(٢٢) فصل

ثم أقسم سبحانه بـ (٦٨: ١) القلم وما يسطرون . فأقسم بالكتاب وآلته وهو القلم الذي هو إحدى آياته وأول مخلوقاته الذي جرى به قدره وشرعه ، وكتب به الوحي ، وقيد به الدين . وأثبتت به الشريعة وحفظت به العلوم ، وقامت به مصالح العباد في المعاش والمعاد فوطدت به الممالك ، وأمنت به السبل والمسالك ، وأقام في الناس أبلغ خطيب وأفصح ، وأنفع لهم وأنصح ، وواعظاً تشقى مواضعه القلوب من السقم ، وطيبياً يرى بآذنه من أنواع الألم : يكسر العساكر العظيمة على أنه الضعيف الوحيد ، ويخاف سطوته وبأسه ذو البأس الشديد ، وبالأقلام تدبر الأقاليم وتساس الممالك ، والعلم لسان الضمير يناجيه بما استتر عن الاسماع ، فينسج حلل المعاني في الطرفين فتعود أحسن من الوشى المرقوم ، ويودعها حكمة فتصير بواذر الفهوم ، والأقلام نظام للافهام ، وكما أن اللسان يريد القلب فالقلم يريد

اللسان ، ويولد الحروف المسموعة عن اللسان ، كتولد الحروف المكتوبة عن القلم ، والقلم يريد القلب ورسوله وترجمانه ولسانه الصامت

(٢٣) فصل

والأقلام متفاوتة في الرتب ، فاعلاها وأجلها قدرا قلم القدر السابق الذى كتب الله به مقادير الخلائق . كما فى سنن أبى داود عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب . قال : يارب ، وما اكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شىء حتى تقوم الساعة » واختلف العلماء ، هل القلم أو المخلوقات أو العرش ؟ على قولين ، ذكرهما الحافظ أبو يعلى الهمداني ، أصحهما أن العرش قبل القلم لما ثبت فى الصحيح من حديث عبد الله بن عمر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام ، وعرشه على الماء » فهذا صريح أن التقدير وقع قبل خلق العرش ، والتقدير وقع عند أول خلق القلم لحديث عبادة هذا ولا يخلو قوله « إن أول ما خلق الله القلم » الى آخره ، اما أن يكون جملة أو جملتين ، فان كان جملة - وهو الصحيح - كان

جمعناه أنه عند أول خلقه قال له : اكتب ، كافي لفظ « أول ما خلق الله القلم قال له اكتب » بنصب أول ، والقلم . فان كانا جملتين وهو مروي برفع أول والقلم ، فيتعين حملة على أنه أول المخلوقات من هذا العالم ، ليتفق الحديثان ، اذ حديث عبد الله بن عمر صريح في أن العرش سابق على التقدير والتقدير مقارن لخلق القلم . وفي اللفظ الآخر « لما خلق الله القلم قال له اكتب »

فهذا القلم أول الأقلام ، وأفضلها ، وأجلها ، وقد قال غير واحد من أهل التفسير انه القلم الذي اقسم الله به

(٢٤) فصل

القلم الثاني قلم الوحي ، وهو الذي يكتب به وحى الله الى أنبيائه ورسله . وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم ، والعالم خدم لهم . واليهم الحل والعقد . والأقلام كلها خدم لأقلامهم وقد رفع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الأسراء إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام : فهذه الأقلام هي التي تكتب ما يوحى الله تبارك وتعالى من الأمور التي يدبرها أمر العالم العلوى والسفلى

(٢٥) فصل

والقلم الثالث قلم التوقيع عن الله ورسوله ، وهو قلم الفقهاء والمفتين . وهذا القلم أيضا حاكم غير محكوم عليه . فاليه التحاكم

فى الدماء ، والأموال ، والفروج ، والحقوق ، وأصحابه مخبرون
عن الله بحكمه الذى حكم به بين عباده ، وأصحابه حكام وملوك على
أرباب الاقلام ، وأقلام العالم خدّم لهذا القلم

(٤٦) فصل

القلم الرابع قلم طب الأبدان التى تحفظ بها صحتها الموجودة ،
وترد إليها صحتها المفقودة ، وتدفع به عنها آفاتهما وعوارضها
المضادة لصحتها . وهذا القلم أنفع الاقلام بعد قلم طب الأديان .
وحاجة الناس الى أهله تلتحق بالضرورة

(٤٧) فصل

القلم الخامس قلم التوقيع عن الملوك ونوابهم ، وسياس الملك .
ولهذا كان أصحابه أعز أصحاب الاقلام ، والمشاركون للملوك فى
تدبير الدول . فأن صلحت أقلامهم صلحت المملكة وان فسدت
اقلامهم فسدت المملكة ، وهم وسائط بين الملوك ورعاياهم

(٤٨) فصل

القلم السادس قلم الحساب ، وهو القلم الذى تضبط به الأموال ،
مستخرجها ومصرفها ومقاديرها ، وهو قلم الارزاق ، وهو قلم
الكسب المتصل والمنفصل . الذى تضبط به المقادير وما بينها من

التفاوت والتناسب ، ومبناه على الصدق والعدل . فاذا كذب هذا
القلم وظلم فسد أمر المملكة

(٤٩) فصل

القلم السابع قلم الحكم الذى تثبت به الحقوق ، وتنفذ به القضايا ،
وتراق به الدماء ، وتؤخذ به الأموال والحقوق من اليد العادية
فترد الى اليد المحقة ويثبت به الانسان وتنقطع به الخصومات وبين هذا
القلم وقلم التوقيع عن الله عموم وخصوص : فهذا له النفوذ وال لزوم
وذلك له العموم والشمول ، وهو قلم قائم بالصدق فيما يشتهر ،
وبالعدل فيما يميزه وينفذه

(٥٠) فصل

القلم الثامن قلم الشهادة ، وهو القلم الذى تحفظ به الحقوق ،
وتصان عن الاضاعة ، وتحول بين الفاجر وانكاره ، ويصدق
الصادق ، ويكذب الكاذب ، ويشهد للمحق بحقه ، وعلى المبطل
بباطله . وهو الأمين على الدماء ، والفروج ، والأموال ، والأنساب ،
والحقوق ، ومتى خان هذا القلم فسد العالم أعظم فساد ، وباستقامته
يستقيم أمر العالم ، ومبناه على العلم وعدم الكتمان

(٥١) فصل

القلم التاسع قلم التعبير ، وهو كاتب وحنى المنام ، وتفسيره ،

وتعبيره ، وما أريد منه . وهو قلم شريف جليل مترجم للوحي
المنامي ، كاشف له ، وهو من الاقلام التي تصلح للدنيا والدين ، وهو
يعتمد طهارة صاحبه ونزاهته ، وأمانته ، وتحريه للصدق ، والطرائق
الحميدة ، والمناهج السديدة ، مع علم راسخ ، وصفاء باطن ، وحس
مؤيد بالنور الالهي ، ومعرفة بأحوال الخلق وهياتهم وسيرهم
وهو من أطف الاقلام ، وأعمها جولانا ، وأوسعها تصرفا ، وأشدها
تشبثا بسائر الموجودات : علويها وسفليها ، وبالماضى والحال
والمستقبل ، فتصرف هذا القلم في المنام هو محل ولايته وكرسي
ملكته وسلطانه

(٥٢) فصل

القلم العاشر قلم تواريخ العالم ووقائعه . وهو القلم الذي تضبط به
الحوادث وتنقل من أمة الى أمة ، ومن قرن الى قرن ، فيحصر ماضى
من العالم وحوادثه في الخيال ، وينقشه في النفس ، حتى كأن السامع
يرى ذلك ويشهده . فهو قلم المعاد الروحاني ، وهذا القلم قلم العجائب
فانه يعيد لك العالم في صورة الخيال فتراه بقلبك ، وتشاهده ببصيرتك

(٥٣) فصل

القلم الحادى عشر قلم اللغة ، وتفصيلها من شرح معاني ألفاظها
ونحوها وتصريفها وأسرار تراكيبها ، وما يتبع ذلك من أحوالها

ووجوهها . وأنواع دلالاتها على المعاني ، و كيفية الدلالة . وهو قلم التعبير عن المعاني باختيار أحسن الالفاظ وأعذبها وأسهلها وأوضحها . وهذا القلم واسع التصرف جدا بحسب سعة الالفاظ وكثرة مجاريها وتنوعها

(٥٤) فصل

القلم الثانى عشر القلم الجامع ، وهو قلم الرد على المبطلين ، ورفع سنة المحققين ، وكشف أباطيل المبطلين على اختلاف أنواعها وأجناسها ، وبيان تناقضهم ، وتهافتهم ، وخروجهم عن الحق ، ودخولهم فى الباطل . وهذا القلم فى الأقلام نظير الملوك فى الأنام ، وأصحابه أهل الحجة الناصرون لما جاءت به الرسل ، المحاربون لأعدائهم . وهم الداعون الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، المجادلون لمن خرج عن سبيله بأنواع الجدال . وأصحاب هذا القلم حرب لكل مبطل ، وعدو لكل مخالف للرسل . فهم فى شأن وغيرهم من أصحاب الأقلام فى شأن

فهذه الأقلام التى فيها انتظام مصالح العالم ، ويكفى فى جلالة القلم أنه لم تكتب كتب الله إلا به ، وأن الله سبحانه أقسم به فى كتابه ، وتعرف الى غيره بأن علم بالقلم ، وإنما وصل إلينا ما بعث به نبينا صلى الله عليه وسلم بواسطة القلم . ولقد أبدع أبو تمام ، إذ يقول فى وصفه :

لكَ القلمُ الأعلى الذى بشباته * يصاب من الامر الكلى والمفاصل
له ريقة طل ، ولكن وقعها * بأثاره فى الغرب والشرق وابل
لُعاب الأفاعى القاتلات لعبه * وأرى الجنا اشتارتة أيد عواسل
له الخسوات اللآء لولا نجيئها * لما احتفلت للملك تلك المحافل
فصيح إذا استنطقته وهوراكب * وأعجم ان خاطبته وهورا جل
اذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت * عليه شعاب الفكر وهى حوافل
أطاعته أطراف القنا وتقوّضت * لنجواه - تقوىض الخيام - الجحافل
إذا استغزر الذهن الذكى وأقبلت * أعاليه فى القرطاس وهى أسافل
وقد رقدته الخنصران وسدّدت * ثلاث نواحيه الثلاث الأنامل
رأيت جليلا شأنه وهومرهف * ضنا وسمينا خطبه وهو ناحل

(٥٥) فصل

والمقسم عليه بالقلم والكتابة فى هذه السورة تنزيه نبيه ورسوله عما
يقول فيه أعداؤه. وهو قوله تعالى (٣٦٨) مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٍ
وأنت إذا طابقت بين هذا القسم والمقسم به وجدته دالا عليه أظهر
دلالة وأبينها ، فان ماسطر الكاتب بالقلم من أنواع العلوم التى يتلقاها
البشر بعضهم عن بعض لا تصدر من مجنون ، ولا تصدر إلا من
عقل وافر . فكيف يصدر ما جاء به الرسول من هذا الكتاب الذى
هو فى أعلى درجات العلوم ؟ بل العلوم التى تضمنها ليس فى قوى البشر
الاتيان بها ، ولا سيما من أمى لا يقرأ كتابا ولا يخط يمينه ، مع

كونه في أعلى أنواع الفصاحة ، سليماً من الاختلاف ، برياً من التناقض ، يستحيل من العقلاء كلهم لو اجتمعوا في صعيد واحد أن يأتوا بمثله ، ولو كانوا في عقل رجل واحد منهم فكيف يتأتى ذلك من مجنون لا عقل له يميز به ماعسى كثير من الحيوان أن يميزه ، وهل هذا إلا من أقبح البهتان وأظهر الافك

فتأمل شهادة هذا المقسم به للمقسم عليه ودلالته عليه أتم دلالة ، ولو أن رجلاً أنشأ رسالة واحدة بديعة منتظمة الأول والآخر ، متساوية الأجزاء يصدق بعضها بعضاً ، أو قال قصيدة كذلك ، أو صنف كتاباً كذلك ، لشهد له العقلاء بالعقل . ولما استجاز أحدٌ رمية بالجنون مع إمكان - بل وقوع - معارضتها ومشاكلتها والأتیان بمثلها أو أحسن منها ، فكيف يرمى بالجنون من أتى بما عجزت العقلاء كلهم قاطبة عن معارضته ومماثلته ، وعرفهم من الحق مالا تهتدى عقولهم إليه بحيث أذعنت له عقول العقلاء ، وخضعت له أبواب الأولياء ، وتلاشت في جنب ما جاء به بحيث لم يسعها الا التسليم له والانقياد والاذعان ، طائفة مختارة ، وهى ترى عقولها أشد فقراً وحاجة الى ما جاء به ، ولا كمال لها الا بما جاء به ؟ . فهو الذى كمل عقولها كما يكمل الطفل برضاع الثدي . ولهذا فان أتباعه أعقل الخلق على الإطلاق . وهذه مؤلفاتهم وكتبهم فى الفنون اذا وازنت بينها وبين مؤلفات مخالفيه ظهر لك التفاوت بينها . ويكفى فى عقولهم أنهم عمروا الدنيا بالعلم والعدل ، والقلوب

بالإيمان والتقوى . فكيف يكون متبوعهم مجنوناً وهذا حال كتابه
وهديه ، وسيرته ، وحال اتباعه ؟ وهذا إنما حصل له ولا تبا عه بنعمة
الله عليه وعليهم . فنفى عنه الجنون بنعمته عليه

وقد اختلف في تقدير الآية ، فقالت فرقة : الباء في
(بِنِعْمَةِ رَبِّكَ) باء القسم ، فهو قسم آخر اعترض بين المحكوم
به والمحكوم عليه ، كما يقول : ما أنت بالله بكاذب . وهذا
التقدير ضعيف جداً ، لأنه قد تقدم القسم الأول ، فكيف يقع القسم
الثاني في جوابه ؟ ولا يحسن أن تقول : والله ما أنت بالله بقائم ،
وليس هذا من فصيح الكلام ولا عهد في كلامهم . وقالت فرقة :
العامل في (بِنِعْمَةِ رَبِّكَ) أداة معنى النفي ، أو معنى أنفي عنك
الجنون بنعمة ربك . ورد أبو عمر بن الحاجب وغيره هذا القول
بأن الحروف لا تعمل معانيها ، وإنما تعمل الفاظها . وقال الزمخشري
يتعلق (بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ) منفياً كما يتعلق بعقل مثبتاً ، في قولك :
أنت بنعمة الله عاقل ، يستويان في ذلك الاثبات والنفي استواءهما
في قولك ضرب زيد عمراً ، وما ضرب زيد عمراً ، يعمل الفعل مثبتاً
ومنفياً إعمالاً واحداً ، ومحله النصب على الحال ، أي ما أنت بمجنون
منعاً عليك بذلك . ولم تمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله ، لأنها
زائدة لتأكيد النفي

واعترض عليه بأن العامل إذا تسلط على محكوم به وله معمول
فانه يجوز فيه وجهان : أحدهما نفي ذلك المعمول فقط ، نحو قولك :

مازید بذهاب مسرعا ، فانه ينتفى الاسراع دون القيام ، ولا يمتنع أن یثبت له ذهاب فی غیر اسراع . والثانی ینفی المحکوم به ، فیتنقی معموله باتقائه ، فیتنقی الذهاب فی هذه الحال ، فیتنقی الاسراع باتقائه . فاذا جعل (بِنِعْمَةِ رَبِّكَ) معمولاً للمجنون لزم أحد الأمرین ، وكلاهما منتف جزماً

وهذا الاعتراض هنا فاسد ؛ لأن المعنى اذا حصل ما أنت بمنجون منعاً عليك لزم من صدق هذا الخبر نفيها قطعاً ، ولا يصح نفي المعمول وثبوت العامل فی هذا الكلام ، ولا يفهم منه من له آلة الفهم ، وانما يفهم الآدمى من هذا الكلام ان الجنون انتفى عنك بنعمة الله عليك ، وانتفى عنا ما فهمه هذا المعارض بنعمة الله علينا ثم أخبر سبحانه عن كمال حاله نبيه صلى الله عليه وسلم فی دنياء وأخراه فقال (٦٨ : ٣) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (أى غیر مقطوع ، بل هو دائم مستمر . ونكر الأجر تنكير تعظيم ، كما قال (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً) و (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) و (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِّكَرُمٍ) و (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا) و (وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ) وهو كثير ، وانما كان التنكير للتعظيم لانه صور للسامع بمنزلة أمر عظيم لا يدركه الوصف ، ولا يناله التعبير ثم قال (٦٨ : ٤) وَإِنَّكَ لَمَلِكٌ خُلِقَ عَظِيمٌ (وهذه من أعظم آيات نبوته ورسالته ، لمن منحه الله فهما . ولقد سألت أم المؤمنين (١) عن

(١) هي عائشة رضى الله عنها سألتها سعد بن هشام بن عامر عن وتر

خلقه صلى الله عليه وسلم ، فأجابت بما شفى وكفى ، فقالت : كان خلقه القرآن . فهم سائلها أن يقوم لايسألها شيئا بعد ذلك . ومن هذا قال ابن عباس وغيره : أى على دين عظيم ، وسمى الدين خلقا ، لان الخلق هيئة مركبة من علوم صادقة ، وارادات زاكية ، وأعمال ظاهرة وباطنة ، موافقة للعدل والحكمة ، والمصلحة ، وأقوال مطابقة للحق ، تصدر تلك الأقوال والأعمال عن تلك العلوم والارادات ، فتكتسب النفس بها أخلاقا ، هى أزكى الأخلاق ، وأشرفها ، وأفضلها . فهذه كانت أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم المقتبسة من مشكاة القرآن . فكان كلامه مطابقا للقرآن تفصيلا له ، وتبيننا ، وعلومه علوم القرآن ، وإرادته وأعماله ما أوجه وندب اليه القرآن ، واعراضه وتركه لما منع منه القرآن ، ورغبته فيما رغب فيه ، وزهده فيما زهد فيه ، وكراهته لما كرهه ، ومحبه لما أحبه ، وسعيه فى تنفيذ أوامره ، وتبليغه ، والجهاد فى إقامته ، فترجمت أم المؤمنين لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول صلى الله عليه وسلم ، وحسن تعبيرها عن هذا كله بقولها : كان خلقه القرآن . وفهم هذا السائل لها عن هذا المعنى ، فاكتفى به واشتفى فاذا كانت أخلاق العباد ، وعلومهم ، واراداتهم ، وأعمالهم مستفادة من القلم وما يسطرون . وكان فى خالق القلم والكتابة

النبي صلى الله عليه وسلم وعن خلقه . وحديثها أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى وهو فى المنتقى رقم (١٢٠٢)

إنعام عليهم وإحسان اليهم ، إذ وصلوا به إلى ذلك ، فكيف ينكرون
 إنعامه وإحسانه على عبده ورسوله الذي أعطاه أعلى الاخلاق ،
 وأفضل العلوم ، والاعمال ، والارادات ، التي لا تهتدى العقول
 إلى تفاصيلها من غير قلم ولا كتابة ؟ فهل هذا إلا من أعظم آيات
 نبوته وشواهد صدق رسالاته ؟ وسيعلم أعداؤه المكذبون له
 أيهم المقتون ، هو أم هم ؟ وقد عنواهم والعقلاء ذلك في الدنيا ،
 ويزداد علمهم في البرزخ ، وينكشف ، ويظهر كل الظهور في
 الآخرة ، بحيث تتساوى أقدام الخلائق في العلم به

وقد اختلف في تقدير قوله (بِأَيِّكُمْ الْمُقْتُونَ) فقال أبو عثمان
 المازني : هو كلام مستأنف ، والمقتون عنده مصدر ، أى : بأيكم
 الفتنة . والاستفهام عن أمر دائر بين اثنين قد علم انتفاؤه عن
 أحدهما قطعاً ، فتعين محصوله للآخر . والجمهور على خلاف هذا
 التقدير . وهو عندهم متصل بما قبله ، ثم لهم فيه أربعة أوجه :

﴿أحدها﴾ أن الباء زائدة ، والمعنى : أيكم المقتون . وزيدت
 في المبتدأ كما زيدت في قولك : بحسبك أن تفعل . قاله أبو عبيد

﴿الثاني﴾ أن المقتون بمعنى الفتنة ، أى : ستبصرو ويصرون بأيكم
 الفتنة . والباء على هذا ليست بزائدة . قاله الاخفش

﴿الثالث﴾ أن المقتون مفعول على بابه ، ولكن هنا مضاف محذوف
 تقديره بأيكم فتون المقتون ، وليست الباء زائدة . قاله الاخفش أيضاً

﴿الرابع﴾ أن الباء بمعنى في ، والتقدير في أى فريق منكم النوع المفتون ، والباء على هذا ظرفية . وهذه الاقوال كلها تكلف ظاهر لا حاجة الى شئ منه . و (سَتُبْصِرُ) مضمن معنى تشعر وتعلم ، فعدى بالباء كما تقول : ستشعر بكذا وتعلم به . قال تعالى (٩٦ : ١٤)
 أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى) وإذا دعاك اللفظ الى المعنى من مكان قريب فلا تجب من دعاك اليه من مكان بعيد

(٥٦) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (٥٦ : ٧٥) فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ .
 ٧٦ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٧ إِنَّهُ لَقَرَّ أَنْ كَرِيمٌ ٧٨ فِي
 كِتَابٍ مَكْنُونٍ ٧٩ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ٨٠ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ (ذكر سبحانه هذا القسم عقيب ذكر القيامة الكبرى ،
 وأقسام الخلق فيها ، ثم ذكر الأدلة القاطعة على قدرته وعلى المعاد
 بالنشأة الأولى . واخراج النبات من الأرض ، وانزال الماء من
 السماء ، وخلق النار . ثم ذكر بعد ذلك أحوال الناس في القيامة
 الصغرى عند مفارقة الروح للبدن . وأقسم بمواقع النجوم على ثبوت
 القرآن ، وأنه تنزيله

وقد اختلف في النجوم التي أقسم بمواقعها ، ف قيل : هي آيات
 القرآن ، ومواقعها نزولها شيئاً بعد شئ . وهذا قول ابن عباس رضى

الله عنهما ، في رواية عطاء ، وقول سعيد بن جبير ، والكلبى ، ومقاتل ، وقتادة . وقيل : النجوم هي الكواكب . ومواقعها مساقطها عند غروبها . هذا قول أبي عبيدة وغيره . وقيل : مواقعها انتشارها وانكدارها يوم القيامة . وهذا قول الحسن . ومن حجة هذا القول أن لفظ مواقع تقتضيه ، فانه مفاعل من الوقوع ، وهو السقوط . فلكل نجم موقع وجمعها مواقع . ومن حجة قول من قال هي مساقطها عند الغروب ، ان الرب تعالى يقسم بالنجوم وطلوعها وجريانها وغروبها ، اذ فيها وفي أحوالها الثلاث آية وعبرة ودلالة كما تقدم في قوله تعالى (١٥ : ٨١) فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُفِ ١٦ الْجَوَارِ الْكُنُفِ وقال (١٠ : ٥٣) وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى) وقال (فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ) ويرجح هذا القول أيضاً أن النجوم حيث وقعت في القرآن فالمراد منها الكواكب كقوله تعالى (٥٢ : ٤٩) وَإِذَا بَرَأَ النُّجُومَ) وقوله (٧ : ٥٤) وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ)

وعلى هذا فتكون المناسبة بين ذكر النجوم في القسم ، وبين المقسم عليه وهو القرآن من وجوه : ﴿ احدها ﴾ ، أن النجوم جعلها الله يهتدى بها في ظلمات البر والبحر وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الجهل والغى . فتلك هداية في الظلمات الحسية ، وآيات القرآن في الظلمات المعنوية ، فجمع بين الهديتين ، مع ما في النجوم من الرجوع للشياطين ، وفي آيات القرآن من رجوع شياطين الانس .

والجن ، والنجوم آياته المشهودة المعاينة . والقرآن آياته المتلوة السمعية ، مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول

ومن قرأ (بِمَوْجِئِ النَّجُومِ) على الأفراد ، فللدلالة الواحد المضاف الى الجمع على التعدد ، والموقع اسم جنس ، والمصادر اذا اختلفت جمعت ، واذا كان النوع واحدا أفردت ، قال تعالى (٣١ : ١٩)
 إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (بجمع الأصوات لتعدد النوع ، وأفرد صوت الحمير لوحدة المضاف اليه . وتعدد المواقع لتعددده ، اذ لكل نجم موقع

(٥٧) فصل

والمقسم عليه ههنا قوله (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) ووقع الاعتراض بين القسم وجوابه بقوله : (وَإِنَّهُ لَفَسْمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) ووقع الاعتراض بين الصفة والموصوف في جملة هذا الاعتراض بقوله تعالى (لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) فجاء هذا الاعتراض في ضمن هذا الاعتراض ، ألطف شيء وأحسنه موقعا . وأحسن ما يقع هذا الاعتراض إذا تضمن تأكيداً أو تنبيهاً أو احترازاً . كقوله تعالى (٧ : ٤٢) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) فاعتراض بين المبتدأ والخبر بقوله :

(لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) لما تضمنه ذلك من الاحتراز الدافع لتوهم متوهم : أن الوعد إنما يستحقه من أتى بجميع الصالحات ، فرفع ذلك بقوله (لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) وهذا أحسن من قول من قال : أنه خبر عن الذين آمنوا ، ثم أخبر عنهم بخبر آخر . فهما خبران عن مخبر واحد . فإن عدم التكليف فوق الوسع لا يخص الذين آمنوا ، بل هو حكم شامل لجميع الخلق ، مع ما في هذا التقدير من إخلاء الخبر عن الرابطة وتقدير صفة محذوفة أي نفساً منهم . وتعطيل هذه الفائدة الجليلة

ومن ألطف الاعتراض وأحسنه قوله تعالى (١٦) : ٥٧ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ) فاعتراض بقوله (سبحانه) بين الجمعين ، وفوائد الاعتراض تختلف بحسب قصد المتكلم وسياق الكلام ، من قصد الاعتناء والتقدير والتوكيد ، وتعظيم المقسم به والمخبر عنه ، ورفع توهم خلاف المراد ، والجواب عن سؤال مقدر وغير ذلك

فمن الاعتراض الذي يقصد به التقرير والتوكيد قول الشاعر :
لوان الباخلين — وأنت منهم — رأوك تعلقوا منك المطالا
ومما يقصد به الجواب عن سؤال مقدر قول الآخر :
فلا هجره يبدو - وفي اليأس راحة - * ولا وصله يصفو لنا فنكارمه
فقوله : وفي اليأس راحة جواب لتقدير ستؤال سائل وما يغني

عنك هجره ؟ فقال : وفي اليأس راحة ، أى المطلوب أحد أمرين : إما
يأس مريح . أو وصال صاف

ومن اعتراض الاحتراز قول الجعدى :

ألا زعمت بنو جُعد بأنى * - وقد كذبوا - كبير السن فانى
ومنه قول نصيب :

فكدت - ولم أخلق من الطير - إن بدا * سنا بارق نحو الحجاز أظير
فقوله : ولما أخلق من الطير لرفع استفهام يتوجه عليه على سبيل
الإنكار لو قال فكدت أظير فيقال له : وهل خلقت من الطير ؟
فاحتراز بهذا الاعتراض . وعندى أن هذا الاعتراض يفيد غير
هذا ، وهو قوة شوقه ونزوعه الى أرض الحجاز ، فأخبر أنه كاد يظير
على أنه أبعد شيء من الطيران ، فانه لم يخاق من الطير ، ولا عجب
طيران من خلق من الطير ، وإنما العجب طيران من لم يخلق من
الطير ، لشدة نزوعه وشوقه الى جهة محبوبة فتأمله

ومن مواقع الاعتراض بالدعاء كقول الشاعر :
قد كنت أبكى وأنت راضية * حذار هذا الصدود والغضب
ان تم هذا الهجر يا ظلوم - ولا * تم - فمالي في العيش من أرب
وقول الآخر :

ان سليمى والله يكلوها * ضنت بشيء ما كان يرزوها

وقول الآخر

إِنَّ الثَّمَانِينَ - وبلغتها - قد أحوجت سمعي إلى ترجان
ومنه الاعتراض بالقسم ، كقوله :

ذاك الذي - وأبيك - يعرف مالكا والحق يدفع ترهات الباطل
ومن اعتراض الاستطعاف قوله :

فمن لي بالعين التي كنت مرة إلى بها - نفسي فداؤك - تنظر
فاعترض بقوله : نفسي فداؤك ، استطافا

فتأمل حسن الاعتراض وجزالته في قول الرب تعالى (١٦ : ١٠١)
وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ - قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ
مُفْتَرٍ (فقوله (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ) اعتراض بين الشرط وجوابه
أفاد أموراً : منها الجواب عن سؤال سائل : ما حكمة هذا التبديل
وموافاقته . ومنها أن الذي بدل وأتى بغيره منزل محكم نزوله قبل
الاجابة بقولهم . ومنها أن مصدر الأمرين عن علمه تبارك وتعالى
وأن كلا منهما منزل فيجب التسليم والايان بالأول والثاني

ومن الاعتراض الذي هو في أعلى درجات الحسن قوله تعالى
(٣١ : ١٤) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ - حَمَاتِهِ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ
وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ - أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ) فاعتراض بذكر شأن
حملة ووضع بين الوصية والموصى به ، توكيداً لأمر الوصية بالوالدة
التي هنا شأنها ، وتذكيراً لولدها بحقها ، ومقاسته من حملة ووضع

عالم يتكلفه الأب . ومنه قوله تعالى (٢ : ٧٢) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا
فَإِذَا رَأَيْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ٧٣ فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِمَعْصِيهَا
فَاعْتَرَضَ بِقَوْلِهِ : (وَاللَّهُ مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) بين الجمل المعطوف
بعضها على بعض ، إعلاماً بأن تدارؤهم وتدافعهم في شأن القتل
ليس نافعا لهم في كتمانهم . فالله يظهره ولا بد . ولا تستطع هذا الفصل
وأمثاله ، فإنه يعطيك ميزانا ، وينهج لك طريقاً يعينك على فهم الكتاب ،
والله المستعان

(٥٨) فصل

ثم قال : (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) فوصفه بما يقتضى حسنه ، وكثرة
خيره ، ومنافعه ، وجلالته ، فإن الكريم هو البهي الكثير الخير العظيم
النفع ، وهو من كل شيء أحسنه وأفضله ، والله سبحانه وصف نفسه
بالكريم . ووصف به كلامه . ووصف به عرشه . ووصف به ما كثر
خيره ، وحسن منظره : من النبات ، وغيره ، ولذلك فسر السلف الكريم
بالحسن قال الكلبي : انه لقُرْآن كريم . أى حسن كريم على الله وقال
مقاتل : كرمه الله وأعزه ، لانه كلامه . وقال الأزهري : الكريم
اسم جامع لما يحمده . والله كريم جميل الفعال . وانه لقُرْآن كريم يحمده ،
لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة . وبالجملة فالكريم الذى من
شأنه أن يعطى الخير الكثير بسهولة ويسر . وضده اللئيم الذى لا يخرج
خيريه النزر الا بعسر وصعوبة . وكذلك الكريم فى الناس واللئيم

(٥٩) فصل

ثم قال تعالى : (فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ) اختلف المفسرون في هذا : فقيل : هو اللوح المحفوظ . والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة ، وهو المذكور في قوله : (٨٠ : ١٣) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ١٤ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ١٥ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ١٦ كِرَامٍ بَرَرَةٍ) ويدل على أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة قوله : (لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسه . وهذا هو الصحيح في معنى الآية ، ومن المفسرين من قال : ان المراد به أن المصحف لا يمسه الا طاهر والاول أرجح لوجوه :

﴿ أحدها ﴾ أن الآية سقت تنزيها للقرآن أن تنزل به الشياطين ، وأن محله لا يصل اليه فيمسه الا المطهرون ، فيستحيل على أخايب خلق الله وأنجسهم أن يصلوا اليه أو يمسه ، كما قال تعالى (٢٦ : ٢١٠) وَمَا تَفَزَّعْتُ بِهِ الشَّيَاطِينُ ٢١١ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيلُونَ) فنفى الفعل وتأتيه منهم وقدرتهم عليه ، فما فعلوا ذلك ولا يليق بهم ، ولا يقدرون عليه . فان الفعل قد ينتفى عن يحسن منه ، وقد يليق بمن لا يقدر عليه . فنفى عنهم الأمور الثلاثة ، وكذلك قوله في سورة عبس (١٣) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ١٤ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ١٥ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ١٦ كِرَامٍ بَرَرَةٍ) فوصف محله بهذه الصفات يانا أن الشيطان لا يمكنه أن يتنزل به . وتقرير هذا المعنى

اهم وأجل وأنفع من بيان كون المصحف لا يمسه إلا طاهر
﴿الوجه الثاني﴾ ان السورة مكية ، والاعتناء في السور المكية
إنما هو بأصول الدين ، من تقرير التوحيد والمعاد والنبوة . وأما
تقرير الأحكام والشرائع فمظنة السور المدنية

﴿الثالث﴾ ان القرآن لم يكن في مصحف عند نزول هذه الآية ، ولا في حياة
رسول الله ﷺ . وإنما جمع في المصحف في خلافة أبي بكر . وهذا وإن جاز
أن يكون باعتبار ما يأتي فالظاهر أنه إخبار بالواقع حال الإخبار يوضحه
﴿الوجه الرابع﴾ وهو قوله : (فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ) والمكنون المصون
المستور عن الأعين الذي لا تناله أيدي البشر ، كما قال تعالى : (٣٧ : ٤٩) كَأَنَّهُنَّ
يُبَيِّنُ مَكْنُونٌ) وهكذا قال السلف . قال السكبي : مكنون من الشياطين .
وقال مقاتل : مستور وقال مجاهد : لا يصيبه تراب ولا غبار . وقال
أبو اسحق : مصون في السماء يوضحه .

﴿الوجه الخامس﴾ أن وصفه بكونه مكنوناً نظير وصفه بكونه محفوظاً
فقوله (قُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ) كقوله (٨٥ : ٢٠) بَلْ هُوَ
قُرْآنٌ بَجِيدٌ فِي آوَحٍ مَّحْفُوظٍ) يوضحه

﴿الوجه السادس﴾ ان هذا أبلغ في الرد على المكذبين ، وأبلغ
في تعظيم القرآن ، من كون المصحف لا يمسه محدث

﴿الوجه السابع﴾ قوله : (لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) بالرفع فهذا خبر لفظاً
ومعنى . ولو كان نهياً لكان مفتوحاً . ومن حمل الآية على النهي
احتاج الى صرف الخبر عن ظاهره ، الى معنى النهي . والأصل في

الخبر والنهي حمل كل منهما على حقيقته . وليس ههنا موجب
يوجب صرف الكلام عن الخبر الى النهي
﴿الوجه الثامن﴾ أنه قال : (إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) ولم يقل إِلَّا الْمُتَطَهَّرُونَ .
ولو أراد به منع المحدث من مسه لقال إِلَّا الْمُتَطَهَّرُونَ . كما قال تعالى
(٢ : ٢٢٢) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) وفي الحديث
« اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين (١) » فالتطهر
فاعمل التطهير ، والمطهر الذي طهره غيره . فالتوضيء مطهر ،
والملائكة مطهرون

﴿الوجه التاسع﴾ انه لو أريد به المصحف الذي بأيدينا لم يكن
في الاخبار عن كونه مكنوناً كبير فائدة ، إذ مجرد كون الكلام
مكنوناً في كتاب ، لا يستلزم ثبوته ، فكيف يمدح القرآن بكونه
مكنوناً في كتاب ، وهذا أمر مشترك ، والآية إنما سبقت لبيان
مدحه وتشريفه ، وما اختص به من الخصائص ، التي تدل على انه
منزل من عند الله ، وأنه محفوظ مصون ، لا يصل اليه شيطان

(١) رواه الترمذى عن أبي ادريس الخولاني عن عمر عن النبي صلى
الله عليه وسلم قال « من توضأ فأحسن الوضوء ، ثم قال : أشهد أن
لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . اللهم
اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين . فتحت له ثمانية أبواب
الجنة يدخل من أيهما شاء » قال الترمذى : وهذا حديث في اسناده
اضطراب . ولا يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب كثير
شيء . قال البخارى : أبو ادريس لم يسمع من عمر شيئاً اهـ

بوجه ما ، ولا يمس محله الا المطهرون ، وهم السفرة الكرام البررة
 ﴿الوجه العاشر﴾ ما رواه سعيد بن منصور في سننه حدثنا
 أبو الأحوص حدثنا عاصم الأحول عن أنس بن مالك في قوله :
 (لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) قال : المطهرون الملائكة . وهذا عند طائفة
 من أهل الحديث في حكم المرفوع . قال الحاكم : تفسير الصحابة
 عندنا في حكم المرفوع ، ومن لم يجعله مرفوعا فلا ريب انه عنده
 أصح من تفسير من بعد الصحابة . والصحابة أعلم الأمة بتفسير القرآن .
 ويجب الرجوع الى تفسيرهم . وقال حرب في مسائله : سمعت
 اسحق في قوله : (لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) قال : النسخة التي في السماء
 لا يمسها إلا المطهرون . قال : الملائكة

وسمعت شيخ الاسلام يقرر الاستدلال بالآية على أن المصحف
 لا يمس المحدث بوجه آخر فقال : هذا من باب التنبيه والاشارة ،
 اذا كانت الصحف التي في السماء لا يمسها الا المطهرون ، فكذلك
 الصحف التي بأيدينا من القرآن لا ينبغي أن يمسها الا طاهر . والحديث
 مشتق من هذه الآية . وقوله « لَا تَمَسَّ الْقُرْآنَ إِلَّا وَأَنْتَ طَاهِرٌ » رواه
 أهل السنن من حديث الزهري عن بكر بن محمد بن عمرو بن حزم
 عن أبيه عن جده : أن في الكتاب الذي كتبه النبي صلى الله عليه
 وسلم الى أهل اليمن في السنن ، والفرائض ، والديات (أن لَا يَمَسَّ
 القرآن الا طاهر) قال أحمد : أرجو أن يكون صحيحا . وقال أيضا :

لا أشك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتبه . وقال أبو عمر بن عبد البر : هو كتاب مشهور عند أهل السير ، معروف عند أهل العلم . معرفة يستغنى بشهرتها عن الاسناد . لأنه أشبه التواتر في مجيئه ، لتلقى الناس له بالقبول والمعرفة . ثم قال : وهو كتاب معروف عند العلماء ومافيه فمتفق عليه الا قليلا . وقد رواه ابن حبان في صحيحه ، ومالك في موطئه . وفي المسئلة آثار أخرى مذكورة في غير هذا الموضع

(٦٠) فصل

ودلت الآية بإشارتها وإيمائها على أنه لا يدرك معانيه ولا يفهمه الا القلوب الطاهرة ، وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه وأن يفهمه كما ينبغي . قال البخارى في صحيحه في هذه الآية : لا يجد طعمه الا من آمن به . وهذا أيضاً من إشارة الآية وتنبيهها ، وهو أنه لا يلتذ به وبقرائه ، وفهمه وتدبره إلا من شهد أنه كلام الله ، تسكلم بها حقاً ، وأنزله على رسوله وحيّاً ولا ينال معانيه الا من لم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه . فمن لم يؤمن بأنه حق من عند الله ففي قلبه منه حرج ، ومن لم يؤمن بأن الله سبحانه تسكلم به وحيّاً وليس مخلوقاً من جملة مخلوقاته ، ففي قلبه منه حرج . ومن قال : ان له باطناً يخالف ظاهره ، وان له تأويلاً يخالف ما يفهم منه ، ففي قلبه منه حرج . ومن قال : ان له تأويلاً لا نفهمه ولا نعلمه ، وانما نتلوه متعبدين بألفاظه ، ففي قلبه منه حرج

ومن سلط عليه آل الآرائين ، وهذيان المتكلمين ، وسفسطة
المسفسطين ، وخيالات المتصوفين ، ففى قلبه منه حرج . ومن جعله
تابعاً لنحلته ومذهبه وقول من قلده دينه ، ينزله على أقواله ، ويتكلف
حملة عليها ، ففى قلبه منه حرج ، ومن لم يحكمه ظاهر او باطناً فى أصول
الدين وفروعه ، ويسلم وينقاد لحكمه أين كان ، ففى قلبه منه حرج ،
ومن لم ياتمر بأوامره ، وينزجر عن زواجره ، ويصدق جميع أخباره ،
ويحكم أمره ونهيه وخبره ، ويرد له كل أمر ونهى وخبر خالفه ، ففى
قلبه منه حرج . وكل هؤلاء لم تمس قلوبهم معانيه ، ولا يفهمونه كما
ينبغى أن يفهم ، ولا يجدون من لذة حلالاته وطعمه ما وجدته الصحابة
ومن تبعهم

وأنت إذا تأملت قوله ﴿ لا يمسه الا المطهرون ﴾ وأعطيت الآية
حقها من دلالة اللفظ وإيمائه وإشارته وتنبيهه ، وقياس الشئ على
نظيره ، واعتباره بمشاكله ، وتأملت المشابهة التى عقدها الله سبحانه
وربطها بين الظاهر والباطن - فهمت هذه المعانى كلها من الآية ، وبالله التوفيق

(٦١) فصل

ثم أكد ذلك وقرره وأطد به قوله : (تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)
وكما أنه لازم لكونه قرآناً كريماً فى كتاب مكنون فهو ملزوم له .
فهو دليل عليه ومدلول له

وأفاد كونه تنزيلاً من رب العالمين مطلوبين عظيمين من أجل

مطالب الدين

﴿أحدهما﴾ أنه المتكلم ، وأنه منه نزل ، ومنه بدأ وهو الذي تكلم به . ومن هنا قال السلف : منه بدأ . ونظيره (٣٢ : ١٣) وَأَيُّنَ حَقِّ الْقَوْلُ مِنِّي (وقوله : (١٦ : ١٠٢) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ) والثاني ﴿علو الله سبحانه فوق خلقه ، فان النزول والتنزيل الذي تعقله العقول ، وتعرفه الفطر - هو وصول الشيء من أعلا إلى أسفل . والرب تعالى إنما يخاطب عباده بما تعرفه فطرهم ، وتشهد به عقولهم . وذكر التنزيل مضافا الى ربوبيته للعالمين المستلزمة تملكه لهم ، وتصرفه فيهم ، وحكمه عليهم ، وإحسانه وإنعامه عليهم ، وأن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سُدًى ، ويدعهم هملا ، ويخلقهم عبثا ، لا يأمرهم ولا ينهاهم ، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم . فمن أقر بأنه رب العالمين أقر بأن القرآن تنزله على رسوله ، واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله ، وصحة ما جاء به . وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق ، وإن كانت دلالتها أقرب الى أذهان عموم الناس ، وتلك إنما تكون لخواص العقلاء . وقد أشار سبحانه الى الطريقين في غير موضع من كتابه . كقوله (٤١ : ٥٣) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (فهذا استدلال بالآيات المعينة المخلوقة . ثم قال : (أَوَلَمْ

يَكْفِي بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) فهذا استدلال بكمال ربوبيته
وكمال أوصافه على صدق رسوله فيما جاء به . وهذه الطريق أخص
وأقوى وأكمل وأعلى . والأول أعم وأشمل . وقد تقدم بيانها
عند قوله تعالى : (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ) وأيضاً
الاستدلال بأوصاف الرب تعالى وكماله المقدس على ثبوت النبي
وبعثه ، من الاستدلال عليه ببعض مخلوقاته ؟

وتأمل فرق ما بين استدلال سيدة نساء العالمين خديجة رضي الله
عنها بصفات الرب تعالى وصفات محمد صلى الله عليه وسلم واستنتاجها
من بين هذين الأمرين صحة نبوته ، وأنه رسول الله حقاً . وأن
من كانت هذه صفات ربه وخالقه تأتى أن يخزيه ، وأنه يؤيده ،
ويعليه ، ويتم نعمته عليه (١)

وأنت إذا تأملت هذه الطريقة وهذا الاستدلال وجدت بينها
وبين طريقة المتكلمين من الفرق ما لا يخفى وإذا حصل للعبد الفقه
في الاسماء والصفات انتفع به في باب معرفة الحق والباطل من

(١) روى البخارى في بدء الوحي من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها :
فرجع بها صلى الله عليه وسلم يرجف . فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها
فقال « زملوني زملوني » فزملوه حتى ذهب عنه الروع . فقال لخديجة -
وأخبرها الخبر - « لقد خشيت على نفسي » فقالت : كلا والله ما يخزيك
الله أبداً ؛ إنك لتصل الرحم وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ،
وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

الأقوال ، والطرائق والمذاهب والعقائد - أعظم انتفاع ، وأتمه ،
وقد بينا في كتابنا المعالم (١) بطلان التحيل وغيره من الحيل الربوبية
من أسماء الرب وصفاته ، وأنه يستحيل على الحكيم أن يحرم الشيء
ويتوعد على فعله بأعظم أنواع العقوبات ، ثم يبيح التوصل إليه
بنفسه بأنواع التحيلات . فأين ذلك الوعد الشديد وجواز التوصل
إليه بالطريق البعيد ، اذ ليست حكمة الرب تعالى وكمال علمه وأسمائه
وصفاته ، تنتقض بحالة ذلك وامتناعه عليه . فهذا استدلال بالفقه
الأكبر في الأسماء والصفات على الفقه العملي في باب الأمر والنهي .
وهذا باب حرام على الجهمي المعطل أن يلجأ إلى الجنة ، حرام عليه
ريحها وإن ريحها ليوحد من مسيرة خمسين ألف سنة . والله العزيز
الوهاب لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، وبه التوفيق

(٦٢) فصل

ثم وبخهم سبحانه على وضعهم الادهان في غير موضعه ، وأنهم
يداهنون بما حقه أن يصدع به ويفرق به ويعض عليه بالنواجذ ،
وتثني عليه الخناصر ، وتعقد عليه القلوب والأفئدة ، ويحارب ويسالم
لأجله ، ولا يلتوى عنه لايمنة ولا يسرة ، ولا يكون للقلب التفات
إلى غيره ، ولا محاكمة إلا إليه ، ولا مخاصمة إلا به ، ولا اهتداء

(١) كذا . ولعله كتاب اعلام الموقعين الذي لم يؤلف في أصول
الدين مثله ولم ينسج أحد على منواله

في طرق المطالب العالية الانوره ، ولاشفاء الابه فهو روح الوجود
وحياة العالم ، ومدار السعادة وقائد الفلاح وطريق النجاة ، وسبيل
الرشاد ، ونور البصائر ، فكيف تطلب المداهنة بما هذا شأنه ، ولم ينزل
للمداهنة ؟ وانما أنزل بالحق وللحق . والمداهنة انما تكون في باطل
قوى لا يمكن إزالته ، أو في حق ضعيف لا يمكن إقامته ، فيحتاج
المداهن إلى أنه يترك بعض الحق ويلتزم بعض الباطل . فاما الحق
الذي قام به كل حق فكيف يداهن به ؟

ثم قال سبحانه (وَجَعَلُوا رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكذِّبُونَ) لما كان قوام كل
واحد من البدن والقلب انما هو بالرزق ، فرزق البدن الطعام والشراب ،
ورزق القلب الايمان والمعرفة بربه وفطره ، ومحبه ، والشوق اليه ،
والأنس بقربه ، والابتهاج بذكره ، وكان لا حياة له الا بذلك ، كما أن البدن
لا حياة له الا بالطعام والشراب - أنعم سبحانه على عباده بهذين النوعين
من الرزق . وجعل قيام أبدانهم وقلوبهم بهما . ثم فاوت سبحانه
بينهم في قسمة هذين الرزقين ، بحسب ما اقتضاه عليه وحكمته : فمنهم
من وفر حظه من الرزقين ووسع عليه فيهما . ومنهم من قتر عليه
في الرزقين . ومنهم من وسع عليه رزق البدن وقتر عليه رزق
القلب ، وبالعكس . وهذا الرزق انما يتم ويكمل بالشكر . والشكر
مادة زيادته وسبب حفظه وبقائه . وترك الشكر سبب زواله وانقطاعه
عن العبد . فان الله تعالى تأذن أنه لا بد أن يزيد الشكور من نعمه
ولا بد أن يسلبها من لم يشكرها ، فلما وضعوا الكفر والتكذيب موضع

الشكر والايان جعلوا رزقهم نفسه تكديبا ، فان التصديق والشكر لما كانا سبب زيادة الرزق وهما رزق القلب حقيقة ، فهؤلاء جعلوا مكان هذا الرزق التكذيب والكفر فجعلوا رزقهم التكذيب وهذا المعنى هو الذى حام حوله من قال : التقدير وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون . وقال آخرون : التقدير ، وتجعلون بدل شكر رزقكم أنكم تكذبون . فحذف مضافين معا . وهؤلاء أطالوا اللفظ وقصروا بالمعنى . ومن بعض معنى الآية قوله : مطرنا بنوء كذا وكذا (١) فهذا لا يصح أن تدل عليه الآية ويراد بها ، والافعناها أوسع منه وأعم وأعلى . والله أعلم

(٦٣) فصل

ثم ختم السورة بأحوالهم عند القيامة الصغرى ، كما ذكر فى أولها أحوالهم فى القيامة الكبرى ، وقسمهم الى ثلاثة أقسام كما قسمهم هناك الى ثلاثة . وذكر بين يدي هذا التقسيم الاستدلال على صحته وثبوته ، بأنهم مربوبون مدبرون مملوكون ، فوقهم رب قاهر مالك يتصرف فيهم بحسب مشيئته وارادته ، وقرهم على ذلك بما لا سبيل لهم الى دفعه ولا انكاره فقال (فَلَوْ لَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ) أى

(١) النوء : النجم مال للغروب ، أو سقوط النجم فى الغرب مع الفجر وطلوع آخر يقابله . وكانت العرب تقول : ان انتقال الكواكب هو المؤثر فى الامطار

وصلت الروح الى هذا الموضع ، بحيث فارقت ولم تفارق ، فهي
برزخ بين الموت والحياة ، كما أنها اذا فارقت صارت في برزخ بين
الدنيا والآخرة ، ملائكة الرب تعالى أقرب الى المحتضر من حاضريه
من الانس ، ولكنهم لا يبصرون بهم ، فلو لا تردونها الى مكانها
من البدن أيها الحاضرون ، ان كان الامر كما تزعمون أنكم غير
مجزبين ولا مديئين ، ولا مستوعبين ليوم الحساب

فان قيل: أى ارتباط بين هذين الامرين حتى يلزم بينهما ؟
قيل : هذا من أحسن الاستدلال وأبلغه ، فانهم اما أن يقرؤا
بأنهم مربوبون مملوكون ، عبيد لمالك قادر متصرف فيهم ، قاهر
أمر ، ناه ، أو لا يقرؤن بذلك : فان أقرؤا به لزمهم القيام بحقه
عليهم وشكره وتعظيمه واجلاله ، وأن لا يجعلوا له ندا ، ولا شريكا
وهذا هو الذى جاءهم به رسوله ، ونزل عليه به كتابه . وان انكروا
ذلك وقالوا انهم ليسوا بعبيد ولا مملوكين ، ولا مربوبين وان الامر
اليهم يردون الأرواح إلى مقارها إذا بلغت الحلقوم . فان المتصرف
فى نفسه الحاكم على روحه لا يمتنع منه ذلك ، بخلاف المحكوم عليه
المتصرف فيه غير المدير له ، سواء الذى هو عبد مملوك من جميع
الجهات وهذا الاستدلال لا يحيد عنه ولا مدفع له . ومن اعطاه حقه
من التقرير والبيان انتفع به غاية النفع ، وانقاد لأجله للعبودية
وأذعن ، ولم يسعه غير التسليم للربوبية والالهية والاقرار بالعبودية
ولله ما أحسن جزالة هذه الالفاظ وفصاحتها وبلوغها أقصى مراتب

البلاغة والفصاحة ، والاختصار التام ، وندائها الى معناها من أقرب مكان ، واشتمالها على التوبيخ والتقرير والالزام ، ودلائل الربوبية والتوحيد ، والبعث ، وفصل النزاع في معرفة الروح وأنها تصعد ، وتنزل ، وتنتقل من مكان الى مكان ، وما أحسن إعادة «لولا» ثانياً قبل ذكر الفعل الذي يقتضيه الاول . وجعل الحرفين يقتضيان اقتضاء واحداً . وذكر الشرطين بين لولا الأولى والثانية وما تقتضيه من الفعل ثم الموالاة بين الشرط الأول والثاني ، مع الفصل بينهما بكلمة واحدة هي الرابط بين لولا الأولى والثانية ، والشرط الأول والثاني ، وهذا تركيب يستحد العقل والسمع لمعناه ولفظه

فضمنت الآتيان تقريراً وتوبيخاً ، واستدللاً على أصول الإيمان : من وجود الخالق سبحانه ، وكمال قدرته ، ونفوذ مشيئته ، وربوبيته ، وتصرفه في أرواح عباده ، حيث لا يقدر على التصرف فيها بشيء ، وأن أرواحهم بيده ، يذهبها اذا شاء ، ويردها اليهم اذا شاء ، ويخلق أبدانهم منها تارة ، ويجمع بينها وبينها تارة ، وإثبات المعاد ، وضد رسوله فيما أخبر به عنه ، وإثبات ملائكته ، وتقرير عبودية الخلق ، وأتى بهذا في صورة تحضيضين ، وتوبيخين ، وتقريرين ، وجوابين ، وشرطين ، وجزاءين - منتظمة أحسن الانتظام ، ومتداخلة أحسن التداخل متعلقاً بعضها ببعض . وهذا كلام لا يقدر

البشر على مثل نظمه ومعناه قال الفراء : وأجيت (فَلَوْلَا إِذَا بَلَغْتَ)
 و (فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ) بجواب واحد وهو (تَرْجِعُونَهَا إِنْ
 كُنْتُمْ صَادِقِينَ) قال : ومثله قوله تعالى : (٣٨:٢) فَأَمَّا يَا تِجَسُّؤُمُ فِئِي
 هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) أجبنا
 بجواب واحد وهما شرطان . قال الجرجاني : قوله (تَرْجِعُونَهَا)
 جواب قوله (فَلَوْلَا) المتقدمة والمتأخرة ، على تأويل : فلولا إذا
 بلغت النفس الحلقوم تردونها الى موضعها ، ان كنتم غير محاسبين
 ولا مجزيين ، كما تزعمون ؟ يقول تعالى : ان كان الامر كما تزعمون
 أنه لا بعث ، ولا حساب ، ولا جزاء ، ولا إله ، ولا رب يقوم
 بذلك ، فهلا تردون نفس من يعز عليكم اذا بلغت الحلقوم ؟ فاذا
 لم يمكنكم في ذلك حيلة بوجه من الوجوه ، فهل دلکم ذلك على أن
 الامر الى مليك قادر قاهر ، متصرف فيکم ، وهو الله الذي لا إله
 إلا هو ؟ وقال أبو اسحق : معناه فهلا ترجعون الروح ، ان كنتم
 غير مملوكين مدبرين ؟ فهلا ان كان الامر كما تزعمون في كما يقول
 قائلکم (٣ : ١٦٨) لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا و (٣ : ١٥٦) وَلَوْ كُنَّا
 عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا) أى ان كنتم تقدرُونَ أن تؤخروا أجلا
 فهلا ترجعون الروح اذا بلغت الحلقوم ؟ وهلا تردون عن
 أنفسکم الموت

قلت : وكان هذا يلتفت الى قوله تعالى : (١٧ : ٥٠ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ٥١ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْذِبُونَ فِي صُورِكُمْ) أى ان كنتم كما تزعمون لا تبعثون بعد الموت خلقا جديدا ، فكونوا خلقا لا يفنى ولا يبلى ، اما من حجارة أو من حديد أو أكبر من ذلك . ووجه الملازمة ما تقدم ذكره ، وهو اما أن تقرُوا بأن لكم رباً متصرفاً فيكم ، ومالكاً لكم ، تنفذ فيكم مشيئته وقدرته ، يمسحكم اذا شاء . ويحييكم اذا شاء . فكيف تنكرون قدرته على اعادتكم خلقاً جديداً بعد ما أماتكم . وإما أن تنكروا أن يكون لكم رب قادر قاهر مالك ، نافذ المشيئة فيكم ، والقدرة فيكم ، فكونوا خلقا لا يقبل الفناء والموت فاذا لم تستطيعوا أن تكونوا كذلك فما تنكرون من قدرة من جعلكم خلقاً يموت ، ويحيا ، أن يحييكم بعد ما أماتكم ؟ فهذا استدلال يعجزهم عن كونهم خلقاً لا يموت . والذي في الواقعة استدلال يعجزهم عن رد الروح الى مكانها اذا قاربت الموت . واوليس بعد هذا الاستدلال الا الادعان والانقياد أو الكفر والعناد

(٦٤) فصل

فلما قام الدليل ، ووضح السبيل ، وتم البرهان على أنهم مملوكون مريبون ، مجزيون محاسبون - ذكر طبقاتهم عند الحشر الأول ، والقيامة الصغرى ، وهى ثلاث طبقات : طبقة المقربين ، وطبقة أصحاب النمين ، وطبقة المكذبين . فجعل تحية المقربين عند الوفاة الروح والريحان

والجنة . وهذه الكرامات الثلاثة التي يعطونها بعد الموت نظير
الثلاث التي يعطونها يوم القيامة: فالروح والفرح والسرور ، والابتهاج
ولذة الروح ، فهي كلمة جامعة لنعيم الروح ولذتها ، وذلك قوتها
وغذاؤها ، والريحان الرزق ، وهو الاكل والشرب ، والجنة المسكن
الجامع لذلك كله . فيعطون هذه الثلاث في البرزخ ، وفي المعاد الثاني
ثم ذكر الطبقة الثانية ، وهي طبقة أصحاب اليمين . ولما كانوا
دون المقربين في المرتبة جعل تحتهم عند القدوم عليه السلامة من
الآفات والشرور التي تحصل للكافرين الضالين فقال : (وأما إن
كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين) والسلام
مصدر من سلم ، أى فلك السلامة . والخطاب له نفسه . أى : يقال
لك السلامة . كما يقال للقادم : لك الهناء ، ولك السلامة ، ولك
البشرى ، ونحو ذلك من الألفاظ ، كما يقولون : خير مقدم ، ونحو
ذلك ، فهذه تحية عند اللقاء ، قال مقاتل : يسلم الله لهم أمرهم ،
ويتجاوز عن سيئاتهم ، ويتقبل حسناتهم . وقال الكلبي : يسلم عليه
أهل الجنة ، ويقولون : السلامة لك . وعلى هذا فقوله (من أصحاب
اليمين) أى : هذه التحية حاصلة لك من إخوانك أصحاب اليمين ،
فانه اذا قدم عليهم حيوه بهذه التحية وقالوا السلامة لك وفي الآية
أقوال آخر ، فيها تكلف وتعسف ، فلا حاجة الى ذكرها
ثم ذكر الطبقة الثالثة ، وهي طبقة الضال في نفسه ، المكذب

لاهل الحق ، وان له عند الموافقة نُزُلُ الجيم ، وُسْكُنِي الجيم . ثم أكد هذا الجزاء بما جعله كأنه رأى العين لمن آمن بالله ورسوله فقال (إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ) فرفع شأنه عن درجة الظن والعلم الى اليقين ، وعن درجة اليقين الى حقه

ثم أمره أن ينزه اسمه تبارك وتعالى عما لا يليق به ، وتنزيه الاسم متضمن لتنزيه المسمى عما يقوله الكاذبون والجاحدون

(٦٥) فصل

ومن ذلك قوله تعالى : (٣٥ : ١ والنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ٢ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ٣ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ) أقسم سبحانه بالنجم عند هويه على تنزيه رسوله وبراءته مما نسبته اليه أعداؤه من الضلال والغى

واختلف الناس في المراد بالنجم : فقال الكلبي ، عن ابن عباس : أقسم بالقرآن اذا نزل منجما على رسوله : أربع آيات ، وثلاثا ، والسورة . وكان بين اوله وآخره عشرون سنة . وكذلك روى عطاء عنه . وهو قول مقاتل ، والضحاك ، ومجاهد . واختاره الفراء . وعلى هذا فسمى القرآن نجما لتفرقه في النزول . والعرب تسمى التفرق تنجما ، والمفرق نجما ، ونجوم الكتابة اقساطها ، ويقول : جعلت مالى على فلان نجوما منجمة كل نجم كذا وكذا

واصل هذا أن العرب كانت تجعل مطالع منازل القمر ومساقطها مواقيت لحلول ديونها وآجالها ، فيقولون : اذا طلع النجم - يريدون الثريا - حل عليك الدين . ومنه قول زهير ، في دية جعلت نجوما على العاقل :

ينجمها قوم لقوم غرامة * ولم يهرقوا ما بينهم ملء محجم
ثم جعل كل تنجم تفريقا وان لم يكن موقتا بطولع نجم
وقوله (هَوَى) على هذا القول ، أى : نزل من علو الى سفلى .
قال أبو زيد : هوت العقاب تهوى هويا - بفتح الهاء - اذا انقضت على
صيد أو غيره . وكذلك قال ابن الأعرابي . وفرق بين الهوى لقوله
* والدلو في اصعاده عجل الهوى *

وقال الليث : العامة تقول الهوى - بالضم - في مصدر هوى يهوى
وكذلك قال الاصمعي : هوى يهوى هو بفتح الهاء ، اذا سقط إلى
أسفل . قال : وكذلك الهوى في السير اذا مضى

وهنا أمر يجب التنبيه عليه غلط فيه أبو محمد بن حزم اقبح غلط فذكر
في السماء الرب تعالى الهوى يفتح الهاء واحتج بما في الصحيح ، من
حديث عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في سجوده
« سبحان ربى الأعلى » الهوى . فظن أبو محمد : ان الهوى صفة للرب
وهذا من غلطه رحمه الله . وانما الهوى على وزن فاعيل اسم
لقطعة من الليل . يقال : مضى هوى من الليل ، على وزن فاعيل .
ومضى هزيع منه ، أى : طرف وجانب ، وكان يقول « سبحان »

رَبِّهِ الْأَعْلَى» فِي قِطْعَةٍ مِنَ اللَّيْلِ وَجَانِبٍ مِنْهُ. وَقَدْ صَرَّحَتْ بِذَلِكَ فِي اللَّفْظِ
الْآخِرِ. فَقَالَتْ: كَانَ يَقُولُ «سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى» الْهُوَى مِنَ اللَّيْلِ
عَدْنَا إِلَى قَوْلِهِ (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى) وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، فِي رِوَايَةٍ
عَلَى بَنِ أَبِي طَلْحَةَ، وَعُطِيَّةُ: يَعْنِي الثُّرَيَّا إِذَا سَقَطَتْ وَغَابَتْ، وَهُوَ
الرِّوَايَةُ الْآخَرَى عَنْ مُجَاهِدٍ. وَالْعَرَبُ إِذَا أَطْلَقَتْ النَّجْمَ تَعْنِي بِهِ
الثُّرَيَّا. قَالَ: فَبَاتَتْ تَعْدُّ النَّجْمَ. وَقَالَ أَبُو حَمْزَةَ الْيَمَانِيُّ: يَعْنِي النُّجُومَ
إِذَا انْتَشَرَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، فِي رِوَايَةٍ عَكْرَمَةَ: يَعْنِي
النُّجُومَ الَّتِي تَرْمِي بِهَا الشَّيَاطِينُ إِذَا سَقَطَتْ فِي آثَارِهَا عِنْدَ اسْتِرَاقِ
السَّمْعِ. وَهَذَا قَوْلُ الْحَسَنِ. وَهُوَ أَظْهَرُ الْأَقْوَالِ. وَيَكُونُ سُبْحَانَهُ
قَدْ أَقْسَمَ بِهَذِهِ الْآيَةِ الظَّاهِرَةِ الْمَشَاهِدَةِ الَّتِي نَصَبَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ آيَةً وَحِفْظًا
لِلْوَحْيِ مِنْ اسْتِرَاقِ الشَّيَاطِينِ لَهُ عَلَى أَنْ مَا أَتَى بِهِ رَسُولُهُ حَقٌّ وَصَدَقَ،
لَا سَبِيلَ لِلشَّيْطَانِ وَلَا طَرِيقَ لَهُ إِلَيْهِ، بَلْ قَدْ أَحْرَسَ بِالنَّجْمِ إِذَا هَوَى
رَصْدًا بَيْنَ يَدَيِ الْوَحْيِ، وَحَرَسًا لَهُ وَعَلَى هَذَا فَالْإِرْتِبَاطُ بَيْنَ الْمَقْسَمِ
بِهِ وَالْمَقْسَمِ عَلَيْهِ فِي غَايَةِ الظُّهُورِ. وَفِي الْمَقْسَمِ بِهِ دَلِيلٌ عَلَى الْمَقْسَمِ عَلَيْهِ
وَلَيْسَ بِالْبَيِّنِ تَسْمِيَةُ الْقُرْآنِ عِنْدَ نَزُولِهِ بِالنَّجْمِ إِذَا هَوَى، وَلَا
تَسْمِيَةُ نَزُولِهِ هَوِيًّا. وَلَا عُهْدٌ فِي الْقُرْآنِ ذَلِكَ فَيَحْمِلُ هَذَا اللَّفْظَ
عَلَيْهِ. وَلَيْسَ بِالْبَيِّنِ تَخْصِصُ هَذَا الْقِسْمِ بِالثُّرَيَّا وَحْدَهَا إِذَا غَابَتْ.
وَلَيْسَ بِالْبَيِّنِ أَيْضًا الْقِسْمُ بِالنُّجُومِ عِنْدَ انْتِشَارِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. بَلْ هَذَا
مِمَّا يَقْسِمُ الرَّبُّ عَلَيْهِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ بِآيَاتِهِ، فَلَا يَجْعَلُهُ نَفْسَهُ دَلِيلًا

لعدم ظهوره للمخاطبين ، ولا سيما منكروا البعث ، فانه سبحانه انما استدل بما لا يمكن جرده ولا المكابرة فيه . فأظهر الأقوال قول الحسن ، والله أعلم

وبين المقسم به والمقسم عليه من التناسب ما لا يخفى ، فان النجوم التي ترمى الشياطين آيات من آيات الله ، يحفظ بهادينه ووحيه وآياته المنزلة على رسوله ، بهاظهر دينه وشرعه ، وأسمائه ، وصفاته . وجعلت هذه النجوم المشاهدة خدما وحرسان هذه النجوم الهاوية . ونفى سبحانه عن رسوله الضلال المنافي للهدى ، والغى المنافي للرشاد . ففى ضمن هذا النفى الشهادة له بأنه على الهدى والرشاد فالهدى فى علمه والرشاد فى علمه . وهذان الأصلان هما غاية كمال العبد . وبهما سعادته وفلاحه . وبهما وصف النبي صلى الله عليه وسلم خلفاءه . فقال : « عليكم بسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي (١) » فالراشد ضد الغاوى ، والمهدى ضد الضال ، وهو الذى زكت نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح ، وهو صاحب الهدى ودين الحق ، ولا يشتهى الراشد المهدى بالضال الغاوى إلا على أجهل خلق الله ، وأعماهم قلبا ، وأبعدهم من حقيقة الانسانية . والله در القائل :

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره * إذا استوت عنده الأنوار والظلم

(١) هو من حديث العرابض بن سارية ، رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه . وقال الترمذى : حسن صحيح

فالناس أربعة أقسام : ضال في علمه غاو في قصده وعمله . وهؤلاء شرار الخلق ، وهم مخالفو الرسل .

﴿ الثاني ﴾ مهتد في علمه غاو في قصده وعمله . وهؤلاء هم الأمة الغضبية (١) ومن تشبه بهم ، وهو حال كل من عرف الحق ولم يعمل به
﴿ الثالث ﴾ ضال في علمه ، ولكن قصده الخير . وهو لا يشعر
﴿ الرابع ﴾ مهتد في علمه راشد في قصده . وهؤلاء ورثة الأنبياء . وهم وان كانوا الأقلين عددا فهم الأكثرون عند الله قدرا ، وهم صفوة الله من عباده وحزبه من خلقه

وتأمل كيف قال سبحانه (مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ) ولم يقل ما ضل محمد . تأكيذا لاقامة الحجة عليهم ، بأنه صاحبهم ، وهم أعلم الخلق به وبحاله وأقواله وأعماله ، وأنهم لا يعرفونه بكذب ولا غي ، ولا ضلال ، ولا ينقمون عليه أمراً واحداً قط . وقد نبه على هذا المعنى بقوله (٢٣ : ٦٩ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ) وبقوله (٨١ : ٢٢ وما صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ)

(٦٦) فصل

ثم قال سبحانه (وما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ)

(١) وهي أمة اليهود . قال تعالى (٥ : ٥٩ قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضبه عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت)

ينزه نطق رسوله أن يصدر عن هوى . وبهذا الكمال هدام ورشده
وقال (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ) ولم يقل وما ينطق بالهوى ، لأن
نطقه عن الهوى أبلغ ، فانه يتضمن أن نطقه لا يصدر عن هوى ،
واذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به . فتضمن نفى الأمرين .
نفى الهوى عن مصدر النطق ، ونفيه عن النطق نفسه : فنطقه بالحق ،
ومصدره الهدى والرشاد ، لا النفى والضلال

ثم قال (إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) فأعاد الضمير على المصدر المفهوم
من الفعل ، أى مانطقه الا وحى يوحى . وهذا أحسن من قول من
جعل الضمير عائداً الى القرآن . فانه يعم نطقه بالقرآن والسنة ، وان
كليهما وحى يوحى . وقد احتج الشافعى لذلك فقال : لعل من حجة
من قال بهذا قوله (٤ : ١١٣) وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
قَالَ وَلَعَلَّ مِنْ حِجَّتِهِ أَنْ يَقُولَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
«لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» بِالزَّانِي بِأَمْرَةِ الرَّجُلِ الَّذِي صَالَحَهُ عَلَى الْغَنَمِ وَالْخَادِمِ «وَالَّذِي نَفْسِي
بِيَدِهِ لَا أَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ: الْغَنَمِ وَالْخَادِمِ رَدَّ عَلَيْكَ - الْحَدِيثُ (١)»

(١) روي احمد والبخارى ومسلم وأصحاب السنن عن أبى هريرة،
وزيد بن خالد أنهما قالا : ان رجلا من الاعراب أتى رسول الله صلى
صلى الله عليه وسلم . فقال : يا رسول الله ، أنشدك الله الا قضيت لى
بكتاب الله . وقال الخصم الآخر - وهو أقره منه - نعم فاقض بيننا
بكتاب الله ، واثنى لى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قل »

وفي الصحيحين أن يعلى بن أمية كان يقول لعمر : ليتني أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ينزل عليه الوحي ، فلما كان بالجرعانة (١) سأله رجل ، فقال : كيف ترى في رجل أحرم بعمره في جنبته ، بعد ما تضح بالخلق فنظر اليه النبي صلى الله عليه وسلم ساعة ثم سكت ، فجاء الوحي ، فأشار عمر بيده إلى يعلى ، فجاء ، فأدخل رأسه ، فاذا النبي صلى الله عليه وسلم محرم يغط ثم سرى عنه . فقال « أين السائل آنفا ؟ » فجيء به ، فقال « انزع عنك الجبة » واغسل أثر الطيب ، واصنع في عمرتك ما تصنع في حجك » وقال الشافعي : أخبرنا مسلم عن ابن جريج عن أبي طاووس عن أبيه أن عنده كتابا نزل به الوحي ، وما فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم من صدقة وعقول (٢) فانما نزل به الوحي . وذكر الأوزاعي عن حسان

قال : ان ابني كان عسيقا على هذا ، فزني بامرأته ، وإني أخبرت أن على ابني الرجم ، واقتديت منه بمائة شاة ووليدة . فسأت أهل العلم ، فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام ، وأن على امرأة هذا الرجم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذي نفسي بيده - الحديث - إلى أن قال : وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام . واغدا يا أنيس - لرجل من أسلم - على امرأة هذا : فان اعترفت فارجمها » قال : فغدا عليها ، فاعترفت فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجمت

(١) مكان قريب من مكة نزل به صلى الله عليه وسلم في عودته من غزوة حنين ومنه أحرم ليعتمر في رجوعه إلى المدينة العمرة الثالثة (٢) جمع عقل ، وهو الدية

ابن عطية قال: كان جبريل ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن يعلمه اياه . وذكر الأوزاعي أيضا عن أبي عبيد ، صاحب سليمان ، أخبرني القاسم بن مخيمرة حدثني ابن فضيلة قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : سَعَّرَ لَنَا . قَالَ « لَا تَسْأَلُنِي عَنْ سُنَّةٍ أَحَدُهَا فِيكُمْ ، لَمْ يَأْمُرَنِي بِهَا وَلَكِنْ سَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ » وابن فضيلة هذا يسمى طلحة ، وقد صح عنه أنه قال « أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ » وهذا هو السنة بلا شك . وقد قال تعالى (٤ : ١١٣) وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ (وهما القرآن والسنة . وبالله التوفيق

(٦٧) فصل

ثم أخبر تعالى عن وصف من علمه الوحي والقرآن ، مما يعلم أنه مضاد لأوصاف الشيطان معلم الضلال والغواية . فقال (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى) وهذا نظير قوله (ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ) وذكرنا هناك السر في وصفه بالقوة

وقوله (ذُو مِرَّةٍ) أى جميل المنظر حسن الصورة ، ذو جلالة . ليس شيطانا أقبح خلق الله وأشوههم صورة . بل هو من أجمل الخلق وأقواهم وأعظمهم أمانة ومكانة عند الله . وهذا تعديل لسند الوحي والنبوة ، وتزكية له . كما تقدم نظيره في سورة التكمير . فوصفه بالعلم والقوة ، وجمال المنظر وجلاله . وهذه كانت أوصاف

الرسول البشرى والملكى . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم
اشجع الناس ، وأعلمهم ، وأجملهم ، وأجلهم . والشیاطین وتلامذتهم
بضد من ذلك . فهم أقبح الخلق صورة ومعنى . وأجهل الخلق
وأضعفهم همما ونفوسا

ثم ذكر استواء هذا المعلم بالافق الأعلى ، ودنوه وتدليه وقربه
من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإيحاء الله ما أوحى . فصور
سبحانه لأهل الايمان صورة الحال من نزول جبريل من
عنده ، إلى أن استوى بالافق ، ثم دنى وتدلى ، وقرب من
رسوله ، فأوحى اليه ما أمره الله بإيحاؤه ، حتى كأنهم يشاهدون
صورة الحال ويعاينونها هابطاً من السماء إلى أن صار بالافق
الأعلى ، مستويا عليه ، ثم نزل وقرب من محمد صلى الله عليه وسلم
وخطبه بما أمره الله به ، قائلاً : ربك يقول لك كذا وكذا . وأخبر
سبحانه عن مسافة هذا القرب ، بأنه قدر قوسين أو أدنى من ذلك
وليس هذا على وجه الشك بل تحقيق لقدر المسافة ، وأنها لا تزيد
على قوسين ألبتة كما قال تعالى (٣٧ : ١٤٧) وأرسلناه إلى مائة ألف
أو يزيدون (تحقيق لهذا العدد ، وأنهم لا يتقصون عن مائة
ألف رجل واحداً ونظيره قوله (٢ : ٧٤) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ
بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) أى لا تنقص قسوتها عن
قسوة الحجارة ، بل ان لم تزد على قسوة الحجارة لم تكن دونها . وهذا

المعنى أحسن وأدق وأقول من جعل « أو » في هذه المواضع بمعنى بل ، ومن قول من جعلها المشك بالنسبة الى رأى وقول من جعلها بمعنى الواو . فتأمل انتهى

فصل (٦٨)

ثم أخبر تعالى عن تصديق فؤاده لما رآته عيناه ، وأن القلب صدق العين ، وليس كمن رأى شيئاً على خلاف ما هو به ، فكذب فؤاده بصره ، بل ما رآه يبصره صدقه الفؤاد وعلم أنه كذلك . وفيها قراءتان : إحداهما بتخفيف كذب ، والثانية بتشديدها . يقال كذبت عينه وكذبه قلبه وكذبه جسده ، اذا أخلف ما ظنه وحسسه . قال الشاعر :

كذبتك عينك ، أم رأيت بواسطة غلس الظلام من الرباب خيالاً
أى أرتك مالا حقيقة له ، فنفى هذا عن رسوله . وأخبره أن فؤاده لم يكذب ما رآه ، و (ما) إما أن تكون مصدرية ، فيكون المعنى : ما كذب فؤاده رؤيته ، وإما أن تكون موصولة ، فيكون المعنى : ما كذب الفؤاد الذى رآه بعينه . وعلى التقديرين فهو إخبار عن تطابق رؤية القلب لرؤية البصر ، وتوافقهما ، وتصديق كل منهما لصاحبه . وهذا ظاهر جداً فى قراءة التشديد . وقد استشكلها طائفة منهم المبرد ، وقال : فى هذه القراءة بعد . قال : لأنه إذا رأى يقبله فقد علمه أيضاً بقلبه ، وإذا وقع العلم فلا كذب معه . فانه إذا

كان الشيء في القلب معلوما ، فكيف يكون معه تكذيب ؟
قلت : وجواب هذا من وجهين ﴿ أحدهما ﴾ أن الرجل قد
يتخيل الشيء على خلاف ماهو به فيكذبه قلبه ، إذ يريه صورة
المعلوم على خلاف ماهي عليه ، كما تكذبه عينه ، فيقال : كذبه
قلبه ، وكذبه ظنه ، وكذبت عينه . فتنبى سبحانه ذلك عن رسوله ،
وأخبر أن ما رآه الفؤاد فهو كما رآه ، كمن رأى الشيء على حقيقة
ماهو به . فانه يصح أن يقال : لم تكذبه عينه

﴿ الثاني ﴾ أن يكون الضمير في (رأى) عائدا إلى الرأى لا إلى الفؤاد
ويكون المعنى : ما كذب الفؤاد ما رآه البصر . وهذا بحمد الله لا إشكال
فيه . والمعنى : ما كذب الفؤاد ما رآه البصر ، بل صدقه . وعلى
القراءتين فالمعنى : ما أوهمه الفؤاد أنه رأى ولم ير ، ولا اتهم بصره
ثم أنكسر سبحانه عليهم مكابرتهم وجحدهم له على ما رآه ، كما ينكر
على الجاهل مكابرتة للعالم ومماراته له على ما علمه . وفيها قراءتان
أفتمارونه وأفتمرونه وهذه الماراة أصلها من الجحد والدفع ، بقول
مرّيت الرجل حقه اذا جحدته . كما قال الشاعر :

لئن هجرت أخا صدق ومكرمة * لقد مرّيت أخا ما كان يمرىكا
ومنه الماراة ، وهي المجادلة والمكابرة . ولهذا عدى هذا الفعل
بعلی وهي على بابها ، وليست بمعنى عن كما قاله المبرد ، بل الفعل متضمن
معنى المكابرة . وهذا في قراءة الألف أظهر ، ورجح أبو عبيدة :
قراءة من قرأ (أفتمرونه) قال : وذلك أن المشركين إنما شأنهم

الجحود لما كان يأتهم من الوحى ، وهذا كان أكثر من المارة
 منهم ، يعنى أن من قرأ (أَقْتَمَرُونَهُ) فعناه أفتجادلونه ؟ ومن قرأ
 (أَقْتَمَرُونَهُ) فعناه أفتجحدونه ؟ وجحودهم لما جاء به كان هوشأنهم ،
 وكان أكثر من مجادلتهم له ، وخالفه أبو على وغيره . واختاروا
 قراءة (أَقْتَمَرُونَهُ) قال أبو على : من قرأ أقتارونه فعناه أفتجادلونه
 جدالا ترومون به دفعه عما عليه وشاهده ؟ ويقوى هذا الوجه
 قوله تعالى (٨ : ٦ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ) ومن قرأ
 (أَقْتَمَرُونَهُ) كان المعنى أفتجحدونه ؟ قال : والمجادلة كأنها أشبه
 في هذا ، لأن الجحود كان منهم في هذا وغيره . وقد جادله
 المشركون في الاسراء .

قلت : القوم جمعوا بين الجدال والدفع والانكار . فكان
 جدالهم جدال جحود ودفع لاجدال استرشاد وتبين للحق : واثبات
 الآلف يدل على المجادلة ، والاثيان بعلى يدل على المكابرة ، فكانت
 قراءة الآلف منتظمة للمعنيين جميعا ، فهي أولى . وبالله التوفيق

(٦٩) فصل

ثم أخبر سبحانه عن رؤيته لجبريل مرة أخرى عند سِدْرَةِ
 الْمُتَهَيَّى : فالمرّة الأولى كانت دون السماء بالأفق الأعلى ، والثانية
 كانت فوق السماء عند سِدْرَةِ الْمُتَهَيَّى . وقد صح عنه صلى الله

عليه وسلم أنه جبريل عليه الصلاة والسلام رآه على صورته التي خلق عليها مرتين كما في الصحيحين عن زر بن حبیش أنه سئل عن قوله تعالى (فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى) قال : أخبرني ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل له ستمائة جناح وفي الصحيحين أيضا عن عبد الله بن مسعود (ما كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى) قال : رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح . وقال البخاري ، عنه : رأى رَفْرَفًا أَخْضَرَ يَسْدُ الْأُفُقَ (١) وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة (ولقد رآه نزلة أخرى) قال : رأى جبريل عليه السلام . وفي صحيحه أيضا ، عن مسروق قال : كنت متكئا عند عائشة فقالت : ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية . قلت : ماهن ؟ قالت : من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية . قال : وكنت متكئا فجلست ، فقالت : يا أم المؤمنين ،

(١) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٨ : ٤٣٢) والحاصل أن ابن مسعود كان يذهب في ذلك إلى أن الذي رآه النبي صلى الله عليه وسلم هو جبريل ، كما ذهب إلى ذلك عائشة . والتقدير على رأيه : فأوحى - أي جبريل - إلى عبده - أي عبد الله - محمد ، لأنه يرى أن الذي دنا فتدلى هو جبريل ، وأنه هو أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم . وكلام أكثر المفسرين من السلف يدل على أن الذي أوحى هو الله ، أوحى إلى عبده محمد صلى الله عليه وسلم . ومنهم من قال : إلى جبريل

أنظرني ولا تعجليني ، ألم يقل الله عز وجل (وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفُقِ الْمُبِينِ)
(وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى) ؟ فقالت : أنا أول هذه الامة سأل عن
ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال « إماما هو جبريل ، لم
أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين ، رأيته منهبطا
من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء والارض ، فقالت : أولم
تسمع أن الله عز وجل يقول (٦ : ١٠٣) لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ
وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) أو لم تسمع ان الله عز وجل
يقول : (٤٢ : ٥١) وَمَا كَانَ نَبِيٍّ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيَاءً أَوْ
مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَى
حَكِيمٍ » قالت : ومن زعم أن محمداً كتم شيئاً من كتاب الله فقد
أعظم على الله الفرية . والله عز وجل يقول (٥ : ٦٧) يَا أَيُّهَا
الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ)
قالت : ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية . والله
عز وجل يقول (قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ)
ولو كان محمد كاتماً شيئاً مما أنزل عليه لكتم هذه الآية (٣٣ : ٣٧)
وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ
وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ
أَنْ تَخْشَاهُ) وفي الصحيحين عن مسروق أيضاً قال : سألت عائشة

رضى الله عنها ، هل رأى محمد ربه ؟ فقالت : سبحان الله ! لقد قف شعري مما قلت . وفيهما أيضاً قال ، قلت لعائشة : فأين قوله عز وجل (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى) قالت : إنما ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجال . وإنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورته ، فسدّ الأفق . وفي صحيح مسلم أن أبا ذر سأله صلى الله عليه وسلم : هل رأيت ربك فقال « نور ، أنى أراه » وفي صحيح مسلم أيضاً من حديث أبي موسى الأشعري قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات ، فقال : « ان الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام . يَخْفِضُ الْقِسْطَ ويرفعه يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل حجاباً للنور . لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » وهذا الحديث ساقه مسلم بعد حديث أبي ذر المقدم وهو كالتفسير له . ولا ينافي هذا قوله في حديث الصحيح حديث الرؤية يوم القيامة « فيكشف الحجاب ، فينظرون إليه » فإن النور الذي هو حجاب الرب تعالى يراد به الحجاب الأدنى إليه ، وهو لو كشف لم يقم له شيء ، كما قال ابن عباس في قوله عز وجل (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) قال : ذاك نوره الذي هو نوره ، إذا تجلى به لم يقم له شيء . وهذا الذي ذكره ابن عباس يقتضي أن قوله (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) على عمومها وإطلاقه في الدنيا والآخرة ولا يلزم من ذلك أن لا يرى . بل يرى في الآخرة بالابصار من

غير إدراك . وإذا كانت أبصارنا لا تقوم لا إدراك الشمس على ما هي عليه ، وإن رأيتها مع القرب الذي بين المخلوق والمخلوق ، فالتفاوت الذي بين أبصار الخلائق وذات الرب جل جلاله أعظم وأعظم . ولهذا لما حصل للجبل أدنى شيء من تجلي الرب تساقى الجبل واندك لسبحات ذلك القدر من التجلي . وفي الحديث الصحيح المرفوع « جنتان من ذهب آيتيهما وحليتهما وما فيهما . وجنتان من فضة آيتيهما وحليتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه ، في جنة عدن » فهذا يدل أن رداء الكبرياء على وجه تبارك وتعالى هو المانع من رؤية الذات ، ولا يمنع من أصل الرؤية ، فإن الكبرياء والعظمة أمر لازم لذاته تعالى . فإذا تجلى سبحانه لعباده يوم القيامة وكشف الحجاب بينهم وبينه فهو الحجاب المخلوق . وأما أنوار الذات الذي يحجب عن إدراكها فذاك صفة للذات ، لا تفارق ذات الرب جل جلاله . ولو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه . وتكفي هذه الإشارة في هذا المقام للمصدق الموقن . وأما المعطل الجهمي فكل هذا عنده باطل ومحال

والمقصود أن المخبر عنه بالرؤية في سورة النجم هو جبريل وأما قول ابن عباس : رأى محمد ربه بفؤاده مرتين ، فالظاهر أن مستنده هذه الآية . وقد تبين أن المرئي فيها جبريل فلا دلالة فيها

على ما قاله ابن عباس . وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي الاجماع على ما قالته عائشة . فقال - في نقضه على بشر المريسي ، في الكلام على حديث ثوبان ومعاذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رأيت ربي البارحة في أحسن صورة » ، فحكى تأويل المريسي الباطل - ثم قال : ويلك ان تأويل هذا الحديث على غير ما ذهب اليه . أما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث أبي ذر « إنه لم ير ربه » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لن تروا ربكم حتى تموتوا » وقالت عائشة رضی الله عنها : من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية . وأجمع المسلمون على ذلك ، مع قول الله (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) يعنون أبصار أهل الدنيا ، وإنما هذه الرؤية كانت في المنام ، يمكن رؤية الله على كل حال كذلك . وروى معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « صليت ماشاء الله من الليل ، ثم وضعت جنبي ، فأتاني ربي في أحسن صورة » فهذا تأويل هذا الحديث عند أهل العلم . وقد ظن القاضي أبو يعلى أن الرواية اختلفت عن الامام أحمد : هل رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه ليلة الاسراء أم لا على ثلاث روايات (أحدها) أنه رآه قال المروزي : قلت لابي عبدالله : يقولون ان عائشة قالت : من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ، فبأى شيء يدفع قول عائشة ؟ فقال : بقول النبي صلى الله

عليه وسلم « رأيت ربي » قول النبي صلى الله عليه وسلم أكبر من قولها . قال : وذكر المروزي في موضع آخر أنه قال لأبي عبد الله : ههنا رجل يقول : إن الله يرى في الآخرة ، ولا أقول إن محمدا رأى ربه في الدنيا ، فغضب ، وقال : هذا أهل أن يخفى يسلم الخبر كما جاء . قال : فظاهر هذا أنه أثبت رؤية عين . ونقل حنبل قال قلت لأبي عبد الله : النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه رؤيا حلم بقلبه ؟ قال : فظاهر هذا نفى الرؤية ، وكذلك نقل الأثرم وقد سأله عن حديث عبد الرحمن بن عابس عن النبي صلى الله عليه وسلم « رأيت ربي في أحسن صورة » فقال : معمر مضطرب ، لأن معمرأ رواه عن أيوب عن معبد عن عبد الرحمن بن عابس عن النبي صلى الله عليه وسلم . ورواه حماد عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس . ورواه يوسف بن عطية عن قتادة عن أنس . ورواه عبد الرحمن بن يزيد عن جابر عن خالد بن اللجلاج عن عبد الرحمن بن عابس عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم . ورواه يحيى بن أبي كثير فقال : عن ابن عباس عن معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم . وأصل الحديث واحد ، قال الأثرم : فقلت لأبي عبد الله : فإلى أي شيء تذهب ؟ فقال : قال الأعمش عن زياد بن الحصين عن أبي العالية عن ابن عباس قال : رأى محمد ربه بقلبه . ونقل الأثرم أن رجلا قال لأحمد عن الحسين الأشيب أنه قال : لم ير النبي صلى الله عليه

وسلم ربه تعالى ، فأنكره عليه إنسان وقال : لم تقول رآه ، ولا تقول بعينه ولا بقلبه ؟ كما جاء الحديث . فاستحسن ذلك الأشيبي . فقال أبو عبد الله : حسن . قال : وظاهر هذا اثبات رؤية لا يعقل عنها ، هل كانت بعينه أم بقلبه ؟ . فلهذه نصوص أحمد . وقد جعلها القاضي مختلفة وجعل المسئلة على ثلاث روايات ، ثم احتج للرواية الأولى بحديث أم الطفيل ، وحديث عبد الرحمن بن عابس الحضرمي ، ولا دلالة فيهما . لأنها رؤية منام فقط . واحتج لها بما لا يرضى أحمد أن يحتج به ، وهو حديث لا يصح عن أبي عبيدة ابن الجراح مرفوعا « لما كانت ليلة أسرى بي رأيت ربي في أحسن صورة ، فقال : فيم يختصم الملائكة الأعلى ؟ » وذكر الحديث ، وهذا غلط قطعاً . فإن القصة إنما كانت بالمدينة كما قال معاذ بن جبل : احتبس عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاة الصبح حتى كدنا نترأى عين الشمس . ثم خرج فصلى بنا ثم قال « رأيت ربي البارحة في أحسن صورة فقال : يا محمد فيم يختصم الملائكة الأعلى ؟ » وذكر الحديث . فهذا كان بالمدينة والاسراء كان بمكة . وليس عن الإمام أحمد ولا عن النبي صلى الله عليه وسلم نص أنه رآه بعينه يقظة ، وإنما حمل القاضي كلام أحمد ما لا يحتمله ، واحتج لما فهم منه بما لا يدل عليه ، وكلام أحمد يصدق بعضه بعضاً ، والمسئلة رواية واحدة عنه ، فانه لم يقل بعينه . وإنما قال : رآه ، واتبع في

ذلك قول ابن عباس رأى محمدر به ، ولفظ الحديث « رأيت ربى »
وهو مطلق وقد جاء بيانه فى الحديث الآخر

ولكن فى رد أحمد قول عائشة ومعارضته بقول النبى صلى الله عليه
وسلم اشعار بأنه أثبت الرؤية التى أنكرتها عائشة ، وهى لم تنكر رؤية
المنام ، ولم تقل : من زعم أن محمدا رأى ربه فى المنام فقد أعظم على الله
الفرية ، وهذا يدل على أحد أمرين : إما أن يكون الامام أحمد أنكر قول
من أطلق نفي الرؤية اذ هو مخالفته للحديث ، وإما أن يكون رواية عنه
بإثبات الرؤية ، وقد صرح بأنه رآه رؤيا حلم بقلبه ، وهذا تقييد منه للرؤية
وأطلق أنه رآه ، وأنكر قول من نفي مطلق الرؤية ، واستحسن
قول من قال رآه ، ولا يقول بعينه ولا بقلبه . وهذه النصوص
عنه متفقة لا مختلفة وكيف يقول أحمد رآه بعينى رأسه يقظة ولم
يجئ ذلك فى حديث قط . فأحمد اما اتبع ألفاظ الحديث كما جاء
وانكاره قول من قال لم يره أصلا لا يدل على إثبات رؤية اليقظة
بعينه . والله أعلم

(٧٠) فصل

وقوله تعالى (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى) قال ابن عباس : ما زاغ
البصر يمينا ولا شمالا ، ولا جاوز ما أمر به . وعلى هذا المفسرون ،
فنفى عن نبيه ما يعرض للرأى الذى لا أدب له بين يدى الملوك
والعطاء ، من التفاته يمينا وشمالا ، ومجاوزة بصره لما بين يديه .

وأخبر عنه بكلال الأدب في ذلك المقام ، وفي تلك الحضرة اذ لم يلتفت جانباً ، ولم يمد بصره الى غير ما أرى من الآيات ، وما هناك من العجائب ، بل قام مقام العبد الذي أوجب أدبه إطراقة واقباله على ما أرى ، دون التفاته الى غيره ، ودون تطلعه الى ما لم يره ، مع ما في ذلك من ثبات الجأش ، وسكون القلب ، وطمأنينته . وهذا غاية الكمال . وزبغ البصر التفاته جانباً ، وطغيانه مده امامه الى حيث ينتهى ، فزعه في هذه السورة عليه عن الضلال ، وقصده وعمله عن الغي ، ونطقه عن الهوى ، وفؤاده عن تكذيب بصره ، وبصره عن الزيف والطغيان ، وهكذا يكون المدح تلك المكارم لاقعبان من لبن شيباً بماء فعاداً بعد أبو الـ

(٧١) فصل

ولما ذكر رؤيته لجبريل عند سدره المنتهى استطرد منها ، وذكر أن جنة المأوى عندها ، وأنه يغشاها من أمره وخلقه ما يغشى وهذا من أحسن الاستطراد ، وهو أسلوب لطيف جداً في القرآن وهو نوعان : ﴿ احدهما ﴾ أن يستطرد من الشيء الى لازمه ، مثل هذا ومثل قوله (٤٣ : ٩) وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ، ثم استطرد من جوابهم الى قوله (١٠) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا

لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١١ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ
بَلَدًا مِيتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُونَ ١٢ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ
لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ١٣ لِيَسْمَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ
وهذا ليس من جوابهم ولكن تقرير له ، وإقامة الحجة عليهم .
ومثله قوله تعالى (٤٩: ٢٠) فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ؟ ٥٠ قال : رَبُّنَا
الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ٥١ قال : فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ؟
٥٣ قال : عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى)
فهذا جواب موسى ثم استطرد سبحانه منه الى قوله : (٥٣) الَّذِي جَعَلَ
لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ٥٤ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ٥٥ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ
وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) ثم عاد الى الكلام الذي استطرد منه
والنوع الثاني أن يستطرد من الشخص الى النوع كقوله :
(٢٣ : ١٢) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ١٣ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً
فِي قَرَارٍ مَكِينٍ) الى آخره . فالاول آدم ، والثاني بنوه . ومثله قوله
(٧ : ١٨٩) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا
لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ ، فَمَا

أَتَقَلَّتْ دَعْوَا اللَّهِ رَبَّهُمَا لَيْنَ آتِيَتَمَا صَالِحًا لَمْ يَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ :
 ١٩ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا (الى آخر الآيات ،
 فاستطرد من ذكر الأبوين الى ذكر المشركين من أولادهما . والله أعلم

(٧٢) فصل

ومن ذلك قوله تعالى : (٥٢ : ١ والطور ٢ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ٣ فِي
 رَقٍّ مَنشُورٍ ٤ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٥ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ٦ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ
 ٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٨ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ) تضمن هذا القسم
 خمسة أشياء ، وهي مظاهر آياته ، وقدرته ، وحكمته الدالة على ربوبيته
 ووحدانيته . فالطور هو الجبل الذي كلم الله عليه نبيه وكليمه موسى
 ابن عمران ، عند جمهور المفسرين من السلف والخلف ، وعرفه
 ههنا باللام ، وعرفه في موضع آخر بالاضافة . فقال (وطور سينين)
 وهذا الجبل مظهر بركة الدنيا ، والآخرة ، وهو الجبل الذي اختاره
 الله لتكليم موسى عليه . قال عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه :
 حدثني محمد بن عبيد بن حبان ، قال حدثنا جعفر بن سليمان ، قال حدثنا
 أبو عمران الجوني عن نوف البكالي قال : أوحى الله عز وجل الى الجبال :
 اني نازل على جبل منكم . قال : فشمنت الجبال كلها الا جبل الطور ،
 فانه تواضع ، وقال : أرضى بما قسم الله لي ، فكان الأمر عليه ،
 وجبل هذا شانه حقيق أن يقسم الله به ، وإنه لسيد الجبال

﴿الثاني﴾ الكتاب المسطور في الرق المنشور . واختلف في هذا الكتاب ، فقيل : هو اللوح المحفوظ ، وهذا غلط فانه ليس برق . وقيل : هو الكتاب الذي تضمن أعمال بني آدم ، وقال مقاتل : تخرج اليهم أعمالهم يوم القيامة في رق منشور . وهذا وان كان أقوى وأصح من القول الاول ، واختاره جماعة من المفسرين ، ومنهم من لم يترك غيره ، فالظاهر أن المراد به الكتاب المنزل من عند الله ، وأقسم الله به لعظمته وجلالته ، وما تضمنه من آيات ربوبيته ، وأدلة توحيده وهداية خلقه

ثم قيل : هو التوراة التي أنزل الله على موسى ، وكأن صاحب هذا القول رأى اقتران الكتاب بالطور ، فقال : هو التوراة ، ولكن التوراة إنما أنزلت في ألواح لا في رق ، إلا أن يقال : هي في رق في السماء وأنزلت في ألواح ، وقيل : هو القرآن ، ولعل هذا أرجح الأقوال ؛ لانه سبحانه وصف القرآن بأنه في صحف مطهرة ، بأيدي سفرة كرام بررة . فالصحف هي الرق ، وكونه بأيدي سفرة هو كونه منشوراً و على هذا فيكون قد أقسم بسيد الجبال وسيد الكتب . ويكون ذلك متضمناً للنبتين المعظمتين : نبوة موسى ، ونبوة محمد . وكثيراً ما يقرن بينهما وبين محلهما كما في سورة التين والزيتون

ثم أقسم بسيداليوت ، وهو البيت المعمور . وفي وصفه الكتاب

بأنه مسطور تحقيق لكونه مكتوباً مفروغاً منه ، وفي وصفه بأنه منشور إيدان بالاعتناء به وأنه بأيدي الملائكة منشور غير مهجور .
وأما البيت المعمور فالمشهور أنه الضراح الذي في السماء الذي رفع للنبي صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم ، وهو بحيال البيت المعمور في الأرض ، وقيل هو البيت الحرام . ولا ريب أن كلا منهما معمور : فهذا معمور بالملائكة وعبادتهم ، وهذا معمور بالطائفين والقائمين والركع والسجود ، وعلى كلا القولين فكل منهما سيد البيوت

ثم أقسم سبحانه بمخلوقين عظيمين من بعض مخلوقاته ، وهما مظهر آياته ، وعجائب صنعته ، وهما : السقف المرفوع ، وهو السماء فانها من أعظم آياته قدراً ، وارتفاعاً ، وسعة ، وسمكاً ، ولونا ، وإشراقاً . وهى محل ملائكته ، وهى سقف العالم ، وبها انتظامه ، ومحل النيرين اللذين بهما قوام الليل والنهار ، والسنين والشهور والايام والصيف والشتاء والربيع والخريف . ومنها تنزل البركات . واليها تصعد الأرواح ، وأعمالها وكلماتها الطيبة .

﴿والثاني﴾ البحر المسجور ، وهو آية عظيمة من آياته ، وعجائبه لا يحصيها إلا الله . واختلف في هذا البحر ، هل هو الذي فوق السموات ، أو البحر الذي نشاهده ؟ على قولين : فقالت طائفة : هو

البحر الذى عليه العرش ، وبين أعلاه وأسفله مسيرة خمسمائة عام
كما فى الحديث الذى رواه أبوداود ، من حديث سماك عن عبد
الله بن مخيمرة عن الأحنف بن قيس ، قال كنت بالبطحاء فى عصابة ، فيهم
رسول الله ﷺ ، فمرت بهم سحابة ، فنظر اليها فقال : « ماتسمون
هذه ؟ » قالوا : السحاب ، قال « والمزن » قالوا والمزن ، قال « والعنان »
قالوا والعنان قال « هل تدرون ما بين السماء والأرض ؟ » قالوا :
لا ندري ، قال « إن بعد ما بينهما اما واحدة ، أو اثنتان ، أو ثلاث
وسبعون سنة ، ثم السماء فوقها كذلك ، حتى عد سبع سموات ، ثم
فوق السابعة بحرا بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء الى سماء ، ثم فوق
ذلك ثمانية أو عال ، بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء الى سماء ،
ثم على ظهورهم العرش ، ما بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء الى
سماء ، ثم الله فوق ذلك » وهذا لا يناقض ما فى جامع الترمذى
« إن بين كل سمائين مسيرة خمسمائة عام » إذ المسافات تختلف
مقاديرها باختلاف المقدر به ، فالخمسمائة مقدرة بسير الابل ،
والسبعون بسير البريد ، وهو يقطع بتدر ما تقطعه الابل سبعة
أضعاف . وهذا القول فى البحر الذى تحت العرش محكى عن
على بن أبى طالب

والثانى أنه بحر الارض واختلف فى المسجور ، فقليل المملوء ،
هذا قول جميع أهل اللغة . قال الفراء : المسجور فى كلام العرب
المملوء . يقال : سجرت الاناء إذا ملأته ، قال ليلى :

فتوسطا عرض السرى وصدعا مسجورة متجاوز أقلامها
وقال المبرد : المسجور المملوء عند العرب ، وأنشد للنمر بن تولب
* اذا شاء طالع مسجورة *

يريد عينا مملوء ماء، وكذا قال ابن عباس : المسجور الممتلىء
وقال مجاهد : المسجور الموقد . قال الليث : السجر إيقادك في
التنور تسجره سجرا ، والسجر اسم الخطب . وهذا قول الضحاك
وكعب وغيرهما . قال : البحر يسجر فيزداد في جهنم ، وحكى هذا
القول عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه . قال مسجور . قال الفراء :
وهذا يرجع الى القول الأول ، لأنك تقول : سجرت التنور إذا ملأته
حطباً . وروى ذوالرمة الشاعري عن ابن عباس أن المسجور اليابس الذي
قد نضب ماؤه وذهب ، وليس لذى الرمة رواية عن ابن عباس غير
هذا الحرف . وهذا القول اختيار أبي العالية . قال أبو زيد : المسجور
المملوء ، والمسجور الذى ليس فيه شيء ، جعله من الأضداد ، وقد
روى عن ابن عباس أن المسجور المحبوس ، ومنه ساجور الكلب ،
وهو القلادة من عود أو حديد تمسكه . والمعنى على هذا أنه محبوس
بقدرته الله أن يفيض على الأرض فيغرقها ، فإن ذلك مقتضى الطبيعة
أن يكون الماء غامراً للأرض فوقها ، كما أن الهواء فوق الماء ، ولكن
أمسكه الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا . وفي هذا حديث
ذكره أحمد مرفوعاً « مامن يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق
بنى آدم »

وهذا الموضع مما هدم أصول الملاحدة والدهرية ، فانه ليس في الطبيعة ما يقتضى حبس الماء عن بعض جوانب الارض ، مع كون كرة الماء عالية على كرة الارض بالذات ، ولو فرض أن في الطبيعة ما يقتضى بروز جوانبها لم يكن فيها ما يقتضى تخصيص هذا الجانب بالبروز دون غيره . وما ذكره الطبائعون والمتفلسفة أن العناية الالهية اقتضت ذلك لمصلحة العالم فنعم ، هو كما ذكرنا ، ولكن عناية من يفعل بقدرته ومشيئته ، وهو بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وهو أحكم الحاكمين - غير معقولة . فان العناية الالهية تقتضى حياته ، وقدرته ، ومشيئته ، وعلمه ، وحكمته ، ورحمته ، واحسانه الى خلقه ، وقيام الافعال به . فاثبات العناية الالهية مع نفي هذه الامور ممتنع . وبالله التوفيق

وأقوى الأقوال في المسجور أنه الموقد . وهذا هو المعروف في اللغة من المسجور . ويد عليه قوله تعالى (٦:٨١) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ) قال علي وابن عباس : أوقدت فصارت نارا ، ومن قال يبيت ، وذهب ماؤها فلا يناقض كونها نارا موقدة . وكذا من قال ماتت ، فانها تملأ نارا .

وإذا اعتبرت أسلوب القرآن ونظمه ومفرداته رأيت اللفظة تدل على ذلك كله ، فان البحر محبوس بقدرته الله . ومملوء ماء ،

ويذهب مأوه يوم القيامة ويصير نارا : فكل من المفسرين اخذ
معنى من هذه المعاني . والله أعلم

(٧٣) فصل

وأقسم سبحانه بهذه الامور على المعاد والجزاء ، فقال (إِنَّ عَذَابَ
رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَّالَهُ مِنْ دَافِعٍ) ولما كان الذى يقع قديما يمكن دفعه أخبر
سبحانه أنه لا دافع له . وهذا يتناول أمرين : أحدهما انه لا دافع
لوقوعه ، والثانى أنه لا دافع له إذا وقع

ثم ذكر سبحانه وقت وقوعه فقال (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا وَتَسِيرُ
الْجِبَالُ سَيْرًا) والمورُ قد فُسر بالحركة ، وفسر بالدوران ، وفسر
بالتموج والاضطراب ، والتحقيق أنه حركة فى تموج وتكفؤ وذهاب
ومجيء ولهذا فرق بين حركة السماء وحركة الجبال . فقال (وَتَسِيرُ الْجِبَالُ
سَيْرًا) وقال (وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ) من مكان إلى مكان . وأما السماء فأنها
تتكفأ ، وتموج ، وتذهب ، وتجيء . قال الجوهرى : ما رآه من مورا ،
ترهيباً أى : تحرك وجاء وذهب ، كما تكفأ النخلة العيدانة ، أى
الطويلة . ومنه قوله (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا) قال الضحاك : تموج
موجاً . وقال أبو عبيدة ، والاخفش : تكفأ . وأنشد للأعشى :
كأن مشيتها من بيت جارتها * مور السحابة ، لاريث ولا عجل

ثم ذكر وعيد المكذبين بالمعاد والنبوة، وذكر أعمالهم وعلومهم التي
ثابروا عليها، وهي الخوض الذي هو كلام باطل، واللعب الذي هو سعى
ضائع. فلا علم نافع ولا عمل صالح. بل علومهم خوض بالباطل، وأعمالهم
لعب. ولما كانت هذه العلوم والأعمال مستلزمة لدفع الحق بعنف
وقهر أدخلوا جهنم وهم يُدْعَوْنَ إليها عَمَاءُ أي يدفع في أقفيتهم وأكتافهم،
دفعاً بعد دفع. فاذا وقفوا عليها وعانوها وقفوا، وقيل لهم (هَذِهِ النَّارُ
الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ) وتقولون لا حقيقة لها ولا من أخبر بها
صديق. ثم يقال (أَفَسِحْرُ هَذَا؟) الآن كما كنتم تقولون للحق لما
جاءتكم به الرسل: انه سحر، وانهم سحرة. فهذا الآن سحر لا
حقيقة له كما قلتم، أم على أبصاركم غشاوة فلا تبصرونها، كما كان
عليها غشاوة في الدنيا فلا تبصرون الحق؟ أفعميت أبصاركم اليوم
عن رؤية هذا الحق، كما عميت في الدنيا فلا تبصرون الحق؟ ثم
سلب عنهم نفع البصر الذي كانوا في الدنيا إذا ذهبتهم الشدائد وأحاطت
بهم لجأوا إليه وتعللوا بانقضاء البلية لا نقضاء أمدها. فقل لهم يومئذ:
(اصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا) كلاهما سواء عليكم لا يجدي عنكم الصبر ولا
الجزع، فلا الصبر يخفف عنكم حمل هذا العذاب، ولا الجزع يعطف عليكم
قلوب الخزنة ولا يستنزل لكم الرحمة. ثم أعلموا بأن الرب تعالى
لم يظلمهم بذلك، وإنما هو نفس أعمالهم صارت عذاباً، فلم يجدوا

من اقترانهم به بدا ، بل صارت عذابا لازما لهم كما كانت إرادتهم وعقائدهم الباطلة وأعمالهم القبيحة لازمة لهم ، ولزوم العذاب لاهله في النار بحسب لزوم تلك الإرادة الفاسدة ، والعقائد الباطلة وما يترتب عليها من الأعمال لهم في الدنيا. فإذا زال ذلك اللزوم في وقت ما بضده وبالتوبة النصوح زوالا كلياً لم يعذبوا عليه في الآخرة ، لأن أثره قد زال من قلوبهم وألسنتهم وجوارحهم ، ولم يبق له أثر يترتب عليه ، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والمادة الفاسدة إذا زالت من البدن بالكلية لم يبق هناك ألم ينشأ عنها ، وإن لم تزل تلك الإرادة والأعمال ولكن عارضها معارض أقوى منها كان التأثير للمعارض ، وغلب الأقوى الأضعف ، وإن تساوى الأمران تدافعا وقاوم كل منهما الآخر ، وكان محل صاحبه جبال الاعراف بين الجنة والنار . فهذا حكم الله وحكمته في خلقه ، وأمره ونهيهِ وعقابه ، ولا يظلم ربك أحدا

(٧٤) فصل

ثم ذكر سبحانه أرباب العلوم النافعة ، والأعمال الصالحة ، والاعتقادات الصحيحة وهم المتقون ، فذكر مساكنهم وهم في الجنان وحالهم في المساكن وهو النعيم . وذكر نعيم قلوبهم وراحتهم يَكُونُهُمْ (فَالْكَيِّنَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ) والفاكهة : المعجب بالشيء المسرور

المغتبط به ، وفعله فكه - بالكسر - يفكه فهو فكه وفاكه ، اذا كان طيب النفس ، والفاكه البال ، ومنه الفاكهة وهى المرح الذى ينشأ عن طيب النفس ، وتفككت بالشئ : اذا تمتعت به ، ومنه الفاكهة التى يتمتع بها ومنه قوله (٥٦ : ٦٥ فَطَلَمْتُ تَفَكُّمُونَ) قيل : معناه تندمون ، وهذا تفسير بلازم المعنى وإنما الحقيقة تزيلون عنكم التفكه واذا زال التفكه خلفه ضده ، يقال : تحنث اذا زال الحنث عنه ، وتحرج ، وتحوب وتأثم . ومنه تفكه . وهذا البناء يقال للدخول فى الشئ : كتعلم وتحلم ، وللخارج منه : كتحرج وتأثم

والمقصود أنه سبحانه جمع لهم بين النعيمين : نعيم القلب بالتفكه ، ونعيم البدن بالأكل والشرب والنسكاح ، ووقاهم عذاب الجحيم فوقاهم مما يكرهون ، وأعطاهم ما يحبون جزاء وفاقا ، لانهم تركوا ما يكره وأتوا بما يحب ، فكان جزاؤهم مطابقاً لأعمالهم ثم أخبر عن دوام ذلك لهم بما أفهمه قوله (هنيئاً) فانهم لو علموا

زواله وانقطاعه لنعص عليهم ذلك نعيمهم ولم يكن هناء لهم ثم ذكر مجالسهم وهياتهم فيها فقال (مُسْكِينٍ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ) وفى ذكر اصطفاها تنبيه على كمال النعمة عليهم بقرب بعضهم من بعض ، ومقابلة بعضهم بعضاً . كما قال تعالى (٥٦ : ١٦ مُسْكِينٍ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ) فان من تمام اللذة والنعيم أن يكون مع الانسان فى بستانه ومنزله من يحب معاشرته ويؤثر قربه ، ولا يكون بعيداً منه ، قد

حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ ، بَلْ سِرِيرُهُ إِلَى جَانِبِ سِرِيرٍ مِنْ يَحْبَهُ
 وَذَكَرَ أَزْوَاجَهُمْ وَأَنْهُمْ الْحُورُ الْعَيْنُ ، وَقَدْ تَكَرَّرَ وَصْفُهُمْ فِي
 الْقُرْآنِ بِهَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ . قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : جَعَلْنَاهُمْ أَزْوَاجًا كَمَا يَزُوجُ
 الْبَعْلُ بِالْبَعْلِ ، جَعَلْنَاهُمْ اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ . وَقَالَ يُونُسُ : قَرْنَاهُمْ بَيْنَ .
 وَلَيْسَ مِنْ عَقْدِ التَّزْوِيجِ . وَاحْتِجَّ عَلَى هَذَا بَأَنَّ الْعَرَبَ لَا تَقُولُ تَزَوَّجْتُ
 بِهَا وَإِنَّمَا تَقُولُ تَزَوَّجْتُهَا . قَالَ تَعَالَى (٣٣ : ٣٧) فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا
 زَوَّجْنَاهَا (وَفِي الْحَدِيثِ « زَوَّجْتُهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ ») وَقَالَ
 غَيْرُهُ : الْعَرَبُ تَقُولُ : تَزَوَّجْتُ بَامْرَأَةٍ . وَقَالَ الْأَزْهَرِيُّ : الْعَرَبُ تَقُولُ :
 زَوَّجْتُهُ امْرَأَةً وَتَزَوَّجْتُ امْرَأَةً وَلَيْسَ فِي كَلَامِهِمْ تَزَوَّجْتُ بَامْرَأَةٍ .
 وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عَيْنٍ) أَيْ قَرْنَاهُمْ وَعَلَى هَذَا
 فَزَوَّجْنَاهُمْ عِنْدَ هَؤُلَاءِ مِنَ الْإِقْتِرَانِ وَالشَّفْعِ أَيْ شَفَعْنَاهُمْ وَقَرْنَاهُمْ
 بَيْنَ . وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مُجَاهِدٌ : زَوَّجْنَاهُمْ بَيْنَ أَيْ أَنْكَحْنَاهُمْ إِيَّاهُنَّ .
 قُلْتُ : وَعَلَى هَذَا فَتَلْوِيحُ فَعْلِ التَّزْوِيجِ قَدْ دَلَّ عَلَى النِّسْكَاحِ وَتَعْدِيتهِ
 بِالْبَاءِ الْمُتَضَمِّنَةِ مَعْنَى الْإِقْتِرَانِ وَالضَّمِّ ، فَالْقَوْلَانِ وَاحِدٌ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ
 وَأَمَّا الْحُورُ الْعَيْنُ فَقَالَ مُجَاهِدٌ : الَّتِي يَحَارُ فِيهَا الطَّرْفُ بِأَدْيَا مَخْ
 مَوْقَهْنِ مِنْ وَرَاءِ ثِيَابِهِنَّ ، وَيُرَى النَّازِرُ وَجْهَهُ فِي كَبَدِ أَحْدَاهُنَّ كَالْمَرَأَةِ
 مِنْ رَقَّةِ الْجِلْدِ وَصَفَاءِ اللَّوْنِ . وَقَالَ قَتَادَةُ : بِحُورٍ ، أَيْ بِيضٍ .
 وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ . وَقَالَ مُقَاتِلٌ : الْحُورُ : الْبِيضُ الْوُجُوهُ ، الْعَيْنُ :
 الْحُسْنَانُ الْأَعْيُنُ . وَعَيْنُ حُورَاءَ : شَدِيدَةُ السَّوَادِ ، نَقِيَّةُ الْبَيَاضِ ،

طويلة الاهداب مع سوادها ، كاملة الحُسن ، ولا تسمى المرأة حوراء حتى يكون مع حور عينها بياض لون الجسد . فوصفهن بالبياض والحسن والملاحة ، كما قال (٥٥ : ٧٠ خَيْرَاتُ حِسَانُ) فالبياض في ألوانهن ، والحسن في وجوههن ، والملاحة في عيونهن . وقد وصف الله سبحانه نساء أهل الجنة بأحسن الصفات ، ودل بما وصف بهما سكت عنه

فان شئت التفصيل فالذى يحمد ويستحب من وجه المرأة وبدنها وأخلاقها البياض في أربعة أشياء : اللون ، وبياض العين ، والفرق ، والشعر . والسواد في أربعة : سواد العين ، وسواد شعر الرأس ، والجفن ، وسواد الحاجبين . والحمرة في أربعة : اللسان ، والشفيتين ، والوجنتين ، وحمرة تشوب البياض فتحسنه وتزينه . ومن التدوير أربعة أشياء : الوجه ، والرأس ، والكعب ، والمقعد ، ومن الطول أربعة : القامة ، والعنق ، والشعر ، والحاجب . والسعة في أربعة : الجبهة ، والعين ، والوجه ، والصدر . ومن الصغر في أربعة : الثدي ، والقم ، والكف ، والقدم . ومن الطيب في أربعة : القم ، والانف ، والفرق ، والفرج . ومن الضيق في موضع واحد . ومن الأخلاق كما قال تعالى (٥٦ : ٣٧ عُرُبًا أَتْرَابًا) إذ العُرب جمع عروب ، وهي المرأة المتحبة إلى زوجها بأخلاقها ولطافتها وشمائلها . قال ابن الاعرابي : العروب من النساء المطيعة لزوجها المتحبة

اليه . وقال أبو عبيدة : هي الحسنة التبعل . قال المبرد : هي العاشقة لزوجها . وقال البخارى فى صحيحه : هي الغنجة ، ويقال الشكلة . فهذا وصف أخلاقهن . وذلك وصف خلقهن . وأنت اذا تأملت الصفات التى وصفهن الله بها رأيتها مستلزمة لهذه الصفات ولما وراءها . والله المستعان

(٧٥) فصل

ثم أخبر سبحانه عن تكميل نعيمهم بالحق ذرياتهم بهم فى الدرجة ، وإن لم يعملوا أعمالهم لتقر أعينهم بهم ، ويتم سرورهم وفرحهم . وأخبر سبحانه أنه لم ينقص الآباء من عملهم من شيء بهذا الحق فيزله من الدرجة العليا الى الدرجة السفلى ، بل ألحق الابناء بالآباء ووفر على الآباء أجورهم ودرجاتهم

ثم أخبر سبحانه أن هذا إنما هو فعله فى أهل الفضل ، وأما أهل العدل فلا يفعل بهم ذلك ، بل (كُلُّ أَمْرٍ إِيمًا كَسَبَ رَهِيْنٌ) فى هذا دفع لتوهم التسوية بين الفريقين بهذا الحق ، كما فى قوله : (وما أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) دفع لتوهم حط الآباء الى درجة الابناء وقسمة أجور الآباء بينهم وبين الابناء فينقص أجر أعمالهم فرفع هذا التوهم بقوله (وما أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) أى مانقصناهم ، ثم ذكر امدادهم باللحم والفاكهة والشرب ، وأنهم

يتعاطون كؤوس الشراب بينهم، يشرب أحدهم ويناول صاحبه ليتم بذلك فرحهم وسرورهم

ثم نزه ذلك الشراب عن الآفات من اللغو من أهله عليه ولحوق الاثم لهم فقال (لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ) فنفى باللغو السبب ، والتخاصم ، والهجر والفحش في المقال ، والعريضة . ونفى بالتأثير جميع الصفات المذمومة التي أثمت شارب الخمر . وقال سبحانه (وَلَا تَأْتِيمٌ) ولم يقل ولا إثم ، أى : ليس فيها ما يحملهم على الاثم ولا يؤثم بعضهم بعضاً بشرها ، ولا يؤثمهم الله بذلك ولا الملائكة فلا يلغون ولا يأتمون . قال ابن قتبية : لا يذهب بعقولهم فيلغوا ، ولم يقع منهم ما يؤثمهم

ثم وصف خدمهم الطائفين عليهم بأنهم كاللؤلؤ في بياضهم ، والمكنون : المصون الذى لا تدنسه الأيدي . فلم تذهب الخدمة تلك المحاسن ، وذلك اللون والصفاء والبهجة . بل مع انتصابهم لخدمتهم كأنهم لؤلؤ مكنون ، ووصفهم في موضع آخر (٧٦ : ١٩) (إِذَا أَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ أُؤُلُؤًا مَّثْنُورًا) ففي ذكره المثنور إشارة الى تفرقهم فى حوائج ساداتهم وخدمتهم ، وذهابهم ، ومجيئهم ، وسعة المكان ، بحيث لا يحتاجون أن ينضم بعضهم إلى بعض فيه لضيقه . ثم ذكر سبحانه ما يتحدثون به هناك وانهم يقولون (إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ) أى : كنا خائفين فى محل الأمن بين الأهل

والأقارب والعشائر . فأوصلنا ذلك الخوف والاشفاق الى أن منَّ الله علينا ، فأمننا بما نخاف (وَوَقَّانَا عَذَابَ السُّعُومِ) وهذا ضد حال الشقى الذى كان فى أهله مُسرورا . فهذا كان مسرورا مع إساءته . وهؤلاء كانوا مشفقين مع إحسانهم . فبدل الله سبحانه شفاهم بأعظم الأمن ، وبدل أمن أولئك بأعظم المخاوف . فبالله سبحانه المستعان .

ثم أخبر عن حالهم فى الدنيا . وأهم كانوا يعبدون الله فيها . فأوصلتهم عبادته وحده إلى قربه وجواره ، ومحل كرامته ، والذى جمع لهم ذلك كله بره ورحمته ؛ فانه هو البر الرحيم ، فهذا هو المقسم عليه بتلك الأقسام الخمسة فى أول السورة . والله أعلم .

فصل (٧٦)

ومن ذلك قوله (٥١ : ١ والذَّارِيَّاتِ ذُرُوءًا ٢ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ٣ فَالْجَارِيَّاتِ يُسْرًا ٤ فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا) أقسم بالذاريات وهى الرياح تذر المطر ، وتذر التراب ، وتذر النبات اذا تهشم ، كما قال تعالى (١٨ : ٤٥ فَاصْبَحَ هَسِيبًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ) أى تفرقه وتشره ثم . بما فوقها وهى السحاب الحاملات وقرا ، أى ثقلا من الماء ، وهى روايا الارض ، يسوقها الله سبحانه على متون السحاب الرياح . كما فى جامع الترمذى من حديث الحسن عن أنى هريرة قال : بينما نبىُّ

الله صلى الله عليه وسلم جالس في أصحابه إذ أتى عليهم سبحانه ، فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم « هل تدرون ما هذا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « هذا العنان ، هذه روايا الارض ، يسوقها الله تبارك وتعالى الى قوم لا يشكرونه ، ولا يدعونه »

ثم أقسم سبحانه بما فوق ذلك ، وهي (الجاريات يسرا) . وهي النجوم التي من فوق الغمام ، و (يسرا) أى : مسخرة مذلة منقادة . وقال جماعة من المفسرين : انها السفن تجري ميسرة في الماء جريا سهلا . ومنهم من لم يذكر غيره . واختار شيخنا رحمه الله القول الاول . وقال : هو أحسن في الترتيب ، والانتقال من السافل إلى العالى ، فانه بدأ بالرياح ، وفوقها السحاب ، وفوقه النجوم ، وفوقها الملائكة المقسمات أمر الله الذى أمرت به بين خلقه . والصحيح أن (المقسمات أمرا) لا تختص بأربعة ، وقيل : هم جبريل يقسم الوحي والعذاب وأنواع العقوبة على من خالف الرسل ، وميكائيل على القطر والبرد والثلج والنبات ، يقسمها بأمر الله ، وملاك الموت يقسم المنايا بين الخلق بأمر الله ، واسرافيل يقسم الارواح على أبدانها عند النفخ في الصور ، وهم المدبرات أمرا . وليس في اللفظ ما يدل على الاختصاص بهم . والله أعلم .

وأقسم سبحانه بهذه الامور الاربعة لمكان العبرة والآية ، والدلالة الباهرة على ربوبيته ووحدانيته ، وعظم قدرته . ففي الرياح من العبر هبوبها وسكونها ، ولينها وشدتها ، واختلاف طبائعها وصفاتها ومهابها

وتصرفها ، وتنوع منافعها ، وشدة الحاجة اليها . فللطر خمسة رياح :
ريح ينشر سحبها ، وريح يؤلف بينه ، وريح تلقحه ، وريح تسوقه حيث
يريد الله ، وريح تذر وأمامه وتفرقه . وللنبات ريح ، وللسمك ريح ،
وللرحمة ريح ، وللعذاب ريح ، الى غير ذلك من أنواع الرياح . وذلك تقضى
بوجود خالق مصرف لها مدبر لها ، يصرفها كيف يشاء ، ويجعلها
رخاء تارة ، وعاصفة تارة ، ورحمة تارة ، وعذابا تارة ، فتارة يحيى
بها الزرع والثمار ، وتارة يغطيها بها ، وتارة ينجى بها السفن ، وتارة
يهلكها بها ، وتارة ترطب الأبدان ، وتارة تذيبها ، وتارة عقيما ،
وتارة لاقحة ، وتارة جنوباً ، وتارة دبوراً ، وتارة صباً ، وتارة
شمالاً ، وتارة حارة ، وتارة باردة ، وهى مع غاية قوتها ألطف
شئ وأقبل المخلوقات لكل كيفية سريعة التأثير والتأثير ، لطيفة
المسارق بين السماء والأرض . إذا قطع عن الحيوان الذى على وجه
الأرض هلك ، كبهر الماء الذى إذا فارقه حيوان الماء هلك ، يحبسها
الله سبحانه إذا شاء ، ويرسلها إذا شاء ، تحمل الأصوات الى الأذان ،
والرائحة الى الأنف ، والسحاب الى الأرض الجزر ، وهى من روح
الله تأتى بالرحمة ، ومن عقوبته تأتى بالعذاب ، وهى أقوى خلق
الله كما رواه الترمذى فى جامعه من حديث أنس بن مالك عن النبى
صلى الله عليه وسلم قال « لما خلق الله الأرض جعلت تميد ، فخلق
الجبال ، فقال بها عليها ، فاستقرت ، فعجبت الملائكة من شدة
الجبال وقالوا يا رب ، هل من خلقك شئ أشد من الجبال ؟ قال نعم »

الحديد . قالوا : يارب ، فهل من خلقك شيء أشد من الحديد ؟ قال نعم ، النار . قالوا : يارب ، فهل من خلقك شيء أشد من النار ؟ قال نعم ، الماء . قالوا : يارب ، فهل من خلقك شيء أشد من الماء ؟ قال نعم ، الريح . قالوا : يارب ، فهل من خلقك شيء أشد من الريح ؟ قال نعم ، ابن آدم ، تصدق بصدقة يمينه يخفيها عن شماله » ورواه الامام احمد في مسنده وفي الترمذي في حديث قصة عاد أنه لم يرسل عليهم من الريح إلا قدر حلقة الخاتم ، فلم تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم وقد وصفها الله بأنها عاتية . قال البخاري في صحيحه : عنت على الخزنة ، فلم يستطيعوا أن يردوها والمقصود أن الرياح أعظم من آيات الرب الدالة على عظمتها وربوبيته وقدرته

(٧٧) فصل

ثم أقسم بالسحاب ، وهو من أعظم آيات الله في الجو ، في غاية الخفة ، ثم يحمل الماء والبرد ، فيصير أثقل شيء ، فيأمر الرياح ، فتحمله على متونهما ، وتسير به حيث أمرت ، فهو مسخر بين السماء والأرض ، حامل لأرزاق العباد والحيوان ، فإذا أفرغه حيث أمر به اضمحل وتلاشى بقدرة الله ، فإنه لو بقي لأضر النبات والحيوان فأنشأ سبحانه في زمن يصلح أنشاؤه فيه ، وحمله من الماء ما يحمله ، وساقه الى بلد شديد الحاجة اليه فسك السحاب من أنشأه بعد عدمه ؟ وحمله الماء والثلج والبرد ؟ ومن حمله على ظهور الرياح ؟ ومن أمسكه بين السماء والأرض بغير

عماد؟ ومن أغاث يَقْطُرُهُ العباد، وأحياء به البلاد، وصرفه بين خلقه كما أراد. وأخرج ذلك القطر بقدر معلوم، وأنزله منه، وأفناه بعد الاستغناء عنه، ولو شاء لأدامه عليهم فلم يستطيعوا إلى دفعه سبيلا، ولو شاء لأمسكه عنهم فلا يجدون إليه وصولا، فان لم يحبك جواباً حباك اعتبار مرسل (١) الرياح، من أنشأها بقدرته؟ وصرفها بحكمته، وسخرها بمشيئته، وأرسلها بشرا بين يدي رحمته، جعلها سببا لتمام نعمته، وسلطانا على من شاء بعقوبته؟ ومن جعلها رخاء، وذارية، ولا قحة، ومثيرة، ومؤلفة، ومغذية لأبدان الحيوان، والشجر، والنبات، وجعلها قاصفا، وعاصفا، ومهلكة وعاتية؟ إلى غير ذلك من صفاتها. فهل ذلك لها من نفسها وذاتها أم تدير مديبر شهدت الموجودات بربوبيته، وأقرت المصنوعات بوحدانيته، بيده النفع والضر، وله الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين؟ وسل الجاريات يُسرّ أمن السفن: من أمسكها على وجه الماء، وسخرها البحر؟ ومن أرسل لها الرياح التي تسوقها على الماء سوق السحاب على متون الرياح؟ ومن حفظها في مجراها ومرساها من طغيان الماء وطغيان الريح؟ فمن الذي جعل الريح لها بقدر لو زاد عليها لأغرقتها ولو نقص عنه لعاقها؟ ومن الذي أجرى لها ريحا واحدة تسير بها، ولم يسلط على تلك الريح ما يصادمها ويقاومها، فتموج في

(١) هكذا في الاصل، وهو خطأ شنيع، وصوابه: «فان لم يحبك حوارا أجبك اعتبارا، وسل الرياح - الخ» أبو رجاء

البحر يمينا وشمالا ، تتلاعب بها الريح ؟ ومن الذى علم الخلق الضعيف صنعة هذا البيت العظيم ، الذى يمشى على الماء ، فيقطع المسافة البعيدة ، ويعود الى بلده يشق الماء ويمخره ، مقبلا ومدبرا بريح واحدة ، تجرى فى موج كالجبال (٤٢ : ٣٢) وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ٣٣ إِنَّ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَمَنَّ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ٣٤ أَوْ يُوقِنَنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفَوْ عَنْ كَثِيرٍ) ومن الذى حمل فى هذا البيت نبيه وأولياءه خاصة ، وأغرق جميع أهل الارض سواهم ؟

وسل الجاريات يُسْرَأْ من الكواكب ، والشمس ، والقمر : من الذى خلقها ، وأحسن خلقها ، ورفع مكانها ، وزين بها قبة العالم ، وفافوت بين أشكالها ، ومقاديرها ، وألوانها ، وحركاتها ، وأماكنها من السماء ، فمنها الكبير ، ومنها الصغير ، والمتوسط ، والأبيض ، والأحمر ، والزجاجى اللون ، والدُّرِّى اللون ، والمتوسط فى قبة الفلك ، والمتطرف فى جوانبها ، وبين ذلك ؟ ومنها ما يقطع الفلك فى شهر ، ومنها ما يقطعه فى عام ، ومنها ما يقطعه فى ثلاثين عاما ، ومنها ما يقطعه فى أضعاف ذلك ، ومنها ما لا يزال ظاهرا لا يغيب بحال ، فهو أبدي ، ومنها أبدى الخفاء ، ومنها ماله حالتان ظهور واختفاء ، ومنها ماله حركتان حركة عرضية من المشرق الى المغرب ، وحركة ذاتية من المغرب الى المشرق . فخالما يأخذ الكوكب

في الغروب فاذا كوكب آخر في مقابلته ، وكوكب آخر قد طلع ، وهو آخذ في الارتفاع والتصاعد ، وكوكب آخر في الربع الشرق وكوكب آخر في وسط السماء ، وكوكب آخر قد مال عن الوسط ، وآخر قد دنا من الغروب ، وكأنه رقيقه ينتظر بطلوعه غيبته

وأنت اذا تأملت أحوال هذه الكواكب وجدتها تدل على المعاد كما تدل على المبدأ ، وتدل على وجود الخالق ، وصفات كماله ، وربوبيته وحكمته ، ووحدانيته أعظم دلالة . وكل ما دل على صفات جلاله ونعوت كماله دل على صدق رسله ، فكما جعل الله النجوم هداية في طريق البر والبحر ، فهي هداية في طرق العلم بالخالق سبحانه ، وقدرته وعلمه ، وحكمته ، والمبدأ والمعاد ، والنبوة ، ودلالاتها على هذه المطالب لا تقصر عن دلالتها على طرق البر والبحر ، بل دلالتها للعقول على ذلك أظهر من دلالتها على الطرق الحسية ، فهي هداية في هذا وهذا

فصل (٧٨)

وأما دلالة (الْمُقْسَمَاتِ أَمْراً) وهم الملائكة ، فلا أن ما يشاهد من تدبير العالم العلوى والسفلى وما لا يشاهد انما هو على أيدي الملائكة ، فالرب تعالى يدبر بهم أمر العالم ، وقد وكل بكل عمل من الأعمال طائفة منهم ، فوكل بالشمس والقمر والنجوم ، والأفلاك طائفة منهم . ووكل بالقطر والسحاب طائفة ، ووكل بالنبات

طائفة، ووكل بالأجنة والحيوان طائفة، ووكل بالموت طائفة،
وبحفظ بنى آدم طائفة، وباحصاء أعمالهم وكتابتها طائفة، وبالوحي
طائفة، وبالجبال طائفة، وبكل شأن من شئون العالم طائفة، هذا مع
ما فى خلق الملائكة من البهاء والحسن، وما فيهم من القوة والشدة،
ولطافة الجسم، وحسن الخلقة، وكال الانقياد لأمره، والقيام فى
خدمته، وتنفيذ أوامره فى أقطار العالم

ثم أقسم سبحانه بهذه الأمور على صدق وعده، ووقوع جزائه
بالثواب والعقاب. فقال: (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ) أى ما توعدون
من أمر الساعة والثواب والعقاب لحق كائن، وهو وعد صدق
لا كذب. (وإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ) أى ان الجزاء لكائن لا محالة. ويجوز
أن تكون (ما) موصولة، والعائد محذوف. والمعنى ان الذى توعدونه
لصادق، أى كائن وثابت. وأن تكون مصدرية. أى إنَّ وعدكم
لحق وصدق

ووصف الوعد بكونه صادقا أبلغ من وصفه بكونه صدقا. ولا
حاجة الى تكلف جعله بمعنى مصدوق فيه. بل هو صادق نفسه، كما
يوصف المتكلم بأنه صادق فى كلامه. فوصف كلامه بأنه صادق.
وهذا مثل قولهم: سر كاتم، وليل قائم، ونهار صائم، وماء دافق
ومنه (٦٩: ٢١ عِشَّةٌ رَاضِيَةٌ) وليس ذلك بمجاز، ولا مخالف
لمقتضى التركيب

وإذا تأملت هذا التناسب والارتباط بين المقسم به والمقسم عليه وجدته دالاً عليه ، مرشدا اليه

ثم أقسم سبحانه (بالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ) أصل الحبك في اللغة إجادة النسيج . يقال : حبك الثوب اذا أجاد نسجه ، وحبل محبوك إذا كان شديداً للقتل ، وفرس محبوك الكفل ، أى : مدمجه . وقال شمر : المحبوك في اللغة ما أجيد عمله . ودابة محبوكة : اذا كانت مدمجة الخلق . وقال أبو عبيدة : والمبرد : الحبك : الطريق ، واحدها حباك ، وحباك الحمام : طرائق على جناحيه . وحبك الماء طريقه . وقال الفراء : الحبك تكسير كل شيء ، كالرمل اذا مرت به الريح والماء الدائم اذا مرت به الريح . وتجعد الشعر حبك أيضاً ، واحدها حبسكة ، مثل طرق وطريقة ، وحباك مثل مثال ومثل . والمقصود بهذا كله ما أفصح به ابن عباس ، فقال : يريد الخالق الحسن . وروى سعيد بن جبير عنه قال : الحبك حسننها واستواؤها . وقال قتادة : ذات الخلق الشديد . وقال مجاهد : متقنة البنان . وقال أيضاً : ذات الطرائق ولكنها بعيدة من العباد فلا يرونها ، كحبك الماء اذا ضربته الريح ، وكحبك الرمل ، وكحبك الشعر . وقال عكرمة : بنيانها كالبرد المسلسل

قلت وفي الحديث في صفة الدجال « ورأسه حُبْكٌ » أى جعد الشعر . ومن أحسن ما قيل في تفسير الحبك ما ذكره الترمذى في تفسير

الجامع من حديث الحسن ، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « هل تدرون ما فوقكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فانها الرقيعُ سَقْفٌ محفوظ ، وموج مكفوف » وذكر الحديث (١)

(١) روى الترمذى فى تفسير سورة الحديد عن الحسن عن أبي هريرة قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب . فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم « هل تدرون هذا ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم . قال « هذا العنان . هذه روايا الارض ، يسوقه الله الى قوم لا يشكرونه ولا يدعون » ثم قال : « هل تدرون ما فوقكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم قال « فانها الرقيع ، سَقْفٌ محفوظ ، وموج مكفوف » ثم قال « هل تدرون كم بينكم وبينها ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « بينكم وبينها خمسمائة سنة » ثم قال « هل تدرون ما فوق ذلك ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فان فوق ذلك سماءين ما بينهما مسيرة خمسمائة عام » حتى عد سبع سموات ما بين كل سماءين ما بين السماء والارض ثم قال « هل تدرون ما فوق ذلك » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فان فوق ذلك العرش بينه وبين السماء بعد ما بين السماءين » ثم قال « هل تدرون ما الذى تحتكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فانها الارض » ثم قال « هل تدرون ما الذى تحت ذلك ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم قال « فان تحتها أرضا أخرى ، بينهما مسيرة خمسمائة سنة » حتى عد سبع أرضين بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة . ثم قال « والذى نفس

(٧٩) فصل

ثم ذكر المقسم عليه فقال : (إِنَّا كُنَّا نَقُولُ مُخْتَلِفِينَ ، يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ) فالقول المختلف أقوالهم في القرآن وفي النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو خرس كله . فانهم لما كذبوا بالحق اختلفت مذاهبهم ، وآراؤهم ، وطرائقهم ، وأقوالهم . فان الحق شيء واحد وطريق مستقيم . فمن خالفه اختلفت به الطرق والمذاهب ، كما قال تعالى (٥٠ : ٥٠ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ) أى : مختلط ملتبس . وفي ضمن هذا الجواب : أنكم في أقوال باطلة متناقضة ، يكذب بعضها بعضاً ، بسبب تكذيبهم بالحق ثم أخبر سبحانه أنه يصرف بسبب ذلك القول المختلف مَنْ

محمد بيده لو أنكم دليتم بحبل الى الارض السفلى لهبط على الله » ثم قرأ (هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) قال الترمذى : هذا حديث غريب من هذا الوجه . ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلى بن زيد . قالوا : لم يسمع الحسن من أبي هريرة : وفمر بعض أهل العلم هذا الحديث . فقالوا : انما هبط على علم الله وسلطانه . وعلم الله وقدرته وسلطانه في كل مكان . وهو على العرش كما وصف في كتابه اه

صُرِف . فعن ههنا فيها طرف من معنى التسيب ، كقوله (١١ : ٥٣)
وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ)

وقوله (مَنْ أَفَكَ) أى من سبق فى علم الله أنه يضل . ويؤفك ،
كقوله (٣٧ : ١٦١) فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ١٦٢ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِمَاتِينَ
١٦٣ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ)

وقالت طائفة : الضمير يرجع إلى القرآن ، وقيل إلى الايمان .
وقيل إلى الرسول . والمعنى يصرف عنه من صرف حتى يكذب به
ولما كان هذا القول المختلف خرصا وباطلا قال (قَتَلَ الْحَرَّ أَصُونَ)
أى المكذبون (الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ) وجهالة قد عمرت قلوبهم
أى غطتها وغشتها ، كغمرة الماء وغمرة الموت ، فالغمرات ما غطاها
من جهل ، أو هوى ، أو سكر ، أو غفلة ، أو حب ، أو بغض ، أو خوف ،
أو غم ، ونحو ذلك . قال تعالى (بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا)
أى غفلة ، وقيل جهالة .

ثم وصفهم بأنهم ساهون فى غمرتهم . والسهو الغفلة عن الشيء
وذهاب القلب عنه . والفرق بينه وبين النسيان أن النسيان الغفلة
يعد الذكر والمعرفة ، والسهو لا يستلزم ذلك

ثم قال (يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ؟) استبعاداً للوقوع وجحداً .

فأخبر تعالى أن ذلك (يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ) ، والمشهور في تفسير هذا الحرف أنه بمعنى يحرقون ، ولكن لفظة على تعطى معنى زائداً على ما ذكره ، ولو كان المراد نفس الحرق . ل قيل يومهم في النار يفتنون . ولهذا لما علم هؤلاء ذلك قال كثير منهم : على بمعنى في ، كما تكون في بمعنى على . والظاهر أن فتنهم على النار . قيل فتنهم فيها لهم عند عرضهم عليها ، ووقوفهم عليها فتنه ، وعند دخولهم ، والتعذيب بها فتنه أشد منها ، ومن جعل الفتنه ههنا من الحريق . أخذه من قوله تعالى (٨٥ : ١٠) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا) واستشهد على ذلك أيضاً بهذه اللفظة التي في الذاريات . وحقيقة الأمر أن الفتنه تطلق على العذاب وسببه . ولهذا سمي الله الكفر فتنه ، فهم لما أتوا بالفتنة التي هي أسباب العذاب في الدنيا سمي جزاءهم فتنه . ولهذا قال (ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ) وكان وقوفهم على النار وعرضهم عليها من أعظم فتنهم . وآخر هذه الفتنه دخول النار والتعذيب بها ، ففتنوا أولاً بأسباب الدنيا وزينتها . ثم فتنوا بارسال الرسل اليهم . ثم فتنوا بمخالفتهم وتكذيبهم . ثم فتنوا بعذاب الدنيا . ثم فتنوا بعذاب الموت . ثم يفتنون في موقف القيامة . ثم إذا حشروا إلى النار ووقفوا عليها وعرضوا عليها . وذلك من أعظم فتنهم . ثم الفتنه الكبرى التي أنستهم جميع الفتن قبلها

(٨٠) فصل

ثم ذكر سبحانه جزاء من خلع من هذه الفتن بالتقوى ، وهو الجنات والعيون ، وأنهم (آخِذُونَ مَا آتَاهُمُ رَبُّهُمْ) من الخير والكرامة وفى ذلك دليل على أمور : منها قبولهم له . ومنها رضاهم به . ومنها وصولهم اليه بلا مانع ولا عائق . ومنها أن جزاءهم من جنس أعمالهم . فكلما أخذوا ما أمرهم به فى الدنيا وقابلوه بالرضا والتسليم وانشرح الصدر ، أخذوا ما آتاهم من الجزاء كذلك . ثم ذكر السبب الذى أوصلهم إلى ذلك ، وهو احسانهم المتضمن لعبادته وحده لا شريك له ، والقيام بحقوقه ، وحقوق عبادته . ثم ذكر ليلهم . وأنهم قليل هجوعهم منه

وقد قيل : ان (ما) نافية ، والمعنى ما يهجعون قليلا من الليل ، فكيف بالكثير ؟ وهذا ضعيف لوجوه (أحدها) أن هذا ليس بلازم لوصف المتقين الذين يستحقون هذا الجزاء (الثانى) أن قيام من نام من الليل نصفه أحب الى الله من قيام من قامه كله (الثالث) أنه لو كان المراد بذلك احياء الليل جميعه لكان أولى الناس بهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما قام ليلة حتى الصباح (الرابع) أن الله سبحانه إنما أمر رسوله أن يتعهد بالقرآن من الليل لافى الليل كله . فقال (١٧ : ٧٩ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ) (الخامس) أنه سبحانه

لما أمره بقيام الليل في سورة المزمل إنما أمره بقيام النصف ، أو النقصان منه ، أو الزيادة عليه . فذكر له هذه المراتب الثلاثة ، ولم يذكر قيامه كله ﴿السادس﴾ أنه صلى الله عليه وسلم لما بلغه عن عثمان بن مظعون أنه لا ينام من الليل بعث اليه ، فجاء فقال « يا عثمان أرغبتَ عن ستي ؟ » قال : لا والله يا رسول ، ولكن سنتك أطلب . قال « فاني أنا مأ وأصلي ، وأصوم وأفطر ، وأنكح النساء ، فاتق الله يا عثمان ، فان لأهلك عليك حقاً ، وان لضيقتك عليك حقاً ، وان لنفسك عليك حقاً ، فصم وأفطر ، وصل ونم (١) » ولما بلغه عن زينب بنت جحش أنها تصلي الليل كله حتى جعلت جبلاً بين ساريتين إذا فترت تعلقت به أنكر ذلك وأمر بحله (٢) ﴿السابع﴾ أن الله أثنى عليهم بأنهم كانت (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) وتقلق عنها حتى يقوموا إلى الصلاة . ولهذا جازاهم عن هذا التجافى - الذي سببه قلق القلب واضطرابه حتى يقوم إلى الصلاة - بقرة الأعين ﴿الثامن﴾ أن الصحابة الذين هم أول وأولى من دخل في هذه الآية - لم يفهموا منها عدم نومهم بالليل أصلاً . فروى بجير بن سعد عن سعيد عن قتادة عن أنس في قوله (كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون) قال : كانوا يصلون ما بين المغرب والعشاء ﴿التاسع﴾ أن في هذا التقرير تفكيكاً للكلام

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي من حديث عائشة

(٢) رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك .

وتقدّم بالمعمول العامل المنفي عليه ، لأنك تجعل قليلا مفعول يهجعون ، وهو منفي . والبصريون لا يجيزون ذلك وإن أجازوه الكوفيون . وفصل بعضهم ، فأجازوه في الظرف ، ولم يجزه في غيره

(٨١) فصل

وقيل : ما زائدة ، وخبر كان (يَهْجَعُونَ) و (قليلا) منصوب إما على المصدرية ، أى هجوعا قليلا . وإما على الظرف ، أى زمتنا قليلا .

واستشكل هذا بأن نوم نصف الليل وقيام ثلثه ، ثم نوم سدسه أحب القيام إلى الله . فيكون وقت الهجوع أكثر من وقت القيام . فكيف يثنى عليهم بما الأفضل خلافة ؟

وأجيب عن ذلك بأن من قام هذا القيام فزمن هجوعه أقل من زمن يقظته قطعا . فانه مستيقظ من المغرب إلى العشاء ، ومن الفجر إلى طلوع الشمس . فيبقى ما بين العشاء إلى طلوع الفجر ، فيقومون نصف ذلك الوقت . فيكون زمن الهجوع أقل من زمن الاستيقاظ وقيل : ما مصدرية ، وهى فى موضع رفع بقليل ، أى كانوا قليلا هجوعهم . وهو قول الحسن . وقيل : انها موصولة بمعنى الذى ، والعائد محذوف . أى قليلا من الليل الذى يهجعون . وفيه تكلف . وقيل : ما يهجعون بدل اشتغال من اسم كان . والتقدير كان هجوعهم من الليل قليلا . ويرد عليه أن من الليل متعلق يهجعون ، ومعمول

المصدر لا يتقدم عليه . وأجيب عنه أنه منصوب على التفسير ، ومعناه أن يقدر له فعل محذوف ينصبه مفسره هذا المذكور ، وقليلًا خبر كان . وتم الكلام بذلك . والمعنى كانوا صنفاً أو جنسًا قليلًا . ثم قال (مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) وأصحاب هذا القول يجعلون مانافية ، فيعود الكلام الى نفى هجوعهم شيئًا من الليل . وقد تقدم ما فيه ثم أخبر عنهم بأنهم مع صلاتهم بالليل كانوا يستغفرون الله عند السحر . فحتموا صلاتهم بالاستغفار والتوبة ، فباتوا لربهم سجدًا وقيامًا ، ثم تابوا اليه واستغفروه عقيب ذلك . وكان النبي صلى الله عليه وسلم اذا سلم من صلاته استغفر ثلاثًا . وأمره الله سبحانه أن يختم عمره بالاستغفار . وأمر عباده أن يختموا إفاضتهم من عرفات بالاستغفار . وشرع صلى الله عليه وسلم للمتوضئ أن يختم وضوءه بالتوبة . فأحسن ما ختمت به الأعمال التوبة والاستغفار

ثم أخبر سبحانه عن إحسانهم الى الخلق مع إخلاصهم لربهم . فجمع لهم بين الاخلاص والاحسان ، ضد (١٠٧ : ٥) الذين هم براءون ويمنعون الماعون) وأكد إخلاصهم في هذا الاحسان بأن مصرفه للسائل والمحروم ، الذي لا يقصد باعطائه الجزاء منه ولا الشكور . والمحروم المتعفف الذي لا يسأل

وتأمل حكمة الرب تعالى في كونه حرمه بقضائه ، وشرع لأصحاب الجدة اعطائه ، وهو أغنى الأغنياء ، وأجود الأجودين . فلم يجمع

عليه بين الحرمان بالقدر وبالشرع ، شرع عطاءه بأمره وحرمه بقدره ، فلم يجمع عليه حرمانين

(٨٢) فصل

ثم ذكرهم سبحانه بآياته الأفقية والنفسية ، فقال (وَفِي
الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟)
فآيات الارض أنواع كثيرة ، منها خلقها وحدوثها بعد عدمها .
وشواهد الحدوث والافتقار الى الصانع عليها لا تحجد . فانها شواهد
قائمة بها . ومنها بروز هذا الجانب فيها عن الماء ، مع كون مقتضى الطبيعة
أن يكون مغموراً به . ومنها سعتها وكبر خلقها . ومنها تسطيحها ، كما
قال تعالى (٨٨ : ٢٠) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) ولا ينافي ذلك
كونها كرية . فهي كرة في الحقيقة ، لها سطح يستقر عليه الحيوان .
ومنها أنه جعلها فراشا لتكون مقر الحيوان ومساكنه . وجعلها
قرارا . وجعلها مهادا . وجعلها ذلولا توطأ بالأقدام ، وتضرب
بالمعاول ، والفتوس ، وتحمل على ظهرها الأبنية الثقال . فهي
ذلول مسخرة لما يريد العبد منها . وجعلها بساطاً . وجعلها كفانا
للأحياء تضمهم على ظهرها ، والأموات تضمهم في بطنها .
وطحاحا فدها وبسطها ، ووسعها ودحاها ، فيها لما يراود منها بأن
أخرج منها ماءها ومرعاها ، وشق فيها الأنهار ، وجعل فيها السبل

والفجاج . ونبه يجعلها مهادا وفراشا على حكمته في جعلها ساكنة .
وذلك آية أخرى إذ لا دعامة تحتها تمسكها ، ولا علاقة فوقها ،
ولكنها لما كانت على وجه الماء كانت تَكْفَأُ فيه تكفأ السفينة .
فاقتضت العناية الأزلية ، والحكمة الإلهية أن وضع عليها رواسي
يثبتها ، لئلا تميد ، وليستقر عليها الأنام ، وجعلها ذلولا على الحكمة
في أن لم تكن في غاية الصلابة والشدة كالحديد ، فيمتنع حفرها
وشقها ، والبناء فيها ، والغرس ، والزرع ، وبعث النوم عليها ،
والمشي فيها ، ونبه يكونها قرارا على الحكمة في أنها لم تخلق في غاية
اللين والرخاوة والدمائة . فلا تمسك بناء ، ولا يستقر عليها الحيوان
ولا الأجسام الثقيلة . بل جعلها بين الصلابة والدمائة . وأشرف
الجواهر عند الإنسان المذهب ، والفضة ، والياقوت ، والزمرد . فلو
كانت الأرض من هذه الجواهر لفاتت مصالح العباد والحيوان منها ،
وتعطلت المنافع المقصودة منها . وبهذا يعلم أن جواهر التراب أشرف
من هذه الجواهر وأنفع وأبرك ، وإن كانت تلك أعلى وأعز . فغلاؤها
وعزتها قللتها . وإلا فالتراب أنفع منها ، وأبرك ، وأنفس .
وكذلك لم يجعلها شفافة ، فإن الجسم الشفاف لا يستقر عليه النور .
وما كان كذلك لم يقبل السحونة ، فيبقى في غاية البرد ، فلا يستقر
عليه الحيوان ، ولا يتأذى فيه النبات . وكذلك لم يجعلها صقيلة
براقة ، لئلا يحترق ما عليها بسبب انعكاس أشعة الشمس ، كما يشاهد
من احتراق القطن ونحوه عند انعكاس شعاع الجسم الصقيل الشفاف .

فاقتضت حكمته سبحانه أن جعلها كثيفة غبراء ، فصلحت أن تكون مستقرا للحيوان ، والألنام ، والنبات
ولما كان الحيوان الهوائى لا يمكنه أن يعيش فى الماء كالحيوان المائى أبرز له جانبها كما تقدم ، وجعله على أوفق الهيئات لمصلحه وأنشأ منها طعامه وقوته . وكذلك خلق منها النوع الانسانى ، وأعادها اليها ويخرجه منها

(٨٣) فصل

ومن آياتها أن جعلها مختلفة الأجناس ، والصفات ، والمنافع مع أنها قطع متجاورات ، متلاصقة . فهذه سهلة ، وهذه حزنة ، تجاورها وتلاصقها . وهذه طيبة تنبت ، وتلاصقها أرض لا تنبت . وهذه تربة ، وتلاصقها رمال . وهذه علية ، وتلاصقها ويليا رخوة . وهذه سوداء ، ويليا أرض بيضاء . وهذه حصى كلها ، ويجاورها أرض لا يوجد فيها حجر . وهذه تصلح لنبات كذا وكذا . وهذه لا تصلح له بل تصلح لغيره . وهذه سبخة مالحة . وهذه بضدها . وهذه ليس فيها جبل ، ولا معلم . وهذه مسجرة بالجبال . وهذه لا تصلح الا على المطر . وهذه لا ينفعها المطر ، بل لا تصلح الا على سقى الأنهار ، فيمطر الله سبحانه الماء على الأرض البعيدة ، ويسوق الماء اليها على وجه الأرض
فلو سألتها من نوعها هذا التنوع ؟ ومن فرق أجزائها هذا

التفريق ؟ ومن خصص كل قطعة منها بما خصها به ؟ ومن ألقى عليها رواسبها ، وفتح فيها السبل ، وأخرج منها الماء والمرعى ؟ ومن أمسكها عن الزوال ؟ ومن بارك فيها ، وقدر فيها أقواتها ، وأنشأ منها حيوانها ونباتها ؟ ومن وضع فيها معادنها وجواهرها ومنافعها ؟ ومن هياها مسكناً ومستقراً للأنام ؟ ومن يبدأ الخلق منها ، ثم يعيده اليها ، ثم يخرجها منها ؟ ومن جعلها ذلولاً غير مستعبدة ولا متمتعة ؟ ومن وطأ مناكبها ، وذلل مسالكها ، ووسع مخارجها ، وشق أنهارها ، وأنبث أشجارها ، وأخرج ثمارها ؟ ومن صدعها عن النبات ، وأودع فيها جميع الأقوات ؟ ومن بسطها ، وفرشها ومهد ما وذلها ، وطحها ، ودحاها ، وجعل ما عليها زينة لها ؟ ومن الذى أمسكها أن تتحرك فتزلزل فيسقط ما عليها من بناء ومعلم ، أو يخسفها بمن عليها فاذا هى تمور ؟ ومن الذى أنشأ منها النوع الانسانى الذى هو أبداع المخلوقات ، وأحسن المصنوعات ، بل أنشأ منها آدم ، ووحاً ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمداً صلى الله عليه وسلم عليهم أجمعين. وأنشأ منها أوليائه ، وأحباءه وعباده الصالحين ؟ ومن جعلها حافظة لما استودع فيها من المياه ، والأرزاق ، والمعادن ، والحيوان ؟ ومن جعل بينها وبين الشمس والقمر هذا القدر من المسافة ، فلو زادت على ذلك لضعف تأثيرها بحرارة الشمس ونور القمر ، فتعطلت المنفعة الواصلة الى الحيوان

والنبات بسبب ذلك . ولو زادت في القرب لاشتدت الحرارة
والسخونة - كما نشاهده في الصيف - فاحترقت أبدان الحيوان
والنبات . وبالجملـة فكانت تفوت هذه الحكمة التي بها انتظام العالم ؟
ومن الذي جعل فيها الجنات والحدائق ، والعيون ؟ ومن الذي
جعل باطنها بيوتا للأموات ، وظاهرها بيوتا للأحياء ؟ ومن الذي
يحييها بعد موتها فينزل عليها الماء من السماء ، ثم يرسل عليها الريح
ويطلع عليها الشمس ، فتأخذ في الحبل ، فاذا كان وقت الولادة
منخفضت للوضع ، واهتزت وأنبئت من كل زوج بهيج .

فسبحان من جعل السماء كالآب ، والأرض كالآم ، والقطر
كالماء الذي ينعدق منه الولد ، فاذا حصل الحب في الأرض ،
ووقع عليه الماء ، أثرت نداوة الطين فيه ، وأعاتتها السخونة
المختفية في باطن الأرض ، فوصلت النداة والحرارة الى باطن
الحبة ، فأتسعت الحبة وربت ، وانتفخت ، وانفلقت عن ساقين :
ساقٍ من فوقها وهو الشجرة . وساقٍ من تحتها وهو العرق . ثم
عظم ذلك الولد حتى لم يبق لأبيه نسبة اليه . ثم وضع من الأولاد
بعد أبيه آلاف مؤلفة ، كل ذلك صنع الرب الحكيم في حبة واحدة
لعلها تبلغ في الصغر الى الغاية . وذلك من البركة التي وضعها الله
سبحانه في هذه الأم

فيا لها من آية تكفي وحدها في الدلالة على وجود الخالق ، وصفات

كلامه وأفعاله ، وعلى صدق رسله فيما أخبروا به عنه ، باخراج من
في القبور ليوم البعث والنشور

فتأمل اجتماع هذه العناصر الأربعة وتجاوزها ، وامتزاجها ،
وحاجة بعضها إلى بعض ، وانفعال بعضها عن بعض ، وتأثيره فيه
وتأثره به ، بحيث لا يمكنه إلا الاتباع ، من التأثير والانفعال ، ولا يستقل
الآخر بالتأثير ، ولا يستغنى عن صاحبه ، وفي ذلك أظهر دلالة
على أنها مخلوقة ، مصنوعة ، مربوبة ، مدبرة ، حادثة بعد عدمها ،
فقيرة الى موجد غنى عنها ، مؤثر غير متأثر ، قديم غير حادث ،
تنقاد المخلوقات كلها لقدرته ، وتجب داعى مشيئته ، وتبلى داعى
وحدانيته وربوبيته ، وتشهد بعلمه وحكمته ، وتدعو عباده الى
ذكره وشكره وطاعته وعبوديته ومحبته ، وتحذرهم من بأسه
ونقمته ، وتحثهم على المبادرة الى رضوانه وجنته

فانظر الى الماء والأرض ، كيف لما أراد الرب تعالى امتزاجهما
وازدواجهما أنشأ الرياح ، فحركت الماء ، وساقته الى أن قذفته في
عمق الأرض . ثم أنشأ لها حرارة لطيفة سماوية ، وحصل بها
الانبات . ثم أنشأ لها حرارة أخرى أقوى منها حصل بها الانفتاح
وكانت حالته الأولى تضعف عن الحرارة الثانية ، فادخرت الى
وقت قوته وصلابته . فحرارة الربيع للاخراج . وحرارة الصيف
للانضاج . هذا وإن الأم واحدة ، والأب واحد ، واللقاح واحد

والأولاد في غاية التباین والتنوع. كما قال تعالى (١٣ : ٤) وفي
الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ
صِنُوفٌ وَأَنْوَاعٌ صِنُوفٌ أَنْ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ
فِي الْأُكْلِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

فهذا بعض آيات الأرض. ومن الآيات التي فيها وقائعه سبحانه التي
أوقعها بالأمم المكذبين لرسولهم، المخالفين لأمره، وأبقى آثارهم دالة عليهم
كما قال تعالى (٢٩ : ٣٨) وَعَادًا وَنَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ
وقال في قوم لوط (٣٧ : ١٣٧) وَإِنْ كُنْتُمْ لَتَمُوتُنَّ عَلَيْهِمْ مُصِيبِينَ
١٣٨ وبالآيَاتِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟) وقال (١٥ : ٧٣) فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ
مُشْرِقِينَ ٧٤ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِنْ
سِجِّيلٍ ٧٥ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ٧٦ وَإِنَّمَا الْبَيْتُ الْمَقِيمُ
أَيُّ بِطَرِيقٍ ثَابِتٍ لَا يَزُولُ عَنْ حَالِهِ ، وقال (١٥ : ٧٨) وَإِنْ كَانَ
أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أَظَالِمِينَ ٧٩ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا بِلِأَمَامٍ مُبِينٍ
أَيُّ دِيَارٍ هَاتَيْنِ الْأُمْتِينَ لِبَطْرِيقٍ وَاضِحٍ يَمُرُّ بِهِ السَّالِكُونَ . وقال
تعالى (١٤ : ٤٥) وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ
لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ . وقال عن قوم عاد (٤٦ : ٢٥) فَأَصْحَبُوا
الْأَيْرَى إِلَّا مَسَاكِينَهُمْ) وقال (٣٢ : ٢٦) أَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا

مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ) فأى دلالة أعظم من رجل يخرج وحده ، لعدة له ولا عدد ، ولا مال . فيدعو الأمة العظيمة إلى توحيد الله والايمان به وطاعته ، ويحذرهم من بأسه ونقمته ، فتتفق كلمتهم ، أو أكثرهم على تكذيبه ، ومعاداته . فيذكرهم أنواع العقوبات الخارجة عن قدرة البشر ، فيغرق المكذبين كلهم تارة ، ويخسف بغيرهم الأرض تارة ، ويهلك آخرين بالريح ، وآخرين بالصيحة ، وآخرين بالمسخ ، وآخرين بالحجارة ، وآخرين بظلمة من النار من فوقهم ، وآخرين بالصواعق وآخرين بأنواع العقوبات ، وينجو داعيهم ومن معه . والهاكون أضعاف أضعاف أعدا وقوة ، ومنعة وأموالا

فيالك من آيات حق لو اهتدى * بهن مريد الحق ، كن هواديا ولكن على تلك القلوب أكنة * فليست وإن أصغت تجيب المناديا فهلا امتنعوا - ان كانوا على الحق وهم أكثرهم عددا ، وأقوى شوكة - بقوتهم وعددهم من بأسه وسلطانه ، وهلا اعتصموا من عقوبته ، كما اعتصم من هو أضعف منهم من أتباع الرسل ؟

ومن الآيات التي في الأرض مما يحدثه الله فيها كل وقت ما يصدق به رسله فيما أخبرت به ، فلا تزال آيات الرسل وأعلام صدقهم ، وأدلة نبوتهم يحدثها الله سبحانه وتعالى في الأرض ، إقامة للحجة على من لم يشاهد تلك الآيات التي قاربت عصر الرسل ،

حتى كأن أهل كل قرن يشاهدون ما يشاهده الأولون أو نظيره ، كما قال (٤١ : ٥٣ سُرِّبَهُمْ آيَاتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) وهذه الإرادة لا تختص بقرن دون قرن ، بل لا بد أن يرى الله سبحانه أهل كل قرن من الآيات ما يبين لهم أنه الله الذي لا اله إلا هو ، وأن رسله صادقون ، وآيات الأرض أعظم مما ذكر ، وأكثر ، فبه باليسير منها على الكثير

(٨٤) فصل

ثم قال (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟) لما كان أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه دعاه خالقه وبارئه ومصوره ، وفاطره من قطرة ماء إلى التبصر ، والتفكير في نفسه . فاذا تفكر الإنسان في نفسه استنارت له آيات الربوبية ، وسطعت له أنوار اليقين ، واضمحلت عنه غمرات الشك والريب ، وانقشعت عنه ظلمات الجهل . فانه إذا نظر في نفسه وجد آثار التدبير فيه قائمات ، وأدلة التوحيد على ربه ناطقات ، شاهدة لمدبره ، دالة عليه ، مرشدة اليه ؛ إذ يجده مكونا من قطرة ماء : لحوما منضدة ، وعظاما مركبة ، وأوصالا متعددة ، مأسورة مشددة بخبال العروق والأعصاب . قد قطعت وشدت ، وجمعت بجلد متين ، مشتمل على ثلاثمائة وستين مفصلا ما بين كبير وصغير ، وثخين ودقيق ، ومستطيل ومستدير ، ومستقيم

ومنحن ، وشدت هذه الأوصال بثلاثمائة وستين عرقا ، للاتصال
والانفصال ، والقبض والبسط ، والمد والضم ، والصنائع والكتابة
وجعل فيه تسعة أبواب : فبابان للسمع ، وبابان للبصر ، وبابان
للشم ، وبابان للكلام والطعام والشراب والتنفس ، وبابان لخروج
الفضلات التي يؤذيها احتباسها

وجعل داخل بابي السمع مرقا قاتلا ، لئلا تلج فيها دابة تخلص
الى الدماغ فتؤذيها . وجعل داخل بابي البصر مالحا ، لئلا تذيب
الحرارة الدائمة ماهناك من الشحم . وجعل داخل باب الطعام
والشراب حلوا ، ليسيغ به ما يأكله ويشربه . فلا يتنقص به لو
كان مرا أو مالحا

وجعل له مصباحين من نور كالسراج المضيء ، مركبين في أعلى
مكان منه . وفي أشرف عضو من أعضائه ، طليعة له . وركب هذا
النور في جزء صغير جدا يبصر به السماء والأرض وما بينهما ،
ووغشاها بسبع طبقات وثلاث رطوبات ، بعضها فوق بعض ، حماية
له وصيانة وحراسة . وجعل على محله غلقا بمصراعين أعلا وأسفل ،
وركب في ذيل المصراعين أهذا بابا من الشعر وقاية للعين ، وزينة
وجمالا . وجعل فوق ذلك كله حاجبين من الشعر ، يحجبان العين
من العرق النازل . ويتلقيان عنها ما ينصب من هناك . وجعل
سبحانه لكل طبقة من طبقات العين شيئا مخصوصا ، ولكل واحد

من الرطوبات مقدارا مخصوصا ، لوزاد على ذلك أو نقص منه
لاختلت المنافع والمصالح المطلوبة . وجعل هذا النور الباصر في
قعر عدسة . ثم أظهر في تلك العدسة صورة السماء والأرض ،
والشمس والقمر والنجوم ، والجبال ، والعالم العلوى والسفلى ، مع
اتساع أطرافه ، وتباعد أقطاره . واقتضت حكمته سبحانه أن جعل
فيها بياضا وسوادا ، وجعل القوة الباصرة في السواد ، وجعل البياض
مستقرا لها ومسكنا ، وزين كلا منهما بالآخر . وجعل الحدقة مصونة
بالأجفان والحواجب كما تقدم ، والحواجب بالأهداب ، وجعلها
سوداء ، إذ لو كانت بيضاء لفرق النور الباصر ، فضعف الإدراك ،
فإن السواد يجمع البصر ، ويمنع من تفرق النور الباصر . وخلق
سبحانه لتحريك الحدقة وتقليبها أربعا وعشرين عضلة ، لو نقصت
عضلة واحدة لاختل أمر العين

ولما كانت العين كالمرآة ، التي إنما تنطبع فيها الصور إذا كانت
في غاية الصقالة والصفاء ، جعل سبحانه هذه الأجفان متحركة جدا
بالطبع إلى الانطباق ، من غير تكلف ، لتبقى هذه المرآة نقية صافية
من جميع الكدورات . ولهذا لما لم يخلق لعين الذبابة أجفانا فانها
للاتزال تراها تنظف عينها بيدها من آثار الغبار والكدورات

(١٥) فصل

وكما جعل سبحانه العينين مؤديتين للقلب ما يريانه ، فيوصلانه

اليه كما ترياه جعلهما مرأتين للقلب ، يظهر فيهما ماهو مودع فيه من الحب والبغض ، والخير والشر ، والبلادة والفتنة ، والزيف والاستقامة . فيستدل بأحوال العين على أحوال القلب ، وهو أحد أنواع الفراسة الثلاثة : وهى فراسة العين ، وفراسة الأذن ، وفراسة القلب . فالعين مرآة للقلب ، وطليعة ورسول . ومن عجيب أمرها أنها من أطف الأعضاء ، وأبعدها تأثراً بالحر والبرد ، على أن الأذن على صلابتها وغلظها تتأثر بهما أكثر من تأثر العين على لطاقها . وليس ذلك بسبب الغطاء الذى عليها من الأجفان ؛ فانها لو كانت منفتحة لم تتأثر بذلك تأثر الأعضاء اللطيفة

(٨٦) فصل

ومن ذلك الأذنان ، شقهما تبارك وتعالى فى جانبي الوجه ، وأودعهما من الرطوبة ما يكون معينا على إدراك السمع . وأودعهما القوة السمعية . وجعل سبحانه فى هذه الصدفة انحرافات واعوجاجات ، لتطول المسافة قليلا ، فلا يصل الهواء إلا بعد انكسار حدته ، فلا يصدمها وهلة واحدة ، فيؤذيها . وأيضا لئلا يفجأها الداخل اليها من الديدب والحشرات ، بل إذا دخل الى عوجة من تلك الانعطافات وقف هناك ، فسهل اخراجه

وكانت العينان فى وسط الوجه والأذنان فى جانبيه ، لأن العينين محل الملاحظة والزينة والجمال ، وهما بمنزلة النور الذى يمشى بين

يدى الانسان . وأما الاذنان فكان جعلهما فى الجانبين لكون إدرا كهما
لما خلف الانسان ، وامامه ، وعن يمينه ، وعن شماله سواء . فتأتى
المسموعات اليهما على نسبة واحدة . وخلق العنان بغطاء ، والأذنان
بغير غطاء . وهذا فى غاية الحكمة . اذ لو كان للأذنين غطاء لمنع
الغطاء إدراك الصوت ، فلا يحصل الا بعد ارتفاع الغطاء . والصوت
عرض لاثبات له ، فكان يزول قبل كشف الغطاء ، بخلاف ماتراه
العين ، فانه أجسام وأعراض لا تزول فيما بين كشف الغطاء وفتح
العين . وجعل سبحانه الأذن عضوا غُضْرُوفِيًّا ليس بلحم مسترخٍ ،
ولا عظم صلب ، بل هى بين الصلابة واللين ، فتقبل بليتها ، وتحفظ
بصلابتها ، ولا تنصدع انصداع العظام ، ولا تتأثر بالحر والبرد ،
والشمس والسموم تأثر اللحم . إذ المصلحة فى بروزها لتلقى ما يرد
عليها من الأصوات والابخار

(٨٧) فصل

ومن ذلك الأنف ؛ نصبه سبحانه فى وسط الوجه قائما معتدلا ، فى
أحسن شكل وأوفقه للنفعة ، وأودعه حاسة الشم ، التى يدرك بها
الروائح وأنواعها ، وكيفياتها ، ومنافعها ، ومضارها . ويستدل بها
على مضار الأغذية والأدوية ، ومنافعها . وأيضا فانه يستنشق بالمتخيرين
الهواء البارد الرطب ، فيؤديه الى القلب ، فيتروح به ، فيستغنى بذلك
عن فتح الفم أبدا . وجعل تجويفه بقدر الحاجة ، فلم يوسعه عن

ذلك ، فيدخله هواء كثير ، ولم يضيقه فلا يدخله من الهواء ما يكفي .
 وجعل ذلك التجويف مستطيلا ، لينحصر فيه الهواء ، وينكسر برده
 وحدته قبل أن يصل إلى الدماغ . فلولا ذلك لصدمه بحدته وقوته
 والهواء الذي يستنشقه الأنف ينقسم شطرين : شطرا يصعد إلى
 الدماغ ، وشطرا ينزل إلى الرئة ، وهو من آلات النطق ، فان له
 اعانة على تقطيع الحروف . وكما أن تجويفه جعل لاستنشاق الهواء ،
 فانه جعل مصبا لفضلات الدماغ ، تنحدر منه في تلك القصبة ،
 فيخرج ، فيستريح الدماغ ، ولذلك جعل عليها سترا ، ولم يجعلها بارزة
 فتستقبحها العيون . وجعل فيها تجويفا . فانه قد ينسد أحدهما ، أو
 يعرض له آفة تمنعه من الادراك والاستنشاق ، فيبق التجويف الثاني
 نائبا عنه يعمل عمله ، كما اقتضت الحكمة مثل ذلك في العينين
 ثم تأمل الهواء الذي يستنشقه الأنف ، كيف يدخل أولا
 من المنخرين ، وينكسر برده هناك . ثم يصل إلى الحلق ، فيعتدل
 مزاجه هناك . ثم يصل إلى الرئة ألطف ما يكون . ثم تبعثه الرئة إلى
 القلب ، فيروح عن الحرارة الغريزية التي فيه . ثم ينفذ من القلب
 إلى العروق المتحركة ، ويبلغ إلى أقاصى أطراف البدن . ثم اذا سخن
 في الباطن وخرج عن حد الارتفاع خرج عن تلك الأقاصى إلى البدن ، ثم
 إلى الرئة ، ثم إلى الحلقوم ، ثم إلى المنخرين خارجا ، فيخرج منهما و يعود
 عوضه هواء بارد نافع . والنفس الواحد من أنفاس العبد إنما يتم
 بمجموع هذه الامور والقوى ، والافعال . وهو له في اليوم والليلة

أربعة وعشرون الف نفس ، لله في كل نفس عدة نعم ، قد وقفت على القليل منها ، فما ظنك بما وراء التنفس من الأعضاء ، والقوى ، ومنافعها ، وتمام النعمة بها ؟

١٨٨ فصل

وأما الفم فحل العجائب ، وباب الطعام ، والشراب ، والنفس ، والكلام ، ومسكن اللسان الناطق الذى هو آلة العلوم ، وترجمان القلب ، ورسوله المؤدى عنه .

ولما كان القلب ملك البدن ، ومعدنا للحرارة الغريزية ، فاذا دخل الهواء البارد وصل اليه فاعتدلت حرارته وبقي هنالك ساعة فسخن واحترق ، فاحتاج القلب إلى دفعه واخراجه . فجعل أحكم الحاكمين اخراجه سبيلاً لحدوث الصوت فى الحنجرة ، والحنك ، واللسان ، والشفيتين ، والأسنان مقاطع ومخارج مختلفة ، وبسبب اختلافها تميزت الحروف بعضها عن بعض ثم ألهم العبد تركيب تلك الحروف ليؤدى بها عن القلب ما يأمر به

فتأمل الحكمة الباهرة حيث لم يضع سبحانه ذلك النفس المستغنى عنه المحتاج الى دفعه واخراجه ، بل جعل فيه إذا استغنى عنه منفعة ومصلحة هى من أكمل المنافع والمصالح . فان المقصود الأصلى من النفس هو اتصال الريح البارد الى القلب . فأما اخراج النفس فهو جار مجرى دفع الفضلة الفاسدة . فصرفت ذلك سبحانه الى رعاية مصلحة ومنفعة أخرى . وجعله سبيلاً للأصوات والحروف والكلام

ثم انه سبحانه جعل الحناجر مختلفة الأشكال : فى الضيق ،
والسعة ، والخشونة ، والملاسة ، لتختلف الأصوات باختلافها .
فلا يتشابه صوتان كما لا تتشابه صورتان . وهذا من أظهر الأدلة .
فان هذا الاختلاف - الذى بين الصور والأصوات على كثرتها وتعددتها
فقلبا يشته صوتان أو صورتان - ليس فى الطبيعة ما يقتضيه . وانما
هو صنع الله الذى أتقن كل شئ ، وأحسن كل شئ خلقه . فتبارك
الله رب العالمين ، وأحسن الخالقين . فميز سبحانه بين الأشخاص
بما يدركه السمع والبصر

(١٩) فصل

وأودع اللسان من المنافع منفعة الكلام - وهى أعظمها -
ومنفعة الذوق والادراك ، وجعله دليلا على اعتدال مزاج القلب
وانحرافه ، كما جعله دليلا على استقامته واعوجاجه . فترى الطبيب
يستدل بما يبدو للبصر على اللسان من الخشونة ، والملاسة ، والبياض
والحمرة ، والتشقق وغيره ، على حال القلب والمزاج . وهو دليل
قوى على أحوال المعدة والأمعاء ، كما يستدل السامع بما يبدو عليه من
الكلام على ما فى القلب ، فيبدو عليه صحة القلب وفساده معنى وصورة

(٩٠) فصل

وجعل سبحانه اللسان عضواً لحما ، لا عظم فيه ولا عصب ، لتسهيل حركته . ولهذا لا تجد في الأعضاء من لا يكثرث بكثرة الحركة سواء . فإن أى عضو من الأعضاء إذا حركته كما تحرك اللسان لم يطق ذلك ، ولم يلبث أن يكل ويخلد الى السكون ، إلا اللسان . وأيضا فإنه من أعدل الأعضاء وألطفها ، وهو فى الأعضاء بمنزلة رسول الملك ونائبه . فزاجه من أعدل أمزجة البدن ويحتاج الى قبض وبسط ، وحركة فى أقاصى الفم وجوانبه . فلو كان فيه عظام لم يتيأ منه ذلك ، ولم يتيأ منه الكلام التام ولا الذوق التام . فكونه الله كما اقتضاه السبب الفاعلى والغاى . والله أعلم

(٩١) فصل

وجعل سبحانه على اللسان غلقين : أحدهما الاسنان ، والثانى الفم . وجعل حركته اختيارية . وجعل على العين غطاء واحدا . ولم يجعل على الاذن غطاء . وذلك لخطر اللسان وشرفه ، وخطر حركاته ، وكونه فى الفم بمنزلة القلب فى الصدر . وذلك من اللطائف . فإن آفة الكلام أكثر من آفة النظر ، وآفة النظر أكثر من آفة السمع . فجعل للاكثر آفات طيقين ، وللمتوسط طبقا . وجعل الأقل آفة بلا طبق

(٩٢) فصل

وجعل سبحانه الفم أكثر الأعضاء رطوبة ، والريق يتحلل اليه دائماً لا يفارقه . وجعله حلواً لا مالحاً كما العين ، ولا مرّاً كالذى فى الأذن ، ولا عفناً كالذى فى الأنف ، بل هو أعذب مياه البدن وأحلاها . حكمة بالغة . فان الطعام والشراب يخالطه ، بل هو الذى يحيل الطعام ويمتزج به امتزاج العجين بالماء . فلو لا أنه حلوا لما التذ الانسان ، بل ولا الحيوان ، بطعام ولا شراب ولا ساغه الا على كرهه وتغيص . ولما كان كثير من الطعام لا يمكن تحوله الا بعد طبخه ، جعل الرب تعالى له آلة للتقطيع والتفصيل ، وآلة للطحن . فجعل آلة القطع - وهى الشايات وما يليها - حادة الرأس ليسهل بها القطع . وجعل النواجد وما يليها من الأضراس مسطحة الرأس ، عريضة ، ليتأتى بها الطحن . ونظمها أحسن نظام كاللؤلؤ المنظم فى سلك ، وجعلها من الجانب الأعلى والأسفل ، ليتأتى بها القطع والطحن . وجعلها من الجانب الايمن والائيسر ، اذ ربما كلت احدى الآلتين ، أو تعطلت أو عرض لها عارض . فينتقل الى الآلة الأخرى . وأيضاً لو كان العمل على جانب واحد دائماً أو شك أن يتعطل ويضعف . وتأمل كيف أنبت سبحانه من نفس اللحم ، وتخرج من خلاله . نابتة ، كما ينبت الزرع فى الارض ، ولم يكسها سبحانه لحماً ،

كسائر العظام سواها ، اذ لو كساها اللحم لتعطلت المنفعة المقصودة .
ولما كانت العظام محتاجة الى لحم يكسوها ويحفظها ، ويتلقى عنها
الحرارة والبرد ، ويحفظ عليها رطوبتها ، لم تكمل مصلحة الحيوان
الا بهذه الكسوة . ولما كانت عظام الانسان محتاجة الى ذلك
من وجه مستغنية عنه من وجه ، جعلت كسوتها منفصلة عنها
وجعلت هي المكتسبة العارية لتمام المنفعة بذلك . ولما كانت آلة
القطع والكسر والطحن لم تنشأ مع الطفل من أول نشأته - كسائر
عظامه ، لعدم الحاجة اليها - عطل عنها وقت استغنائه عنها
بالرضاع ، وأعطيا وقت حاجته اليها . وفيه حكمة أخرى ،
وهي أنه لو نشأت معه من حين يولد لاضرت بحملة الثدي . اذ
لا عقل له يحرزه عن عضها ، فكانت الأم تمتنع من ارضاعه
ومن عجيب أمرها الاتفاق والموالاتة التي بينها وبين المعدة ،
فانه يسلم اليها الشيء اليابس والصلب فتطحنه ، ثم تسلمه الى
اللسان فيعجنه . ثم اللسان يسلمه الى الحلق فيوصله الى المعدة فتضججه
وتطبخه . ثم يرسل اليها منه معلومها المقدر لها . فاذا عجزت عن
قطع شيء وطحنه عجزت المعدة عن انضاجه وطبخه . واذا كلت
الأسنان كلت المعدة ، واذا ضعفت ضعفت
وهي تصحب الانسان وتخدمه ما لم يرها ، فاذا وقعت عينه

عليها فارقتها الأبد (١) وهي سلاح ومنشار ، وسكين ، وروح ، وزينة . وفيها منافع ومصالح غير هذه

فصل (٩٣)

ثم تأمل حال الشعر ومنبته وسببه . فإن البدن لما كان حاراً رطباً . والحرارة اذا عملت في الرطوبة فلا بد أن تثير بخاراً ، وتلك الأبخرة تتصاعد من عمق البدن الى سطحه ، وتريد الانفصال من هناك ، فلا بد أن تحدث مساماً ومنافذ في ظاهر الجلد . وتلك الأبخرة اما أن تكون رطبة لطيفة ، حينئذ تنفصل من المسام ولا تحدث شيئاً . واما أن تكون دخانية يابسة غليظة ، فالجلد حينئذ إما أن يكون في نهاية النعومة والنضارة ، كجلد الصبيان ، أو في غاية اليبس والقشف ، أو يكون معتدلاً ، فاذ ذاك لا يتولد فيه الشعر . لأن البخار اذا شق سطح الجلد وانفصل عاد الجلد في الحال الى اتصاله الأول ، بسبب كثرة رطوبته ونعومته . مثاله السمك اذا رفع رأسه من الماء انشقق له الماء ، فاذا عاد الى الماء عاد الماء الى اتصاله الاول ، وكذلك نشاهد الأشياء الرطبة كالنشاء مثلاً - اذا أغلى فخرج البخار من موضع الغليان عادت الرطوبة الى الموضع الذي خرج منه ذلك البخار فسدته ، فان كان

(١) كأن الشيخ رحمه الله يريد الرؤية التي تكون بخلفها عن موضعها لا التي تكون بالمرآة مثلاً

الجلد في غاية اليبس لم يتولد الشعر ؛ لان الجلد اليابس اذا اتقب بقيت تلك الثقب مفتوحة ليس الجلد ، فيفرق أجزاءه البخار ولا يجتمع بعضه الى بعض . فان الجلد متوسط بين النعومة والكثافة ، فانه ينفث فيه المسام بسبب تلك الأبخرة ولا يعود ينسد بعد خروج البخار ، ولكن لا تبقى المسام شديدة الانفتاح ، وحينئذ يبقى ذلك البخار الدخان في تلك الثقب لا يزال يمدد بخار آخر يدفعه أولا فأولا الى خارج ، من غير أن ينقطع أصله ، فيبقى بعضه مركوزا في الجلد ، منزلة منزلة أصل النبات . وبعضه يطلع الى خارج ، منزلة منزلة ساق النبات . وكذلك الشعر . فمادة الشعر هي البخار الدخان اليابس . وسببه هو الحرارة الطبيعية المحركة لذلك البخار ، والآلة التي بها يتم أمره هي المسام التي ارتكن فيها البخار فتلبد هناك فصار شعرا باذن الله تعالى والغاية التي من أجلها وجد شيئان : أحدهما عام ، وهو تنقية البدن من الفضول الدخانية الغليظة . والآخر خاص ، وهو إما للزينة ، وإما للوقاية

وإذا بان أن الشعر انما يتولد مع الحرارة وليس المعتدل بقيت ثلاثة أقسام : أحدها حرارة غالبية على اليبس ، كالصبيان . الثاني عكسه ، وهو ييبس غالب على الحرارة ، كالمشائخ . الثالث حرارة ضعيفة وييبس ضعيف ، كأبدان النساء . ففي هذه الأقسام

يقول الشعر . وأما الشباب فان حرارة أبدانهم ويسبهم معتدل
فيقوى تولد الشعر فيهم

وفي شعر الرأس منافع ومصالح : منها وقايته عن الحر والبرد
والمرض . ومنها الزينة والحسن

والسبب الذي صار به شعر الرأس أكثر من شعر البدن هو أن
البخار شأنه أن يصعد من جميع البدن إلى الدماغ ، ومن الدماغ
إلى فوق . وكان هذا الشعر نامياً على الدوام ؛ لأن البخار يتصاعد
إلى الرأس أبداً ، وهو مادة الشعر ، فبناء الشعر ينمو البخار . وكان
فيه تخليص للبدن من تلك المواد وتكثير لوقايته وغطائه

٩٤ فصل

وأما شعر الحاجبين ففيه - مع الحسن والزينة والجمال - وقاية
العين مما ينحدر من الرأس . وجعل على هذا المقدار لانه لو نقص عنه
لزال منفعة الجمال والوقاية . ولو زاد عليه لغطى العين وأضر بها
وحال بينها وبين ماتدركه . وقد ذكرنا منفعة شعر الهذب
ولما كان الأنفع والأصلح أن يكون شعر الهذب قائماً منتصباً
وأن يكون باقياً على حال واحد في مقدار واحد ، جعل منبت
هذا الشعر في جرم صلب شبيه بالغضروف ، يمتد في طول الجفن
ثلاثاً يطول وينمو . وهذا كما نشاهد النبات الذي ينبت في الأرض
الرخوة اللينة فانه يطول ويزداد ، والذي ينبت في الأرض

الصخرية الصلبة لا ينمو الا نمو اسيرا . فكذلك الشعر النبات
فى الأعضاء اللينة الرطبة، فانه سريع النمو كشعر الرأس والعانة

(٩٥) فصل

وأما شعر اللحية ففيه منافع : منها الزينة ، والوقار ، والهيبة .
ولهذا لا يرى على الصبيان والنساء من الهيبة والوقار ما يرى على
على ذوى اللحي . ومنها التمييز بين الرجال والنساء
فان قيل : لو كان شعر اللحية زينة لكان النساء أولى به من
الرجال ، لحاجتهن إلى الزينة ، وكان التمييز يحصل بخلو الرجال منه ،
ولكان أهل الجنة أولى به . وقد ثبت أنهم جرد مرد ؟
قيل : الجواب أن النساء لما كن محل الاستمتاع والتقبيل ، كان
الأحسن والأولى خلوهن عن اللحي . فان محل الاستمتاع إذا
خلا عن الشعر كان أتم . ولهذا المعنى - والله أعلم - كان أهل الجنة
مردا ، ليكمل استمتاع نساءهم بهم ، كما يكمل استمتاعهم بهم .
وأيضا فانه أكشف لمحاسن الوجوه . فان الشعر يستر ماتحته من
البشرة أن يمس بشرة المرأة . والله أعلم بحكمته فى خلقه

(٩٦) فصل

وأما شعر العانة، والابط، والأنف فمنفعته تنقية البدن من الفضلة،
ولهذا إذا أزيل من هذا الموضع وجد البدن خفة ونشاطا . وإذا

وفر وجد ثقلا وكسلا وغما . ولهذا جاءت الشريعة بحلق العانة ،
وتنف الابط . وكان حلق العانة أولى من تنفها لصلاية الشعر
وتأذى صاحبها ببنفها ، وكان تنف الابط أولى من حلقه لضعف
الشعر هناك وشدته وتعجل نباته بالحلق . فجاءت الشريعة بالأنفع
في هذا وهذا

(٩٧) فصل

وتأمل حكمة الرب تعالى في كونه أدخل الكفين والجبنة
والأخصين من الشعر . فان الكفين خلقا حاكمين على الملبوسات
فلو حصل الشعر فيهما لأخل بذلك ، وخلقاً للقبض ، وإصااق
اللحم على المقبوض أعون على جودته من التصاق الشعر به .
وأیضا فانهما آلة الأخذ والعطاء ، والأكل ، ووجود الشعر فيهما
يخل بتام هذه المنفعة

وأما الأخصان فلو نبت الشعر فيهما لأضر بالماشي وأعاقه في
المشي كثيرا لما يعلق بشعره بماعلى الأرض ، ويتعلق شعره بماعليها
أیضا . هذا مع أن أكثر الأوتار والأغشية في الكفين مانع من
نفوذ الأبرة فيها . وأما الأخصين فان الأبرة تتصاعد الى علو ،
وكما تصاعد كان الشعر أكثر . وأيضا فان كثرة وطء الأرض
بالأخصين يصلبهما ويجعل سطحهما أملس لا ينبت شيئا ، كما أن
الأرض التي توطأ كثيرا لا تنبت شيئا

وأما الجبهة فلو نبت الشعر عليها لستر مخاسنها ، واظلم الوجه ، وتبدل على العين . وكان يحتاج الى حلقه دائما ، ومنع العينين من كمال الادراك . والسبب المؤدى لذلك أن الذى تحت عظم الجبهة هو مقدم الدماغ ، وهو بارد رطب ، والبخار لا يتحرك منحرفا الى الجبهة ، بل صاعدا الى فوق

فان قيل : لم نبت شعر الصبي على رأسه وحاجبيه وأجفانه معه من الصغر دون سائر الشعور ؟

قيل : لشدة الحاجة الى هذه الشعور الثلاثة أوجدها الله سبحانه معه وهو جنين فى بطن أمه . فان شعر الرأس كالغطاء الواقى له من الآفات . والأهداب والأجفان وقاية للعين فان قيل : فلم تنبت له اللحية الا بعد بلوغه ؟

قيل : لأنه عند البلوغ تجتمع الحرارة فى بدنه ، وتكون أقوى . ماهى . ولهذا يعرض له فى مثل هذا الطور البثرات والدمامل ، وكثرة الاحتلام . واذا كثرت الحرارة كثرت الأبخرة بسبب التحلل ، وزادت على القدر المحتاج اليه فى شعر الرأس ، فصرفها أحكم الحاكمين الى نبات اللحية والعانة . وأيضا فان بين أوعية المنى وبين اللحية ارتباط : اذ العروق والمجارى متصلة بينهما . فاذا تعطلت أوعية المنى ويبست تعطل شعر اللحية ، واذا قلت الرطوبة والحرارة هناك قل شعر اللحية ؛ ولهذا فان الخصيان لا ينبت لهم لحى

فان قيل : فما العلة في الكوسج ؟ قيل : برد مزاجه ونقصان حرارته .

فان قيل : فما السبب في الصلع ؟ قيل : عدم احتباس الأبخرة في موضع الصلع

فان قيل : فلم كان في مقدم الرأس دون جوانبه ومؤخره ؟ قيل : لأن الجزء المقدم من الرأس بسبب رطوبة الدماغ يكون أكثر لنا وتحللا . فتحلل الفضلات التي يكون منها الشعر ، فلا يبقى للشعر مادة هناك

فان قيل : فلم لم يحدث في الأصداغ ؟ قيل : ان الرطوبة في الأسافل أكثر منها في الأعلى . وشاهدة الأرض العالية والمنخفضة فان قيل : فلم لم تصلع المرأة إلا نادرا ، وكان الصلع في الرجال أكثر ؟ قيل : لان الاصل أنه يحدث من يبس في الجلد بمنزلة احتراقه ذلك لقوة الحرارة . واما النساء فالرطوبة والبرودة أغلب عليهن . ولهذا فان جلودهن أرطب من جلود الرجال ، فلا تجف جلود رؤسهن . فلا يعرض لهن الصلع . ولهذا لا يعرض للصبيان ، وان عرض للمرأة صلع فذلك في سن يبسها وبلوغها من الكبر عتيا فان قيل : فما السبب في شدة سواد الشعر ؟ قيل : شدة البخارات الخارجة من البدن واعتدالها ، وصحة مادتها كخضرة الزرع فان قيل : فما سبب الصهوبة ؟ قيل : برد المزاج ، فتضعف الحرارة عن صبغ الشعر وتسويده

فان قيل : فما سبب الشقرة والحمرة ؟ قيل : زيادة الحرارة ، فتصبغ الشعر . ولهذا تجد الشقر أشد حرارة وأكثر حركة وهمة
فان قيل : فما سبب البياض ؟ قيل : البياض نوعان : أحدهما طبيعي ، وهو الشيب . والثاني خارج عن الطبيعة ، وهو ما يوجد في أواخر الأمراض المجففة بسبب تحال الرطوبات ، كما يعرض للنبات عند الجفاف

فان قيل : فما سبب الطبيعي ؟ قيل : اختلف في ذلك . فقالت طائفة : سببه الاستحالة الى لون البلغم ، بسبب ضعف الحرارة في أبدان الشيوخ . وقالت طائفة : سببه أن الغذاء الصائر الى الشعر يصير باردا ، بسبب نقصان الحرارة ، ويكون بطيء الحركة مدة نفوذه الى المسام ، وجمعت طائفة بين القولين ، وقالوا : البلة في الأمرين واحدة ، وسببها نقصان الحرارة

فان قيل : فلم يختص الشيب بالانسان من بين سائر الحيوان ؟ قيل : لأن لحم الانسان وجلده رخوين ، وجلود الحيوانات ولحومها أقوى وأصلب . فلما غلظت مادة الشعر فيها لم يعرض له ما يعرض لشعر الانسان . ولهذا يكون شعرها كلها معها من حين ولادتها ، بخلاف الانسان . وأيضا فان الانسان يستعمل المطاعم المركبة المتنوعة وكذا المشارب ، ويتناول أكثر من حاجته ، فيجتمع فيه فضلات كثيرة ، فتدفعها الطبيعة الى ظاهر البدن . فدامت الحرارة قوية فانها تقوى على احراق تلك الفضلات ، فيتولد من إحراقها

الشعر الاسود . فاذا بلغ الشيخوخة ضعفت الحرارة وعجزت عن احراق تلك الفضلات ، فتعمل فيها عملا ضعيفا . وأما سائر الحيوانات فلا تتناول الأغذية المركبة وتتناول منها على قدر الحاجة . فلا يشيب شعرها . كما يشيب شعر الانسان . وأيضا فإن في زمن الشيخوخة يكون أقل حرارة وأكثر رطوبة فيتولد البلغم ، وأما الحيوانات فاللبس غالب عليها

فان قيل : فلم كان شيب الاصداع في الأكثر مقدما على غيره ؟ قيل : لقرب هذا الموضع من مقدم الدماغ ، والرطوبة في مقدم الدماغ كثيرة ، لان الموضع مفصل ، والمفصل تجتمع فيه الفضلة الكثيرة ، فيكثر البرد هناك ، فيسرع الشيب

فان قيل : فلم أسرع الشيب في شعور الخصيان والنساء ؟ قيل أما النساء فلبردمزاجهن في الاصل ، ولا اجتماع الفضلات الكثيرة فيهن . وأما الخصيان فلتوافر المنى على أبدانهم يصير دمهم غليظا بلغميا ولهذا لا يحدث لهم الصلع

فان قيل : فلم كان شعر الابط لا يبيض ؟ قيل : لقوة حرارة هذا الموضع بسبب قربه من القلب ومسامه كثيرة بلغمية ، لانهاتتحلل بالعرق الدائم

فان قيل : فلم أبطأ بياض شعر العانة ؟ قيل : لأن حركة الجماع تحلل البلغم الذي في مسامه

فان قيل : فلم كانت الحيوانات تتبدل شعورها كل سنة ، بخلاف

الانسان ؟ قيل : لضعف شعورها عن الدوام والبقاء ، بخلاف
شعر الآدمي

فان قيل : فما سبب الجعودة والسبوطه ؟ قيل : أما الجعودة فمن
شدة الحرارة ، أو من التواء المسام ، فالذى من شدة الحرارة فانه
تعرض منه الجعودة كما تعرض للشعر عند عرضه على النار . وأما
الذى لالتواء المسام فلأن البخار لضعفه لا يقدر أن ينفذ على الاستقامة
فيلتوى فى المنافذ ، فتحدث الجعودة

فان قيل : فما السبب فى طول شعر الميت وأظفاره بعد موته اذا
بقى مدة ؟ قيل : عنه جوابان : أحدهما أنها لا تطول ، ولكن لما ينقص
ما حولها يظن أنها زادت . الثانى - وهو أصوب - أن ذلك الطول من
الفضلات البخارية التى تتحلل وهلة من الميت ، فيمتد معها الشعر والأظفر
فان قيل : فلم كان المريض - وخاصة المحموم - ينقص لحمه ويزيد
شعره ؟ قيل : ان فى المرض تكثر الفضلات ، فتطول الشعور
والأظفار بها ، ويثقل الغذاء فيذوب اللحم . وأما فى الصحة فتقل
الفضلات فلا تحتاج الطبيعة الى الغذاء وهضمها له ، واذا قلت
الفضلات نفدت مادة الشعر ، فيبطىء

فان قيل : فما العلة فى انتصاب شعر الخائف والمقروور ، حتى يبقى
كشعر القنفذ ؟ قيل : العلة فيه أن الجلد ينقبض وتجتمع المسام على
الشعر وتتضايق عليه فينتصب

فان قيل : فلم انتصب شعر البدن واللحية واللاحيين؟ (١)
 فان قيل : فلم كانت كثرة الجماع تزيد في شعر اللحية والجسد
 وتنقص من شعر الرأس والأجفان؟ قيل : لأن الشعر فيه ما يكون
 طبيعيا من أول الخلقة . كاللحية وسائر شعر البدن . والأول يكون
 من قوة الحرارة الأصلية ، والثاني من قوة الحرارة الخارجية ، فلا
 جرم نقصت بسببه الشعور الأصلية وتوفرت العرضية

فان قيل : فلم كان الشعر في الانسان في الجزء المقدم أكثر منه
 في المؤخر ، وباقى الحيوانات بالعكس؟ قيل لأن الشعر إنما يكون
 حيث تكون الحرارة قوية ، ويكون تحلل الجلد أكثر ، وهذا في
 الانسان في ناحية الصدر والبطن ، وأما جلدة الظهر فتكاثفة
 وأما ذوات الأربع ففي الخلف شعورها أكثر ، لأن البخار فيها
 يرقى الى الخلف ، وأن تلك المواضع هي التي تتلقى الحر والبرد ،
 فبحسب الحاجة الى وقاء أكثر

فان قيل : فلم كان الرأس بالشعر أحق الأعضاء ونباته أكثر؟
 قيل : لأن البخار يتصاعد ويطلب جهة الفوق وهو الرأس
 ولا تستطيل هذا الفصل فان أمر الشعر من السمات والفضلات
 وهذا شأنه ، فما الظن بغيره من الأجزاء الأصلية؟ فإذا كانت هذه
 قليلة من كثير من حكمة الرب تعالى في الشعور ومواضعها ومنافعها

(١) سقط جواب هذا السؤال ، ولعله بقية جواب السؤال الذي
 قبله . فتحرف الكلام عنه الى ماتري . فتأمل

فكيف بحكمته في الرأس ، والقلب ، والكبد ، والصدر ، وغيرها ؟
ولا تضجر من ذلك ، فان الخلق فيه من الفقه والحكم نظير ما في
الامر . فالرب تعالى حكيم في خلقه وأمره ، ويحب من يفقه عنه
ذلك ، ويستدل على كمال حكمته ، وعلمه ، ولطفه ، وتدييره ، فاذا كان
الله لم يضع هذه الفضلات في الانسان سدى فما الظن بغيرها ؟

(٩٨) فصل

ونحن نذكر فصلا مختصرا في حال الانسان من مبدئه الى نهايته
لنجعله مرآة له ينظر فيها قول خالقه وبارئه (٥١ : ٢١) وَفِي أَنْفُسِكُمْ
أَفَلَا تَبْصِرُونَ ؟

لما اقتضى كمال الرب تعالى - جل جلاله - وقدرته التامة ، وعلمه
المحيط ، ومشيتته النافذة ، وحكمته البالغة ، تنويع خلقه من
المواد المتباينة . وأنشأهم من الصور المختلفة ، والتباين العظيم
بينهم في المواد والصور والصفات والهيئات والاشكال والطبائع
والقوى ، اقتضت حكمته أن أخذ من الارض قبضة من التراب ،
ثم ألقى عليها الماء ، فصارت مثل الحمأ المسنون ، ثم أرسل عليها
الريح فجففها ، حتى صارت صلصالا كالفخار ، ثم قدر لها الاعضاء
والمنافذ والاورال والرطوبات ، وصورها فأبدع في تصويرها ،
وأظهرها في أحسن الاشكال ، وفصلها أحسن تفصيل ، مع اتصال

أجزاءها ، وهياً كل جزء منها لما يراد منه ، وقدره لما خلق له على أبلغ الوجوه ، ففصلها في توصيلها ، وأبدع في تصويرها وتشكيلها ، والملائكة تراها ولا تعرف ما يراد منها ، وإبليس يطيف بها ، ويقول : لا مر ما خلقت . فلما تكامل تصويرها ، وتشكيلها ، وتقدير أعضائها وأوصالها وصارت جسدا مصورا مشكلا كأنه ينطق ، إلا أنه لا روح فيه ولا حياة ، أرسل إليه روحه ، فنفخ فيه نفخة ، وانقلب ذلك الطين لحما ودماء وعظاما وعرقا وسمعا وبصرا وشما ولمسا وحركة وكلاما . فأول شيء بدأ به أن قال « الحمد لله رب العالمين » فقال له خالقه وبارئهِ ومصوره « يرحمك الله يا آدم » فاستوى جالسا أجمل شيء وأحسنه منظرا ، وأتمه خلقا ، وأبدعه صورة . فقال الرب تعالى لجميع ملائكته (اسجدوا لِأَدَمَ) فبادروا بالسجود ، تعظيما وطاعة لأمر الواحد المعبود . ثم قال لهم : لنا في هذه القبضة من التراب شرع أبدع مما ترون ، وجمال باطن أحسن مما تبصرون . فلنزين باطنه أحسن من زينة ظاهره ، ولنجعلنه من أعظم آياتنا ، نعلمه أسماء كل شيء ، مما لا تحسنه الملائكة . فكان التعليم زينة الباطن وجماله ، وذلك التصوير زينة الظاهر في أكمل شيء وأجمله صورة . ومعنى كل ذلك صنعته تبارك وتعالى في قبضة من تراب . ثم اشتق منه صورة هي مثله في الحسن والجمال ، ليسكن إليها وتقر نفسه ، وليخرج من بينهما من لا يحصى عدده من الرجال والنساء سواه

فصل (٩٩)

ثم لما أراد الله سبحانه أن يذر نسلهما في الارض ويكثره ، وضع
فيهما حرارة الشهوة ونار الشوق والطلب ، وألهم كلا منهما اجتماعه
بصاحبه ، فاجتمعا على أمر قد قدر . فاسمع الآن عجائب ما هناك :
لما شاء الرب تعالى أن يخرج نسخة هذا الانسان منه أودع
جسده حرارة ، وسلط عليه هيجانها ، فصارت شهوة غالبة ، فاذا
هاجت حرارة الجسد تحللت الرطوبات من جميع أجزاء الجسد ،
وابتدأت نازلة من خلف الدماغ ، في عروق خلف الاذنين الى
قفا الظهر ، ثم تخرج الى الكليتين . ثم تجتمع في أوعية المنى ،
بعد أن طبختها نار الشهوة ، وعقدتها حتى صار لها قوام وغلظ ،
وقصرتها حتى ابيضت ، وقدر لها مجارى وطرق تنفذ فيها . ثم
اقتضت حكمته سبحانه أن قدر لخروجها أقوى الاسباب المستفرغة
لها من خارج ومن داخل . فقيض لها صورة حسنها في عين
الناظر ، وشوقه اليها ، وساق أحدها الى الآخر بسلسلة الشهوة
والمحبة ، فحن كل منهما الى امتزاجه بصاحبه ، واختلاطه به ،
ليقضى الله أمراً كان مفعولاً . وجعل هذا محل الحرث ، وهذا
محل البذر . ليلتقى الماءان على أمر قد قدر . وقدر بينهما تلك
الحركات لتعمل الحرارة في تلك الرطوبة والفضلة عملها ، واستخرجها
من تحت الشعر والبشر والظفر . لتوافق نسخة الأصل ويكون

الداعي الى التناسل في غاية القوة ، فلا ينقطع النسل . ولهذا لا تجد في منى الاحتلام من القوة ما في منى الجماع ، وإنما هو من فضلة حرارة تذيب الرطوبة ، فتنفذ فيها الطبيعة الى خارج ، من نوع تصور خيال بواسطة الشيطان . كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « الرؤيا الصالحة من الله ، والحلم من الشيطان » فان قيل : فهذا اختيار منكم لقول من قال : إن المنى يخرج من جميع أجزاء البدن ، وهذا وان كان قد قاله كثير من الناس فقد خالفهم آخرون ، وزعموا أنه فضلة تتولد من الطعام ، وهي من أعدل الفضلات . ولهذا صلحت أن تكون مبدأ الانسان ، وهو جسم متشابه الأجزاء في نفسه ، قيل : القول الأول هو الصواب ويدل عليه وجوه : منها عموم اللذة بجميع أجزاء البدن . ومنها مشاكلة أعضاء المولود لأعضاء الوالدين . ومنها أن المشابهة الكلية تدل على أن البدن كله أرسل المنى ، ولولا ذلك لكانت المشابهة بحسب محل واحد . فدل على أن كل عضو أرسل قسطه ونصيبه . فلما انقعد وصلب ظهرت محاكاته ومشابهته له . ومنها أن الأمر لو كان كما زعمه أصحاب المقالة الثانية : من أن المنى جسم واحد متشابه في نفسه لم تتولد منه الأعضاء المختلفة المتشكلة بالأشكال المختلفة . لأن القوة الواحدة لا تفعل في المادة الواحدة إلا فعلا واحدا . فدل على أن المادة في نفسها ليست متشابهة الأجزاء . ومنها أن المنى فضلة الهضم الآخر . وذلك إنما يكون عند نضج الدم في العروق

وكونه مستعدا استعدادا تاما لأن يصير من جوهر الأعضاء . وكذلك عقيب استفراغه من الضعف . أكثر مما يحصل من استفراغ أمثاله من الدم . ولذلك يورث الضعف في جوهر الأعضاء الأصلية . فدل على أنه مركب من أجزاء كل منهما قريب الاستعداد لأن يصير جزءا من عضو . ولذلك سماه الله سلالة ، والسلالة فعالة من السل وهو ما يسيل من البدن ، كالبخار ، كما سمي أصله سلالة من طين ، لأنه استلها من جميع الأرض ، كما في جامع الترمذى عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض »

قال أصحاب القول الآخر - وهم جمهور الأطباء وغيرهم : لو كان الأمر كما زعمتم ، وأن المنى يستل من جميع الأعضاء ، لكان إذا حصل منى الذكر ومنى الأنثى في الرحم تشكل المولود بشكليهما معا ، ولكان الرجل لا يلد إلا ذكرا دائما ، لأن المنى قد استل عندكم من جميع أجزائه ، فاذا انعقد وجب أن يكون مثله . وأيضاً فان المرأة تضع من وطء الرجل في البطن الواحد ذكراً وأنثى ولا يمكن أن يقال إن ذلك بسبب اختلاف أجزاء المنى .

قالوا : ولا نسلم عموم اللذة ، لأنها إنما حصلت حال الاندفاق ، بسبب سيلان تلك المادة الحارة جارية على تلك المجارى اللحمية التي لحمتها رخوة ، شبيهة باللحم القريب العهد بالاندمال . إذا سال عليه شيء ، وهو معتدل السخونة . ولو كانت اللذة إنما حصلت بسبب سيلان تلك

المادة حصلت قبل الاندفاق . قالوا : وأما احتجاجكم بالتشابه المذكور بين الوالد والمولود فالمشابهة قد تقع في الظفر والشعر ، وليس يخرج منهما شيء . وأيضا فالمولود قد يشبه جدأ بعيدا من أجداده . كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : ان رجلا سأله ، فقال : ان امرأتى وادت غلاما أسود . قال « هل لك من ابل ؟ » قال : نعم . قال « فما ألوانها ؟ » قال : سود . قال « هل فيها من أورك ؟ » قال : نعم . قال « فأنتى له ذلك ؟ » قال : عسى أن يكون نزعه عرق . قال « وهذا عسى أن يكون نزعه عرق »

قالوا : ولو كان في المنى من كل عضو أجزاء ، فلا تخلو تلك الاجزاء ، إما أن تكون موضوعة في المنى وضعها الواجب ، أو لا تكون كذلك : فان كانت موضوعة وضعها الواجب كان المنى حيوانا صغيرا ، وإن لم تكن كذلك استحالت المشابهة .

قالوا : وأيضا فان المنى إما أن يكون مركبا على تركيب هذه الاعضاء وترتيبها أولا يكون كذلك . فالاول باطل قطعا ؛ لان المنى رطوبة سيالة فلا تحفظ الوضع ، والترتيب . وان كانت ثقيلة . فتعين الثاني ، ولا بد قطعا أن يحال ذلك الترتيب والتصوير والتشكيل على سبب آخر سوى القوة التي في المادة ؛ فانها قوة لا شعور لها ولا ادراك ، ولا تهتدى لهذه التفاصيل التي في الصورة الانسانية ، بل هذا التصوير والتشكيل مستند إلى خالق عليم حكيم قد بهرت حكمته العقول ، ودلت آثار صنعته على كمال أسمائه وصفاته

وتوحيده . وقد اعترف بذلك فاضلا الأطباء ، وهما بقراط وأفلاطون وأقرا بأن ذلك مستند الى حكمة الصانع وعنايته ، وأنه لم يصدر الا عن حكيم عليم قدير . ذكره جالينوس عنهما في كتاب رأى بقراط وأفلاطون ، فأبى جهلة الاطباء وزنادقة المتفلسفة والطبائعيين الا كفورا . وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث حذيفة بن أسيد (١) « إن الله وكل بالرحم ملكا يقول : يارب نقطة . يارب علقه ، يارب مضغة . فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فما العمل ؟ فيقضى الله ما يشاء ، ويكتب الملك » وفي لفظ « يقول الملك الذى يخلقها » أى يصورها باذن الله ، أى يصور خلقه فى الأرحام كيف شاء الله ، لا إله الا هو العزيز الحكيم

فقال أصحاب القول الأول : نحن أحق بالتنزيه والتوحيد ، ومعرفة حكمة الخالق العليم وقدرته وعلمه ، وأسعد به منكم . ومن أحال من سفهائنا وزنادقتنا هذا التخليق على القوة المصورة ، والأسباب الطبيعية ، ولم يسندها إلى فاعل مختار عالم بكل شئ ، قادر على كل شئ

(١) أسيد - بفتح الهمز - قال فى الإصابة : أخرج له مسلم وأصحاب السنن . والحديث فى البخارى فى باب : واذا قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة ، من كتاب بدء الخلق - عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال « ان الله وكل فى الرحم ملكا ، فيقول : يارب نقطة ، يارب علقه . يارب مضغة . فاذا أراد أن يخلقها قال : يارب أذكر ؟ يارب أنثى ؟ يارب شقى أم سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الاجل ؟ فيكتب كذلك فى بطن أمه »

لا يكون شيء الا باذنه ومشئته ، والقوة والطبيعة خلق مسخر من خلقه ، وعبد من جملة عبيده ، ليس لها تصرف ، ولا حركة ولا فعل الا باذن بارئها وخالقها - فذلك الذى جهل نفسه وربّه ، وعادى الطبيعة والشريعة . والرب تعالى يخلق ما يشاء ويختار ، ويصور خلقه فى الارحام كيف يشاء ، بأسباب قدرها ، وحكم دبرها . واذا شاء أن يسلب تلك الأسباب قواها سلبها . واذا شاء أن يقطع مسبباتها عنها قطعها ، واذا شاء أن يهيئ لها أسبابا أخرى تقاومها وتعارضها فعل ؛ فانه الفعال لما يريد . وليس فى كون المني مستلا من جميع أجزاء البدن ما يخرج الحوالة على قدرته ومشئته وحكمته ، بل ذلك أبلغ فى الحكمة والقدرة

وأما قولكم : لو كان المني مستلا من جميع الأعضاء لكان الولد يتشكل بشكلهما معا ، فقد أجاب النبي صلى الله عليه وسلم عن سألته عن ذلك بما شفى وكفى . ففى صحيح البخارى من حديث أنس رضى الله عنه قال : بلغ عبد الله بن سلام مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، وهو فى أرضه يخترق ، فأتاه ، وقال : انى ساءلك عن ثلاث لا يعلمهن الا نبي : ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ ومن أى شيء ينزع الولد إلى أبيه ؟ ومن أى شيء ينزع إلى اخواله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أخبرنى بهن أنفا جبريل » فقال عبد الله : ذاك عدو اليهود من الملائكة « أما أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق الى المغرب ، وأما

أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وأما الشبه في الولد فإن الرجل اذا غشى المرأة فسبق ماؤه كان الشبه لها » فقال أشهد أنك رسول الله . فهذا جواب جبريل أمين رب العالمين ، لا جبريل الطبيب . وفي صحيح مسلم من حديث ثوبان عن النبي ﷺ « اذا علم ماء الرجل ماء المرأة أذكر باذن الله . وإذا علم ماء المرأة ماء الرجل آنت باذن الله » وقد يتفق الماآن في الانزال والقدر : وذلك من اندر الأشياء ، فيخلق للولد ذكر كذكر الرجل وفرج كفرج المرأة ، فاذا شاء الله أن يغلب سلالة ماء الرجل على ماء المرأة أو سلالتها أمر ملك الأرحام بتصويره كذلك . فان ذلك لا يخل بحكمته ولا يخرق عادته ، ولو خرقها لم يخل بحكمة أحكم الحاكمين وأما منعكم عموم اللذة فشيء بالمكابرة ، والمجامع يجد عند الانزال شيئاً قد استل من جميع بدنه وسمعته وبصره وقواه في قالب الرحم . فيحس كأنه خلع قميصاً كان مشتملاً به . ولهذا اقتضت حكمة الرب تعالى في شرعه وقدره أن أمره بالاغتسال عقيب ذلك ، ليخاف عليه الماء ما تحلل من بدنه من ماء . وإذا اغتسل وجد نشاطاً وقوة ، وكأنه لم ينقص منه شيء . فان رطوبة الماء تخلف على البدن ما حملته تلك الحركة من رطوباته ، وتعمل فيها الحرارة الأصلية عملها ، فتمد بها القوى التي ضعفت بالانزال . وأما التشابه الواقع بين الظفر والشعر في الوالد والمولود ، ولم ينفصل بينهما شيء ، فما أبردها من شبهة . فإن الظفر والشعر تابعان

للاعضاء ، والمزاج الذى وقع فيه التشابه ، فاستتبع تشابه الاصل
تشابه التبع

وأما شبه المولود بالجد البعيد من أجداده فهو من أقوى الأدلة
لنا فى المسألة ، لان ذلك الشبه البعيد لم يزل يتنقل فى الاصلاب
حتى استقر فى صورة الولد ، وبها حصل الشبه

وأما قولكم : إن تلك الأجزاء لا تخلو إما ان تكون موضوعة
فى المنى وضعها الواجب أولا انى آخره ، فجوابكم انكم ان عنيتم انها
موضوعة بالفعل فليس كذلك ، وان أردتم انها موضوعة بالقوة
فنعم . وما المانع منه ، ويكون المنى حيواناً صغيراً بل كبيراً بالقوة ؟
وبهذا ظهر الجواب عن قولكم : ان المنى رطوبة سيالة لا تحفظ
الوضع والترتيب . وغاية ما يقدر أن ذلك جزء من أجزاء السبب
الذى يخلق الله به الولد ، وجزء السبب لا يستقل بالحكم . فالمستقل
بالايجاد مشيئة الله وحده ، والاسباب محال الظهور

(١٠٠) فصل

فان قيل : فهذا تصريح منكم بأن المرأة لها منى ، وأن منها احد
الجزئين اللذين يخلق الله منهما الولد . وقد ظن طائفة من الأطباء
أن المرأة لا منى لها .

قيل هذا هو السؤال الذى أوردته أم المؤمنين عائشة رضى
الله عنها ، وأم سلمة رضى الله عنها على النبي صلى الله عليه وسلم

وأجابهما عنه باثبات منى المرأة . ففي الصحيح أن أم
 سليم رضى الله عنها قالت : يا رسول الله ، ان الله لا يستحي من
 الحق ، هل على المرأة من غسل اذا هي احتلمت ؟ قال « نعم ،
 اذا رأت الماء » ، فقالت أم سلمة : أو تحتلم المرأة ؟ فقال « ترَبَّتْ
 يدك ، فبِمَ يشبهها ولدها ؟ » وفيهما عن عائشة رضى الله عنها أن أم
 سليم رضى الله عنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المرأة
 ترى في منامها ما يرى الرجل ، هل عليها من غسل ؟ قال « نعم ، اذا
 رأت الماء » ، قالت ، فقلت له : افترى المرأة ذلك ؟ فقال رسول
 الله صلى الله عليه وسلم « وهل يكون الشبه الا من ذلك ؟ اذا علا
 ماؤها ماء الرجل أشبهه الولد أخواله . واذا علا ماء الرجل ماءها
 أشبهه أعمامه » هذا لفظ مسلم . وقد ذكر جالينوس التشنيع على
 ارسطاليس ، حيث قال : ان المرأة لا منى لها ، فلنحرر هذه المسئلة
 طبعاً . كما حررت شرعاً فنقول :

منى الذكـر من جملة الرطوبات والفضلات التى فى البدن ، وهذا
 أمر يشترك بين الذكـر والأتى ، منه رأساً يتخلق الولد ، وبواسطته
 يكون الشبه . ولولم يكن للمرأة منى لما أشبهها ولدها .
 ولا يقال : ان الشبه سببه دم الطمث . فانه لا ينعدم مع منى الرجل ،
 ولا يتحد به وقد أجرى الله العادة بأن التوالد لا يكون الا بين أصلين
 يتولد من بينهما ثالث . ومنى الرجل وحده لا يتولد منه الولد ما لم يمازجه

مادة أخرى من الأثني . وقد اعترف أرباب القول الآخر بذلك وقالوا : لا بد من وجود مادة بيضاء لزجة للمرأة تصير مادة لبدن الجنين ، ولكن نازعوا : هل فيها قوة عاقدة ، كما في منى الرجل أم لا ؟ وقد أدخل النبي صلى الله عليه وسلم هذه المسئلة في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه ، من حديث ثوبان مولاه ، حيث سأله اليهود عن الولد ، فقال « ماء الرجل أبيض ، وماء المرأة أصفر ، فاذا اجتمعا ، فعلا منى الرجل منى المرأة أذكر باذن الله . وإذا علا منى المرأة منى الرجل آنت باذن الله » نعم لمنى الرجل خاصة الغلاظ والبياض ، والخروج بدفق ودفع . فان أراد من نفى منى المرأة اتفء ذلك عنها أصاب ، ومنى المرأة خاصته الرقة ، والصفرة ، والسيلان بغير دفع . فان نفى ذلك عنها خطأ . وفي كل من الماين قوة ، فاذا انضم أحدهما الى الآخر اكتسبا قوة ثالثة ، وهى من أسباب تكون الجنين ، واقتضت حكمة الخلاق العليم سبحانه أن جعل داخل الرحم خشنا كالسفننج ، وجعل فيه طلباً للمنى وقبولا له ، كطلب الأرض الشديدة العطش للماء وقبولها له . فجعله طالبا حافظاً مشتاقا اليه بالعطش . فلذلك اذا ظفر به ضمه ولم يضيعه ، بل يشتمل عليه أتم الاشتمال ، وينضم أعظم انضمام ، لئلا يفسده الهواء ، فيتولى القوة والحرارة التى هناك باذن الله ملك الرحم . فاذا اشتمل على المنى ولم يقذف به الى خارج استدار على نفسه وصار

كالسكرة ، وأخذ في الشدة إلى تمام ستة أيام . فاذا اشتد نقط فيه نقطة في الوسط ، وهو موضع القلب . ونقطة في أعلاه ، وهي نقطة الدماغ . وفي اليمين ، وهي نقطة الكبد . ثم تتباعد تلك النقط ويظهر بينها خطوط حمراء ، إلى تمام ثلاثة أيام آخر ، ثم تنفذ الدموية في الجميع بعد ستة أيام آخر ، فيصير ذلك خمسة عشر يوماً . ويصير المجموع سبعة وعشرين يوماً . ثم ينفصل الرأس عن المنكبين ، والأطراف عن الضلوع ، والبطن عن الجنبين . وذلك في تسعة أيام ، فيصير ستة وثلاثين يوماً . ثم يتم هذا التمييز بحيث يظهر للحس ظهوراً بيناً في تمام أربعة أيام . فيصير المجموع أربعين يوماً تجمع خلقه . وهذا مطابق لقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً » . واكتفى النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الإجمال عن التفصيل ، وهذا يقتضى أن الله قد جمع فيها خلقها جمعاً خفياً ، وذلك الخلق في ظهور خفي على التدرج ، ثم يكون مضغة أربعين يوماً أخرى ، وذلك التخليق يتزايد شيئاً فشيئاً إلى أن يظهر للحس ظهوراً أخفاه به كله ، والروح لم تتعلق به بعد ، فانها إما تتعلق به في الأربعين الرابعة بعد مائة وعشرين يوماً ، كما أخبر به الصادق ، وذلك مما لا سبيل إلى معرفته إلا بالوحى ، إذ ليس في الطبيعة ما يقتضيه ، فلذلك حار فضلاء الأطباء وأذكىاء الفلاسفة في ذلك ، وقالوا : إن هذا مما لا سبيل إلى معرفته إلا بحسب اللظن البعيد .

قال من وقف على نهايات كلامهم في ذلك دأب فيه حتى كمال ، وهو صاحب الطب الكبير ، فذكر مناسبات خيالية ثم قال : وحقيقة العلم فيه عند الله تعالى . لا مطمع لأحد من الخلق في الوقوف عليه قلت : قد أوقفنا عليه الصادق المصدوق عليه السلام الذي لا ينطق عن الهوى . بما ثبت في الصحيحين « إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون علقه مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث إليه الملك ، فينفخ فيه الروح . ويؤمر بأربع : يكتب رزقه وأجله ، وعمله ، وشقى أو سعيد »

(١٠١) فصل

ورأيت لبعض الأطباء كلاماً ذكر فيه سبب تفاوت زمن الولادة فأذكره وأذكر مافيه :

قال : إذا تم خلق الجنين في مدة معينة فانها إذا زاد عليها مثلها تحرك الجنين . فإذا انضاف إلى المجموع مثلاًه انفصل الجنين . قال : فإذا تم خلقه في ثلاثين يوماً ، فإذا صار له ستون يوماً تحرك ، فإذا انضاف إلى الستين مثلاًها ، صارت مائة وثمانين يوماً وهي ستة أشهر ، وهي مدة ينفصل لها الحمل . وإذا تم خلقه في خمسة وثلاثين يوماً تحرك لسبعين ، وانفصل لسبعة أشهر ، وإذا تم خاقه لأربعين تحرك لثمانين ، وانفصل لثمانية أشهر . وإذا تم لخسة وأربعين تحرك لتسعين . وانفصل لتسعة أشهر . وعلى هذا الحساب أبدا

وهذا الذى ذكره هذا القائل يقتضى حركة الجنين قبل الأربعين وهذا خطأ قطعاً . فان الروح انما تتعلق به بعد الأربعين الثالثة ، وحينئذ يتحرك ، فلا تثبت له حركة قبل مائة وعشرين يوماً ، وما يقدر من حركة قبل ذلك فليست حركة ذاتية اختيارية ، بل لعلها حركة عارضة بسبب الأغشية والرطوبات . وما ذكره من الحساب لا يقوم عليه دليل ولا تجربة مطردة ، فربما زاد على ذلك أو نقص منه ، ولكن الذى نقطع به أن الروح لا تتعلق به إلا بعد الأربعين الثالثة ، وما يقدر من حركة قبل ذلك ان صحت لم تكن بسبب الروح . والله أعلم

فصل (١٠٢)

وأما أقل مدة الحمل فقد تظاهرت الشريعة والطبيعة على أنها ستة أشهر وقال تعالى (٤٦: ١٥) وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا وقال تعالى (٢: ٢٣٣) وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُسِمَ الرَّضَاعَةَ وقال جالينوس : كنت شديد الفحص عن مقادير أزمنة الحمل ، فرأيت امرأة واحدة ولدت فى مائة وأربع وثمانين ليلة . وزعم صاحب الشفاء أنه شاهد ذلك ، وأما أكثره فقال فى الشفاء : بلغنى من حيث وثقت أن امرأة وضعت بعد الرابع من رأس الحمل ولدًا قد نبئت أسنانه وعاش .

(١٠٣) فصل

فان قيل : فما سبب الاذكار والايثات ؟ قيل : الذي نختاره أن سببه مشيئة الرب الفاعل باختياره ، وليس بسبب طبيعي ، وكل ما ذكر أصحاب الطبائع من الأسباب فمتنقض مثل حزارة الرجل ورطوبته ، قالوا : وفساد المزاج أيضا يوجب إيلاد الأناث ، واستقامته توجب الاذكار . وهذا تخليط وهذيان . فليس للاذكار والايثات إلا قول الله لملك الأرحام ، وقد استأذن « يارب ذكر ، يارب أنثى ، يارب شقى أم سعيد . فما الرزق ، فما الأجل ؟ » والاذكار والايثات قرين السعادة ، والشقاوة . والرزق ، والأجل

فان قيل : فتلك أيضا بأسباب ؟ قلنا : نعم ، ولكن بأسباب بعد الولادة ، ولا سبب للاذكار والايثات قبل الولادة

فان قيل : فما تصنعون بحديث ثوبان الذي رواه مسلم في صحيحه أن يهوديا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الولد ، فقال : « ماء الرجل أبيض ، وماء المرأة أصفر ، فإذا اجتمعا ، فعلا مني الرجل مني المرأة أذكر باذن الله ، وإذا علا مني المرأة مني الرجل آنت باذن الله » فقال اليهودي : صدقت ، وانك لنبى . قيل : هذا الحديث تفرد به مسلم في صحيحه . وقد تكلم فيه بعضهم . وقال : الظاهر أن الحديث وهم فيه بعض الرواة ، وإنما كان السؤال عن الشبه وهو الذى سأل عنه عبد الله بن سلام فى الحديث المتفق على صحته

فأجابه بسبق الماء . فان الشبه يكون للسابق . ففعل بعض الرواة
انقلب عليه شبه الولد بالمرأة بكونه أثنى . وشبهه بالوالد بكونه
ذكراً ، لا سيما والشبه التام إنما هو بذلك

وقالت طائفة : الحديث صحيح لا مطعن في سنده . ولا منافاة
بينه وبين حديث عبد الله بن سلام . وليست الواقعة واحدة ، بل
هما قضيتان ، ورواية كل منهما غير رواية الأخرى . وفي حديث
ثوبان قضية ضبطت وحفظت . قال ثوبان : كنت قائماً عند رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، فجاء خبر من أخبار اليهود ، فقال : السلام عليك يا محمد
فدفعته دفعة كاد يصرع منها . فقال : لم تدفعني ؟ فقلت : ألا تقول يا رسول
الله ؟ فقال اليهودي : إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله . فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم « إن اسمي محمد أ الذي سماني به أهلي » فقال اليهودي :
جئت أسألك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أينفعك شيء ان
حدثتك ؟ » قال : أسمع بأذني . فنكت رسول الله صلى الله عليه وسلم
بعود معه . فقال اليهودي : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير
الأرض والسموات ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هم في
الظلمة دون الجسر » قال : فمن أول الناس إجازة ؟ قال « فقراء
المهاجرين » قال اليهودي : فما تحفتهم حتى يدخلوا الجنة ؟ قال « زيادة
كبد الحوت » قال : فما غذاؤهم على أثرها ؟ قال « ينحر لهم ثور
الجنة الذي يأكل من أطرافها » قال : فما شربهم عليه ؟ قال « من
عين فيها تسمى بلسيلا » قال : صدقت . قال : وجئت أسألك عن

شئ. لا يعلمه أحد إلا نبي أو رجل أو رجلان . قال « أينفدك إن حدثتك ؟ » قال أسمع بأذني . قال : جئت أسألك عن الولد . قال « ماء الرجل أبيض ، وماء المرأة أصفر . فإذا اجتمعنا ، فعلا مني الرجل مني المرأة أذكر بأذن الله . وإذا علا مني المرأة مني الرجل أنت بأذن الله » قال اليهودي : لقد صدقت ، وإنك لنتي . ثم انصرف ، فذهب . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد سألتني هذا الذي سألتني عنه ومالي علم به ، حتى أتاني به الله » وأما حديث عبد الله بن سلام رضى الله عنه ، ففي صحيح البخارى عن أنس رضى الله عنه قال : بلغ عبد الله بن سلام مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فأتاه ، فقال : إني سألك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي : ما أول أشرط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ ومن أى شئ ينزع الولد إلى أبيه ، ومن أى شئ ينزع إلى أخواله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خبرني آتفا جبريل » فقال عهد الله ذاك . عدو اليهود من الملائكة فقال « أما أول أشرط الساعة فنارتحشر الناس من المشرق الى المغرب . وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت . وأما الشبه فى الواد فان الرجل إذا غشى المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له . وإذا سبقت كان الشبه لها » قال أشهد أنك رسول الله . وذكر الحديث

فتضمن الحديثان أمرين ترتب عليهما الاثران معا ، وأيهما

انفرد ترتب عليه أثره . فاذا سبق ماء الرجل وعلا أذكر ، وكان
 الشبه له . وإن سبق ماء المرأة وعلا أنثى ، وكان الشبه لها . وإن
 سبق ماء المرأة وعلا ماء الرجل أذكر . وكان الشبه لها . ومع هذا
 كله فهذا جزء سبب ليس بموجب . والسبب الموجب مشيئة الله
 فقد يسبب بضد السبب ، وقد يرتب عليه ضد مقتضاه ولا يكون في
 ذلك مخالفة لحكمته ، كما لا يكون تعجيزا لقدرته . وقد أشار في
 الحديث إلى هذا بقوله « أذكر وأنثى باذن الله » وقد قال تعالى
 (٤٢ : ٤٩) **لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ**
إِنَآثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذَّكَوٰرَ ٥٠ أُوْزُوْجُهُمْ ذُكْرَآنَا وَإِنَآثًا وَيَجْعَلُ
مَن يَشَآءُ عَقِيْمًا إِنَّهُ عَلِيْمٌ قَدِيْرٌ) فأخبر سبحانه أن ذلك عائد إلى
 مشيئته وأنه قديس الذكور فقط ، والإناث فقط . وقد يجمع للوالدين
 بين النوعين معا ، وقد يخليهما عنهما معا ، وأن ذلك كما هو راجع إلى
 مشيئته فهو متعلق بعلمه وقدرته . وقد وهب الله آدم الذكور
 والإناث ، وإسرائيل الذكور دون الإناث . ومحمد **ﷺ** الإناث
 دون الذكور ، سوى ولده إبراهيم (١) وقال سليمان عليه السلام
 « لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، تأتي كل امرأة بغلام يقتل

(١) قد ولد لانبى صلى الله عليه وسلم من خديجة من الذكور القاسم وهو أول
 أولاده ، وبه كان يكنى - وعبد الله والطيب والطاهر . وقيل : إن الطيب
 والطاهر لقباً لعبد الله . وولد له من جاريته مارية إبراهيم . وكلهم ماتوا أطفالاً

في سبيل الله فطاف عليهن فلم تلد منهن إلا امرأة واحدة ، جاءت بشق ولد » قال النبي صلى الله عليه « والذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعون » فدل على أن مجرد الوطء ليس بسبب تام وإن كان له مدخل في السببية ، وأن السبب التام مشيئة الله وحده . فهو رب الأسباب المتصرف فيها كيف شاء ، بإعطائها السببية إذا شاء ، ومنعها إياها إذا شاء ، وترتيب ضد مقتضاها عليها إذا شاء . والأسباب هي مجارى الشرع والقدر ، فعليها يجرى أمر الله الكوني والديني

فإن قيل : فقد ظهر أن الولد من المائتين جميعاً ، فهل يخلق منهما على حد سواء ، أم يكون الولد من ماء الأب ، وبعضه من ماء الأم ؟ قيل : قد بين النبي صلى الله عليه وسلم هذه المسألة بأوضح البيان ، فقال الإمام أحمد في مسنده : حدثنا حسن ابن الحسين حدثنا أبو كريب عن عطاء بن السائب عن القاسم ابن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود قال : مر يهودى برسول الله ﷺ ، وهو يحدث أصحابه ، فقالت قریش : يا يهودى إن هذا يزعم أنه نبى ، فقال لأسألته عن شيء لا يعلمه إلا نبى ، فجاء حتى جلس ، ثم قال : يا محمد مم يخلق الإنسان ؟ فقال « من كل يخلق ، من نطفة الرجل ، ومن نطفة المرأة . فأما نطفة الرجل فنطفة غليظة منها العظم والعصب . وأما نطفة المرأة فنطفة

رقية ، منها اللحم والدم » فقام اليهودى فقال : هكذا يقول من قبلك

(١٠٤) فصل

فان قيل : قد ذكرتم أن تعلق الروح بالجنين إنما يكون بعد الأربعين الثالثة ، وإن خلق الجنين يجمع في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون علقته مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك . وبينتم أن كلام الأطباء لا يناقض ما أخبر به الوحي من ذلك . فما تصنعون بحديث حذيفة بن أسيد الذى رواه مسلم في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يدخل الملك في النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين ، أو خمس وأربعين ليلة ، فيقول : أى رب أشقى أم سعيد ؟ فيكتبان ، فيقول : أى رب ، ذكر أو أنثى ؟ فيكتبان ، ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه ، ثم يطوى الصحيفة ، فلا يزد فيها ولا ينقص » قيل تتلقاه بالقبول والتصديق وترك التحريف ، ولا ينافى ما ذكرناه ، إذ غاية ما فيه أن التقدير وقع بعد الأربعين الأولى وحديث ابن مسعود يدل على أنه وقع بعد الأربعين الثالثة ، وكلاهما حق قاله الصادق صلى الله عليه وسلم . وهذا تقدير بعد تقدير ، فالأول تقدير عند انتقال النطفة الى أول أطوار التخليق التى هى أول مراتب الانسان . وأما قبل ذلك فلم يتعلق بها التخليق . والتقدير الثانى تقدير عند كمال خلقه ونفخ الروح . فذلك تقدير عند أول خلقه وتصويره . وهذا تقدير عند تمام خلقه وتصويره . وهذا أحسن من

جواب من قال : إن المراد بهذه الأربعين التي في حديث حذيفة
الأربعين الثالثة ، وهذا بعيد جداً من لفظ الحديث ، ولفظه ياباه
كل الآباء . فتأمله

فان قيل : فما تصنعون بحديثه الآخر الذي في صحيح مسلم عن
عامر بن واثلة ، أنه سمع عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول :
« الشقي من شقي في بطن أمه ، والسعيد من وعظ بغيره » فأتى رجلا
من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقال له حذيفة بن أسيد الغفاري ،
فحدثه بذلك من قول ابن مسعود ، وقال له : وكيف يشقى رجل بغير
عمل ؟ فقال له الرجل : أتعجب من ذلك ؟ فإني سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول « إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث
الله إليها ملكاً فصورها ، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ،
ثم قال : يارب أذكر ، أم أنثى ؟ فيقضى ربك ما يشاء ، ويكتب الملك
بالصحيفة في يده فلا يزيد على أمره ولا ينقص » وفي لفظ آخر في
الصحيح أيضاً : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذني هاتين
يقول « ان النطفة تقع في الرحم أربعين ليلة ، ثم يتسور عليها الملك
الذي يخلقها ، فيقول : يارب أذكر أم أنثى ؟ أسوى أم غير
سوى ؟ فيجعله الله سوياً أو غير سوى ، ثم يقول : يارب مارزقه ؟
وما أجله ؟ وما خلقه ؟ ثم يجعله الله عز وجل شقياً أو سعيداً » وفي
لفظ آخر في الصحيح أيضاً « أن ملكاً موكلًا بالرحم إذا أراد الله أن
يخلق شيئاً يأذن الله لبضع وأربعين ليلة » ثم ذكر نحوه .

قيل : تتلقاها أيضاً بالتصديق ، والقبول ، وترك التحريف . وهذا
 يوافق ما أجمع عليه الأطباء أن مبدأ التخليق والتصوير بعد الأربعين
 فان قيل : فكيف التوفيق بين هذا وبين حديث ابن مسعود ،
 وهو صريح في « أن النطفة أربعين يوماً نطفة ، ثم أربعين علقة ،
 ثم أربعين مضغة » ومعلوم أن العلقة والمضغة لا صورة فيهما ، ولا
 جلد ولا لحم ولا عظم . وليس بنا حاجة إلى التوفيق بين حديثه هذا
 وبين قول الأطباء . فان قول النبي صلى الله عليه وسلم معصوم ، وقولهم
 عرضة للخطأ ، ولكن الحاجة إلى التوفيق بين حديثه وحديث حذيفة
 المتقدم ؟ قيل : لا تنافي بين الحديثين بحمد الله ، وكلاهما خارج
 من مشكاة صادقة معصومة . وقد ظن طائفة أن التصوير في حديث
 حذيفة إنما هو بعد الأربعين الثالثة . قالوا : وأكثر ما فيه التعقيب
 بالفاء ، وتعقيب كل شيء بحسبه . وقد قال تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ
 أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً) بل قد قال تعالى
 (٢٣ : ١٤) فَخَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا
 الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا وهذا تعقيب بحسب ما يصلح
 له المحل ، ولا يلزم أن يكون الثاني عقيب الأول ، تعقيب اتصال
 وظنت طائفة أخرى أن التصوير والتخليق في حديث حذيفة
 في التقدير والعلم . والذي في حديث ابن مسعود في الوجود

الخارجي . والصواب يدل على أن الحد مادل عليه الحديث ، من أن ذلك في الأربعين الثانية ، ولكن هنا تصويران : أحدهما تصوير خفي لا يظهر وهو تصوير تقديرى ، كما تصور حين تفصل الثوب ، أو تنجر الباب ، مواضع القطع والتفصيل . فيعلم عليها ويضع مواضع الفصل والوصل . وكذلك كل من يضع صورة في مادة لاسيما مثل هذه الصورة ، ينشئ فيها التصوير والتخليق على التدريج شيئاً بعد شيء ، لاوهلة واحدة ، كما يشاهد بالعيان في التخليق الظاهر في البيضة

فهنا أربع مراتب : أحدها تصوير وتخليق علمي ، لم يخرج الى الخارج . الثانية مبدأ تصوير خفي يعجز الحس عن إدراكه . الثالثة تصوير يناله الحس ولكنه لم يتم بعد . الرابعة تمام التصوير الذي ليس بعده الانفخ الروح

فالمرتبة الأولى علمية ، والثلاث الأخر خارجية عينية . وهذا التصوير بعد التصوير نظير التقدير بعد التقدير . فالرب تعالى قدر مقادير الخلائق تقدير اعاما قبل أن يخلق السموات والأرض خمسين ألف سنة ، وهنا كتب السعادة والشقاوة والأعمال والأرزاق والآجال ﴿ الثاني ﴾ تقدير بعد هذا وهو أخص منه ، وهو التقدير الواقع عند القبضتين ، حين قبض تبارك وتعالى أهل السعادة بيمينه وقال « هؤلاء للجنة » ، وبعمل أهل الجنة يعملون « وقبض أهل الشقاوة باليد الأخرى وقال « هؤلاء للنار » ، وبعمل أهل النار يعملون .

﴿ الثالث ﴾ تقدير بعد هذا ، وهو أخص منه عندما يبنى به ، كما في حديث حذيفة بن أسيد المذكور ﴿ الرابع ﴾ تقدير آخر بعد هذا وهو عندما يتم خلقه وينفخ فيه الروح ، كما صرح به الحديث الذي قبله . وهذا يدل على سعة علم الرب تبارك وتعالى ، وإحاطته بالكمالات والجزئيات ، وكذلك التصوير الثاني مطابق للتصوير العلى ، والثالث مطابق للثاني ، والرابع مطابق للثالث . وهذا مما يدل على كمال قدرة الرب تعالى . ومطابقة المقدور للمعلوم ، فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين .

ونظير هذا التقدير الكتابة العامة قبل المخلوقات ، ثم كتابة ما يكون من العام إلى العام في ليلة القدر ، وكل مرتبة من هذه المراتب تفصيل لما قبلها وتنوع . وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصدق بعضه بعضاً ، ويفسر بعضه بعضاً ، ويطلق الواقع في الوجود ولا يخالفه . وإنما يخبر بما لا يستقل الحس والعقل بإدراكه ، لا بما يخالف الحس والعقل ، وإنما يعرفه الناس ويستقلون بإدراكه على أمر عيني يتعلق به الإيمان ، أو على حكم شرعي يتعلق به التكليف . والله أعلم

(١٠٥) فصل

فان قيل : أى عضو ينخلق أولاً قبل سائر الأعضاء ؟ قيل : اختلف في ذلك على أربعة أقوال (أحدهما) أنه القلب ، وهو قول الأكثرين (والثاني) أنه الدماغ والعينان . وهو قول بقراط

(والثالث) الكبد ، وهو قول محمد بن زكريا (والرابع) أنه السرة وهو قول جماعة من الأطباء

قال أصحاب القلب : لاشك أن في المنى قوة روحية ، بسبب تلك القوة سَعَدَ أن يكون إنساناً ، وحاجته إلى الروح الذي هو مادة القوى أشد ، فلا بد أن يكون لذلك الروح مجمع خاص ، منه تنبعث إلى سائر الأعضاء ، فالجوهر الروحي أول شيء ينبعث من المنى ، ويجتمع في موضع واحد ، ويحيط به ما يتصل إليه ذلك الجوهر الروحي من جميع الجوانب ، فيجب أن يكون مجمعها هو الوسط ، وسائر الأجزاء يحيط به ، وذلك الوسط هو القلب

قالوا : ولأن تمام البدن موقوف على الحرارة الغريزية التي بها البدن ، ولا بد أن يتقدم على ذلك العضو الذي منه القوة الغريزية التي بها ينمو ، وهو القلب

قالوا : ولأن أفعال القوى إنما تتم بالروح ، وهي لا بد لها من متعلق تتعلق به ، ولا بد أن يتقدم متعلقها عليها وهو القلب
قالوا : وهذا هو الأليق والأنسب بحكمة الرب تعالى ، فإن القلب ملك ، والأعضاء جنود له وخدم ، فإذا صلح القلب صلحت جنوده وإذا فسد فسدت ، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح إلى ما يرشد إلى ذلك فقال « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ، ألا وهي القلب »
فما أولى هذه المضغة بأن تكون متقدمة في وجودها على سائر

الأعضاء ، وسائرهما تبع لها في الوجود ، كما هي تبع لها في الصلاح والفساد

قالوا : وقد شاهد أصحاب التشريح في المنى عند انعقاده نقطة في وسطه

قال أصحاب الدماغ : شاهدنا الفراخ في البيض أول ما يتكون منها رأسها ، وسنة الله في بروز الجنين أول ما يبدو منه إلى الوجود رأسه قال أصحاب الكبد : لما كان المنى محتاجا إلى قوة مغذية تزيد في جوهره حتى يصير بحيث يمكن أن تكون الأعضاء فيها كان أول الأعضاء وأسبقها إليه ، وهو محل القوة المغذية وهو الكبد قال أصحاب السرة : حاجة الجنين إلى جذب الغذاء أشد من حاجته إلى الأقوات وإدراكه ، ومن السرة يجذب الغذاء وأولى هذه الأقوال القول الأول - فان القلب ومنزلته وشرفه ومحله الذي وضعه الله به يقتضى أنه المبدوء به قبل سائر الأعضاء المتقدم عليها بالوجود . والله أعلم

(١٠٦) فصل

فان قيل : الجنين قبل نفخ الروح فيه ، هل كان فيه حركة واحساس أم لا ؟ قيل كان فيه حركة النمو والاعتناء كالنبات ، ولم تكن حركة نموه واعتدائه بالإرادة ، فلما نفخت فيه الروح انضمت حركة حسيته وإرادته إلى حركة نموه واعتدائه

فان قيل : قد ثبت أن الولد يتخلق من ماء الأبوين ، فهل يتمازجان ويختلطان حتى يصيرا ماء واحداً ، أو يكون أحدهما هو المادة والآخر بمنزلة الأنفحة التي تعقده ؟ قيل هو موضع اختلاف فيه أرباب الطبيعة فقالت طائفة منهم : منى الأب لا يكون جزءاً من الجنين وإنما هو مادة الروح السارى في الأعضاء ، وأجزاء البدن كلها من منى الأم . ومنهم من قال بل هو ينعقد من منى الأثنى ثم يتحلل ويفسد قالوا : ولهذا كان الولد جزءاً من أمه . ولهذا جاءت الشريعة بتبعيته لها في الحرية والرق .

قالوا : ولهذا لو نرى فحل رجل على جارية آخر فأولدها فالولد لمالك الأم دون مالك الفحل ؛ لأنه تكون من أجزائها وأحشائها ولحمها ودمها . وماء الأب بمنزلة الماء الذي يسقى الأرض قالوا : والحس يشهد أن الأجزاء التي في المولود من أمه أضعاف أضعاف الأجزاء التي فيه من أبيه . فثبت أن تكوينه من منى الأم ودم الطمث ، ومنى الأب عاقد له كالأنفحة

ونازعهم الجمهور وقالوا : إنه يتكون من منى الرجل والأثنى ثم لهم قولان : أحدهما أن يكون من منى الذكور أعضاءه وأجزاءه ، ومن منى الأثنى صورته . والثاني أن الأعضاء والأجزاء والصورة تكونت من مجموع المائتين ، وأنهما امتزجا واختلطتا وصاراما واحداً وهذا هو الصواب ؛ لأننا نجد الصورة والتشكيل تارة إلى الأب ، وتارة إلى الأم . والله أعلم

وقد دل على هذا قوله تعالى (١٣: ٤٩) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى) والأصل هو الذكر ، فنه البذر ، ومنه السقي . والآثي وعاء ومستودع لولده ، تربيته في بطنها كما تربيته في حجرها . ولهذا كان الولد للأب حكما ونسبا . وأما تبعيته للأم في الحرية والرق فلا أنه إنما تكون وصار ولدا في بطنها ، وغذته بلبانها ، مع الجزء الذي فيه منها ، وكان الأب أحق بنسبه وتعصيه ، لأنه أصله ومادته ونسخته ، وكان أشرفهما دينا أولى به تغليبا لدين الله وشرعه

فان قيل : فهلا طردتم هذا وقلتم : لو سقط بذر رجل في أرض آخر يكون الزرع لصاحب الأرض دون مالك البذر ؟
 قيل : الفرق بينهما أن البذر مال متقوم في أرض آخر ، فهو للمالك ، وعليه أجرة الأرض ، أو هو بينهما ، بخلاف المني . فانه ليس بمال ، ولهذا نهى الشارع فيه عن المعاوضة . واتفق الفقهاء على أن الفحل لو نزا على رَمَكَة ، كان الولد لصاحب الرمكة

فصل (١٠٧)

فان قيل : فهل يتكون الجنين من ماءين وواطئين ؟ قيل : هذه مسألة شرعية كونية ، والشرع فيها تابع للتكوين . وقد اختلف فيها شرعا وقدرًا ، فمنعت ذلك طائفة وأبته كل الأباء ، وقالت : الماء إذا استقر في الرحم اشتمل عليه وانضم غاية الانضمام ، بحيث لا يبقى فيه مقدار رسم رأس ابرة الا انسد ، فلا يمكن انفتاحه بعد ذلك لماء ثان ، لأمن الواطئ ، ولا من غيره

قالوا : وبهذا أجرى الله العادة : أن الولد لا يكون إلا لأب واحد ، كما لا تكون الأم إلا واحدة . وهذا هو مذهب الشافعي وقالت طائفة : بل يتخلق من ماءين فأكثر . قالوا : وانضمام الرحم واشتماله على الماء لا يمنع قبوله الماء الثاني . فإن الرحم أشوق شيء وأقبله للمنى

قالوا : ومثال ذلك كمثل المعدة ، فإن الطعام إذا استقر فيها انضمت عليه غاية الانضمام ، فإذا ورد عليها طعام فوقه انفتحت له ، لشوقها إليه قالوا : وقد شهد بهذا القائف بين يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، في ولد ادعاه اثنان ، فنظر إليهما وإلى ، وقال : ما أراهما إلا اشتراكا فيه . فوافق عمر وألحقه بهما . ووافقته على ذلك الامام أحمد ، ومالك رضي الله عنهما

قالوا : والحس يشهد بذلك ، كما ترى في جراء الكلبة والسنور ، تأتي بها مختلفة الألوان لتعدد آبائها . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسقى ماءه زرع غيره (١) » يريد وطء الحامل من غير الواطئ . قال الامام أحمد : الوطء يزيد في سمع الولد وبصره ، هذا بعد انعقاده

وعلى هذا مسألة فقيهة ، وهى : لو أحبل جارية غيره بنكاح أوزنى

(١) روى احمد و ابو داود والترمذى عن رويفع بن ثابت ان النبي ﷺ قال يوم حنين « لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر - الخ »

ثم ملكها ، هل تصير أم ولد ؟ فيها أربعة أقوال ، وهى روايات عن الامام أحمد : أحدها لا تصير أم ولد ؛ لأنها لم تعلق بالولد فى ملكه . والثانى تصير أم ولد ؛ لأنها وضعت فى ملكه . والثالث إن وضعت فى ملكه صارت أم ولد ، وإن وضعت قبل أن يملكها لم تصر ، لأن الوضع والاحبال كان فى غير ملكه . والرابع إن وطئها بعد أن ملكها صارت أم ولد ، وإلا فلا . لأن الوطء يزيد فى خلقه الولد ، كما قال الامام أحمد : الوطء يزيد فى سمع الولد وبصره . وهذا أرجح الأقوال . وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه مر على امرأة مُجِجٍ على باب فسطاط فقال « لعل سيدها يريد أن يُلِمَّ بها ، لقد هممت أن ألعنه لئلا يدخل معه فى قبره . كيف يورثه وهو لا يحل له ؟ » (١) والمُجِجُ الحامل المقرب ، وقوله « كيف يُورثه » أى يجعله له تركة موروثة عنه ، كأنه عبده ولا يحل له ذلك ، لأنه قد صار فيه جزء من أجزائه بوطنه ، وكيف يجعله عبده ، ولا يحل له ذلك ؟ . فهذا دليل على أن وطء الحامل اذا وطئت كثيرا جاء الولد عبلا ممتلئا ، واذا هجر وطؤها جاء الولد هزينا ضعيفا . فهذه أسرار شرعية موافقة للأسرار الطبيعية مبنية عليها . والله أعلم .

فان قيل : فهل يمكن أن يخلق من الماء ولدان فى بطن واحد ؟ قيل :

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود عن أبى الدرداء أن النبى صلى الله

عليه وسلم مر فى غزوة على امرأة اظ

هذه مسألة التوأم ، وهو ممكن ، بل وقع . وله أسباب : أحدها كثرة
المني ، فيفيض الى بطن الرحم دفعات ، والرحم يعرض له عند
الحركة الجارية للمني حركات اختلاجية مختلفة ، فربما اتفق أن
كان الجاذب للدفعة الأولى من المنى أحد جانبيه ، وللثانية الجانب
الآخر . ومنها أن يبت الأولاد في الرحم فيه تجاوز ، فيكون المنى
كثيراً ، فيغفل أحدها عن فضلة يشتمل عليها التجويف الثاني ،
وهكذا الثالث . قال أرسطو : وقد يعيش للمرأة خمسة أولاد
في بطن واحد . وحكى عن امرأة أنها وضعت في أربع بطون
عشرين ولداً . قال صاحب القانون : سمعت بجرجان أن امرأة
أسقطت كيساً فيه سبعون صورة صغيرة جداً . قال أرسطو : وإذا توأمت
بذكر وأنثى فقلما تسلم الوالدة والمولود ، وإذا توأمت بذكرين
أو أنثيين فقلما تسلم كثيراً . قال : والمرأة قد تحبل على الحمل ، ولكن
يهلك الأول في الأكثر ، فقد أسقطت امرأة واحدة اثني عشر جنيناً ،
حملاً على حمل . وأما إذا كان الحمل واحداً أو بعد وضع الأول
فقد يعيشان . والله أعلم

فإن قيل : فما السبب المانع للحامل من الحيض غالباً . قال الامام
احمد وأبو حنيفة : إن ما تراه من الدم يكون دم فساد لا حيض .
والشافعي وإن قال إنه دم حيض - وهو إحدى الروايتين عن
عائشة - فلا ريب أنه نادر بالاضافة الى الأغلب . قيل : دم الطمث
ينقسم ثلاثة أقسام : قسم ينصرف الى غذاء الجنين . وقسم يصعد
الى البدن . وقسم يحبس الى وقت الوضع ، فيخرج مع الولد . وهو

دم النفس . وربما كانت مادة الدم قوية - وهو كثير - فيخرج بعضه لقوته وكثرته . والراجح من الدليل أنه حيض ، حكمه حكمه ، اذ ليس هناك دليل عقلي ولا شرعي يمنع من كونه حيضاً ، واستيفاء الأدلة من الجانبين قد ذكرناه في مواضع أخر . والله أعلم

فان قيل : فما السبب في أن النساء الجبالى يشمتقن في الشهر الثاني والثالث الى تناول الأشياء الغريبة التي لا يعتد بها طبياً ؟

قيل : ان دم الطمث لما احتبس فيهن بحكمة قدّر لها الله ، وهي أن صرفه غذاء للولد ، ومقدار ما يحتاج اليه يسير ، فتدفعه الطبيعة الصحيحة الى فم المعدة ، فيحدث لهن شهوة تلك الأشياء الغريبة

فان قيل : فكيف وضع الجنين في بطن أمه : قائماً ، أو قاعداً ، أو مضطجعا ؟ قيل : هو معتمد بوجهه على رجله ، وبراحتىه على ركبتيه ، ورجلاه مضمومتان الى قدميه ، ووجهه الى ظهر أمه . وهذا من العناية الالهية أن أجلسه هذه الجلسة في المكان الضيق في الرحم على هذا الشكل . وأيضاً فلو كان رأسه الى أسفل لوقع ثقل الأعضاء الخسيسة على الأعضاء الشريفة ، وأدى ذلك الى تلفه ، ولأنه عند محاولة الخروج اذا انقلب أعاتته على الخروج . فانه اذا خرج أول ما يخرج منه رأسه ، لأن الرأس اذا خرج أولاً كان خروج سائر الأعضاء بعده سهلاً ، ولو خرج على غير هذا الوجه لكان فيه تعويق وعسر .

فان الرجلين لو خرجتا أولاً انعاق خروج الباقي ، وان خرجت الرجل الواحدة أولاً انعاق عند الثانية ، وان خرجتا معاً انعاق عند

اليدين ، وان خرجت الرجلان واليدان انعاق عند الرأس ، فكان يلتوى الى خلف وتلتوى السرة الى العنق فيألم الرحم ، ويصعب الخروج ، ويؤدى الى مرضه أو تلفه

فان قيل : فما سبب الاجهاض الذى يسمونه الطرح قبل كمال الولد ؟

قيل : الجنين فى البطن بمنزلة الثمرة فى الشجرة ، وكل منهما له اتصال قوى بالأم ، ولهذا يصعب قطع الثمرة قبل كمالها من الشجرة وتحتاج الى قوة . فاذا بلغت الثمرة نهايتها سهل قطعها ، وربما سقطت بنفسها ، وذلك لأن تلك الرباطات والعروق التى تدها من الشجرة كانت فى غاية القوة والغذاء ، فلما رجع ذلك الغذاء الى تلك الشجرة ضعفت تلك الرطوبات والمجارى ، وساعدها ثقل الثمرة ، فسهل أخذها . وكذلك الأمر فى الجنين ، فانه مادام فى البطن قبل كماله واستحكامه ، فان رطوباته وأغشيته تكون مانعة له من السقوط ، فاذا تم وكلل ضعفت تلك الرطوبات ، وانتهكت الأغشية ، واجتمعت تلك الرطوبات المزلقة فسقط الجنين . هذاهو الأمر الطبيعى الجارى على استقامة الطبيعة وسلامتها . وأما السقوط قبل ذلك فلفساد فى الجنين ، ولفساد فى طبيعة الأم ، أو ضعف الطبيعة ، كما تسقط الثمرة قبل ادراكها لفساد يعرض ، أو لضعف الأصل ، أو لفساد يعرض من خارج ، فاسقاط الجنين لسبب من هذه الأسباب الثلاثة ، فالآفات التى تصيب الأجنة بمنزلة الآفات التى تصيب الثمار

فان قيل فكيف يخرج من الرحم - مع ضيقه - ما هو أكبر منه بأضعاف مضاعفة ؟

قيل : هذا من أعظم الأدلة على عناية الرب تعالى وقدرته ومشيبته . فان الرحم لا بد أن يفتح الانفتاح العظيم جدا . قال غير واحد من العقلاء : ولا بد من انفصال يعرض للمفاصل العظيمة ، ثم تلتئم بسرعة أسرع من لمح البصر . وقد اعترف فضلاء الأطباء وحذاقهم بذلك ، وقالوا : لا يكون ذلك الا بعناية إلهية وتدير تعجز العقول عن ادراكه . وتقر للخلاق العظيم بكمال الربوبية والقدرة

فان قيل : فما السبب في بكاء الصبي حالة خروجه الى هذه الدار ؟ قيل : ههنا سببان : سبب باطن أخبر به الصادق المصدوق . لا يعرفه الاطباء . وسبب ظاهر . فأما السبب الباطن فان الله سبحانه اقتضت حكمته أن وكل بكل واحد من ولد آدم شيطانا ، فشیطان المولود قد خنس ينتظر خروجه ليقارنه ويتوكل به ، فاذا انفصل استقبله الشيطان وطعنه في خاصرته ، تحرقاعليه وتغيظا ، واستقبالا لله بالعداوة التي كانت بين الابوين قديما . فيبكي المولود من تلك الطعنة . ولو آمن زنادقة الاطباء والطبائعين بالله ورسوله لم يجدوا عندهم ما يبطل ذلك ولا يردده . وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صياح المولود حين يقع ترعة من الشيطان » وفي الصحيحين من حديثه أيضا

رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن مولود يولد إلا نخسه الشيطان ، فيستهل صارخا من نخسه ، إلا ابن مريم وأمه » وفي لفظ آخر « يمسه حين يولد ، فيستهل صارخا من مس الشيطان إياه » وفي لفظ آخر « كل بني آدم يمسه الشيطان يوم ولادته إلا مريم وابنها » وفي لفظ للبخارى « كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبه بأصبعه حين يولد ، غير عيسى ابن مريم ، ذهب يطعن فطعن في الحجاب » والسبب الظاهر الذى لا تخبر الرسل بأمثاله لرخسه عند الناس ، ومعرفتهم له من غيرهم ، هو مفارقتة للألوف والعادة التى كان فيها الى أمر غريب . فانه ينتقل من جسم حار الى هواء بارد ، ومكان لم يألفه ، فيستوحش من مفارقتة وطنه ، ومألفه ، وعند أرباب الاشارات أن بكاءه ارهاص بين يدي ما يلاقيه من الشدائد والآلام والمخاوف . وأنشدنى ذلك :

ويبكى بها المولود حتى كأنه * بكل الذى يلقاه فيها يهدد
والا ، فما يبكيه فيها ، وإنها * لاوسع مما كان فيه وأرغد ؟
ولهم نظير هذه الاشارة فى قبض كفهم عند خروجه الى الدنيا ،
وفى فتحها عند خروجه منها ، وهو الاشارة الى أنه خرج اليها مركبا
على الحرص والطمع ، وفارقها صفر اليدين منها . وأنشدنى ذلك :
وفى قبض كف المرء عند ولادة * دليل على الحرص الذى هو مالكة
وفى فتحها عند الممات اشارة * الى فرقة المال الذى هو تاركة
ولهم نظير هذه الاشارة فى بكاء الطفل ، وضحك من حوله : أن

الأمر سيدبل ويصير الى ما ييكى من حوله عند موته ، كما ضحكوا
عند ولادته . وأنشد فى ذلك :

ولدتك اذ ولدتك أمك با كيا * والناس حولك يضحكون سرورا
فاعمل لعلك أن تكون إذا بكوا فى يوم موتك ضاحكاً مسروراً
ونظير هذه الإشارة أيضاً قولهم : ان المولود حين ينفصل يمد
يده الى فيه ، إشارة الى تعجيل نزوله عند القدوم عليه بأنه ضيف ،
من تمام كرامه تعجيل قراه ، فأشار بلسان الحال الى ترك التأخير
وربما مص أصبعه إشارة الى نهاية فقره ، وأنه بلغ منه الى مص
الأصابع ، ومنه قول الناس ، لمن بلغ به الفقر غايته : فهو يمص أصابعه .
وأنشد فى ذلك :

ويهورى الى فيه يمصُّ بنانه يطالب بالتعجيل خوف التشاغل
ويعلمهم أنى فقير وليس لى من القوت شىء غير مص الأنامل
ونظير هذه الإشارة أنه يحدث بالعجب ممن يظهر من الحدث
ويحدث بين الحاضرين إشارة الى أنه من حادث ليس يعصم
يقول : وعندى بعدها أخواتها وما منكم إلا وذو العرش أرحم
ونظير هذه الإشارة أنه يضحك بعد الأربعين ، وذلك عند
ما يتعقل نفسه الناطقة ويدركها . وفى ذلك قصاص من البكاء الذى
أصابه عند ولادته ، وتأخر بعده ، لى يتأسى العبد اذا أصابته شدة ،
فالفرج كأم يطلبها فى أثرها :

ويضحك بعد الأربعين إشارة الى فرجٍ وافاه بعد الشدائد

يقول: هي الدنيا، فتبكيك مرة وتضحك أخرى، فاصطبر للعوائد
قالوا: ويرى الامانى بعد ستين يوماً من ولادته، ولكنه ينساها
لضعف القوة الحافظة وكثرة الرطوبات. وفي ذلك لطف به أيضاً
لضعف قلبه عن التفكير فيما يراه

ويرى بعين القلب - اذ يأتى له * ستون يوماً - رؤية الأحلام
لكنه ينساها بعد لضعفه * عن ضبطه فى يقظة ومنام

١٠٨ فصل

ولما تكامل للنطفة أربعون يوماً فاستحكم نضجها، وعقدتها حرارة
الرحم استعدت لحالة هي أكمل من الأولى، وهى الدم الجامد
الذى يشبه العلقه، ويقبل الصورة ويحفظها بانعقادها، وتماسك
أجزائها. فاذا تم لها أربعون استعدت لحالة هي أكمل من الحالتين
قبلها، وهى صيرورتها لحما أصلب من العلقه وأقوى وأحفظ للمخ
المودع فيها، واللحم هو كسوتها، والرباطات تمسك أجزائها وتشد
بعضها بعضاً، والكبد الذى يأخذ صفو الغذاء فيرسله الى سائر
الأعضاء، والى الشعر والظفر، والامعاء التى هى مجارى وصول
الطعام والشراب الى المعدة، والعروق التى هى مجارى منفذه وايصاله
الى سائر أجزاء البدن، والمعدة التى هى خزانة الطعام والشراب
وحافظته لمستحقه، والقلب الذى هو منبع الحرارة ومعدن الحياة
والمستولى على مملكة البدن، والرئة التى تروح عن البدن وتقيده

الهواء البارد الذى به حياته ، واللسان الذى هو يريد القلب وترجمانه
ورسوله ، والسمع الذى هو صاحب أخباره ، والبصر الذى هو
طليعته ورائده والكاشف له عما يريد كشفه ، والأعضاء التى هى
خدمه وخوله ، والرجلان تسعى فى مصالحه ، واليد تبطش فى
حوائجه ، والأسنان تفصل قوته وتقطعه ، والعروق توصله الى
أربابه ، والذكر آلة نسله ، وأنثياه خزانة مادة النسل ، والكبد
للغذاء وقسمته وهى فى الحيوان بمنزلة شرش الشجر والنبات .
تجذب الغذاء وترسله الى جميع الأجزاء وآلات الغذاء خدم له ، والقلب
للارواح الذى به حياة الحيوان ، وآلات النفس خدم له ، والدماغ
معدن الحس والتصور ، والحواس خدم له ، والأنثيان معدن التناسل ،
والذكر خدم لهما . وهذه الأعضاء هى رأس أعضاء البدن

(١٠٩) فصل

وأما آلات الغذاء فثلاثة أقسام : آلة تقبل الغذاء وتصلحه وتفرقه
وترسله الى جميع البدن . وآلة تقبل فضلاته ، وآلة تعين فى إخراج
ثقله وما لا منفعة فى بقاءه . فالآلات القابلة هى الفم ، والمرى ،
والبطن ، والكبد ، والعروق الموصلة الى الكبد ، والعروق الموصلة
منها الى البدن

(١١٠) فصل

وأما الآلات القابلة للفضلات ، فالمرارة تقبل ما لطف منها ، والطحال يقبل كشيئها ، والكلى والمثانة يقبلان المتوسط ، والكبد موضوعة في الجانب الأيمن ، وتأخذ يسيراً للجانب الأيسر ، وهذا الحكمة بديعة ، وهي أن القلب في الجانب الأيسر أقرب وهو معدن الحار الغريزي ، فتجنب عنه الكبد قليلاً ، لئلا يتأذى بحرارتها ، وجعل في أوعية الغذاء قوى خادمة له . فالقمع مع كونه يقطع الغذاء ويطحنه يحمله ويغيره ، والمرى مع كونه منفذا إلى المعدة يغيره تغييراً ثانياً ، والمعدة مع كونها خزانة حافظة له تنضجه وتطبخه وتغيره تغييراً ثالثاً ، وتهضمه ، وتنقي منه ما لا يصلح ، وتخرجه ، وتدفعه إلى مخرج الشفل . فان الطعام اذا استقر في المعدة اشتملت عليه وانضمت غاية الانضمام ، ثم انضجته بحرارتها ، ثم تتولاه الكبد ، وتشتمل عليه ، وتقلبه دماً خالصاً ، ثم تقسمه على جميع الأعضاء قسمة عدل ، لا جور فيها ، ولا حيف

ولما كانت المعدة حوض البدن الذي يردّه أجزاء البدن من كل ناحية اقتضت الحكمة الإلهية جعلها في وسطه ، وخالص الغذاء يتأدى إلى الكبد من شعب كثيرة ، ويجتمع في موضع واحد واسع يسمى باب الكبد ، وجميع العروق التي تتصل بالمعدة والأمعاء والطحال تجتمع وترتقى إلى باب الكبد ، والمعدة تجذب الموافق ، ويبقى

المخالف المنافى الذى عجزت قوتها عنه . ثم ان الكبد تصفيه
وتنقيه بعد اجتذابه مرة أخرى . وتنفي عنه غير الموافق
وقد أعد الصانع الحكيم سبحانه لتنقية الدم من الكبد ثلاثة
خدام فارهين قائمين بالمرصاد بلا كسل ولا فتور . وقد وضع كلا
منها فى المكان اللائق به ، ونصبه نصبة بها يكون أمكن من عمله .
ولما استقر الغذاء فى المعدة وطبخته وأنضجته صارت فضلاته ثلاثة :
فضلة كالدردى الراسب . (١) وفضلة كالرغوة والزبد الطافى . وفضلة
مائية ، فجعل كل خادم من هذه الخدام الثلاثة على فضلة لا يتعداها الى
الأخرى ، ليجذبها من مجرى خادم الفضلة الخفيفة الطافية ، وهى
للصفرة المرارة ، نصبها الرب تعالى فوق الكبد ، لان المجتذب هو
الفضلة الطافية ، ومكانها فوق مكان الدردى الراسب . وخادم
الفضلة التى هى كالدردى الراسب الطحال ، ونصبه الخلاق العليم
أسفل من باب الكبد ، حيث كان ما يجتذبه من أسفل ، ولم يكن فى الجانب
الايمن ، لان المعدة قد شغلت ذلك الجانب ، وكان الجانب الايسر خاليا فلم
تعبه . فاذا نقي الدم من هاتين الفضلتين خدمه الخادم الثالث وهو الكبد .
وقد بقى أحمر نقي اللون مشرقا نورانيا ، ويصل اليها من عرق عظيم
يسمى الأجوف ثم يوزع من هناك على جهات البدن العليا والسفلى
فى رواضع كثيرة العدد ، ما بين كبير وصغير ومتوسط ، كلها تتصل

بالعرق الأجوف وتمتار منه ، ومادام الدم فى هذا العرق ففيه مائية غير محتاج اليها . لأنها كانت بتركب الغذاء . فلما وصل الى مستقره استغنى عنها . فاحتاج ولا بد الى اخراجها ودفعها ، ولو لم يبادر الى ذلك أضرته به ، فخلق الله سبحانه السكيتين يمتصان هذه الفضلة بعنقين طويلين ، كالأنبوبتين ، ويفرغانها فى المثانة بعرقين آخرين وضعهما سبحانه أسفل من الكبد قليلا ، حيث يكون أمكن لتخليص المائية ، كما تروق العصارات . وأما المرارة فوضعها الله سبحانه فوق الكبد لأنها بمنزلة السفنجة أو القطننة التى يقطف بها الدهن عن وجه الرطوبات . وأما الطحال فوضعه أسيل الى أسفل ، لأنه بمنزلة ما يجتذب الأشياء المصونة اذا رسبت .

(١١١) فصل

اذا تنقى الدم من هذه الفضلات كلها وعملت فيه هذه الخدم بقواها التى أودعها الله فيها هذا العمل ، وأصلحته هذا الاصلاح عمل ملك الأعضاء والجوارح - وهو القلب - فيه عملا آخر ، فقصد به حرارة أخرى ، وهى أقوى من حرارة الكبد

(١١٢) فصل

وجعل سبحانه فى المعدة أربع قوى : قوة جاذبة للبلاثم . وقوة منضجة له . وقوة ممسكة له . وقوة دافعة للفضلة المستغنى

عنها منه . ورئيس هذه القوى هي القوة المنضجة وسائرها خدم لها .
وخصت المعدة عن سائر الاعضاء بأن أودع فيها قوة تحس بالعوز
والنقصان ، وخاصتها . تنبيه الحيوان لتناول الغذاء عند الحاجة .
وأما سائر الاعضاء فانها تتغذى بالنبات باجتناب الملائم اليها . ولما
احتاجت المعدة الى قوة وحس بالعوز ولم يكن ذلك الا من
معدن الحواس وهو الدماغ أتاها روح لعصب عظيم ، فأنبت أكثرها
في فمها وما يليه و باقية مستقيما ، حتى بلغ قعرها

فان قيل : فما الحكمة في أن باعد الله سبحانه بين المعدة والفم وجعل
بينهما مجرى طويلا وهو المريء ، وهلا اتصلت المعدة بالفم ،
واستغنت عن المريء ؟ قيل : هذا من تمام حكمة الخالق ، وفيه منافع
كثيرة : منها أن يحصل للغذاء تغير ما في طريق المجرى ، فيلطف قبل
وصوله اليها . ومنها بعده عن آلة التنفس ، لئلا تعوقه وتعوق
الصوت والكلام ، وأن لا تنقلب المعدة الى خارج عند شدة الجوع
كما يعرض ذلك للحيوان الشره اذا كان قصير العنق

فان قيل : فلم كانت إلى الجانب الأيسر أميل منها الى الجانب
الايمن ؟ قيل : ليتسع المكان على الكبد ولا ينحصر

فان قيل : فهلا كانت مستقيمة في وضعها ، بل مال أسفلها الى
الجانب الايمن ؟ قيل . ليتسع المكان على الطحال حيث كان أخفض
موضعا من الكبد

فان قيل : فلم جعلت مستطيلة مدورة ، وجعلت بما يلي الصليب

مسطحة ؟ قيل : لما وضعها الله بين الكبد والطحال جعلها مستطيطة
وكانت مستديرة لتسع للطعام وللشراب ، وكان أسفلها أوسع
من أعلاها لذلك ، وجعل لها مدخلا وهو المريء ومخرجا يسمى
البواب ، وجعل البواب أضيق من المريء ، لأن ما تبتلعه يكون
أصلب وأخشن مما تخرجه ، فجعل مدخل الداخل أوسع من مخرج
الخارج لانضاجه في المعدة ولينه ولحسك آخر : منها أن لا ينزل منه
الطعام والشراب قبل نضجه ، ولتقوى المعدة على حبسه وليخرج
أولا فأولا ، لادفعة واحدة . والمريء يتسع بالتدريج حتى يبلغ
المعدة ، ولذلك يظن أنه جزء منها . وأما البواب فإن الجزء الضيق منه
يتصل بأسفلها الذي هو أوسعها ثم يتسع على التدريج ليسهل
خروج الفضلة

(١١٣) فصل

والكبد منطبقة على المعدة ، محتوية عليها بزوائدها ، لتسخنها .
والطحال يسخنها من الباب الأيسر ، والصلب يسخنها من خلف ،
والترائب من قدامها . والترائب مؤلفة من طبقتين رقيقتين تطبق
أحدهما على الأخرى بشحم كثير ، وهو غشاء الامعاء كلها ولباسها
ثم غشى البطن كله بغشاء واحد يقي الاحشاء ، ويمنع من انفتاح
المعدة والامعاء بالرياح ، ويربط جملة آلات الغذاء ، ولم يجعل في
الكبد تجويف ، كتجويف القلب لتحتوى على الدم احتواء مكنا ،

وتحيلة احالة بليغة . وللكبد ثلاث شباك من العروق : شبكة بينها وبين المعدة والامعاء ، وشبكة في مفرعها ، وشبكة في مجذباها . فالشبكة الأولى تجذب الغذاء وتحيلة بعد أن أحاله . وفي الشبكة الثانية يصير دما . وفي الشبكة الثالثة يزداد صفاء وترويقا . وللكبد بالقلب والدماع اتصال بشبكة من العصب خفية ، كنسج العنكبوت

ولما كانت النفس المعدية بمنزلة حيوان عادي وحشي ، وكل جسم يموت فلا بد أن تتصل به هذه النفس وتغذوه ، بخلاف النفس المفكرة التي محلها الدماغ ، وبخلاف النفس الغضبية التي محلها القلب . فالنفس المفكرة تستعين بالنفس الغضبية على تلك النفس الحيوانية العادية الوحشية - فاقتضت حكمة الخالق سبحانه أن وصل بين محل هذه الانفس الثلاثة ليدعن بعضها لبعض .

ولا تنكر تسمية هذه القوى نفوسا . فليس الشأن في التسمية ، فأنت تجد فيك نفسا حيوانية تطلب الطعام والشراب ، ونفسا مفكرة سلطانها على التصور والعلم والشعور ، ونفسا غضبية سلطانها على الغضب والارادة ، وتضرب كل واحدة منها فيما جعلت اليه . وبعضها عون لبعض . فمحل النفس الحيوانية الكبد . ومحل المفكرة الدماغ . ومحل الغضبية القلب .

(١١٤) فصل

وتأمل الحكمة في أن جعلت صفاقات عروق الكبد أرق من

صفاقات سائر عروق البدن ، لينفذ الى الكبد جوهر الدم بسرعة ،
وهي مع ذلك غير محتاجة الى الوقاية ، لأن الكبد تحوزها بلحمها ،
وإنما وضعت مجارى المرة الصفراء بعد العروق التي تصعد الغذاء من
المعدة ، وقبل العروق التي تأخذ الدم منها ، لان هذا الموضع هو بين
موضع كمال الطبخ ، وبين موضع انتقاله الى العرق الأجوف ، وحينئذ
يمكن انفصال المرة عن الدم . وجمعت العروق كلها الى عرق واحد
هو الباب ، ثم عادت فتقسمت في مقعر الكبد ، ثم عادت فجمعت
في مجدها الى عرق واحد ، وهو الأجوف ، لتجيد بقسميها إنضاج
ما تحتوى عليه ، ولئلا ينفذ بسرعة ، وكذلك كل موضع احتيج
فيه الى طول مكث المادة هي بقاءها فيه بطول مسلكها ، وكثرة
تعاريجها ، كما فعل في مجارى المنى ، وشبكة الدماغ . وهذا شأن العروق
الجواذب . وأما العروق الضوارب فبالعكس من ذلك ، فانها جمعت
في مقعر الكبد دون مجدها . لأنه موضع الدم ، وحاجته الى التغذية
بالحرارة ماسة . قال جالينوس : ولا تقع العروق الضوارب في
مجذب يعلم الخالق سبحانه أن جذبه الكبد لانها تتحرك دائماً بمجاورة
الحجاب ، فيقوم لها ذلك مقام حركة العروق الضوارب ، وجعلت
هذه العروق الضوارب رقاقا لأنها إنما وضعت لترويح الكبد
لالتغذيتها ، ولا لاتصال روح اليها ، إذ ليس بالكبد حاجة الى
قبول روح حيوانى كثير ، ولا يحتاج لحمها إلا الى غذاء لطيف بخارى

(١١٥) فصل

وأحرز الصانع سبحانه موضع الكبد ووضعها ، بأن ربطها بالمعدة والامعاء كلها بالعروق ، وبالعشاء الممدود على البطن الذي يشد جميعها ، ووصل بهارباطات من جميع النواحي ، وغشاؤها الرابط يتصل بالحجاب برباط قوى ، ورباط الكبد بالحجاب صلب وثيق ، لان الكبد معلقة به ، وهو أصلب من غشاء الكبد لشدة الحاجة الى صلابته ، لانه يحرز الكبد ، والعرق الأجوف متى ناله آفة مات الحيوان ، كما تهلك أغصان الشجرة اذا أصاب ساقها آفة وجعل أرق هذه الرباطات من خلف ، لشده بالعظام . وأغلظه من قدام حيث لأعظام هناك تقيه . وهذا من شدة الأسر الذي قال الله تعالى فيها (٢٨:٧٦) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ) شدأوصالهم بالرباطات المحكمة ، وجعل خلقهم بعضه موصولا ببعض . ولما كان الحجاب آلة شريفة للنفس بُوعِدَ من العضوين المجاورين له - وهما المعدة والكبد - بمقدار حاجته ، لئلا يزحمهما ويعوقاه عن فعله ، فبوعدت المعدة عنه بطول مجراها

(١١٦) فصل

وأما الطحال ، فبعضهم يقول : إنه لانفع فيه ، وإنما شغل المسكان

به لئلا يبقى فارغا ، فيميل أحد شقى البدن بثقل الكبد ، فجعل موازنا للكبد

قلت : وهذا غلط من وجه ، وصواب من وجه : أما الصواب فمن الحكم العجيبة جعل الطحال فى الجانب الأيسر على موازنة الكبد ، لئلا يميل الشق الأيمن بها ، ولا يمكن أن تقوم المعدة بموازنة الكبد ، لأنها دائماً تمتلىء وتخلو . فتارة تكون أخف من الكبد ، وتارة أرجح منها . فيصير البدن مترجحا ، أو يميل الى شق الكبد وقتا ، وإلى شق المعدة وقتا آخر . فجعل الخالق سبحانه الطحال يه ازن الكبد ، وجعل المعدة بينهما فى الوسط ، لئلا يشغل جانب ويخف جانب آخر عند امتلائها وخلوها . فلما جعلت وسطا لم يختلف وضع البدن باختلافها

وأما الغلط فقولہ : إنه لا منفعة فيه ، وإنما يشغل المكان لئلا يبقى فارغا ، فإنه - وإن لم يعلم فيه منفعة - لم يكن له أن ينفيها . فان عدم العلم بالمنفعة لا يكون علما بعدمها ، ولا شىء فى البدن خال عن المنفعة ألبتة . وفى الطحال من المنافع أنه يجذب الفضلة الغليظة العكرة السوداء من الكبد نوعا ، من جنس العروق كالعنق له . فاذا حصلت تلك الفضلة عنده أنضجها وأحالتها . وهو ينضج غليظ الدم وعكره ، كما ينضج قولون غليظ الغذاء ويأبسه ، ويستعمل فى فعله العروق الضوارب الكثيرة المشوثة فيه كلها ، فما نضج واستحال الى طبيعته صار غذاء له ، وما لم يمكن أن ينقلب الى الدم الموافق له قذفه الى

المعدة بعنق آخر من جنس العروق . وانما أمكنه جذب الفضل
الأسود بقوة لحيته ، لأنه رخو متحلل خفيف كالاسفنج . ولما
اتصلت به العروق الضوارب الكثيرة استغنى بها عن انضاج
الفضول السوداء ، ليبقى لحمه خفيفا متحللا . لان دم الشرايين
رقيق لطيف قريب ، طبيعته البخار . فما اغتذى به كان خفيفا كالرئة ،
ولكن الرئة تغتذى بما صفا ورق وأشرق ، وكان أحمر ناريا .
وكذلك الرئة كانت أخف وزنا منه ، وأسخف جرما ، ومائلة الى
البياض . وأما الطحال فيغتذى بماء لطيف من الخلط الأسود المنطبخ
في الشرايين ، فيستريح منه البدن ويغتذى به الطحال . فالطحال
يغتذى بغذاء لطيف من غذاء الكبد ، لانه يرشح اليه من الشرايين
التي صفا فأيهما يحبه جدا (١) ولاجل سواد تلك الفضلة وكونها
عكرة في الاصل ، لم يكن لون الطحال أحمر ولا مشرقا

فأما الكبد فتغتذى بدم غليظ فاضل يرشح اليها من العروق غير
الضوارب ، فلجودة غذائها كان لونها أحمر ، ولفضلته كانت كشيعة .
فالكبد تغتذى بدم أحمر غليظ . والطحال بدم أسود لطيف . والرئة بدم
صاف مشرق ، في غاية النضج ، قريب من طبيعة الروح . فجوهر كل
عضو على ما هو عليه غذاؤه ، ملائما له . فالغذى شبيه بالمغتذى في
طبعه وفعله . وهذا كما أن حكمة الله سبحانه في خلقه فيه جرت حكمته
في شرعه وأمره ، حيث حرم الأغذية الخبيثة على عباده ، لأنهم اذا

اغتذوانها صارت جزءا منهم ، فصارت أجزاؤهم مشابهة لأغذيتهم .
 اذ الغذاء شبيه بالمغتذى ، بل يستحيل الى جوهره . فلماذا كان نوع
 الانسان أعدل أنواع الحيوان مزاجا ، لا اعتدال غذائه . وكان
 الاغتذاء بالدم ولحوم السباع يورث المغتذى بها قوة شيطانية
 سبعية عادية على الناس . فمن محاسن الشريعة تحريم هذه الأغذية
 وأشباهاها ، الا اذا عارضها مصلحة أرجح منها ، كحال الضرورة .
 ولهذا لما أكلت النصارى لحوم الخنازير ، أورثها نوعا من الغلظة
 والقسوة . وكذلك من أكل لحوم السباع والكلاب صار فيه قوتها .
 ولما كانت القوة الشيطانية عارضة ثابتة لازمة لذوات الأنبياء من
 السباع حرمها الشارع . ولما كانت القوة الشيطانية عارضة في
 الابل أمر بكسرها بالوضوء لمن أكل منها . ولما كانت الطبيعة الحمارية
 لازمة للحمار حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوم الحمرا الأهلية .
 ولما كان الدم مركب الشيطان ومجراه حرمه الله تعالى تحريما لازما
 فمن تأمل حكمة الله سبحانه في خلقه وأمره ، وطبق بين هذا وهذا
 فتحاله بابا عظيما من معرفة الله تعالى وأسمائه وصفاته . وهذا هو
 الذى حركنا لبسط القول فى هذا المقام الذى لا يكاد يرى فيه الا
 أحد طريقتين : طريق طيب معترض للوحى مقلد لبقرات ، وعائفته
 قد عبرت عينه على الرسل وما جاءوا به . وهو بمن قال تعالى فيه
 (٨٣ : ٤٠) فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالنَّبِيِّاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ
 الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ وطريق من يحدد ذلك كله

ويكذب قائله ، ويظن منافاته للشريعة ، فيجحد حكمة الله تعالى في خلقه ، وابداعه في صنعه ، وكلا الطريقتين مذموم ، وسالكة من الوصول الى الغاية محروم . فلا نكذب بشرع الله ، ولا نجحد حكمة الله . وأكثر ما أفسد الناس أنفسهم لم يروا الا طبائعيًا زنديقا ، منحلا عن الشرائع ، أو متساهلا قادحا فيما جرت به حكمة الله ومشيتته في خلقه ، منكرا للقوى والطبائع والاسباب والحكم والتعليل . فاذا أراد الأول أن يدخل في الاسلام صده جهل هؤلاء ومكابرتهم للعقول والحس . واذا أراد الآخر أن يدخل في معرفة الحكم والغايات ، وما أودع الله في مخلوقاته من المنافع والقوى والاسباب ، صده زندقة هؤلاء وكفرهم ، واعراضهم عما جاء به الرسل ، وقدحهم فيما عندهم من العلم . فيختار دينه على عقله ، ويختار ذلك عقله وما استقر عنده ، بما لا يكابر فيه حسه ولا عقله على الدين . وهذا قد بلى خاق الاطباء والطبائعين فهو عنده أحد أنواع أدلة التوحيد والمعاد وصفات الخالق ، وما اخبرت به الرسل هو من أظهر أدلته ، ولا يزداد الباطن فيه الا ايمانا ، وما أخبرت به الرسل لا يناقض ما جرت به عادة الله وحكمته في خلقه : من نصب الاسباب وترتيب مسيبتها عليها بعلمه وحكمته . فمصدر خلقه وأمره عليه تعالى وحكمته . وآلاء الرب تعالى لا تتعارض ولا تناقض ، ولا يبطل بعضها بعضا . والله أعلم

(١١٧) فصل

والكبد والطحال متقابلان ، والمعدة بينهما . والعروق الضوارب تتصل بها المعدة ، والقلب بمنزلة التنور ، أو بمنزلة أتون الحمام يسخن ماءه ، وله الى كل بيت منفذ ينفذ منه وهج النار اليه . وكذلك الحار الغريزي الذي منبعه من القلب ينفذ في مسالك ومنافذ الى جميع الأعضاء فيسخنها

(١١٨) فصل

وجعلت الأعضاء مسلكاً مؤدياً ، والمعدة هي الآلة لهضم الغذاء واستمرائه ، والامعاء تؤدي ذلك الى الكبد . ولما كانت الامعاء آلة الأداء والاتصال كثرت لفائفها وطولها ، وكانت العروق التي تأتيها من الكبد لا تحصى كثرة ، لينفذ فيها الغذاء أولاً فأولاً ، وتفيضه يسيراً يسيراً . فلولا تطويل لفائف الامعاء لكان يخرج قبل أخذ خاصيته ، وكان يعرض اليهم بشهوة الاكل دائماً ، وكان الانسان يعدم التفرغ لمصالحه وسائر أعماله ، وكان دائماً مكباً على الغذاء . ولهذا صار الحيوان الذي ليس لامعائه استدارات بل له معي واحد مستقيم ، مكباً على الغذاء دائماً ، عديم الصبر عنه ، كالفيل وأما ما لامعائه استدارات فانه اذا فارقه الغذاء أو بعضه في الاستدارة الأولى صادفه في الثانية . فان هوفاته في الثانية صادفه في الثالثة والرابعة والخامسة كذلك . فيمكن صبره على الغذاء . حكمة بالغة

وما ينفذ الى الامعاء يبعث من العروق الضاربة ويأخذ من الغذاء جزءا يسيرا لطيفا . وأما العروق غير الضاربة فهي مجارى الغذاء بالحقيقة ، فأخذت أكثره . وأما العروق الضاربة فجعلت مسلكا للأرواح المنبعثة من القلب ، فاستغنت بقليل الغذاء ، وجعل للقلب وصلة بالامعاء ليحسنها أولا ، ويمدها بقوة الحار باذن خالقه . ثم يأخذ منها الجزء الملائم من الغذاء المستغنى عن فعل الكبد للطاقة جوهره . فان هذا الجزء لو حصل فى الكبد لم يؤمن احراقه وفساده فلا ينتفع به القلب ، ثم يأخذ منها عند شدة الحاجة وصدق المجاعة ، فيتعجل ذلك من أدنى المواضع . ولذلك يشاهد من أكل مسنة شديدة (١) يحس بزيادة ونماء فى كل أعضائه ، حتى يبر الطعام بالمعدة قبل استقراره فيها . فسبحان من أتقن ما صنع

ولما كانت المعدة آلة هضم الغذاء ، والامعاء آلة دفعه جعل للامعاء طبقتان ، ليقوى دفعها بهما جميعا ، وليكون حرزا لها وحفظا . ولذلك من تعرض له قرحة الامعاء بانجراد أحد الصفاقين يبقى الآخر سليما ، وجعلت الامعاء الغلاظ لقذف الثقل ، والرقاق لتأدية الغذاء . والسبب فى أن صار الانسان لا يحتاج الى تناول الغذاء دائما كثرة لفائف امعائه . والسبب المانع من قذف الفضول دائما سعة الامعاء الغلاظ التى تقوم لها مقام وعاء آخر ، شبيه بالمعدة فى السعة ، كما أن المثانة وعاء للبول كذلك

فصل (١١٩)

ونحن نذكر فصلا مختصرا في هذا الباب ، يجمع شتات ذلك بايضاح
وايجاز إن شاء الله تعالى ، وبه الحول والقوة ، فنقول :

المرىء موضوع خلف الحلقوم ومما يلي فقار الظهر ، وينتهى في
ذهابه الى الحجاب ، وهو مشدود برباطات . فاذا أبعد مال الى الجانب
الأيسر واتسع . وذلك المتسع هو المعدة ، وأسفلها يعود مائلا الى
اليمن ، والمعدة مقر طبخه . وفيها هو المسدف ، منها ويسمونه الفؤاد .
وهذا من غلظهم ، الا أن يكون ذلك اصطلاحا خاصا منهم . والفؤاد
عند أهل اللغة هو القلب . قال الجوهري : الفؤاد القلب . وقال
الاصمعي : وفي الجوف الفؤاد ، وهو القلب . وقد فرق بعض أهل
اللغة بين القلب والفؤاد . فقال الليث : القلب مضغة من الفؤاد
معلقة بالنياط . وقالت طائفة : مسدف القلب . وقال النبي صلى الله
عليه وسلم « جاءكم أهل اليمن أرق قلوبا ، وألين أفئدة (١) » ففرق
بينهما ووصف القلب بالركة والأفئدة باللين . وأما كون فم المعدة
هو الفؤاد فهذا لا نعلم أحدا من أهل اللغة قاله . وتأمل وصف النبي

(١) روى البخارى ومسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي
صلى الله عليه وسلم قال « أناكم أهل اليمن ، هم أرق أفئدة وألين قلوبنا .
الايان يمان . والحكمة يمانية . والفخر والخيلاء فى أصحاب الابل .
والسكينة والوقار فى أهل الغنم »

صلى الله عليه وسلم القلب بالرقعة التي هي ضد القساوة والغلظة ،
والفؤاد باللين الذي هو ضد اليبس والقسوة . فاذا اجتمع لين
الفؤاد الى رقة القلب حصل من ذلك الرحمة ، والشفقة ، والاحسان ،
ومعرفة الحق ، وقبوله . فان اللين موجب للقبول والفهم ، والرقعة
تقتضى الرحمة والشفقة . وهذا هو العلم والرحمة . وبهما كمال الانسان
وربنا وسع كل شئ رحمة وعلم . فلنرجع الى مانحن بصدده فنقول :
المعدة مع المرئ ذات طبقتين لطيفتين ، واللحم في الطبقة الداخلة
أقل . ولهذا يغلب عليها البياض . وهي عصبية حساسة ، وهي في
الطبقة الخارجة أكثر ، ولهذا يغلب عليها الحمرة ، وهي مربوطة مع
الفقار برباطات وثيقة ، وتنتهى من جهة قعرها الى منفذ هو باب
المعدة ، وبوابها ، يغاق عند اشتماله على الغذاء مدة هضمه . ويقال
لباطن جرم المعدة : خمل المعدة

والامعاء المصارين ، وهو جمع مصران - بضم الميم - وهو جمع
مصير . وسى مصيراً لمصير الغذاء اليه ، والسفلى يقال لها : الاقتاب .
ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « فتندلق أفتابُ بطنه » (١) والعليا

(١) روى البخارى ومسلم عن أسامة بن زيد رضى الله عنه قال :
سمعت النبي ﷺ يقول « يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فتندلق أفتاب
بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحى ، فيجتمع اليه أهل النار .
فيقولون : يا فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟
فيقول : بلى ، كنت أمر بالمعروف ولا آتية ، وأنهى عن المنكر وآتية »

أرق من السفلى ، لما تقدم من الحكمة .

فأعلى الرقاق يسمى الاثنى عشر ، لأن مساحته اثنا عشر إصبعا ،
ويليه المسمى بالصائم ، لقلة لبث الغذاء فيه ، لا لأنه يوجد أبدا
خاليا كما ظنه بعضهم . فان هذا باطل حسا وشرعا كما سنبذره .
والثالث المسمى بالرقيق واللفائف ، وهو أطول الأمعاء وأكثرها
تلايف . ولبث الغذاء فيه أطول ، والعروق التي تأتيه من الكبد
أقل . وأما اللذان قبله فمتصبان في طول البدن قصيران ، ويقل لبث
الغذاء فيهما ، وهو في الصائم أقل لبثا . وهذه الثلاثة تسمى الامعاء
العليا ، والامعاء الرقاق ، وهي كلها في سعة البواب

وأما الدامع ، وهو الأول من الثلاثة السفلى فيسمى الأعور ،
لأنه لا منفذ له ، بل هو كال كيس يخرج منه ما دخل من حيث دخل .
وحكمته سبحانه أنه يتم فيه ما يعسر هضمه من الأشياء الصلبة ، كما
يتم ذلك في قوائم الطيور . ووضعه في الجانب الأيمن

والخامس المسمى بقولون يتبدى من الجانب الأيمن ويأخذ
عرضا الى الأيسر ويحتبس فيه الثفل ، وربما يستقضى مافيه

والسادس هو الآخر ، وهو المعى المستقيم ، لأنه مستقيم الوضع
في طول البدن ، وهو واسع جدا ، يجتمع فيه الثفل كما يجتمع البول
في المثانة ، وعليه الفضلة المانعة لخروج الثقل بدون الارادة . وقد صرح عن

والاقتاب : الامعاء . واحدها قتب - بكسر القاف - وتندق : تخرج

النبي ﷺ انه قال « المؤمن يأكل في معي واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء (١) » فأطلق على المعدة اسم المعى تغليبا ، ولمشابهتها بالامعاء لكون كل واحد من الامعاء والمعدة محلا للغذاء . وهذا لغة العرب كما يقولون : القمران ، والعمران ، والركنان اليمانيان ، والشاميان ، والعراقيان (٢) ونظائر ذلك ، ولا سيما فان تركيب الامعاء كتركيب المعدة ، اذ هي مركبة من طبقتين : لحية خارجة ، وعصية داخلية . والطبقة الداخلة فيها لزوجات متصلة بها لتقيها من حر ألم البراز ، ورداءته ، كشيفة فلا تمسكه ، ولا يتعلق بها شيء منه . ولما كان الكافر ليس في قلبه شيء من الايمان والخير يغتذى به انصرفت قواه ونهمته كلها الى الغذاء الحيواني البهيمي ، لما فقد الغذاء الروحي القلبي . فتوفرت أمعاؤه وقواه على هذا الغذاء ، واستفرغت امعاؤه هذا الغذاء ، وامتلاّت به ، بحسب استعدادها وقبولها ، كما امتلاّت به العروق والمعدة . وأما المؤمن فانه إنما

(١) روى مالك والبيخارى ومسلم وابن ماجه وغيرهم عن ابي هريرة : أن رجلا كان يأكل كثيرا . فأسلم ، فكان يأكل أكلا قليلا ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال « ان المؤمن يأكل في معي الخ » واللفظ للبيخارى (٢) يعني للشمس والقمر ، ولابن بكر وعمر ، وللركن الذي به الحجر الأسود والذي يليه من ظهر الكعبة . والشاميان هما الذان بينهما الميزاب ويحاذيان حجر اسماعيل . والعراقيان هما الركن اليماني والذي يليه من الجهة الغربية ، لانهما يحاذقان العراق

يأكل العلفه ليتقوى بها على ما أمر به ، فهمته وقواه مصروفة الى أمور وراء الأكل . فاذا أكل ما يغذيه ويقيم صلبه استغنى قلبه ونفسه وروحه بالغذاء الايمانى عن الاستكثار من الغذاء الحيوانى ، فاشتغل معاه الواحد - وهو قولان - بالغذاء ، فأمسكه حتى أخذت منه الأعضاء والقوى مقدار الحاجة ، فلم يحتاج الى أن يملأ امعاءه كلها من الطعام . وهذا أمر معلوم بالتجربة . واذا قويت مواد الايمان ومعرفة الله وأسمائه وصفاته ومحبه والشوق الى لقائه فى القلب استغنى بها العبد عن كثير من الغذاء ، ووجد لها قوة تزيد على قوة الغذاء الحيوانى . فان كثفت طباعك عن هذا وكنت عنه بمعزل ، فتأمل حال الفرح والسرور بتجدد نعمة عظيمة واستغناؤك مدة عن الطعام والشراب مع وفور قوتك ، وظهور الدموية على بشرتك ، وتغذية بالسرور والفرح . ولان نسبة لذلك الى فرح القلب ونعيمه ، وابتهاج الروح بقربه تعالى ومحبه ومعرفة ، كما قيل : لها أحاديث من ذكراك تشغلها * عن الطعام ، وتلهيها عن الزاد وقد قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق على صحته « إني أظل عند ربى يطعمنى ويسقبنى (١) » وصدق الصادق المصدوق

(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الوصال - فى الصوم - فقالوا : انك تفعله . فقال « انى لست كأحدكم ، انى أظل الخ » متفق عليه . والوصال : أن يصل الليل بالنهار صوما بدون أن يطعم شيئاً أو يشرب عدة أيام

صلوات الله وسلامه عليه . فان المقصود من الطعام والشراب
التغذية الممسكة ، فاذا حصل له أعلى الغذاءين وأشرفهما وأنفعهما
فكيف لا يغنيه عن الغذاء المشترك . وإذا كنا نشاهد أن الغذاء
الحيواني يغلب على الغذاء القلبي الروحي حتى يصير الحكم له ،
ويضمحل هذا الغذاء بالكلية ، فكيف لا يضمحل غذاء البدن عند
استيلاء غذاء القلب والروح ويصير الحكم له ؟ وقد كان صلى الله
عليه وسلم يمكث الأيام لا يطعم شيئاً ، وله قوة ثلاثين رجلاً ،
ويطوف مع ذلك على نسائه كلهن في ليلة واحدة ، وهن تسع نسوة
وهذا المسيح بن مريم صلى الله عليه وسلم حتى لم يمت ، وغذاؤه من
جنس غذاء الملائكة . وأنت تشاهد المريض يمكث الأيام العديدة
لأياً كل ولا يشرب ، لا اشتغال نفسه بمحاربة المرض ومدافعته ،
واكتفاء الطبيعة ببقية الغذاء الذي في الأمعاء والمعدة مدة الحرب ،
فاذا وضعت الحرب أوزارها رأيت شدة طلبه للغذاء . فالحائف ،
والحبيب ، والفرح ، والحزين ، والمستولى عليه الفسكر لا تطالبه نفسه
بشيء من الغذاء كالحالي من ذلك

(١٢٠) فصل

والكبد عضو لحمي ، تتخلله عروق رقاق وغلاظ ، وعلى الكبد
غشاء عصبي حساس يحيط بها ويتشبي إلى غلافه . والكبد هي الأصل
في الغذاء ، وآلات الغذاء خدماً لها ومعينات . فان الانسان لما كان

كالشجرة المستقلة جعل له ما يقوم مقام النهر الجارى فى أصول الشجرة يسقيها ، وهو الامعاء . والمعدة بمنزلة العين ، وتجرى منها العروق مجرى السواقى ، وعروق الكبد المتصلة بالامعاء بمنزلة عروق الشجرة المتصلة بأرض الساقية ، تمتص الماء منها وتؤديه الى الشجرة وأغصانها وورقها وثمارها . وهذه العروق تمتص الماء من الطين والثرى . وكذلك عروق الكبد تمتص صفو الماء وخالصة من كلوليته ، وتحيله الى طبيعة الأعضاء ، كما تفعل عروق الشجرة . وشكل الكبد شكل هلالى محدب من ظاهره ، مقعر من باطنه ، وهى تحت الاضلاع الخمس . ولها خمس شعب . يقال لها الزوائد تحتوى على المعدة ، كما تحتوى الكف بأصابعها على الشئ المقبوض ويقال للشعبة الصغيرة منها خاصة زائدة الكبد ، وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم « ان سبعين ألفاً من أهل الجنة يأكلون من زيادة كبد الحوت ، الذى هو أول طعامهم » وهذا يدل على عظم قدر هذه الزائدة . فما الظن بالكبد التى هى زائدتها ، فكيف بالحوت الذى حواها ؟

ومقرها يسمى المورد ، لانه يورد الغذاء من المعدة والامعاء ، ويسمى باب الكبد ، ثم تتشعب هذه العروق من جانبيه بشعب تتصل بالامعاء ، وتسمى الجداول لشبهها بالسواقى الصغار ، وتؤدى الى نفرة عظيمة . ولهذه الجداول أغشية من فوقها ومن تحتها ،

فتستدير مع الامعاء العروق المتصلة بها ، وتسمى هذه الأغشية وما
تحتويه المرباط

(١٢١) فصل

والعرق الثاني ينقسم في مجذبها الى عروق صغار ، وأصغر
منها ، حتى تبلغ غاية الرقة ، ثم تعود وتجتمع أول فأول ، على
قياس ما تفرق ، وأخذ من كثرة الى وحدة ، ومن رقة
الى غلظ ، حتى يجمع منها العرق الخارج من الكبد المسمى بالأجوف ،
ومنها يتأدى الدم الى البدن كله ، وحين يخرج ينقسم الى قسمين :
فأخذ أحدهما نافذا في الحجاب نحو القلب ، ويسمى الوتين . قال
أهل اللغة . الوتين عرق يسقى القلب . قال في الصحاح : الوتين
عرق في القلب ، إذا انقطع مات صاحبه . وأصيب وتينه فهو موتون
وقال الواحدى : الوتين نياط القلب ، وهو عرق يجري في الظهر
حتى يتصل بالقلب ، إذا انقطع بطلت القوى ، ومات صاحبه ،
وهذا قول جميع أهل اللغة ، وأنشدوا للشماخ :

إذا بَلَغَتْنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي * عَرَابَةٌ فَاشْرَقِي بَدَمِ الْوَتِينِ
وقال ابن عباس وجمهور المفسرين : هو حبل القلب ونياطه .
وأما الأبر الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم « هذا أوان
(م - ٢٥ تيان)

انقطاع أبهرى (١) « فقال الجوهري : الأبهر عرق إذا انقطع
مات صاحبه ، وهما أبهران يخرجان من القلب ، ثم تشعب منهما
سائر الشرايين . وأنشدوا للأصمعي :
وللفؤاد وجيب عند أبهره * لدم الغلام وراء الغيب بالحجر (٢)

فصل (١٢٢)

والمرارة موضوعة على الكبد ، ولها مجريان : أحدهما متصل بتغير
الكبد ، يحتذب المرة الصفراء ، والآخر متصل بالأعضاء العليا ، يصب
في المرة ليغسلها ويجليها ، ويتصل منه السر بأسفل المعدة ليمتزج بالغذاء
فيكون فيه معونة على هضمه

فصل (١٢٣)

والقوة التي وكلها الله سبحانه وتعالى بتدبير البدن من أعظم آياته
الدالة عليه ، فانها تفعل في الطعام والشراب الواردين عليه أفعالا
متنوعة ، من تقطيع ، وتفصيل ، وتمريخ ، وتحليل ، وتركيب . فبدأ
ذلك في الفم ، وهو تقطيعه بالأسنان ومضغه واختلاطه بالرطوبات
التي فيه ، وانضمامه فيه انضماما تاما . ثم بعد ذلك عند وروده الى

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في مرضه الذي مات فيه « يا عائشة ما أزال أجد الطعام الذي أكلت يخبر ، وهذا أوان وجدت انقطاع أبهرى من ذلك السم » رواه البخاري (٢) كذا في الاصل ، وليحذر

المعدة تهضمه هضمًا آخر ، ويسمى الهضم الاول ، ويعينها على هضمه ما يحاورها من الأعضاء . فالكبد عن يمينها ، والطحال عن يسارها ، والقلب من فوقها ، والمرى أمامها ، والأمعاء السبل الموصلة اليها ، والعروق الطرق المؤدية منها ، والحرارة النار الطابخة للطعام فيها ، والقوة الهاضمة والجازبة ، والغذية ، والدافعة خدم لها . فاذا انهمضم الطعام فيها صار كيلوسا شيها بماء الكشك الشخين ، ثم تنهز صوبه ولطيفه ، فتقذفه العروق الرقاق الشعرية التي هي برقة الشعر وينجذب الى الكبد ، فاذا ورد هذا اللطيف الى الكبد اشتملت عليه بجملته فطبخته وهضمته وأحالتة الى جوهرها ، وصيرته دما . ويسمى هذا الهضم الثاني . ولما كان هذا الانضاج والطبخ يشبهه طبخ القدر علاه شيء كالرغوة والزبد ، وهو الصفراء ، ورسب منه شيء مثل العكر ، وهو السوداء ، وتخلف عن تمام النضج شيء بقى على فجوجته وهو البلغم ، والشيء الذى يصفى ويبقى من ذلك كله هو الدم . فاندفع من الكبد فى العرق الأعظم المعروف بالأجوف بعد أن تصفت عنه المائية الى آلة البول ، فيسلك هذا الدم فى الأوردة المتشعبة من الجوف ، ثم فى جداول مستقبية من الأوردة ، ثم فى سواقي مستقبية من الجداول ، ثم فى رواضع مستقبية من السواقي ، ثم فى عروق رقاق شعرية ، ثم يرشح من أفواهاها فى الأعضاء لتغتذى به فتحله الأعضاء وتصيره لجوهرها ، فيصير فى اللحم لحماً ، وفى العظم عظماً ، وفى العصب عصباً ، وفى الظفر ظفراً ، وفى الشعر شعراً ،

وفي السمع والبصر وآلة الحس كذلك . فتبارك من هذا صنعه في
قطرة من ماء مهين

(١٢٤) فصل

والدم هو الخليط الأصلي والغذاء الحقيقي للبدن ، والمخلف عليه
بدل ما ينقص ويتحلل منه . والاخلاط الآخر كالأبازير والتوابل
وهي صنفان : صنف لطيف ، وهو دم القلب . وغليظ وهو دم
الكبد . ومثله مثل السلطان إذا كان وقورا حليما ساكنا عاشت به
رعيته . وإذا غضب واحتد قتل

(١٢٥) فصل

وأما البلغم فخليط فج مستعد ، لين ، يستكمل نضجه عند عوز
الغذاء اذ تولته الحرارة الغريزية ، فهضمته وصيرته دما ، فيكون في
المعدة والامعاء ، وفي الكبد عند قصور الهضم ، وفيه من المنفعة أنه
يرطب البدن ويبل المفاصل ، لسلس حركاتها ، ويخالط الدم في
تغذية الأعضاء البلغمية المزاج كالدماع

ولما كانت الأعضاء محتاجة أن يكون قريبا منها لترطيبها لم يجعل
له عضو يختص به ، لاسيما والأعضاء تغتذى به اذا أعوزها الغذاء

فصل (١٢٦)

وأما الصفراء فخليط لطيف حار ، وحاجة البدن اليها في أن
تخالط الدم وترقه بلطفها ، وتنفذه في المسالك الضيقة ، ولتعيته في
تغذية الأعضاء الحارة اليابسة ، وما يفصل عنها مما يستغنى عنه
يتصفي الى المرارة لتأخذ نصيبها منه ، وما تستغنى عنه المرارة تصبه
الى الامعاء ليغسلها عن لطخة الأثقال ولزوجتها ، ولتدع عضل
المقعدة فيحس بالحاجة الى التبرز

فصل (١٢٧)

وأما المرارة السوداء فخليط بارد يابس ، وفيه من المنافع أنه
ينفذ مع الدم في العروق ليشده ويقويه ويكفيه ويمسكه ويمنعه
من سهولة الحرمة عند الحاجة الى ذلك ، ويعينه على تغذية الأعضاء
المحتاجة أن يكون في غذائها شيء من السوداء ، كالعظام وما اتصل
منه واستغنى عنه يصفي الى الطحال ، فيصفيه الطحال جدا ،
ويتغذى به ، ثم يجلب ما يستغنى عنه الطحال الى فم المعدة فيدغدغه
بالحموضة التي فيه ، فتتحرك الشهوة ويحس بالجوع ، فطلب الأعضاء
القصوى معلومها وراتبها من الأعضاء التي تليها ، وتطلبه الأعضاء
التي تليها من التي تجاوزها . وهكذا حتى ينتهي الطلب الى المعدة .
فالجوع طلب الأعضاء القصوى معلومها من الأعضاء الدنيا

فصل (١٢٧)

ولما اقتضت حكمة الرب ، جل جلاله ، وتقدست أسماؤه ،
ولا إله غيره - حيث كان بدن الانسان مشبها في أحواله بالمدينة -
أن يوجد فيه أعضاء رئيسية تقوم بمصالحها ، كما تقوم رؤساء المدينة
بمصالحها ، وتكون لها بمنزلة الولاية والأمراء ، وأعضاء تكون خادمة
لهذه الأعضاء الرئيسية ، فان الرئيس لا يكون رئيسا إلا بمرءوس ،
وهي : بمنزلة الشرط والجلالوزة (١) والنقباء ، وأن يوجد فيها أعضاء
كالرعية ، وهي قسمان : ماله اتصال بالرؤساء ، وإن لم يكن له اتصال
خدمة ، ومالا اتصال له بهم ، بل هو مستقل بنفسه . فالأعضاء
إذا بهذا التقسيم أربعة : أحدها الأعضاء الرئيسية المخدومة . الثاني
الأعضاء المرءوسة الخادمة . الثالث الأعضاء المرءوسة بلا خدمة .
الرابع الأعضاء التي ليست رئيسة ولا مرءوسة

فصل (١٢٩)

والأعضاء الرئيسية إنما استحققت الرياسة لشرفها ، إذ كانت هي
الأصول والمعادن والمبادئ للقوى الأولية في البدن ، المضطر إليها بقاء
الشخص والنوع ، وهي بحسب بقاء الشخص ثلاثة : القلب ، والكبد ،
والدماغ . وبحسب بقاء النوع أربعة : الثلاثة المذكورة ، والأثنان

(١) جمع جلواز - بكسر الجيم وسكون اللام - وهو الشرطي . قاموس

وأما القلب فهو الذى جعله الخلاق العليم قائماً بأمر البدن، لقيام الملك بالريسة، وهو أول عضو يتحرك فى البدن، وآخر عضو يسكن منه. وهو مبدأ جميع الخلق وما يلحقه من صلاح أو فساد يتأدى منه الى غيره من الأعضاء

وأما الكبد فهى العضو التى تقوم لحفظ الحياة، اذ كانت هى التى تملأ الأعضاء بالغذاء ليبقى البدن محفوظاً ما مكن بقاءه
وأما الدماغ فهو العضو القائم بأمر الحس والادراك، وتكميل الحياة، اذ فيه آلات الاحساس التى بها يعرف النافع من الضار، والملائم من المنافر، وبه صارت الحياة نافعة، صالحة، متجاوزة لزينة حياة النبات

وأما الاثنيان، فهما اللذان يقومان لحفظ بقاء النوع

(١٣٠) فصل

وأما الأعضاء الخادمة فالرئة، والشرابين، الحاملة المؤدية من القلب الحرارة الغريزية والقوى والأرواح الحيوانية، التى بها قوام البدن :

فهذان خادما القلب . والمعدة والأوردة خادمان للكبد .
والأوردة تنفذ الدم الغذاءى والقوى الى جميع البدن . والكبد خادمة الدماغ . وكذلك الأعصاب التى بها يحصل الحس والحركة

والأشيان يخدمهما الأعضاء المؤدية للنبي ، والمجاري المؤدية عنهما
الى موضع التوالد

(١٣١) فصل

وأما الأعضاء المروسة بلاخدمة ، فهي أعضاء مختصة بقوى لها
طبيعة ، بها يتم تدبيرها ويستقيم أمرها ، ولا يدفع ذلك أنه يقبض عليها
من الأعضاء الرئيسة قوى تمددها باذن الله تعالى كالأذن ، والعين ،
والأنف ، فإن كل واحد منها يقوم بأمر نفسه بما فيه من القوة
الطبيعية التي أعطاها إياها الخالق سبحانه . ولا يتم ذلك إلا بأن
تأتيها قوة حساسة تنزل عليها من الدماغ باذن الله تعالى

(١٣٢) فصل

وأما الأعضاء التي ليست برئيسة ولا مروسة ، فهي التي اختصت بقوى
غريزية فيها من أصل الخلقة في أول التكوين ، ليم بها قوام أمرها ،
وتدبيرها في جلب المنافع ودفع المضار ، كالعظام والغضاريف
وسائر الأعضاء المتشابهة الأجزاء ، مثل الرباطات ، والأعصاب
والأوتار ، والشرابين ، والأوردة ، والأغشية واللحم . والعظام
كالأساس والاسطوانات ، لبناء هيكل البدن

فان قيل : هل في العظام قوة الاحساس وحياته أم لا ؟ قيل :
هذا موضع يختلف فيه أرباب الشريعة . فيما بينهم ، وأرباب الطبيعة

فما بينهم . فقالت طائفة : لاهياة في العظام وان كان فيها قوة النمو والاعتناء .

قالوا : ان الحياة انما هي الروح الحيوانى ، ولا حظ للعظام فيه . قالوا : ولأن مركب الحياة إنما هو الدم المنيث في العروق والاعصاب واللحم . ولهذا لم يكن للشعر ولا للظفر نصيب من ذلك . ولهذا لم يألم الانسان بأخذه

قالوا : فحياة العظام والشعر حياة نمو واعتناء ، وحياة أعضاء البدن حياة نمو واحساس

قالوا : ولهذا قلنا ان العظام لا تنجس بالموت ، لأنها لم يكن فيها حياة تزول بالموت

قالوا : وزوال النمو لا يوجب نجاسة ما فارقه ، بدليل يبس الزرع والشجر

قال آخرون : الدليل على أن العظام تحملها الحياة قوله تعالى (٧٨ : ٣٦) قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ٧٩ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ) والحس يدل على ذلك أيضا . فان العظم يألم ويضرب ويسكن ، وذلك نفس احساسه

قالوا : ولا يمكن انكار كون العظام فيها قوة حساسة تحس بالبارد والحار

قال الآخرون : الاحساس والألم ليس للعظم في نفسه ، وانما هو لما جاوره من اللحم

قال المنازعون له: هذا مكابرة ظاهرة . فان العظم نفسه يألم ، ولا سيما اذا تصدع . ثم ان الأسنان والأضراس تحس بالألم واخار والبارد بأنفسها ، لا بمجاورها من اللحم . ولهذا توسطت طائفة ثالثة . وقالت : عظام الأسنان خاصة لها الاحساس ، بخلاف سائر العظام . وهؤلاء قد سلخوا المسئلة من مكان قريب ، فان الذى دل على احساس الاسنان وحياتها ، هو الدال على حياة سائر العظام . والشبهة التى ذكروها لو صحت لمنعت من احساس الاسنان وأما حديث الطهارة والنجاسة فذاك لأمر آخر وراء الحياة من نجسها بالموت سوى بينها وبين اللحم ، ومن لم ينجسها - وهو المرجح فى الدليل - فذاك لعدم علة التنجيس فيها ، وان الموت ليس بعلة النجاسة ، وانما هو دليل العلة وسببها . والعلة هى احتقان الفضلات فى اللحم ، والعظم برىء من ذلك . والدليل على هذا أن الشارع لم يحكم بنجاسة الحيوان النامى الذى لانفس له سائلة ، لعدم احتقان الفضلات فيه ، فلأن لا يحكم بنجاسة العظم أولى وأحرى . فان الرطوبات التى فى الذباب والعقرب والخنفساء ، أكثر من الرطوبات التى فى العظم

(١٣٣) فصل

والذى أحصاه المشرحون من العظام فى البدن مائتان وثمانية

وأربعون عظماً ، سوى الصغار السمسميات التي أحكم بها مفاصل الأصابع والتي في الخنجرية . وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الإنسان خلق من ثلاثمائة وستين مفصلاً . فإن كانت المفاصل هي العظام فقد اعترف جالينوس وغيره بأن في البدن عظاماً صغاراً لم تدخل تحت ضبطهم وإحصائهم . وإن كان المراد بالمفاصل المواضع التي تنفصل بها الأعضاء بعضها عن بعض - كما قال الجوهري وغيره المفصل واحد مفاصل الأعضاء - فذلك أعم من العظام فتأمل . وإن السلاميات المذكورة في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي ذرٍّ « يُصْبَحُ عَلَى كُلِّ سَلَامَةٍ مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ . فكل تسبيحة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليل صدقة ، وكل تكبيرة صدقة » الحديث (١) فالسلامة العظم ، وجمعه سلاميات . فيها ثلاثة أمور : أعضاء ، وعظام ، ومفاصل . وجعل الله سبحانه العظام أصلب شيء في البدن ، لتكون أسأ وعمدة في البدن ، إذ كانت الأعضاء كلها موضوعة على العظام ، حتى القلب ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى . وهي حاملة للأعضاء ، والحامل أقوى من المحمول .

(١) تمامه « وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن المنكر صدقة . ويجزي من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى » قال في المرقاة : ولعل وجه تخصيصهما بالأجزاء أنه وقت غفلة أكثر الناس عن الطاعة والقيام بمقام العبودية ولذا فسر الشفيع والوتر بهذه الصورة . والوتر في جوف الليل لكونهما وقت الاستراحة

ولتكون وقاية وجنة أيضا ، كالفحف ، فانه وقاية الدماغ ، وعظام الصدر وقاية له . وجعلت العظام كثيرة لفوائد ومنافع عديدة : منها الحركة ، فان الانسان قد يحتاج الى حركة بعض أجزائه دون بعض . وقد يحتاج الى حركة جزء من عضو

ومنها أنه لو كان على عظم واحد لكان اذا أراد أن يتحرك تحرك بجملته

ومنها أنه كان يتعذر عليه الصنائع والحل والربط .

ومنها أنه اذا أصابه آفة عمت جميع البدن ، فجعلت العظام كثيرة

ليكون متى نال بعضها آفة لم تدر الى غيره ، وقام غيره من العظام مقامه في تحصيل تلك المنفعة

ومنها تعذر المنافع التي حصلت بسبب تعدد العظام ، ولولا

كثرتها وتعدد لفات تلك المنافع

ومنها أن من العظام ما يحتاج البدن الى كبيره ، ومنها ما يحتاج الى

صغيره ، ومنها ما يحتاج الى مستطيله ، ومنها ما يحتاج الى مجوفه ، ومنها

ما يحتاج الى منحنه ، ومنها ما يحتاج الى مستقيمه . ولا يحصل ذلك الا

بتعدد العظام

ومنها بديع الصنع ، وحسن التأليف والتركيب ، وغير ذلك من الفوائد

ثم شد الخالق بعضها الى بعض بالرباطات والأسر المحكم ، ثم

كساها لحما ، حفظا لها ووقاية . ثم كسى اللحم جلدا ، صونا له

ولما كانت الفضلات تنقسم الى لطيفة وغليظة جعل الله سبحانه

للغليظة منها مجارى تنجذب فيها الى أسفل ، ويخرج منها خروجا ظاهرا للحس . وأما اللطيفة فهي الفضلات البخارية ، ولما كان من شأنها أن تصعد الى فوق وتخرج عن البدن بالتحليل جعل في العظام العليا منها منافذ . يتحلل منها البخار المتصاعد . فلم تكن تلك المنافذ محسوسة ، لئلا يضعف صوآن الدماغ - وهو القحف - بوصول الأجسام المؤذية اليه . فجعل الدماغ مركبة من عظام كثيرة . ووصل بعضها ببعض بوصل يقال لها الشؤون . ومنه قولهم : فلان لم تجمع شؤن رأسه (١)

ويشتمل الرأس بحملة أجزائه على تسعة وخمسين عظما . وجعل القحف مستديرا تاما في مقدمه ومؤخره وجانبيه ، بمنزلة غطاء القدر وعظامه ستة ، وهى : عظم اليافوخ . وعظم الجبهة . وعظم مؤخر الرأس . والعظامان اللذان فيهما ثقيا السمع . وفى كل واحد من الصدغين عظامان مصمتان

وعظام اللحي الأعلى أربعة عشر عظما : ستة منها فى محاجر العينين . واثنتان للأنف . واثنتان تحت الأنف . وهما المثقوبان الى الفم . واثنتان فى الوجنتين . واثنتان تحت الشفة العليا

وأما العظم الشبيه بالوتد فهو واحد وهو كاقاعدة للرأس وعظام اللحي الأسفل اثنتان : وهما متصلان فى وسط الذقن ،

(١) الشؤون جمع شأن وهو موصل قبائل الرأس . وأصله عرق فى الجبل ينبت فيه النبع اه من القاموس

وبينهما بنيان ، ويتصلان من فوق باللحي الأعلى اتصالاً مفصلياً
والأسنان اثنان وثلاثون ، في كل لحي ستة عشر : أربع ثنيات
وتليها الرباعيات ، وتليها النابان ، ويليهما الأضراس : خمسة من
هنا وخمسة من هنا . والنواجذ أول الأضراس ، وهما ناجذان في
كل ناحية ناجذ . وربما نقصت النواجذ في بعض الأفراد ، وكان
في كل جانب أربعة أضراس

وقد سلم الله غذاء الانسان الى يده ، فتأخذه فتسلبه الى شفتيه
فتسلبه الشفتان الى الاثنيان والثنايا ، فتفصله ، ثم تسلبه الى
الأضراس ، فتسلبه وتطحنه ، ثم تسلبه الى اللسان والفم ، فيعجنه
ثم يسلمه الى الحلقوم والمرئ ، فيسلمه ويوصله الى المعدة ، فتطبخه
وتتضججه ، وتصلحه كما ينبغي ، ثم تسلبه الى الكبد ، فيتسلبه منها ثم
يرسل منه الى كل عضوراته ومعلومه ، ثم تصب قربة الصفراء في
المرارة السوداء في الطحال . والشغل يخرجها عنها كما تقدم بيانه

(١٣٤) فصل

والرأس يقال بالعموم على ما يقوله العنق بجملته ، ويقال
بالخصوص على الفروة . وهي جلدة الرأس حيث منبت الشعر ،
والجمجمة العظم الذي يحوى الدماغ ، وهي مؤلفة من سبع قطع متقابلة
تسمى القبايل ، وتسمى مواضع التأليف شئونا ، ووسط الجمجمة

يسمى الهامة ، وحد الهامة من الجانبين قرن الرأس ، وحد الهامة من المقدم اليافوخ ، ومن المؤخر القمحدوة ، وهى ما يصاب الأرض من رأس المستلقى على ظهره. ولها ثلاث حدود: نقرة القفا ، والقذالان فنقرة القفا حددها من آخر الوسط . والقذالان جانباً النقرة . وقد تقدم تفصيل القبائل السبع .

وسنظهر الجمجمة عما يحيط بها : السمحاق وسطها غشاوتان : إحداهما تلى الجمجمة ، وهو أنخنها وأصلهما . والآخر يكتنف الدماغ ويحيط به ويخالطه ، ويقال لكل منهما : أم الدماغ ، ويسميان الأمان ، ومنه الآمة ، والمأمومة التى فيها ثلث الدية ، وهى الجراحة التى تبلغ أم الدماغ ، ويقال لها : تجويف الدماغ وبطن وهى ثلاث بطون . وبين بطنى الدماغ اللذين فى مؤخره ووسطه مجرى فيه قطعة من الدماغ مستطيلة شبيهة بالدودة ، ينسد ذلك المجرى وينفتح بها ، وتحت الدماغ سبلة مبسوطة مؤلفة من عروق ضوارب ، يتولد منها روح نفسانى ينفذ الى البطنين اللذين فى مقدم الدماغ

وفى الدماغ البركة ، والحوض ، والقمع ، والدودة ، والبطون والأغشية ، ومبادئ الأعصاب ، ويحتوى الدماغ على ثلاث خزائن نافذ بعضها الى بعض ، وتسمى بطونا : فالأولى فى مقدمه تنقسم الى قسمين ، والثانية فى وسطه ، والثالثة فى مؤخره . وجوهر

الدماغ مخي متزرد الشكل ، كأنه زرد مجموع . والروح النفساني مثبت في خلل الزرد والدماغ ، مقسوم في طوله لنصفين متضامين ، والتنصيف في مقدم الدماغ أظهر . والغشاء ان يدخلان في فصول الدماغ وتزريده ، والصلب منهما يدخل بطونابين جزءي البطن المقدم فيحجز بينهما ، وتخته مصفى كالبركة تسمى المعصرة ، تصب في العروق الدم المنضج ، وتبعث في جداول تسقى البطن المقدم ، وتجتمع الى عرقين كبيرين يحملان الدم الى البطن الأوسط والمؤخر ، والبطن الأوسط كدهليز ومنفذ بين المقدم والمؤخر ، وسقفه معقود كالأزج ، والدماغ موضوع طولاً على زائدتين متقاربتين ، فيتماسان ويتباعدان الى الانفراج فيفتح الدهليز ويتراءى البطنان المقدم والمؤخر . والجزء المؤخر أخفى تدويراً من المقدم وأصغر زرداً ، وهو كرى الاستطالة ويستدق على التدريج ، حتى يسيل منه النخاع كالجدول من العين

وفي الدماغ مجريان : أحدهما في آخر المقدم . والمؤخر في الأوسط لدفع فضوله ، ويجمعان عند منفذ واحد عميق ، أولهما في الغشاء الرقيق ، والآخر في الغشاء الصلب ، يأخذ الى ضيق كالقمع ولما كان الدماغ مبدأ حركات البدن الى إرادته ولم يكن به حاجة الى الحركة القوية ، فحوط عليه بسور من عظام بخلاف المعدة ، والنكبد والرحم ، وسائر آلات الغذاء ، فانها لما احتاجت الى أن تتسع وتمتلئ بالغذاء فتحمل مرة بعد أخرى ، وأن تعصر الفضول فتخرجها ،

والعظم يمنع من ذلك ، ويكفى فيه الفصل وحده . فأحيط عليه
بسور من عظم

وأما الصدر فانه لما احتاج الى الوثاقة بالعظام وإلى الحركة بالفصل
ألف الصدر منهما . وكان البطن أوسع من الصدر ، لما يحل بها من
آلات الغذاء ، والتنفس ، والطحال ، والمرى وغيرها

فصل (١٣٥)

فاستقبل الآن النظر فى نفسك ، وانظر الى المبدأ الأول ،
وهو النطفة التى هى قطرة مهينة ضعيفة ، لو تركت ساعة لبطلت
وفسدت ، كيف أخرجها رب الأرباب من بين الصلب والترائب ؟
وكيف أوقع المحبة والألفة بين الذكور والإناث . ثم قادهما بسلسلة
المحبة والشهوة الى الاجتماع . ثم استخرج النطفة من الذكر بحركة
الوقاع من أعماق العروق ، وجمعها فى الرحم فى قرار مكين ، لاتناله
يد ، ولا تطلع عليه شمس ، ولا يصيبه هواء ، ثم صرف تلك
النطفة طورا بعد طور ، وطبقا بعد طبق ، وغذاها بماء الحيض

وكيف جعل سبحانه النطفة - وهى بيضاء مشرقة - علقه حمراء ،
ثم جعلها مضغة . ثم قسم أجزاء المضغة الى العظام ، والأعصاب .
والعروق ، والأوتار ، واللحم ، فى داخل الرحم فى الظلمات الثلاث .
ولو كشف لك الغطاء لرأيت التخطيط والتصوير يظهر فى تلك النطفة

شيئاً بعد شيء ، من غير أن ترى المصور ولا آله ، ولا قلبه . فهل رأيت مصورا لا تحس آله ولا تلاقيها ؟

ثم تأمل هذه القبة العظيمة التي قد ركبت على المنكبين ، وما أودع فيها من العجائب ، وماركب فيها من الخزائن ، وما أودع في تلك الخزائن من المنافع ، وما اشتملت عليه هذه القبة من العظام المختلفة الأشكال ، والصفات ، والمنافع ، ومن الرطوبات ، والأعصاب ، والطرق ، والمجاري ، والدماغ ، والمنافذ ، والقوى الباطنة . من الذِّكر ، والفكر ، والتخيل ، وقوة الحفظ . فيه القوة المفكرة ، والذاكرة ، والمخيلة ، والحافظة . وهذه القوى مودعة في خزائنها ، مسخرة لمصالحها ، يستعملها ، ويستخدمها كيف أراد

فتأمل كيف دور سبحانه الرأس ، وشق سمعه وبصره وأنفه ، وفمه ؟ وكيف ركب كرتة في بطن الأم من ثلاثة وعشرين عظما ، وخلق تلك العظام على كيفيات مختلفة

وتأمل كيف انقلبت تلك النطفة اللينة الضعيفة الى العظام الصلبة الشديدة ؟

ثم تأمل كيف قدر سبحانه كل واحد من تلك العظام بشكل مخصوص ، بحيث حصل من مجموعها ما لو كان على خلافه لبطلت المنفعة وفات الغرض . ثم ركب بعضها مع بعض بحيث حصل من مجموعها كرة الرأس على هذه الحلقة المخصوصة ولما كان الرأس أشرف الأعضاء الانسانية وأجمعها للقوى ،

والمنافع والآلات والخزائن اقتضت العناية الالهية بأن صين بأنواع من الصيانات. وذلك أن الدماغ يحيطه غشاء رقيق . وفوق ذلك الغشاء غشاء آخر ، يقال له : السمحاق . ثم فوق ذلك الغشاء طبقة لحمية ، وفوق تلك الطبقة اللحمية الجلد . ثم فوق الجلد الشعر . فخلق سبحانه فوق دماغك سبع طبقات ، كما خلق فوق الارض سبع سموات طباقا . والمقصود من تخليقها الاحتياط في صون الدماغ من الآفات . والدماغ من الرأس بمنزلة القلب من البدن

وهو سبحانه قسمه في طوله ثلاثة أقسام ، وجعل القسم المقدم محل الحفظ والتخيل ، والبطن الأوسط محل التأمل والتفكير ، والبطن الأخير محل التذكر والاسترجاع لما كان قد نسيه . ولكل واحدة من هذه الامور الثلاثة أمر مهم للانسان ، لا بدله منه ، وأنه محتاج الى التفهم والتفهم ، ولولم يكن حافظا لمعاني التصورات وصورها بعد غيبته لكان إذا سمع كلمة وفهمها شذت عنه عند مجيء الاخرى ، فلم يحصل المقصود من الفهم والافهام ، فجعل له ربه وفطره خزانة تحفظ له صور المعلومات ، حتى تجتمع له ، وتسمى القوة التي فيها القوة الحافظة ، ولا تتم مصلحة الانسان الا بها . فانه إذا رأى شيئا ، ثم غاب عنه ، ثم رآه مرة أخرى عرف أن هذا الذي رآه الآن هو الذي رآه قبل ذلك ؛ لأنه في المرة الاولى ثبتت صورته في الحافظة ، ثم تتوارى عنه بالحجاب . فلما رآه مرة ثانية صارت هذه الصورة المحسوسة مطابقة للصورة المعنوية التي في الذهن ، فصل الجزم

بأن هذا ذاك . ولولا القوة الحافظة لما حصل ذلك ، ولما عرف أحد
أحدًا بعد غيبته عنه . ولذلك اذا طالت الغيبة جدا ، وانمحت تلك
الصورة الأولى من الذهن بالكلية ، لم يحصل له العلم بأن هذا هو الذي
رآه أولا ، الا بعد تفكر وتأمل

وقد قال قوم : إن محل هذه الصور النفس . وقال قوم : محلها
القلب ، وقال قوم : محلها العقل ، ولكل فريق منهم حجج وأدلة ،
وكل منهم أدرك شيئا وغاب عنه شيء . اذا الادراك المذكور مفتقر
الى مجموع ذلك ، لا يتم الا به

والتحقيق أن منشأ ذلك ومبدأه من القلب ، ونهايته ومستقره في
الرأس . وهي المسئلة التي اختلف فيها الفقهاء ، هل العقل في القلب
أو في الدماغ ؟ على قولين : حكياروايتين عن الامام أحمد . والتحقيق
أن أصله ومادته من القلب وينتهي الى الدماغ . قال تعالى
(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونْ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ
يَسْمَعُونَ بِهَا؟) فجعل العقل في القلب ، كما جعل السمع بالأذن ، والبصر
بالعين . وقال تعالى (٣٧ : ٥٠) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ)
قال غير واحد من السلف : لمن كان له عقل

واحتج آخرون : بأن الرجل يضرب في رأسه فيزول عقله . ولولا
أن العقل في الرأس لما زال . فان السمع والبصر لا يزولان بضرب
اليد أو الرجل ، ولا غيرهما من الأعضاء ، لعدم تعلقهما بهما

وأجاب أرباب القلب عن هذا بأنه لا يمتنع زواله بفساد الدماغ وان كان في القلب ، لما بين القلب والرأس من الارتباط ، وهذا كما لا يمتنع نبات شعر اللحية بقطع الأثنيين ، وفساد القوة بفساد العضو قد يكون ، لأنه محلها وارتباطه بها . والله أعلم

وعلى كل تقدير فذلك من أعظم آيات الله وأدلته وقدرته وحكمته ، كيف ترسم صورة السموات والأرض والبحار والشمس والقمر والأقاليم والممالك والأمم في هذا المحل الصغير ؟ . والانسان يحفظ كتباً كثيرة جداً ، وعلومأشئ متعددة ، وصنائع مختلفة ، فترسم كلها في هذا الجزء الصغير ، من غير أن يختلط بعض هذه الصور ببعض ، بل كل صورة منهن بنفسها محصلة في هذا المحل . وأنت لو ذهبت تنقش صوراً وأشكالاً كثيرة في محل صغير لا يختلط بعضها ببعض ، وطمس بعضها بعضاً . وهذا الجزء الصغير تنقش فيه الصور الكثيرة المختلفة والمتضادة ، ولا يبطل منها صورة صورة

ومن أعجب الأشياء أن هذه القوة العاقلة تقبل ما تؤديه إليها الحواس فتجتمع فيها ، ثم تعيد كل حاسة منها فائدة الحاسة الأخرى . مثاله : أنك ترى الشخص فتعلم أنه فلان ، وتسمع صوته فتعلم أنه هو ، وتلبس الشيء فتعرفه ، وتشمه فتعرف أنه هو ، ثم تستدل بما تسمعه من صوته على أنه هو الذي رأيته ، فيغنيك سماع صوته عن رؤيته ، ويقوم لك مقام مشاهدته . ولهذا جوز أكثر الفقهاء شهادة الأعمى وبيعه وشرائه . وأجمعوا على جواز وطئه امرأته ، وهو

لم يرها قط ، اعتمادا منه على الصوت . بل لو كانت خرساء أيضاً وهو أطرش جاز له الوطء .

وقد جعل الله سبحانه بين السمع والبصر والقواد علاقة وارتباطاً ونفوذاً يقوم به بعضها مقام بعض . ولهذا يقرن سبحانه بينهما كثيراً في كتابه كقوله (١٧ : ٣٦ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) وقوله تعالى (٤٦ : ٢٦ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً) وقوله (١٧٩ : ٧ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا) وهذا من عناية الخالق سبحانه بكمال هذه الصورة البشرية ، لتقوم كل حاسة منها مقام الحاسة الأخرى ، وتفيد فائدتها في الجملة ، لافي كل شيء .

ثم أودع سبحانه قوة التفكير وأمره باستعمالها فيما يجدى عليه النفع في الدنيا والآخرة ، فركب القوة المفكرة من شيئين من الأشياء الحاضرة عند القوة الحافظة تركيباً خاصاً ، فيتولد من بين هذين الشيئين شيء ثالث جديد لم يكن للعقل شعوره به ، كانت مواده عنده لكن بسبب التركيب حصل له الأمر الثالث ، ومن هنا حصل استخراج الصنائع ، والحرف ، والعلوم ، وبناء المدن والمساكن ، وأمور الزراعة والفلاحة ، وغير ذلك ، فلما استخرجت القوة المفكرة ذلك واستحسنته سلمته الى القوة الارادية العلمية ، فنقلته من ديوان الأذهان الى ديوان الأعيان ، فكان أمراً ذهنياً ، ثم صار وجودياً خارجياً ، ولولا الفكرة لما اهتدى الانسان الى تحصيل المصالح ودفع المفاسد ، وذلك من

أعظم النعم ، وتام العناية الالهية ، ولهذا لما فقد البهائم والمجانين ونحوهم هذه القوة لم يتمكنوا مما تمكن منه أرباب الفكر . ولما كان استخراج المطلوب بهذه الطريق يتضمن فكرا وتقديرا فيفكر في استخراج المادة أولا ، ثم يقدرها ويفصلها ثانياً كما - يضمن الخياط . يحصل الثوب ثم يقدره ويفصله ثانياً ، قال تعالى عن الوحيد (٧٤ : ١١)
 ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ١٢ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ١٣ وَبَنِينَ شُهُودًا ١٤ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ١٥ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ١٦ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لَا يَأْتِنَا غَنِيمًا ١٧ سَارِهِمُ صَعُودًا ١٨ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٩ فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ)
 فكرر سبحانه التقدير دون التفكير ، وذمه عليه دونه . وهذا منزل على مقتضى حال سواه . فانه بالفكر طالب لاستخراج المجهول . وذلك غير مذموم . فلما استخرجه قدرله تقديرين : تقديرا كلياً وتقديرا جزئياً . فالتقدير الكلي أن الساحر هو الذي يفرق بين المرء وزوجه . والتقدير الجزئي أن الذي يفرق بين المرء وزوجه مذموم . فهنا تقدير بعد تقدير . فلماذا كرره سبحانه وذمه عليه . وأما التفكير فان الفكر طالب لمعرفة الشيء . فلا يذم ، بخلاف من قدر بعد تفكيره ما يوصله الى تحقيق الباطل وابطال الحق . فتأمل

(١٣٦) فصل

ثم انزل الى العين ، وتأمل عجائبها ، وشكلها ، وخلقها ، وايداع النور الباصر فيها . وتركيبها من عشر طبقات ، وثلاث رطوبات . ولكل واحد

من هذه الطبقات والرطوبات شكل مخصوص ومقدار مخصوص .
لو لم يكن عليه لاختلفت المصاحبة المقصودة . وجعل سبحانه موضع
الابصار في قدر العدسة . ثم أظهر في تلك العدسة قدر السماء والأرض
والجبال والبحار والشمس والقمر . فانظر كيف اتسعت تلك العدسة
أن يرسم فيها ما لا نسبة لها إليه ألبتة ؟ وجعل تلك القوة الباصرة في
جزء أسود . فتأمل كيف قام الباصر بهذا الجزء الأسود ؟

وجعل سبحانه الحدقة مصونة بالأجفان ، لتسترها ، وتحفظها ،
وتصلقها ، وتدفع الاقذاء عنها . وجعل شعر الأجفان أسود ليكون
سواده سبباً لاجتماع النور الذي به الأبصار ، ويكون مانعاً من
تفرقه ، ويكون أبلغ في الحسن والجمال

وخلق سبحانه لتحرك الحدقة أربعة وعشرين عضلة ، لو نقصت
واحدة منهن لاختل أمر العين

ولما كانت العين شبيهة بالمرآة - التي انما ينتفع بها اذا كانت في
غاية الصقالة والصفاء - جعل سبحانه الأجفان متحركة الى الانفتاح
والاطباق أبداً باختيار الانسان وغير اختياره ، لتبقى الحدقة نقية صافية
عن جميع الكدورات . وجعل العينين بمنزلة المرآتين الصقيلتين
اللتين تنطبع فيهما صور الأشياء الخارجة ، فيتأثر القلب ، ثم يظهر
مأفیه عليهما فيتأثران به . فهما مرآة لما في القلب يظهر فيهما ، ومرآة
لما في الخارج تنطبع صورته فيهما . فالعينان على القلب كالزجاجتين
الموضعتين في المرآة ، ولذلك يستدل بأحوال العين على أحوال القلب

من رضاه ، وغضبه ، ووجهه ، وبغضه ، ونفرته . ومن أعجب الأشياء أن العين من أطف أعضاء البدن ، وهي لا تتأثر بالحر والبرد تأثر غيرها من الأعضاء الكثيفة ، ولو كان الأمر عائداً إلى مجرد الطبيعة لكان ينبغي أن يكون الأمر بالعكس ، لأن الألفط أسرع تأثراً . فعلم أن حصول هذه المصالح ليس هو بمجرد الطبع

فصل ١٣٧

ثم اعدل الى الأذنين ، وتأمل شقيهما ، وخلقهما ، وإيداع الرطوبة فيهما ، ليكونا عوناً على ادراك السمع ، وجعلها مرة لتمتع الهوام عن الدخول في الأذن ، وحوطهما سبحانه بصدقتين يجمعان الصوت ويؤديانه إلى الصماخ . وجعل في الصدقتين تعريجات ، لتطول المسافة فتتكسر حدة الصوت ولا تلج الهوام دفعة ، بل تكثر حركاتها فينتبه لها فيخرجها . وجعل العينين مقدمتين والأذنين مؤخرتين ، لأن العينين بمنزلة الطليعة والكاشف والرائد ، الذي يتقدم القوم ليكشف لهم ، وبمنزلة السراج الذي يضيء للسالك ما أمامه . وأما الأذنان فيدركان المعاني الغائبة التي ترد على العبد من أمامه ومن خلفه وعن جانبيه . فكان جعلهما في الجانبين أعدل الأمور . فسيحان من بهرت حكمته العقول

وجعل للعينين غطاء ؛ لأن مدرك الأذن الأصوات ، ولا بقاء لها ، فلو جعل عليهما غطاء لزال الصوت قبل ارتفاع الغطاء ، فزالت المنفعة

المقصودة . وأما مدرك العين فأمر ثابت . والعين محتاجة إلى غطاء يقيها ، وحصول الغطاء لا يؤثر في الإدراك . وقال بعض أهل العلم : عينا الانسان هاديان ، وأذناه رسولان إلى قلبه ، ولسانه ترجمان ، ويده جناحان ، ورجلاه بريدان . والقلب ملك . فاذا طاب الملك طابت جنوده . وإذا خبث خبث جنوده

فصل (١٣٨)

ثم انزل الى الأنف ، وتأمل شكله وخلقه ، وكيف رفعه سبحانه في وسط الوجنة بأحسن شكل ، وفتح فيه بايين ، وأودع فيها حاسة الشم ، وجعله آلة لاستنشاق الهواء وإدراك الروائح على اختلافها . فيستنشق بهما الهواء البارد والطيب . فيستغنى بالمنخرين عن فتح الفم أبدا ، ولولاهما لاحتاج الى فتح فيه دائما ، وجعل سبحانه تجويفه واسعا لينحصر فيه الهواء وينكسر برده قبل الوصول الى الدماغ . فان الهواء المستنشق ينقسم قسمين : شطرا منه - وهو أكثره - ينفذ الى الرئة ، وشطرا ينفذ الى الدماغ . ولذلك يضرب المزكوم استنشاق الهواء البارد . وجعل في الأنف أيضا اعانة على تقطيع الحروف . وجعل بين المنخرين حاجزا . وذلك أبلغ في حصول المنفعة المقصودة ، حتى كأنهما أنفان بمنزلة العينين ، والأذنين ، واليدين ، والرجلين . وقد يصيب أحد المنخرين آفة فيبقى الآخر سالما . وجعل تجويفه نازلا الى أسفل ، ليكون مصبا للفضلات النازلة

من الدماغ . وستره بساير أبدى ، لئلا تبدو تلك الفضلات في عين الرائي

تأمل منفعة النفس الذي لو قطع عن الانسان لهلك ، وهو أربعة وعشرون ألف نفس في اليوم واللييلة ، قسط كل ساعة ألف نفس وتأمل كيف يدخل الهواء في المنخرين ، فينكسر برده هناك ، ثم يصل الى الحلقوم ، فيعتدل مزاجه ، ثم يصل الى الرئة ، فيصفي فيها من الغلظ والكدر . ثم يصل الى القلب أصفى ما كان وأعدله ، فيروح عنه ، ثم ينفذ منه الى العروق المتحركة ويتقدم الى أقاصى أطراف البدن ، ثم اذا سخن جدا وخرج عن حد الانتفاع به عاد عن تلك الأقاصى الى البدن ، ثم الى الرئة ، ثم الى الحلقوم ، ثم الى المنخرين ، ثم يخرج ويعود مثله ، وهكذا أبداً . فمجموع ذلك هو النفس الواحد . وقد أحصى الرب عدد هذه الأنفس ، وجعل مقابل كل نفس منها ما شاء الله من الأحقاب في الجحيم ، أو في النعيم فما أسفه من أوضاع ما هذا قيمته في غير شيء

(١٣٩) فصل

وهو سبحانه جعل القلب أمير البدن ، ومعدنا للحرارة الغريزية فاذا استنشق الهواء البارد وصل إلى القلب واعتدلت حرارته ، فيبقى هناك مدة ، فلها سخن واحترق ، واحتاج الى إخراج هود دفعه منه ، لم يضيع أحكم الحاكمين ذلك النفس ويخرجه بغير فائدة ، بل جعل

اخرجه سببا لحدوث الصوت . ثم جعل سبحانه في الحنجرة واللسان والحنك باختلافها الصوت ، فيحدث الحرف ، ثم ألهم الانسان أن يركب ذلك الحرف الى مثله ونظيره ، فيحدث الكلمة ، ثم ألهمه تركيب تلك الكلمة الى مثلها ، فيحدث الكلام فتأمل هذه الحكم الباهرة في اىصال النفس الى القلب لحفظ حياته ، ثم عند الحاجة الى اخرجه والاستغناء عنه جعله سببا لهذه المنفعة العظيمة . فتبارك الله أحسن الخالقين

وخلق سبحانه هذه المقاطع والحناجر مختلفة الأشكال ، فكما انه لا تشابه صورتان ، كذلك لا يتشابه صوتان من كل وجه ، بل كما يحصل الامتياز بين الأشخاص بالقوة الباصرة ، فكذلك يحصل بالقوة السامعة ، فيحصل الامتياز للأعمى والبصير

(١٤٠) فصل

ثم انزل الى الصدر ترّ معدن العلم ، والحلم ، والوقار ، والسكينة والبر ، وأضدادها . فتجد صدور العلية تعلو بالبر والخير والعلم والاحسان ، وصدور السفلة تغلي بالفجور والشور ، والاساءة ، والحسد ، والمكر

ثم انفذ من ساحة الصدر الى مشاهدة القلب تجرد ملكا عظيما جالسا على سرير مملكته ، يأمر ، وينهى ، ويولى ، ويعزل . وقد حَفَّ به الأمراء والوزراء والجند ، كلهم في خدمته ، ان استقام استقاموا

وان زاغ زاغوا ، وان صح صحوا ، وان فسد فسدوا . فعليه
المعول ، وهو محل نظر الرب تعالى ، ومحل معرفته ، ومحبه وخشيته ،
والتوكل عليه ، والاناة اليه ، والرضى به ، وعنه ، والعبودية عليه أولا
وعلى رعيته وجنده تبعاً . فأشرف ما فى الانسان قلبه . فهو العالم
بالله ، الساعى اليه ، المحب له . وهو محل الايمان والعرفان ، وهو
المخاطب المبعوث اليه الرسل ، المخصوص بأشرف العطايا ، من
الايمان والعقل . وانما الجوارح أتباع للقلب يستخدمها استخدام
الملوك للعييد ، والراعى للرعيه ، والذي يسرى الى الجوارح من
الطاعات والمعاصي ، انما هى آثاره . فان أظلم أظلمت الجوارح ،
وان استنار استنارت ، ومع هذا فهو بين إصبعين من أصابع الرحمن
عز وجل

فسيبحان مقلب القلوب ومودعها ما يشاء من أسرار الغيوب
الذى يحول بين المرء وقلبه ، ويعلم ما ينطوى عليه من طاعته
ودينه ، مصرف القلوب كيف أراد وحيث أراد . أوحى الى قلوب
الاولياء أن أقبل الى ، فبادرت وقامت بين يدي رب العالمين . وكره
عز وجل انبعث آخرين فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين . كانت
أكثر يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ »
وكان من دعائه « اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك »
قال بعض السلف : لِلْقَلْبِ أَشَدُّ ثَقْلًا مِنَ الْقِدْرِ إِذَا اسْتَجْمَعَتْ

غليانها . وقال آخر : القلب أشد تقلبا من الريشة بأرض فلاة في يوم ريح عاصف

ويطلق القلب على معنيين : أحدهما أمر حسي وهو العضو اللحمي الصنوبري الشكل ، المودع في الجانب الأيسر من الصدر ، وفي باطنه تجويف ، وفي التجويف دم أسود ، وهو منبع الروح . والثاني أمر معنوي ، وهو لطيفة ربانية رحمانية روحانية لها هذا العضو تعلق واختصاص . وتلك اللطيفة هي حقيقة الانسانية .

وللقلب جندان : جنديرى بالابصار ، وجنديرى بالبصائر . فأما جنده المشاهد فالاعضاء الظاهرة والباطنة ، وقد خلقت خادمة له . لا تستطيع له خلافا . فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت . وإذا أمر اللسان بالكلام تكلم . وإذا أمر اليد بالبطش بطشت . وإذا أمر الرجل بالسعى سعت . وكذا جميع الاعضاء ذلت له تذليلا

ولما خلق القلب للسفر الى الله والدار الآخرة وحصل في هذا العالم ليتزود منه افتقر الى المركب والزاد لسفره الذي خلق لأجله . فأعين بالأعضاء والقوى ، وسخرت له ، وأقيمت له في خدمته لتجلب له ما يوافق من الغذاء والمنافع ، ويدفع عنه ما يضره ويهلكه ، فافتقر الى جندين : باطن ، وهو الارادة ، والشهوة ، والقوى وظاهر وهو الأعضاء . فخلق في القلب من الارادات والشهوات ما احتاج اليه . و خلقت له الأعضاء التي هي آلة الارادة ، واحتاج في دفع المضار الى جندين : باطن ، وهو الغضب الذي يدفع المهلكات ،

وينتقم به من الأعداء . وظاهر وهو الأعضاء التي ينفذ بها غضبه ،
 كالأسلحة للقتال . ولا يتم ذلك الا بمعرفة ما يجلب وما يدفع ،
 فأعين الجند من العلم بما يكشف له حقائق ما ينفعه وما يضره
 ولما سلطت عليه الشهوة والغضب والشيطان أعين بجند من
 الملائكة ، وجعل له محل من الحلال ينفذ فيه شهواته ، وجعل
 بازائه أعداء له ينفذ فيهن غضبه ، فما ابتلي بصفة من الصفات إلا
 وجعل لها مصرفا ومحلا ينفذها فيه ، فجعل لقوة الحسد فيه مصرفا ،
 وهو المنافسة في فعل الخير ، والغبطة عليه ، والمسابقة اليه ، ولقوة
 الكبر مصرفا وهو التكبر على أعداء الله تعالى واهانتهم . وقد قال
 النبي صلى الله عليه وسلم لمن رآه يحتال بين الصفيين في الحرب « انها
 لمشيئة ييغضها الله الا في هذا الموطن » وقد أمر الله سبحانه بالغلظة
 على أعدائه

وجعل لقوة الحرص مصرفا ، وهو الحرص على ما ينفع ، كما قال
 النبي صلى الله عليه وسلم « احرص على ما ينفعك » ولقوة الشهوة
 مصرفا ، وهو الزواج بأربع ، والتسرى بما شاء . ولقوة حب المال
 مصرفا ، وهو انفاقه في مرضاته تعالى ، والتزود منه لمعاده . فحبة المال
 على هذا الوجه لا تدم . ولحبة الجاه مصرفا ، وهو استعماله في تنفيذ
 أوامره ، واقامة دينه ، ونصر المظلوم ، واغاثة الملهوف ، واعانة
 الضعيف ، وقمع أعداء الله . فحبة الرياسة والجاه على هذا الوجه عبادة .
 وجعل لقوة اللعب واللهو مصرفا ، وهو لهو مع امرأته ، أو بقوسه

موسمه ، أو تأديبه فرسه . وكل ما أعان على الحق . وجعل لقوة التحيل والمكر فيه مصرفا ، وهو التحيل على عدوه وعدو الله تعالى بأنواع التحيل ، حتى يراغمه ويرده خاسئا ، ويستعمل معه من أنواع المكر ما يستعمله عدوه معه . وهكذا جميع القوى التي ركبت فيه جعل لها مصرفا . وقد ركبها الله فيه لمصالح اقتضتها حكمته ولا يطلب تعطيلها ، وإنما تصرف مجاريها من محل الى محل ، ومن موضع الى موضع . ومن تأمل هذا الموضع وتفقه فيه علم شدة الحاجة اليه ، وعظم الانتفاع به

فصل (١٤١)

وجماع الطرق والأبواب التي يصاب منها القلب وجنوده أربعة ، فمن ضبطها وعدلها وأصلح مجاريها وصرفها في محالها اللائقة بها استفاد منها قلبه وجوارحه ، ولم يشمت به عدوه : وهي الحرص ، والشهوة ، والغضب ، والحسد . فهذه الأربعة هي أصول مجامع طرق الشر والخير ، وكما هي طرق الى العذاب السرمدي ، فهي طرق الى النعيم الأبدي . فآدم أبو البشر صلى الله عليه وسلم أخرج من الجنة بالحرص ، ثم أدخل اليها بالحرص . ولكن فرق بين حرصه الأول وحرصه الثاني . وأبو الجن أخرج منها بالحسد ، ثم لم يوفق لمنافسة وحسد يعيده إليها ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا حسد

إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا وسلَّطه على هدَّكته في الحق ،
ورجل آتاه الله القرآن ، فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار (١) »
وأما الغضب فهو غول العقل ، يغتاله كما يغتال الذئب الشاة ،
وأعظم ما يفترسه الشيطان عند غضبه وشهوته . وإذا كان حرصه إنما
هو على ما ينفعه ، وحسده منافسة في الخير ، وغضبه لله على أعدائه ،
وشهوته مستعملة فيما أيسر له وعوناً له على ما أمر به ، لم تضره
هذه الأربعة بل انتفع بها أعظم الانتفاع .

فصل (١٤٢)

وإذا تأملت حال القلب مع الملك والشيطان رأيت أعجب
العجائب ، فهذا يلمُّ به مرة ، وهذا يلمُّ به مرة ، فإذا أَلَمَّ به الملك حدث
من كَلَمته الانفساح ، والانشراح ، والنور ، والرحمة ، والاحلاص ،
والانابة ، ومحبة الله ، وايثاره على ماسواه ، وقصر الأمل ، والتجافي
عن دار البلاء ، والامتحان ، والغرور . فلو دامت له تلك الحالة
لكان في أنها عيش وأذه وأطيبه . ولكن تأتيه لمة الشيطان ،
فتحدث له من الضيق ، والظلمة ، والهم ، والغم ، والخوف ،
والسخط على المقدور ، والشك في الحق ، والحرص على الدنيا

(١) رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود . والحديث يطلق ويراد
منه تمنى زوال النعمة عن المحسود . وهذا حرام . ويطلق ويراد منه
الغبطة وهي تمنى مثل الذي له . وهذا لا بأس به ، وهو المراد هنا

وعاجلها ، والغفلة عن الله - ماهو من أعظم عذاب القلب .
ثم للناس في هذه المحنة مراتب لا يحصيها إلا الله : فمنهم من
تكون لمة الملك أغلب من لمة الشيطان وأقوى . فاذا ألم به الشيطان
وجد من الألم والضيق ، والحصر ، وسوء الحال بحسب ما عنده
من حياة القلب ، فيبادر إلى طرد تلك اللمة ولا يدعها تستحكم
فيصعب تداركها . فهو دائماً في حرب بين اللمتين ، يدال له مرة ،
ويدال عليه مرة أخرى . والعاقبة للتقوى .

ومنهم من تكون لمة الشيطان أغلب عليه وأقوى ، فلا تزال
تغلب لمة الملك حتى تستحكم ويصير الحكم لها ، فيموت القلب ،
ولا يحس ماناله الشيطان به ، مع أنه في غاية العذاب والضيق
والحصر ، ولكن سكر الشهوة والغفلة حجب عنه الاحساس
بذلك الألم . فاذا كشف أمكنه تداركه بالدواء ، وحسمه ، وان عاد
الغطاء عاد الأمر كما كان ، حتى ينكشف عنه وقت المفارقة للدنيا ،
فتظهر حينئذ تلك الآلام والهموم والغموم والاحزان ، وهى لم
تتجدد له ، وإنما كانت كامنة توارىها الشواغل . فلما زالت الشواغل
ظهر ما كان كامناً وتجدد له أضعافه .

(١٤٣) فصل

والشيطان يُلم بالقلب لما كان هناك من جواذب تجذبه ، وهى
نوعان : صفات ، وإرادات . فاذا كانت الجواذب صفات قوى

سلطانه هناك ، واستفحل أمره ، ووجد موطناً ومقرّاً ، فتأتى
الأذى كار والدعوات والتعوذات كحديث النفس ، لا تدفع سلطان
الشیطان . لأن مركبه صفة لازمة . فاذا قلع العبد تلك الصفات
وعمل على التطهر منها والاغتسال ، بقى للشیطان بالقلب خطرات
ووساوس وكلمات من غير استقرار . وذلك يضعفه ، ويقوى لمة
المملك . فتأتى الأذى كار ، والدعوات والتعوذات ، فتدفعه بأسهل شيء
وإذا أردت لذلك مثالا مطابقاً : فمثل كلب جائع شديد
الجوع ، وبينك وبينه لحم أو خبز ، وهو يتأملك ويراك لا تقاومه
وهو أقرب منك . فأنت تزجره ، وتصيح عليه ، وهو يأبى إلا
التحوم عليك ، والغارة على ما بين يديك . فالأذى كار بمنزلة الصياح
عليه والزجر له . ولكن معلومه ومراده عندك ، وقد قربته عليك
فاذا لم يكن بين يديك شيء يصلح له وقد تأملك فراآك أقوى منه
فانك تزجره وتصيح عليه فيذهب . وكذلك القلب الخالى عن قوة
الشیطان ينزجر بمجرد الذكر .

وأما القلب الذى فيه تلك الصفات التى هى مركبه وموطنه ، فيقع
الذكر فى حواشيه وجوانبه ، ولا يقوى على اخراج العدو منه . ومصدق
ذلك تجده فى الصلاة ، فتأمل فى الحال وانظر هل تخرج الصلاة
بأذكارها وقراءتها الشیطان من قلبك ، وتفرغه كله لله تعالى بكليته
وتقيمه بين یدى ربه مقبلاً بكليته عليه ، يصلى لله تعالى ، كأنه

يراه ، قد اجتمع همه كله على الله ، وصار ذكره ومراقبته ومحبته
والأنس به في محل الخواطر والوساوس أم لا ؟ والله المستعان
وههنا نكتة ينبغي التفطن لها ، وهي ان القلوب الممتلئة بالأخلاق
الرديئة . فالعبادات ، والأذكار والتعوذات ، أدوية لتلك الأخلاق
كما يشير الدواء أخلاط البدن . فان لم يكن قبل الدواء وبعده حمية
لم يزد الدواء على إثارته ، وإن أزال منه شيئاً ما . فمدار الأمر على
شيئين : الحمية ، واستعمال الأدوية

(١٤٤) فصل

وأول ما يطرق القلب الخطرة ، فان دفعها استراح بما بعدها ،
وإن لم يدفعها قويت فصارت وسوسة ، فكان دفعها أصعب . فان
بادر ودفعها ، وإلا قويت ، وصارت شهوة . فان عاجلها ، وإلا
صارت ارادة ، فان عاجلها والاصارت عزيمة . ومتى وصلت الى هذه الحال
لم يمكن دفعها ، واقترن بها الفعل ولا بد . وما يقدر عليه مرة بدون
مقدماته . وحينئذ ينتقل العلاج الى أقوى الأدوية ، وهو الاستفراغ
التام بالتوبة النصوح . ولا ريب أن دفع مبادئ هذا الداء من أوله
أيسر وأهون من استفراغه بعد حصوله - ان ساعد القدر وأعان
التوفيق ، وان الدفع أولى به . وإن تأملت النفس بمفارقة المحبوب ،
فليوازن بين فوات هذا المحبوب الأخس المنقطع النكد المشوب
بالآلام والهموم ، وبين فوات المحبوب الأعظم الدائم الذي لانسبة

لهذا المحبوب إليه ألبته لا في قدره ، ولا في بقاءه . وليوازن بين ألم فوته وبين
 ألم فوت المحبوب الاخس ، وليوازن بين لذة الانابة والاقبال على الله
 تعالى ، والتنعيم بحبه ، وذكره ، وطاعته ، ولذة الاقبال على الرذائل ،
 والانتان والقبائح . وليوازن بين لذة الظفر بالذنب ، ولذة الظفر بالعدو ،
 وبين لذة الذنب ، ولذة العفة ، ولذة الذنب ، ولذة القوة ، وقهر
 العدو ، وبين لذة الذنب ، ولذة ارغام عنوه ، ورده خاسئا ذليلا .
 وبين لذة الذنب ولذة الطاعة التي تحول بينه وبين مراده وبين فوت
 مراده وفوت ثناء الله تعالى وملائكته عليه ، وفوت حسن جزائه
 وجزيل ثوابه ، وبين فرحة إدراكه وفرحة تركه لله تعالى عاجلا ،
 وفرحة ما يثنيه عليه في دنياه وآخرته . والله المستعان

وهذا فصل جره الكلام في قوله تعالى (وفي أنفسكم أفلا
 تبصرون) أشرنا اليه اشارة . ولو استقصيناه لاستدعى عدة أسفار ،
 ولكن فيما ذكرناه تنبيه على ما تركناه . وبالله التوفيق

فصل (١٤٥)

ولنرجع الى المقصود . ثم قال الله تعالى (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ
 وَمَا تُوعَدُونَ) أما الرزق ففسر بالمطر ، وفسر بالجنة ، وفسر برزق
 الدنيا والآخرة . ولا ريب أن المطر من الرحمة ، وان الجنة مستقر
 الرحمة . فرزق الدارين في السماء التي هي في العلو . وقوله تعالى :

(وماتوعدون) قال عطاء رضى الله عنه : من الثواب والعقاب . وقال الكلبي : من الخير والشر . وقال مجاهد : من الجنة والنار . وقال ابن سيرين : من أمر الساعة

قلت : كون الجنة والخير فى السماء فلا اشكال فيه ، وكون النار فى السماء وما يوعد به أهلها يحتاج الى تبيين ، فاذا نظرت الى أسباب الخير والشر ، وأسباب دخول الجنة والنار ، واقتراق الناس ، وانقسامهم الى شقي وسعيد ، وجدت ذلك كله بقضاء الله وقدره ، النازل من السماء . وذلك كله مثبت فى السماء فى صحف الملائكة ، وفى اللوح المحفوظ ، قبل العمل وبعده . فالامر كله من السماء . وقول من قال : من أمر الساعة : يكشف عن هذا المعنى فان أمر الساعة يأتى من السماء ، وهو الموعد بها . فالجنة والنار الغاية التى لأجلها قامت الساعة . فصح كل ما قال السلف فى ذلك . والله أعلم

(١٤٦) فصل

ثم أقسم سبحانه أعظم قسم بأعظم مقسم به ، على أجل مقسم عليه وأكد الأخبار بهذا القسم ، ثم أكد بتشييه بالامر المحقق الذى لا يشك فيه ذو حاسة سليمة . فقال : (فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلِ مَا أَنْكُمْ تَنْطِقُونَ) قال ابن عباس رضى الله عنهما : يريد إنه لحق واقع ، كما أنكم تنطقون . وقال الفراء : إنه لحق كما أن

الآدمي ناطق ، وقال الزجاج : هذا كما تقول في الكلام : إن هذا
الحق كما أنك ههنا

قلت : وفي الحديث « إنه لحق كما أنك ههنا » فشبّه سبحانه تحقيق
ما أخبر به بتحقيق نطق الآدمي ووجوده . والواحد منا يعرف أنه ناطق
ضرورة ، ولا يحتاج نطقه الى استدلال على وجوده ، ولا يخالجه
شك في أنه ناطق . فكذلك ما أخبر الله عنه من أمر التوحيد ،
والنبوة ، والمعاد ، وأسمائه ، وصفاته حق ثابت في نفس الأمر ،
يشبه بثبوت نطقكم ووجوده . وهذا باب يعرفه الناس في كلامهم .
يقول أحدهم : هذا حق مثل الشمس . وأفصح الشاعر عن هذا
بقوله :

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار الى دليل
وههنا أمر ينبغي التفتن له ، وهو أن الرب تعالى شهد بصحة
ما أخبر به ، وهو أصدق الصادقين ، وأقسم عليه ، وهو أبر المقسمين
واكدّه بتشديده بالواقع الذي لا يقبل الشك بوجه . وأقام عليه
من الأدلة العينية والبرهانية ما جعله معانينا مشاهدا بالبصائر ، وان
لم يعاين بالابصار . ومع ذلك فأكثر النفوس في غفلة عنه ، لا تستعد
له ، ولا تأخذ له أهبة ، والمستعد له الآخذ له أهبة لا يعطيه حقه
منهم الا الفرد بعد الفرد ، فأكثر الخلق لا ينظرون في المراد من
إيجادهم وإخراجهم الى هذه الدار ، ولا يتفكرون في قلة مقامهم

في دار الغرور ، ولا في رحيلهم وانتقالهم عنها ، ولا الى أين يرحلون ؟
 وأين يستقرون ؟ قد ملكهم الحس ، وقل نصيبهم من العقل ،
 وشملتهم الغفلة ، وغرتهم الاماني التي هي كالسراب ، وخدعهم طول
 الامل ، وكان المقيم لا يرحل ، وكان أحدهم لا يبعث ولا يسئل ،
 وكان مع كل مقيم توقيع من الله : لفلان ابن فلان بالامان من عذابه ،
 والفوز بجزيل ثوابه . فأما اللذات الحسية والشهوات النفسية كيفما
 حصلت فانهم حصلوها ، ومن أى وجه لاحت أخذوها ، غافلين عن
 المطالبة ، آمنين من العاقبة . يسعون لما يدركون . ويتركون ما هم به
 مطالبون . ويعمرون ما هم عنه منتقلون . ويخربون ما هم اليه صائرون .
 وهم عن الآخرة هم غافلون . ألهتهم شهوات نفوسهم فلا ينظرون
 في مصالحها . ولا يأخذون في جمع زادها في سفرها (٥٩ : ١٩)
 نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) والعجب كل
 العجب من غفلة من تعد عليه لحظاته ، وتحصى عليه أنفاسه ، ومطايا الليل
 والنهار تسرع به ، ولا يتفكر الى أين يحمل ، ولا الى أى منزل ينقل ؟
 وكيف تنام العين وهي قريرة * ولم تدر في أى المحلين تنزل ؟
 وإذا نزل بأحدهم الموت قلق لخراب ذاته ، وذهاب لذاته ، لا
 لما سبق من جنائياته ، ولا لسوء منقلبه بعد مماته . فان خطرت على
 أحدهم خطرة من ذلك اعتمد العفو أو الرحمة ، وكان يتيقن أن ذلك
 نصيبه ولا بد . فلو أن العاقل أحضر ذهنه ما استحضر عقله ، وسار

بفكره، وأمعن النظر، وتأمل الآيات، لفهم المراد من إيجاده، ولنظرت عين الراحل إلى الطريق، ولا أخذ المسافر في التزود، والمريض في التداوى، والحازم ما يجوز أن يأتي. فما الظن بأمر متيقن، كما أنه لصدق إيمانهم وقوة إيقانهم، وكأنهم يعاينون الأمر، فأضحت ربوع الايمان من أهلها خالية، ومعاله على عروشها خاوية. قال ابن وهب: أخبرني مسلم بن علي، عن الاوزاعي، قال: كان السلف اذا طلع الفجر أو قبله كأنما على رؤسهم الطير مقبلين على أنفسهم، حتى لو أن حبيبا لأحدهم غاب عنه جينا ثم قدم لما التفت اليه. فلا يزالون كذلك الى طلوع الشمس. ثم يقوم بعضهم إلى بعض. فيتخلفون بأول ما يقتضون فيه أمر معادهم، وما هم صائرون اليه. ثم يأخذون في الفقه.

(١٤٧) فصل

ومن ذلك قوله تعالى: (٥٠: ١) ق والقرآن المجيد ٢ بل عجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم فقال الكافرون هذا شيءٌ عجيبٌ (الصحيح أن ق، ون، وص، بمنزلة حم. وألم. وطس: تلك حروف مفرد وهذه متعددة. وقد تقدمت الإشارة الى بعض ما فيها قبل

وهنا قد اتحد المقسم به والمقسم عليه وهو القرآن، فأقسم بالقرآن على ثبوته وصدقه، وأنه حق من عنده. ولذلك حذف الجواب ولم يصرح به، لما في القسم من الدلالة عليه، ولأن المقصود نفس المقسم به

كما تقدم بيانه ، ثم أخذ سبحانه في بيان عجب الكفار من غير عجب ، بل بما لا ينبغي أن يقع سواء ، كما قال سبحانه (١٠ : ١) أَلَمْ تَلِكْ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ٢ أَمْ كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ) فأى عجب من هذا حتى يقول الكافرون (إِنَّ هَذَا أَسْحَرُ مُبِينٌ) ؟ وكيف يتعجب من رحمة الخالق عباده ، وهدايته ، وانعامه عليهم بتعريفهم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بطريق الخير والشر وما هم صائرون اليه بعد الموت ، وأمرهم ونهيهم ، حتى يقابل ذلك بالتعجب ، ونسبة ما جاء به الى السحر ، لولا غاية الجهل والظلم ، وإن العجب كل العجب قو لهم وتكذيبهم كما قال تعالى (١٣ : ٥) وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ)

(١٤٨) فصل

ومن ذلك (٤٣ : ١ حم والكتاب المبين) وقوله (٣٨ : ١ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ) وقوله (٣٦ : ١ يس والقرآن الحكيم ٣ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) والصحيح أن يس بمنزلة حم وآم ، ليست أسما من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم وأقسم سبحانه بكتابه على صدق رسوله ، وصحة نبوته ورسالته فتأمل قدر المقسم به والمقسم عليه . وقوله تعالى (على صراطٍ مستقيم)

هو جوز فيه ثلاثة : أن يكون خبرا بعد خبر ، فأخبر عنه بأنه رسوله وأنه على صراط مستقيم . وأن يكون متعلقا بالخبر نفسه تعلق المعمول بعامله أي أرسلتك على صراط . وهذا يحتاج الى بيان تقدير : المجمعون على صراط مستقيم ، وكونه من المرسلين مستلزم لذلك فاستغنى عن ذكره .

(١٤٩) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (والصافات صفاً) أقسم سبحانه بملائكته الصافات للعبودية بين يديه ، كما قال النبي ﷺ لأصحابه « أَلَا تَصْفُونَ كَمَا تَصِفُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا ؟ تَتَمَوَّنُ الصُّفُوفَ الْأُولَى ، وَتَرَاصُونَ فِي الصَّفِّ » وكما قالوا عن أنفسهم (٣٧ : ١٦٥) وإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (والملائكة الصافات أجنحتها في الهواء . والزاجرات الملائكة التي تزجر السحاب وغيره بأمر الله ، (فالتاليات) التي تتلو لكلام الله . وقيل : الصافات الطير : كما قال تعالى (٦٧ : ١٩) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَرَّقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ) وقال تعالى (٢٤ : ٤١) وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ (والزاجرات الآيات والكلمات الزاجرات عن معاصي الله ، والتاليات الجامعات لكتاب الله تعالى . وقيل : الصافات للقتال في سبيله ، فالزجرات الخيل للحمل على أعدائه ، فالتاليات الذاكرين له عند ملاقة عدوهم . وقيل : الجامعات الصافات أيديها في الصلاة ، الزاجرات أنفسها عن معاصي الله . فالتاليات

آياته . واللفظ يحتمل ذلك كله ، وإن كان أحق من دخل فيه وأولى الملائكة . فان الاقسام كالدليل والآية على صحة ما أقسم عليه من التوحيد ، وما ذكر من غير الملائكة فهو من آثار الملائكة ، وبواسطتها كان

وأقسم سبحانه بذلك على توحيد ربوبيته وإلهيته ، وقرر توحيد ربوبيته . فقال (إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ . رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ) من أعظم الأدلة على انه إله واحد . ولو كان معه إله آخر لكان الاله مشاركا له في ربوبيته ، كما شاركه في إلهيته . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . وهذه قاعدة القرآن يقرر توحيد الالهية بتوحيد الربوبية ، فيقرر كونه معبودا واحده بكونه خالقا رازقا واحده . وخص المشارق ههنا بالذكر اما لدلالاتها على المغارب ، إذ الأمر ان المتضايقان كل منهما يستلزم الآخر ، وإما لكون المشارق مطلع الكواكب ومظاهر الأنوار . وإما توطئة لما ذكر بعدها من تزيين السماء بزينة الكواكب ، وجعلها حفظا من كل شيطان . فذكر المشارق أنسب بهذا المعنى وأليق . والله تعالى أعلم

(١٥٠) فصل

ومن ذلك قوله في قصة لوط عليه السلام ، ومراجعته قومه له (١٥ : ٧٠) قالوا أَوَلَمْ نُنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ؟ ٧١ قال هُوَ لَاءِ بَنَاتِي إِنْ

كُنْتُمْ قَاعِلِينَ ٧٢ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) أَكْثَرُ
المفسرين من السلف والخلف - بل لا يعرف عن السلف فيه نزاعاً ، أن
هذا قسم من الله بحياة رسوله صلى الله عليه وسلم . وهذا من أعظم
فضائله أن يقسم الرب عز وجل حياته . وهذه مزية لا تعرف لغيره .
ولم يوافق الزمخشري على ذلك ، فصرف القسم الى أنه بحياة لوط
. وانه من قول الملائكة ، فقال : هو على ارادة القول ، أى قالت
الملائكة لوط عليه الصلاة والسلام : لعمر ك : انهم لفي سكرتهم
يعمehون . وليس فى اللفظ ما يدل على واحد من الامرين ، بل ظاهر
اللفظ وسياقه إنما يدل على ما فهمه السلف لا أهل التعطيل والاعتزال .
قال ابن عباس رضى الله عنهما : لعمر ك ، أى وحياتك ، قال : وما
أقسم الله تعالى بحياة نبي غيره . والعمر والعمر واحد . إلا أنهم
خصوا القسم بالفتوح لاثبات الأخف ، لكثرة دوران الحلف
على ألسنتهم . وأيضاً فإن العمر حياة مخصوصة . فهو عمر شريف
عظيم أهل أن يقسم به ، لمزيته على كل عمر من أعمار بنى آدم . ولا
ريب أن عمره وحياته صلى الله عليه وسلم من أعظم النعم والآيات
فهو أهل أن يقسم به . والقسم به أولى من القسم بغيره من المخلوقات (١)

(١) هذا إنما هو فى قسم الله تعالى به ، لا فى قسم الخلق وحلقهم
به صلى الله عليه وسلم وبغيره من المخلوقات . فان هذا من أعظم المحرمات
فى الحديث المتفق عليه عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع

وقوله تعالى (يعمهون) أى يتحيرون . وانما وصف الله سبحانه اللوصية بالسكره ، لان سكره العشق مثل سكره الخمره ، كما قال القائل :
سكران : سكرهوى ، وسكر مدامه * ومتى إفاقة من به سكران ؟

(١٥١) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (٤ : ٦٥) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) أقسم سبحانه بنفسه المقدسه قسما مؤكدا بالنفى قبله على عدم إيمان الخلق حتى يحكموا رسوله فى كل ما شجر بينهم من الأصول والفروع واحكام الشرع واحكام المعاد وسائر الصفات وغيرها ، ولم يثبت لهم الايمان بمجرد هذا التحكيم حتى ينتفى عنهم الحرج ، وهو ضيق الصدر ، وتنشرح صدورهم لحكمه كل الانشراح وتنفسح له كل الانفساح ، وتقبله كل القبول . ولم يثبت لهم الايمان

عمر وهو يحلف بأبيه ، فقال « إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم . فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت » وفى رواية للترمذى أن ابن عمر سمع رجلا يقول : لا والله الكعبة : فقال : لا تحلف بغير الله ، فأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من حلف بغير الله فقد كفر وأشرك » قال الترمذى : حسن . وصححه الحاكم . وورد مثل هذا عن ابن مسعود وقال ابن مسعود : لأن أحلف بالله كاذبا أحب الى من أن أحلف بغيره صادقا

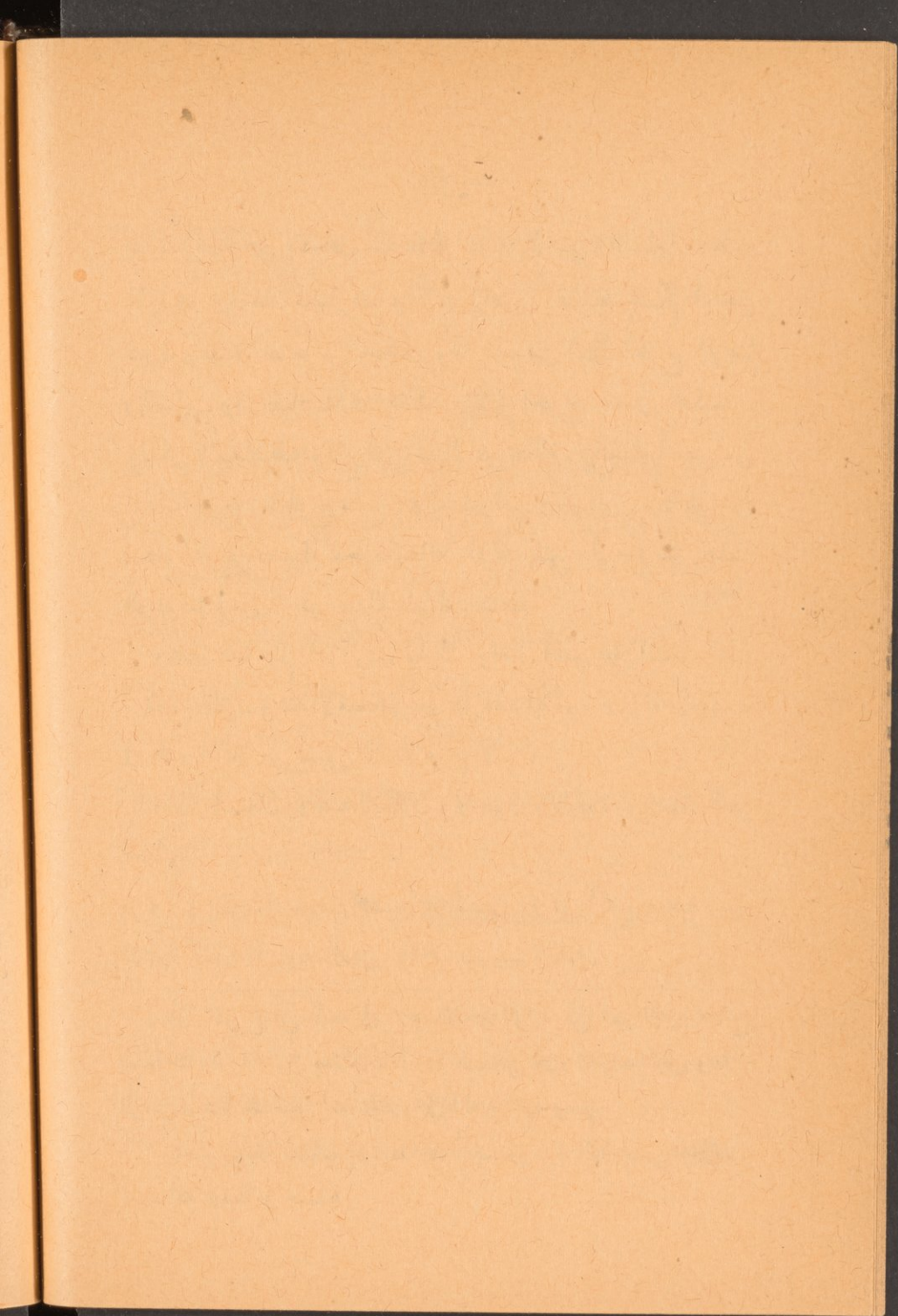
بذلك أيضا حتى ينضاف اليه مقابلة حكمه بالرضى والتسليم ، وعدم المنازعة وانتفاء المعارضة والاعتراض . فهنا قد يحكم الرجل غيره وعنده حرج من حكمه ، ولا يلزم من انتفاء الحرج الرضا والتسليم . والانتفاء اذ قد يحكمه وينتفى الحرج عنه في تحكيمه ، ولكن لا ينقاد قلبه ولا يرضى كل الرضى بحكمه . والتسليم أخص من انتفاء الحرج . فالحرج مانع ، والتسليم أمر وجودى ، ولا يلزم من انتفاء الحرج حصوله بمجرد انتفائه . اذ قد ينتفى الحرج ويبقى القلب فارغا منه ومن الرضى به والتسليم له . فتأمل

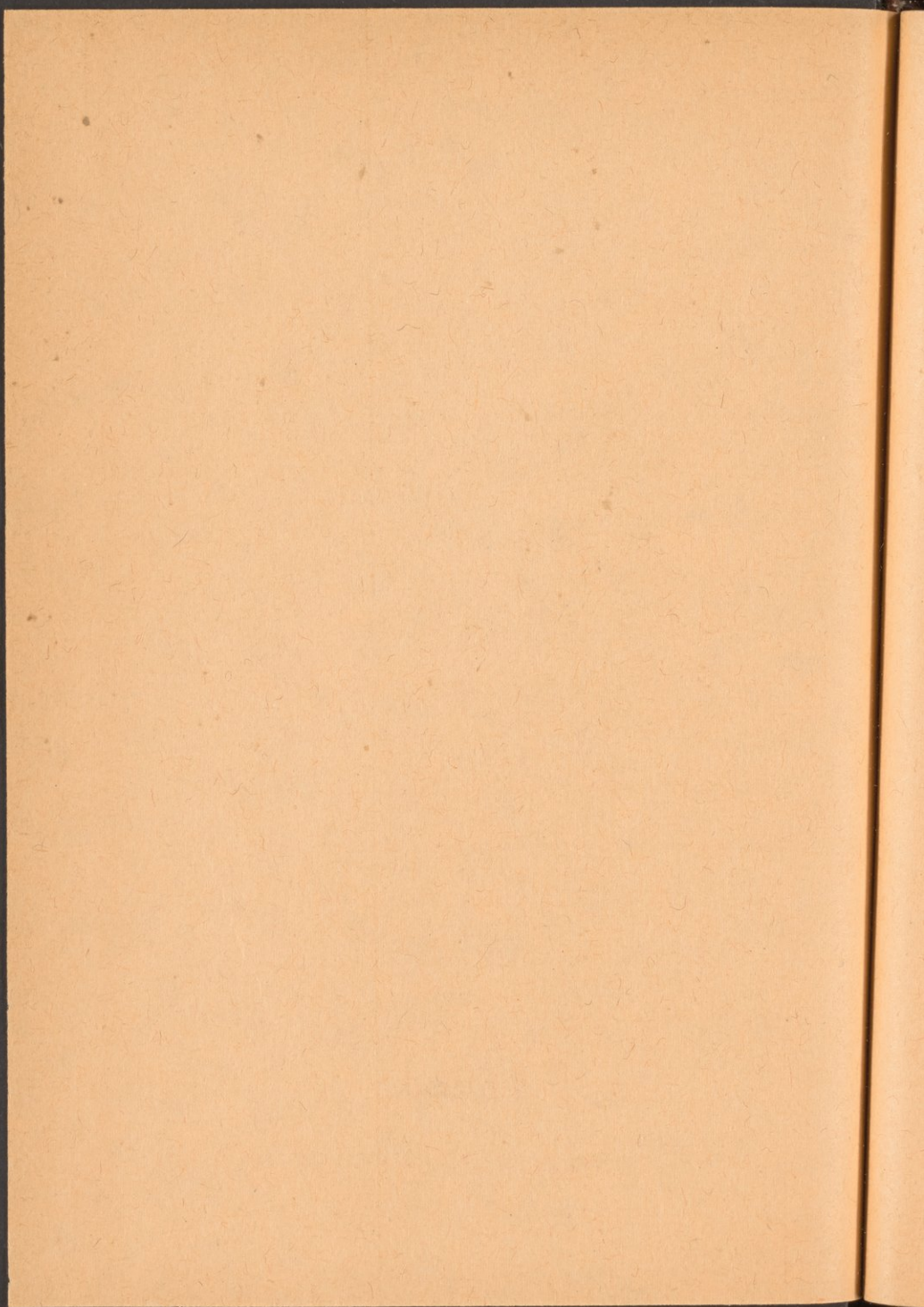
وعند هذا يعلم أن الرب تبارك وتعالى أقسم على انتفاء إيمان أكثر الخلق . وعند الامتحان تعلم هل هذه الأمور الثلاثة موجودة في قلب أكثر من يدعى الاسلام أم لا ؟

والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

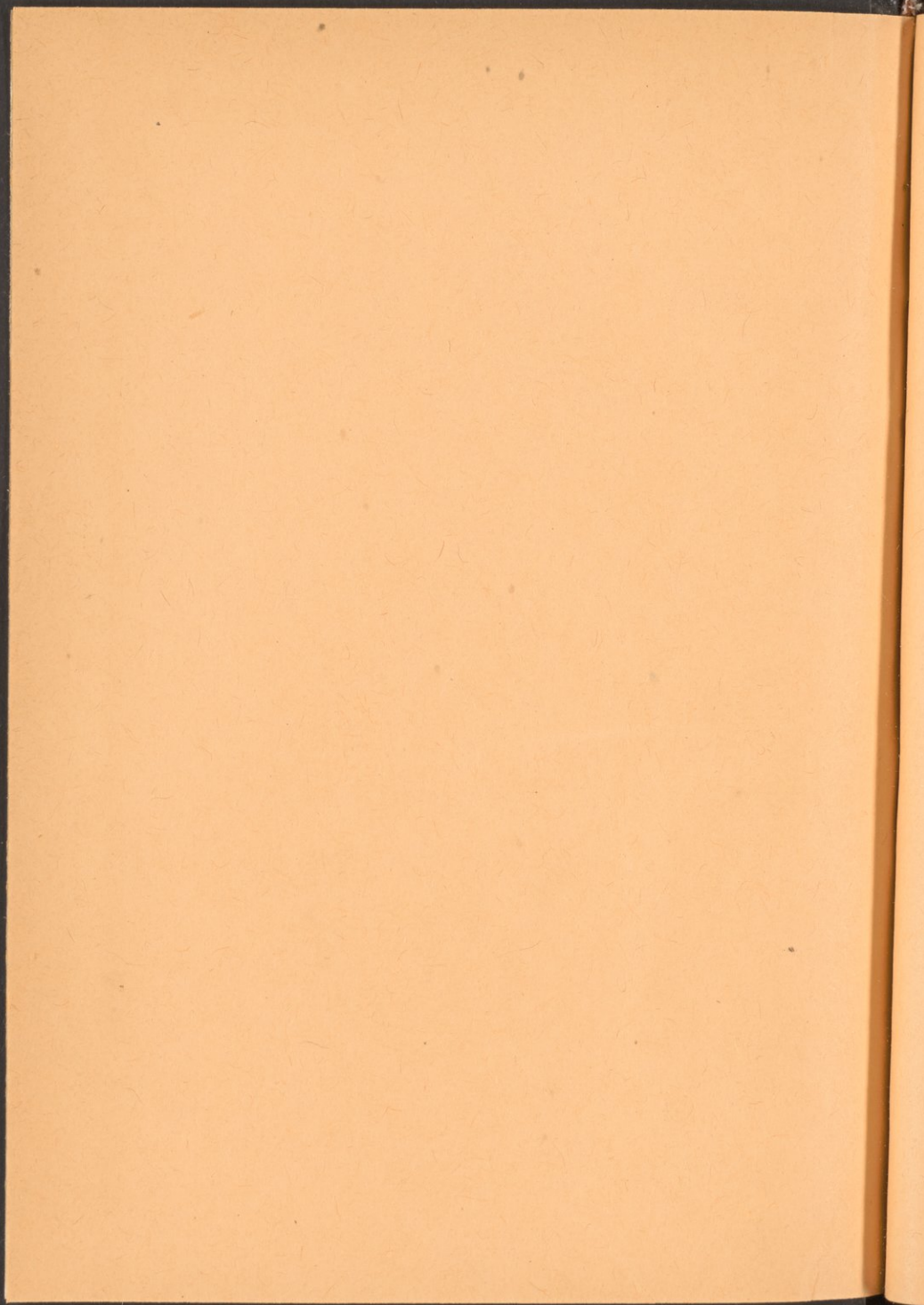
وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين . وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين . والحمد لله رب العالمين

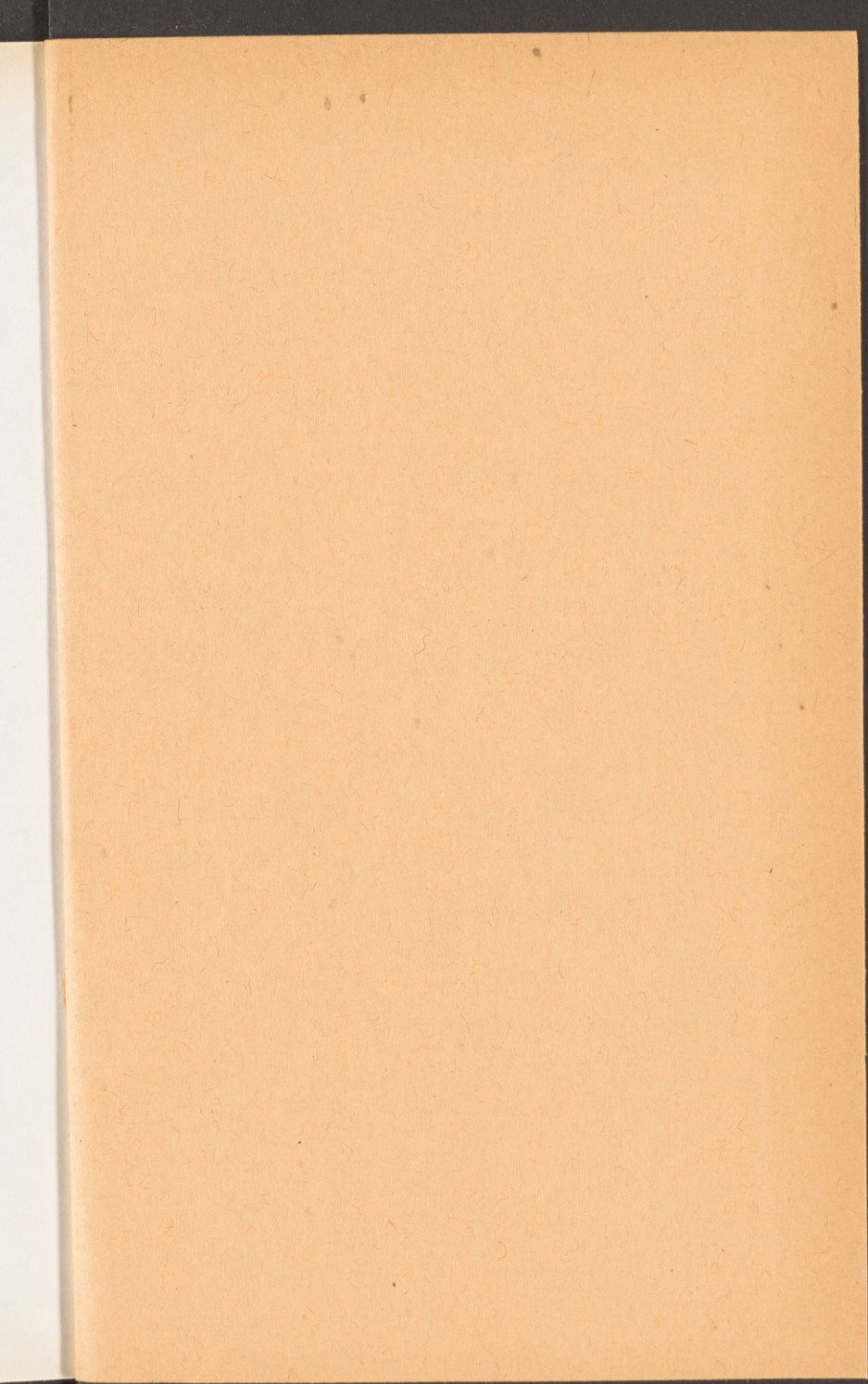
وكان الفراغ من طبعه في يوم الاحد الرابع من شهر المحرم مفتتح السنة الثانية والخمسين بعد ثمانمائة والالف من هجرة أشرف الخلق وخاتم الرسل سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وذلك بمطبعة الشاب النشيط محمد أفندى عبد اللطيف حجازى .
زاده الله توفيقا واحسانا

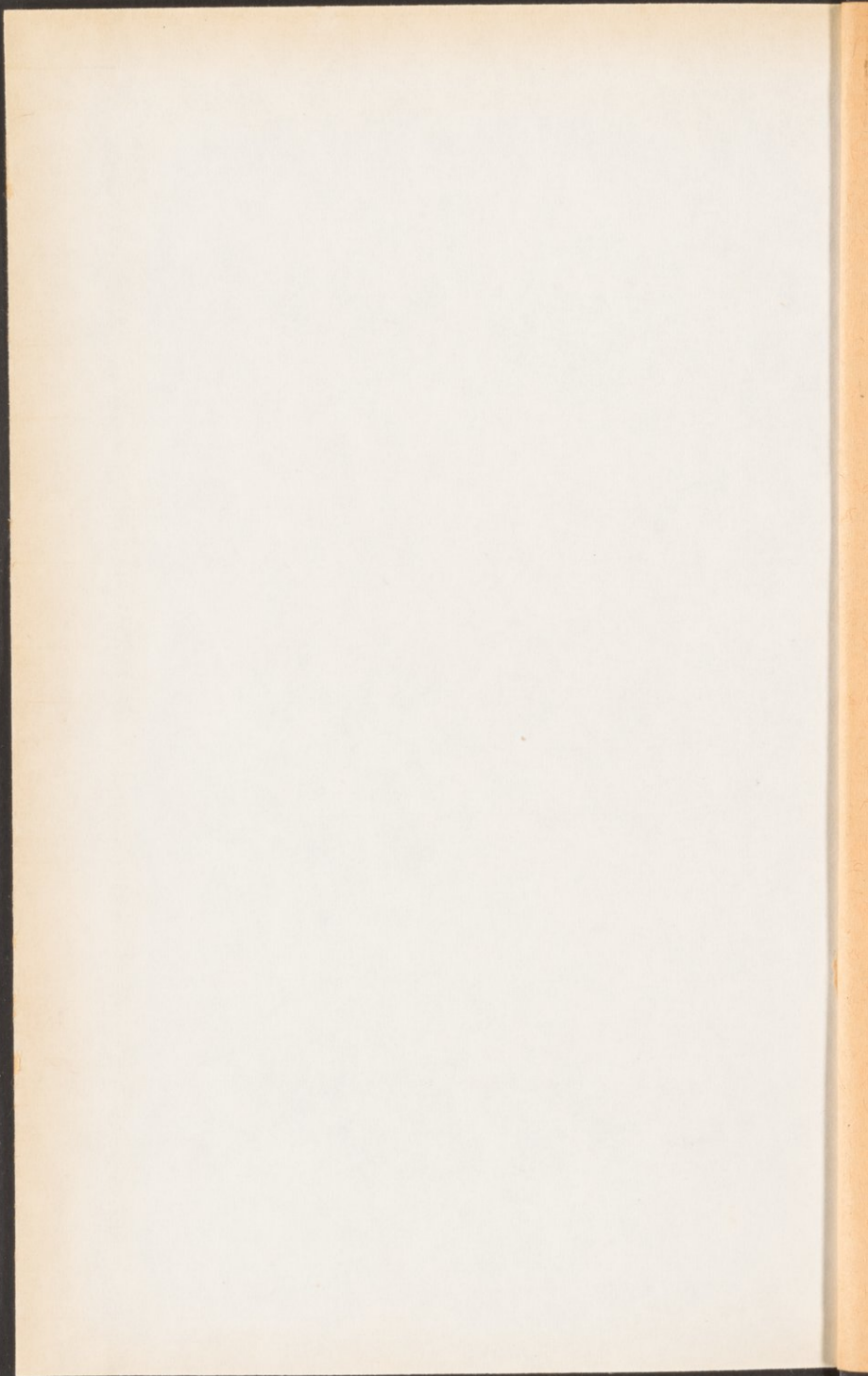


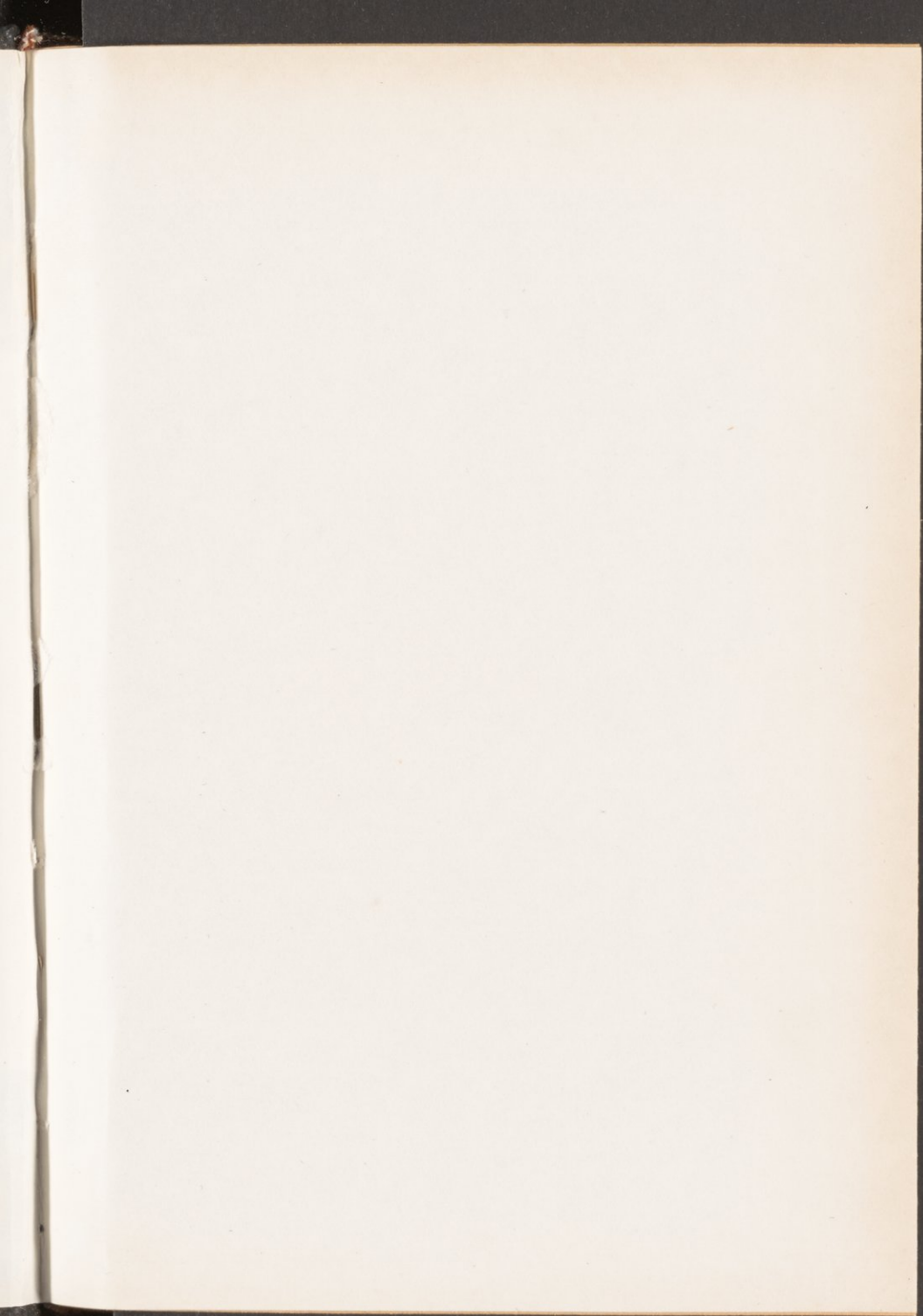














Elmer Holmes
Bobst Library
New York
University

NYU - BOBST



31142 02172 9283

BP130.4 .I285 1933 Tibyan fi aqşam al-Quran



NYU

BOBST LIBRARY
OFFSITE